كرسي القرآن الكريم وعلومه
Chair of Qur'anic Sciences

الإصدار الثاني والعشرون

خصائص الأسلوب القرآني

تأليف
د. أبي بكر بن محمد فوزي البخيت
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

كرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود

مخفض السعر

ح كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البخيت، أبو بكر محمد فوزي
خصائص الأسلوب القرآني. / أبو بكر محمد فوزي البخيت.- الرياض، ١٤٣٦هـ
٥٩٠ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٥ - ٦ - ٩٠٦٢١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - بلاغة ٢ - القرآن - إعجاز ٣ - القرآن - مباحث عامة أ. العنوان
ديوي ٢٢٥ ١٤٣٦/١٠٣٨

جميع حقوق الطبع محفوظة
لكرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ

يهتم الكرسي بنشر البحوث المتميزة والجادة
في التفسير وعلومه تحقيقا ودراسة

جامعة الملك سعود - كلية التربية
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٦٧٤٧٤٤ - ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرياض ١١٣٢٢
بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa - الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair
تويتر: @quranchair

منافذ البيع
الرياض: ٤٤٥٦٢٢٩ / ٠١١ - مكة المكرمة: ٠١٢/٥٧٦١٣٧٧ - المدينة النبوية: ٠١٤/٨٤٦٧٩٩٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ كرسِيِّ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَعُلُومِهِ

البحث في أسرار إعجاز القرآن الكريم لا يكاد ينتهي، والباحثون يشاركون في خدمة هذا الباب من العِلم بقدر اجتهادهم، وما رزقهم الله من البصيرة والعلم، ويأتي الحديث في هذا البحث عن (خصائص الأسلوب القرآني) ضمن هذا السياق، حيث يقصد الباحث بهذه الخصائص تلك «السماتِ التي انفرد بها القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، وبيان المعاني وأغراضها» وهذه الخصائص تناولها العلماء في كتب التفسير والبلاغة والنحو وغيرها بعبارات متفرقة، بل إنك ربما تجدُ في كتب التراجِم والسير والتاريخ حديثًا عن تلك الخصائص بعبارات وجيزة مُعبِّرة، وقد جاء هذا البحث ليجمع هذه الخصائص في كتابٍ واحدٍ، ويرتِّبَ الكلام عن هذه الخصائص بحيث يطلع القارئ على أبرز خصائص الأسلوب القرآني وكلام العلماء بمختلِف تخصصاتهم عنها، مع تعليقات واستنباطات للباحث في مواضع كثيرة من هذا البحث.

إن إدراك حقيقة إعجاز القرآن الكريم تحتاج إلى التعمق في دراسة هذه الخصائص التي انفرد بها دون سائر الكتب السماوية قبلَه، والألوانِ الأدبية المعاصرة له، والباحثُ في القرآن الكريم وعلومه محتاجٌ إلى

التفقُّه في دراستها ومعرفتها، بل إن الباحث في كل العلوم الشرعية محتاج إلى ذلك. وقد وُفق الباحث في جمعه لهذه الخصائص ودراستها، وقد خرَج من خلال هذا البحث بنتائج علمية موفقة، ومقترحات لبحوث علمية نافعة لو تصدى لها طلابُ الدراسات العليا بالدراسة والبحث.

وقد رغبنا في كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود في نشر هذه الرسالة العلمية القيمة؛ إفادة للباحثين، وخدمة للمكتبة القرآنية المعاصرة في جانب دراسات إعجاز القرآن وبيان أسراره، ونسأل الله لهذا البحث القبول، وللباحث السداد والتوفيق.

أ.د. عبدُ الرحمن بن مُعاضة الشهري

المشرف على الكرسي

تقديم

بقلم
أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي
المشرف على الرسالة

الحمد لله وليِّ النعم والصلاة والسلام على من بعثه ربُّه بجوامع الكلم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ارتقوا بالقرآن سفوحَ القمم، وصاروا به في صدارة الأمم، وعلى أتباعِه، ومن تبعهم بالإحسان وبذل الهمم.

وبَعْدُ: فيطيبُ لي أن أقدِّم لهذه الرسالة القيِّمة «خصائص الأسلوب القرآني» تلبيةً لرغبة صاحبها فضيلة الشيخ الدكتور أبي بكر بن محمد فوزي البخيت، وهو أخ كريمٌ وباحثٌ ماهرٌ، شَرُفت بصحبته مشرفا على رسالته منذ اجتماعنا الأول لمدارسة فكرتها، وحتى أثمرت وأينعت وطاب جناها.

سنوات عديدة مضت ولقاؤنا الأسبوعي يتجدَّد في مسجد الرسول ﷺ، نستلهم من هذا المقام الذي شهد نزولَ الوحي الخواطرَ والأفكارَ، تتغشانا الروعة والجلال، وتغمرنا السكينة، ونحن نتدارس ونتحاور ونتذوق حلاوة القرآن، ونتأمل في روائع أساليبه التي تفرَّد بها عن سائر الكلام، فالقرآن وإن نزل بلغة العرب وفقًا لأساليبهم في الكلام وأفانينهم في القول، لكنه يتميز بهذا الأسلوب الفريد، فلا يضارعه كلمٌ ولا يدانيه وإنْ كان عربيًا في كلماته وعباراته، حتى تأثَّر به أساطين البيان

وأرباب الفصاحة من العرب الذين برعوا في الكلام وفاقوا في النظم غيرَهم من الأمم حتى كان للشعر أسواقُه وحلَباتُه التي يتبارى فيها الشعراء بعذب القصيد سعيا للمجدِ والثناء الجميل.

ونزل القرآن فملك من أول وهلةٍ ناصية البيان، وشهد لفصاحته وبيانه الفصحاء والبُلغاء، وخضعت لجلال روعته وسلطان حجته عقولُ الحكماء، فكان له تأثيره العجيب ليس بمعانيه فحسب بل بأسلوبه، ولا غرو فهو كلامُ رب العالمين وتنزيل أحكم الحاكمين، ولا أدلّ على ذلك من موقف الجن حين سمعه نفر منهم فآمنوا به، وشهدوا لجلال مقاصده وثراء معانيه وجمال تعبيره وكان وصفُهم البليغ بأنه عَجَبٌ، ولك أن تستحضر عندئذ عجائب هذا العالم المفعم بالغرائب والطرائف، وكيف يصفون القرآن هذا ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

وُفِّق الباحث الكريم في تحقيق أهداف بحثه فأبرز لنا خصائص الأسلوب القرآني وجلّى لنا وجوها من إعجازه وفنونا من بلاغته، تحدث عن حسنه وروعته، عن عمقه ودقته، عن تصريفه وتفننه، عن سموه وجلاله، عن واقعيته وصدقه، عن تناسبه وتشابهه، عن شمول خطابه وقوة تأثيره.

وفتح باحثُنا للقارئ آفاقا رحيبةً في تذوق كلام الله والوقوف على أساليبه العجيبة، وجمعت دراسته بين التأصيل والتمثيل، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين الدقة والموضوعية، وبين العمق والشمول.

وختامًا: فقد جَهِد الباحث في جمع ودراسة الكتب التي تناولت أسلوب القرآن، إلى جانب تدبره لآياته، فخرج لنا بهذا الجهد المشكور، والذي نال إعجاب مناقشيه واقترح فضيلة الدكتور محمد الربيعة أن

يتضمن قرار اللجنة توصيةً بطبع الكتاب وتداوله من فَرطِ إعجابه بهذا البحث الجامع، وبادر القسم لترشيح هذا العمل لنيل الجوائز العلمية، فاللهَ أسأل للبحث والباحث القبول والسداد.

كتبه

أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية سابقًا

والأستاذ بجامعة الأزهر. مصر ١٤٣٦/٢/٩هـ

* * *

المُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن كتاب الله ﷻ هو الحجة البالغة والمعجزة الخالدة أنزله الله على قوم تربعوا على عرش الفصاحة والبيان، لكنهم ترددوا في مهاوي الشرك والطغيان، وسقطوا في حضيض الجاهلية؛ فعبدوا الأوثان وشربوا الخمر ووأدوا البنات، وساد الظلم فيهم وشاع الفساد وعمّت الفوضى.

وفي خضم هذه الظلمات أشرق فجر الإسلام وبزغ نور القرآن فانبهرت له الأبصار واستنارت بقبسه البصائر، وأقر ببلاغته البلغاء، وسلّم لفصاحته الأدباء.

جاء القرآن بأسلوب فريد أخّاذ، يقيم الحجج ويدحض الشُّبهات، ويجلّي الحقائق ويقرر المعاني، أسلوب انقشعت أمامه سحائب الشكّ وتبددت ظلمات الكفر وانكشفت حُجُب الضلال، وتجلّى نور الإيمان.

هذا الأسلوب حريٌّ بالنَّظر والتَّأمُّل؛ لإدراك وجوه إعجازه وروعته، والتعرف على لطائف بلاغته، ومعرفة خصائصه التي انفرد بها عن سائر الكلام، والوقوف على كلام جهابذة البلاغة وأساطين البيان حول هذا الأسلوب الذي تحدى الله به العرب ـ وهم أرباب فصاحة وبيان ـ أن

يأتوا بمثله أو بسورة منه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقد بيّن الله خصائصه في كثير من الآيات ففي تصريف الآيات قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وفي التناسب وعدم الاختلاف قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وفي إحكامه وتفصيله قال: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وفي تأثيره قال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿...إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»(١)، وإذا تأملت في وصف

(١) ورد هذا الأثر مرفوعًا والصحيح وقفه كما قال ابن كثير: «قصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح». انظر: فضائل القرآن (ص٤٦).

علي ﷺ تجد في هذه الأوصاف جملة من الخصائص التي انفرد بها أسلوب القرآن، فهو أسلوب محكم رصين يتسم بثراء المعاني وتجددها دون تناقض بينها، فضلًا عن أسلوبه الممتع الذي لا يمل منه القارئ وعجائبه التي لا تنقضي.

ولقد شهد لهذا الأسلوب أعداء الإسلام - والفضل ما شهدت به الأعداء - فقد قال عنه الوليد بن المغيرة: «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر»(١).

وقد حاول بعض الفلاسفة والأدباء أن يعارضوا أسلوب القرآن فعجزوا، بل أدركوا عظمته وتفرده، ومن ذلك ما حُكِي أن أصحاب أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي(٢) قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج فقال: «والله ما أقدر عليه ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت، فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلًا عامًا ثم استثنى استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في أجلاد»(٣).

ولقد أدرك العلماء في شتى العصور أهمية دراسة أساليب القرآن

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة عن حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة مرسلًا ثم قال: «وهذا فيما رواه يوسف بن يعقوب القاضي عن سليمان بن حرب عن حماد هكذا مرسلًا، وكذلك رواه معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة مرسلًا، ورواه أيضًا معتمر بن سليمان عن أبيه فذكره أتم من ذلك مرسلًا، وكل ذلك يؤكد بعضه بعضًا». الدلائل (٢/ ١٩٩).

(٢) يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف، من ولد الأشعث بن قيس أمير العرب، وكان متهمًا في دينه، بخيلًا، ساقط المروءة، توفي نحو (٢٦٠هـ). (انظر: الفهرست، لابن النديم ١/ ٣١٥).

(٣) المحرر الوجيز، لابن عطية (٢/ ٢٣٣).

والعناية بها، وقد بيّن الزركشي[١] رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأهمية حين قال: «هو علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرق من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين ما أودع من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما تضمنه في الحلاوة، وجلله في رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها»[٢].

ويُطلِعنا الجرجاني[٣] على أهمية إدراك الخصائص فيقول: «إنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسًا ما، وأن تصفها وصفًا مجملًا، وتقول فيها قولًا مرسلًا، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئًا شيئًا، وتكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإِبْرَيْسَم[٤] الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل جرة من الآجر الذي في البناء البديع»[٥].

---

(١) هو: مُحَمَّد بن عبد الله بن بهادر الزَّرْكَشِيّ الْموصِلِي الشَّافِعِي بدر الدين، ولد سنة (٧٤٥هـ)، وله تصانيف كَثِيرَة فِي عدَّة فنون، وَمنها: «شرح البُخَارِيّ»، و«البرهان فِي عُلُوم الْقُرْآن»، وَ«تَفْسِير الْقُرْآن الْعَظِيم»، وصل إِلَى «سُورَة مَرْيَم»، توفي سنة (٧٩٤هـ). (انظر: طبقات المفسرين، للأدنه وي ص٣٠٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢/ ٣٨٢).

(٣) هو: عبد القاهر بن عبد الرحمٰن الجرجاني، فارسي الأصل، إمام في اللغة والبلاغة، تخرج على أبي الحسين بن عبد الوارث الفارسي، له شرح الإيضاح في النحو، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة في المعاني، توفي بجرجان سنة (٤٧٢هـ). (انظر: إشارة التعيين في ترجمة النحاة واللغويين لعبد الباقي اليماني ص١٨٨).

(٤) هو: نوع من أجود انواع الحرير. (انظر: المعجم الوسيط ١/ ٢).

(٥) دلائل الإعجاز، للجرجاني (ص٣٧).

وها هو الشيخ الزرقاني(١) يطوِّف بنا إلى ما تضمنه أسلوب القرآن من ثراء للمعنى ووفاء بحاجات البشر فيقول: «نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختيارًا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال منذ نزل القرآن إلى اليوم، فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحًا في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر، فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعًا لحاجات الجميع، وافيًا تجارب الجميع ملائمًا لأذواق الجميع، متفقًا ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة على أنه كلام الله وحده، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا»(٢).

من هنا يتبين أهمية دراسة خصائص الأسلوب القرآني، تلك الخصائص التي عُنِيَ بها العلماء قديمًا وحديثًا، بيد أنها مبثوثةٌ في ثنايا رسائلهم، ومنثورة بين فصول كتبهم ومأثورة في أقوالهم، ولم أجد بعد البحث والسؤال من أفرد لهذا الموضوع دراسة مستقلة أو جمعه في مؤلف خاص، وبعد أن أجلت النظر في هذه الكتب واستشرت بعض المشايخ المتخصصين في التفسير والدراسات القرآنية، استخرت المولى ﷻ وصح العزم مني على الكتابة في هذا الموضوع في رسالتي العالمية العالية (الدكتوراه)، وسميته:

«خصائص الأسلوب القرآني»

---

(١) هو: محمد عبد العظيم الزرقاني: من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسًا لعلوم القرآن والحديث، وتوفي بالقاهرة سنة (١٣٦٧هـ). (انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢١٠).

(٢) مناهل العرفان، للزرقاني (٢/ ٣٠٨).

أسباب اختيار الموضوع

١ ـ شرفه لتعلقه بكتاب الله ﷻ.

٢ ـ أهمية الموضوع، لما له من تعلق بإعجاز القرآن وبلاغته، ولما يُبرِزه من جوانب عظمة القرآن وعوامل تأثيره في النفوس.

٣ ـ هذا الموضوع يعد من المواضيع التأصيلية إذ يعتبر ثمرة دراسة الأساليب القرآنية ونسبته لأسلوب القرآن كنسبة علم المقاصد للشريعة.

٤ ـ هذا الموضوع يسهم في رد الشبهات التي تثار حول أسلوب القرآن الكريم مما يذكر في تفاوت أسلوبه أو اختصاصه بفترة معينة وغيرها من الشبهات.

٥ ـ يفتح هذا الموضوع المجال واسعًا لتدبر كتاب الله جل وعلا والتأمل في آياته.

٦ ـ تتيح دراسة هذا الموضوع الرجوع إلى مراجع كثيرة في كتب التفسير وعلوم القرآن وكتب إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية.

٧ ـ كما تسهم هذه الدراسة في التعرف على طريقة المفسرين في الإفادة من خصائص أسلوب القرآن في تفاسيرهم.

❁ ❁ ❁

أهداف البحث

١ ـ الوقوف على خصائص الأسلوب القرآني ودراستها دراسة نظرية وتطبيقية.

٢ ـ إبراز وجوه إعجاز القرآن في أساليبه.

٣ ـ بيان التناسب بين أساليب القرآن وبين مقاصده ومعانيه.

٤ ـ رصد شبهات أعداء الإسلام حول أساليب القرآن وتفنيدها.

❁ ❁ ❁

الدراسات السابقة

ذكرتُ في مقدمة البحث أني لم أجد من درس هذا الموضوع دراسة مستقلة أو أفرده بالبحث والتأليف وإن كان هناك من تناوله بصورة موجزة، ومن هذه الكتب:

- كتب «إعجاز القرآن كإعجاز القرآن» للباقلاني، ودلائل الإعجاز للجرجاني والقول في بيان إعجاز القرآن للخطابي وغيرها، وأبرز ما تحدثت عنه هذه الكتب ما اختصَّ به القرآن من عجيب النظم، وعرضوا لكثير من وجوه البلاغة التي تدخل ضمنًا في خصائص أسلوب القرآن.

- كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزركشي، فقد ذكر في النوع السادس والأربعين: (في أساليب القرآن وفنونه) وعدّ فيها خمسة وأربعين أسلوبًا من أساليب القرآن امتاز في عرضها بالإحكام والجودة وذكر فيها من الفوائد والقواعد ما يفيد في هذا البحث.

- كتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز حيث أشار إلى هذا الموضوع فيما يقارب أربعين صفحة تكلم فيه عن ما احتواه أسلوب القرآن من الجمال وقصده باللفظ مع وفاء المعنى، وما اختصَّ به من شمول في خطابه للعامة والخاصة والعقل والعاطفة، وجمع بين الإجمال والبيان.

- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ذكر في المبحث السادس عشر: أسلوب القرآن الكريم، وذكر خصائص الأسلوب في نحو عشرين صفحة، وقد أفاد من كتاب النبأ العظيم وأضاف ما اختصَّ به أسلوب القرآن من جودة السبك، ومن براعته في تصريف القول، وجملة الخصائص التي عدها سبعة.

- كتاب «خصائص القرآن الكريم» للأستاذ الدكتور فهد الرومي حيث ذكر أسلوب القرآن كخصيصة من خصائصه ثم أشار إلى خصائص

أسلوب القرآن الكريم في نحو ثلاثين صفحة، وقد عدها عشر خصائص فزاد على ما ذكره الزرقاني: نظمه وتصوير المعاني، والتأثير بلا تأثر، مع تغيير في مسمى بعض الخصائص.

ـ «خصائص السور والآيات المدنية» لمؤلفه: عادل محمد أبو العلا قصد فيه المؤلف إلى دراسة الأحكام الكبرى التي شرعت في الفترة المدنية أشار في ثلاث صفحات من بداية بحثه إلى خصائص الأسلوب المدني، وهي ما ذكره أهل العلم في ضوابط السور المدنية وبالتالي فموضوع كتابه بعيد عما أنا بصدده.

ـ «خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية» للدكتور عبد العظيم المطعني رحمه الله وقد كانت رسالة دكتوراه تقدم بها لجامعة الأزهر سنة ١٩٧٤م، وبعد الاطلاع عليها تبيّن لي أن طريقة بنائه ومعالجته للموضوع، تختلف عما أقصده في هذه الدراسة، فقد بنى دراسته رحمه الله على دراسة الظواهر البلاغية وتحليل خصائص كل منها على حدة، مع مراعاة التقسيم البلاغي في معالجته (المعاني والبيان والبديع)، بينما دراستي تقوم على الخصائص العامة للأسلوب القرآني والتي أعتمد فيها على أن هذه الظواهر الأسلوبية تشترك في الدلالة على هذه الخصائص.

ـ «دراسات لأسلوب القرآن»، وهو من الكتب الموسوعية، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله، وهو مع عظيم نفعه لا يتعلق بموضوع بحثي إذ قَصد بهذا الكتاب: أن يكون معجمًا نحويًا وصرفيًا لدراسة الأسلوب التفصيلي في القرآن الكريم، وإبراز الشواهد القرآنية على المسائل اللغوية.

ـ «عادات القرآن الأسلوبية»، للدكتور: راشد بن حمود الثنيان، وهي رسالة علمية حصل بها الباحث على الدكتوراه، وناقشها أثناء كتابتي لهذه الرسالة، وعنوان الرسالة يبيّن الفرق بين الموضوعين إذ قصد

الباحث في رسالته معالجة ما كرره القرآن من أساليبه على طريقة واحدة أو أغلبية، لدلالة خاصة[١].

ـ «القرآن المجيد تنزيله وأسلوبه وأثره وجمعه وترتيبه» لمؤلفه: محمد عزة دروزة حيث عقد في الفصل الأول الحديث عن أسلوب القرآن ووحيه لكنه لم يتحدث عن خصائص الأسلوب.

❁ ❁ ❁

خطة البحث

وتشتمل خطة البحث على مقدمة وتمهيد وثمانية فصول وخاتمة وفهارس.

المقدمة، وتشتمل على:

أهمية الموضوع.

أسباب اختيار الموضوع.

أهداف الموضوع.

الدراسات السابقة.

خطة البحث.

منهج البحث.

التمهيد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف خصائص الأسلوب القرآني.

المبحث الثاني: فوائد دراسة خصائص الأسلوب القرآني.

الفصل الأول: إعجاز القرآن، ويتضمن خمسة مباحث:

المبحث الأول: عجز الخلائق عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه.

---

(١) انظر: عادات القرآن الأسلوبية (١/ ٣١).

المبحث الثاني: إعجاز القرآن في الحروف المقطعة.

المبحث الثالث: مباينة القرآن لأساليب العرب.

المبحث الرابع: علو فصاحة القرآن.

المبحث الخامس: حسن تأليف القرآن.

الفصل الثاني: تناسب القرآن وائتلافه، ويتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تناسب ألفاظ القرآن ومعانيه.

المبحث الثاني: التناسب بين السورة والسورة.

المبحث الثالث: التناسب في السورة الواحدة.

الفصل الثالث: تصريف القول في القرآن، ويتضمن ثمانية مباحث:

المبحث الأول: تصريف القول في الألفاظ والمعاني.

المبحث الثاني: تصريف القول في فواتح السور وخواتمها.

المبحث الثالث: تصريف القول في تذييل الآيات.

المبحث الرابع: تصريف القول في تقرير العقيدة.

المبحث الخامس: تصريف القول في تقرير الأحكام.

المبحث السادس: تصريف القول في الترغيب والترهيب.

المبحث السابع: تصريف القول في إيراد القصص.

المبحث الثامن: تصريف القول في إيراد الأمثال.

الفصل الرابع: بيان القرآن، ويتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: وضوح القرآن.

المبحث الثاني: دقة تعبير القرآن.

المبحث الثالث: جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

الفصل الخامس: ثراء معاني القرآن، ويتضمن ثمانية مباحث:

المبحث الأول: احتمال اللفظ لأكثر من معنى.

المبحث الثاني: احتمال السياق لأكثر من معنى.

المبحث الثالث: تعدد المعنى بتعدد القراءات.
المبحث الرابع: تعدد المعنى بحسب الوقوف.
المبحث الخامس: التكرار.
المبحث السادس: الترادف.
المبحث السابع: الإيجاز والإطناب.
المبحث الثامن: تجدد المعاني.

الفصل السادس: تأثير القرآن، ويتضمن ستة مباحث:

المبحث الأول: جلال القرآن وروعته.
المبحث الثاني: سموّ القرآن ورفعته.
المبحث الثالث: جمال القرآن.
المبحث الرابع: واقعية القرآن.
المبحث الخامس: صدق القرآن.
المبحث السادس: قوة حجة القرآن وإقناعه.

الفصل السابع: شمول خطاب القرآن، ويتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خطاب القرآن العقل والعاطفة.
المبحث الثاني: خطاب القرآن العامة والخاصة.
المبحث الثالث: خطاب القرآن الحس والوجدان.

الفصل الثامن: في الشبهات المثارة حول خصائص أسلوب القرآن والرد عليها، ويتضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول: فيمن زعم أن أسلوب القرآن غير معجز.
المبحث الثاني: فيمن زعم أن القرآن أسلوب محمد ﷺ، وتميزه راجع إلى تفوقه في البلاغة.
المبحث الثالث: فيمن زعم أن أسلوب القرآن قد حوى ألفاظًا مبتذلة.

المبحث الرابع: فيمن ادَّعى سوء التأليف وعدم الترابط في أسلوب القرآن.

الخاتمة، وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس(١):

ثبت المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

❁ ❁ ❁

منهج البحث

١ ـ جمع خصائص الأسلوب القرآني مما كتبه أهل العلم واعتمدت في ذلك على كتب إعجاز القرآن وعلومه وكتب البلاغة القرآنية، ومن تكلم عن خصائص أسلوب القرآن الكريم إضافة إلى بعض ما لاح لي من خلال التأمل والبحث في هذا الموضوع.

٢ ـ بيان المراد من كل فصل، ووجه كونه من خصائص الأسلوب القرآني مستدلًا على ذلك بكتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ، أو بما جاء عن أهل العلم في هذا الشأن.

٣ ـ بيان علاقة كل مبحث بالفصل الذي يندرج تحته، موضحًا ذلك بذكر الشواهد والأمثلة من القرآن الكريم.

٤ ـ عزو الآيات القرآنية بعد ذكرها مباشرة في أصل البحث، مع كتابتها بالرسم العثماني.

٥ ـ عزو الأحاديث النبوية إلى مصادرها من كتب السُّنَّة فما كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفي بذلك، وما كان في غيرهما من كتب السُّنَّة عزوته لمصدره مع ذكر كلام أهل العلم في بيان درجته.

---

(١) وقد اكتفيت بوضع فهارسٍ للمصادر والمراجع وفهرسٍ للموضوعات وذلك للاختصار.

٦ ـ توثيق الأقوال والنصوص من مصادرها.

٧ ـ التعريف الموجز بالأماكن والبلدان والفرق وكل ما يحتاج إلى تعريف.

٨ ـ الترجمة الموجزة للأعلام غير المشهورين.

٩ ـ توثيق الأبيات الشعرية منسوبة إلى قائليها من خلال دواوين الشعر وكتب اللغة.

١٠ ـ شرح الكلمات الغريبة، والمصطلحات العلمية.

١١ ـ ضبط ما يحتاج إلى ضبط، وتبيين ما يحتاج إلى بيان.

١٢ ـ وضع الفهارس اللازمة على النحو المبيّن في الخطة.

أسأل الله أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

* * *

شكر وتقدير

هذا وأشكر الله العلي القدير بمنه وفضله أن يسّر لي إتمام هذه الرسالة مع اعترافي بالعجز والتقصير، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان والله ورسوله منه بريئان.

ثم أشكر والداي الكريمين اللذين غرسا فيّ حب البحث والاطلاع، ونشّآني في طريق القرآن منذ الصغر، وتعاهداني بالدعاء لي بالتوفيق والنجاح، ولا زلت أتلمس دعاءهما في كل طريق أسلكه، فجزاهما الله عني خير الجزاء.

كما أشكر شيخي الكريم وأستاذي الذي أشرف على كتابتي لهذا البحث فضيلة الأستاذ الدكتور: أحمد بن محمد الشرقاوي، على صبره وبذله من وقته وعلمه وكرمه، وعلى ما قدمه لي من نصح وتوجيه، فأسأل الله أن يريه بركة ذلك في الدنيا والآخرة، وأن يبارك له في علمه وعمله وعمره.

وأتقدم بالشكر الجزيل للشيخين الكريمين والأستاذين الفاضلين اللذين تفضلا بقبول قراءة هذه الرسالة.

والشكر موصول للجامعة الإسلامية التي شرفت بالانتماء إليها وتلقي العلم فيها لما تميزت به من المنهج العذب الصافي المستمد من الكتاب والسُّنَّة، كما أشكر كلية القرآن الكريم وقسم التفسير وعلوم القرآن متمثلًا في مشايخه وأعضائه على ما أسدوه لي من نصح وتوجيه في هذا البحث.

وختامًا.. فإني أشكر زوجتي وأبنائي، وكل من أعانني في هذا البحث بفائدة أو توجيه أو مشورة.

* * *

تَمْهِيدٌ

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: تعريف خصائص الأسلوب القرآني.
- المبحث الثاني: فوائد دراسة خصائص الأسلوب القرآني.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

تعريف خصائص الأسلوب القرآني

يحسن الحديث في بداية البحث عن تعريف خصائص الأسلوب القرآني؛ لأنه يرسم معالم البحث، وتُفهم حدوده، وقبل الحديث عن تعريف خصائص الأسلوب القرآني تعريفًا مركبًا، يحسن تعريف مفردتَيْ (خصائص) و(الأسلوب) تعريفًا مفردًا.

تعريف خصائص:

أصل خصائص من: (خصَصَ) خصه بالشيء يخصه، وخصيصى وخصصه واختصه بمعنى: أفرده به دون غيره، ويقال: اختصَّ فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد.

والخصائص مفرد (خصيصة)، والمراد بها: الصفة التي تميّز الشيء وتحدده[(١)].

تعريف الأسلوب:

الأسلوب: السطر من النخيل، والطريق يأخذ فيه، وكل طريق ممتد فهو أسلوب والأسلوب: الوجه والمذهب، ويجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه: طريقته.

والأسلوب، بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٢٤)، المعجم الوسيط، مجموعة علماء (١/ ٢٣٨).

القول؛ أي: أفانين منه[١]، وقال ابن فارس[٢]: الأساليب: الطرق والفنون، وكل شيء امتد على غير امتناع فهو أسلوب[٣].

ولقد وردت تعريفات متعددة في بيان حد الأسلوب في العربية ومن ذلك:

أولًا: الأساليبُ: هي أجناس الكلام وطرقه[٤].

ثانيًا: الأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه[٥].

ثالثًا: الأسلوب: صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية، باعتبار انطباقها على تركيب خاص، تلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان، فيرصها فيه رصًا كما يفعل في القالب، أو النسَّاج في المنوال، حتّى يتّسع القالب بحصول التّراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصّورة الصّحيحة باعتبار ملكة اللّسان العربيّ فيه[٦].

رابعًا: الأسلوب: هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه[٧].

يتبيّن مما سبق أن الأسلوب في الكلام ينقسم إلى أقسام:

الأول: الأسلوب اللفظي: وهو العنصر اللفظي الذي يتألّف منه الكلام.

---

(١) **انظر**: لسان العرب (١/ ٤٧٣).

(٢) **هو**: أحمد بن فارس بن زكريا، وقيل: أحمد بن زكريا بن فارس، من أهل قزوين، وسكن الري وكان عالمًا بالنحو، له كتاب المجمل في اللغة وفقه اللغة وغيرها، توفي سنة (٣٩٥هـ). (**انظر**: إشارة التعيين في ترجمة النحاة واللغويين ص٤٣، معجم الأدباء، لياقوت الحموي ١/ ٤١١).

(٣) مجمل اللغة، لابن فارس (ص٤٧٠).

(٤) الصحاح، للجوهري (٦/ ٢١٧٧).

(٥) دلائل الإعجاز (ص٤٦٩).

(٦) مقدمة ابن خلدون (١/ ٧٨٦).

(٧) **انظر**: مناهل العرفان (٢/ ٣٠٣).

الثانـي: الأسلوب التركيبي: وهو تأليف الكلام، وانتقاء التراكيب.

الثالث: الأسلوب البياني: وهو ما يتخذه المتكلم من طرق عرض الكلام للإقناع والتأثير حسب أغراض الكلام؛ كاختيار المتكلم للأسلوب العلمي أو الأدبي وما شابه ذلك[١].

وعلى هذا فالمراد بـ «خصائص الأسلوب القرآني»: السّمات التي انفرد وتميّز بها القرآن الكريم في طريقة اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، وبيان المعاني وأغراضها.

وهذا ما سأتناوله في البحث إن شاء الله.

* * *

(١) وينظر في ذلك: الأسلوب، أحمد الشايب (ص٤٠ ـ ٤٥).

المَبْحَثُ ٱلثَّانِي

فوائد دراسة خصائص الأسلوب القرآني

دراسة خصائص الأسلوب القرآني لها فوائد كثيرة وغايات نبيلة وسأورد في هذا المبحث بإذن الله ما استخلصته منها:

١ ـ في دراسة خصائص الأسلوب القرآني بيان لعلوّ هذا الكتاب ورفعته، وحين أدرك العرب هذه الخصائص، لم يخفوا إعجابهم بالقرآن واستحسانهم، رغم مناصبة الكثير منهم العداء له والإعراض عنه.

ويبيّن د. درّاز هذا الوجه في رده على من يزعم أن القرآن هو أسلوب النبي ﷺ فيقول: «ونحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضربًا وحده، ونرى الأسلوب النبوي، فنراه ضربًا وحده، لا يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعودًا، ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضربًا واحدًا لا تعلو عن سطح الأرض، فمنها ما يحبو حبوًا، ومنها ما يشتد عدوًا، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه «السيارات» الأرضية إلى تلك «السيارات» السماوية!»[١].

ويؤكد ابن عاشور[٢] أثر دراسة الخصائص في إدراك علوّ هذا

---

(١) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز (ص١٢٨).

(٢) هو: محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ومن مؤلفاته: «مقاصد الشريعة الإسلامية وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام والتحرير والتنوير»، توفي عام (١٣٩٣هـ). (الأعلام ٦/ ١٧٤).

الكتاب وإعجازه فيقول: «من شاء أن يدرك الإعجاز كما أدركه العرب فما عليه إلا أن يشتغل بتعلم اللغة وأدبها وخصائصها حتى يساوي أو يقارب العرب في ذوق لغتهم ثم ينظر بعد ذلك في نسبة القرآن من كلام بلغائهم ولم يخل عصر من فئة اضطلعت بفهم البلاغة العربية وأدركت إعجاز القرآن وهم علماء البلاغة وأدب العربية الصحيح»[١].

٢ ـ أنها تحول دون أن تحمل بعض أساليب القرآن على غير محملها الصحيح.

وذلك أن دراسة هذه الخصائص يبرز سمات هذا الأسلوب ومظاهره وما يتميّز به عن غيره، ومعرفة ذلك تمنع بإذن الله أن تحمل بعض الأساليب الحادثة على أنها من أسلوب القرآن، كما أنه من الخطأ المنهجي تطبيق هذه الأساليب الحادثة في اللغة والمنطق ومحاكمتها إلى أسلوب القرآن، فكثيرًا ما يصطلح العلماء على ضوابط تعين في ضبط العلوم وتأطيرها، فيقوم بعض المشتغلين بالقرآن وعلومه ويتكلف في حمل بعض الأساليب ـ مع كونها حادثة ـ على أسلوب القرآن، وذلك لعدم إدراكه خصائص أسلوب القرآن.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥] حيث حُمِل السؤال على أنه غير مطابق للجواب عند بعض العلماء[٢]، حيث ورد الاستفهام بـ [ما] التي يستفهم بها عن الجنس، والجواب بيان لمن يُنفَق عليه لا لما يُنفَق، ثم خرّجوا ذلك على أسلوب الحكيم، بما اصطلح عليه أهل المنطق، والصحيح أن أسلوب الاستفهام

(١) التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور (١/ ٣٤٩).

(٢) ومنهم السكاكي في مفتاح العلوم (ص٣٢٧)، والقزويني في الإيضاح (٢/ ٩٥)، وأشار إليها الزركشي في البرهان (٤/ ٤٣).

يشمل الأمرين جميعًا، وفي ذلك يقول ابن عاشور: «ولا يريبكم في هذا أن السؤال هنا وقع بما وهي يسأل بها عن الجنس لا عن العوارض، فإن ذلك اصطلاح منطقي لتقريب ما ترجموه من تقسيمات مبنية على اللغة اليونانية، وذلك لا يشهد له الاستعمال العربي»(١).

٣ ـ أنها تفيد في تقعيد القواعد المتعلقة بالتفسير، بحيث تكون هذه القواعد دائرة في فلك الخصائص ومدللة عليها، إذ القواعد مبنية على فهم هذه الأساليب وخصائصها.

فقول شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر، وإما معدوم وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه»(٣) تعتبر بمثابة القاعدة، وهي إدراك منه رَحِمَهُ اللهُ لما اختصَّ به أسلوب القرآن من الدقة المتناهية.

٤ ـ أنها تعين على فهمٍ أشمل لمعاني القرآن الكريم ومقاصده.

فحين يكون المشتغلٌ بفهم كلام الله على دراية بما يشتمل عليه أسلوب القرآن من خصائص، يدرك من المعاني ما لا يدركه من لا علم له بها.

ومعرفة ما اختصَّ به أسلوب القرآن من ثراء المعاني تجعل القارئ يقف في اللفظة الواحدة على كثير من المعاني، قد لا يدركها غيره، ولذا قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا»(٤)،

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٨/٢).

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله الحراني الدمشقي الحنبلي، شيخ الإسلام أبو العباس، تقي الدين ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، مات معتقلًا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته سنة (٧٢٨هـ). (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر١/ ٤٦، ٤٧).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٤١).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب من قال: اعملوا بالقرآن، برقم (٣٠١٦٣) (٦/ ١٤٢).

وقل مثل ذلك في إدراك خصائص نظمه وحسن تأليفه، فإنه يؤثر في إدراك المعاني الكلية والمقاصد القرآنية.

ومن الشواهد على ذلك ما ذكره محمد رشيد رضا[(١)] عند قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] حيث قال: «وقد جاء الأمر بالمحافظة على الصلوات في أثناء هذه الأحكام ـ والصلاة عماد الدين ـ للعناية بها، فمن حافظ على الصلوات كان جديرًا بالوقوف عند حدود الله تعالى والعمل بشريعته، وقد خطر لي وجه آخر هو الذي يطرد في أسلوب القرآن الخاص في مزج مقاصد القرآن بعضها ببعض، من عقائد، وحكم ومواعظ، وأحكام تعبدية ومدنية[(٢)]، وغيرها، وهو نفي السآمة عن القارئ، والسامع من طول النوع الواحد منها وتجديد نشاطهما وفهمهما، واعتبارهما في الصلاة وغيرها»[(٣)].

٥ ـ أنها تفيد القارئ والكاتب في تهذيب فكره، ورقيّ أسلوبه.

فالدارس لأسلوب القرآن الكريم وما اختصَّ به من سمو الألفاظ وجمال التعبير لا شك أن ذلك يؤثر على فكره وطريقة تعبيره، وتحسّن أسلوبه، فقد اطرد أسلوب القرآن في عدم نسبة الشر إلى الله تعالى وذلك في مثل قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠] وقوله عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، أو التكنية عما يستحى من ذكره، مع

---

(١) هو: محمد رشيد رضا الحسيني، ولد سنة (١٢٨٢هـ)، أحد رجال الإصلاح الإسلامي، ولد في القلمون وتعلم فيها وفي طرابلس، ثم رحل إلى مصر ولازم الشيخ محمد عبده، من أشهر آثاره: مجلة المنار وتفسير القرآن الكريم ولم يكمله، (ت١٣٥٤هـ). (انظر: الأعلام للزركلي ٦/١٢٦).

(٢) يقصد بالأحكام المدنية أحكام المعاملات والأحوال الشخصية ونحوها.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا (٢/٣٥٣).

ما يتضمنه من جمال المعنى كقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ومن الأمثلة كذلك ما ذكره الشعراوي[1] عند قوله تعالى: «﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤] حيث قال: «وقول الحق ﷻ: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم. ولقد قال الحق ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال: «الله ورسوله من فضلهما»، ولكنه قال: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ لأن الله لا يُثنَّى مع أحد، ولو كان محمَّد بن عبد الله، فإن كان لرسول الله ﷺ فضل؛ فهو من فضل الله، وعلى أية حال فالله لا يُثنَّى معه أحد؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] وهنا نرى أيضًا أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد في الرضا؛ لأن رضا الله ﷻ ورضا رسوله ﷺ يتحدان، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثنَّى معه أحد»[2].

٦ ـ أنها تفتح للدارسين بابًا في معرفة واستخراج الأساليب التي انفرد بها القرآن الكريم.

فإن اختصاص القرآن الكريم بهذا الأسلوب يحمل في طياته من الصور والتراكيب والتعبير واختيار الألفاظ، إضافة مهمة للغة العربية التي كان القرآن سببًا من أسباب خلودها، وقد أشار إلى ذلك د. محمد أبو موسى حيث قال في معرض حديثه عن دراسة التراكيب وما يمكن أن

---

(١) هو: محمد متولي الشعراوي ولد سنة (١٩١١م) بمحافظة الدقهلية بمصر، وحفظ القرآن الكريم في العاشرة، عمل بالتدريس وتقلد عدة مناصب ثم عُين وزيرًا للأوقاف، وخرج منها في سنة (١٩٧٨م)، ثم تفرغ للدعوة بعد ذلك، توفي يوم ١٧ من أبريل عام (١٩٩٨م). (انظر ترجمته في: ملتقى أهل الحديث: http://q9r.me/2tnp).

(٢) تفسير الشعراوي (٩/ ٥٣٤٣).

يضيفه أسلوب القرآن: «ومثل ذلك أسلوب القرآن، فإنه على كثرة ما كُتب فيه لم يتحدد لنا بوضوح ما نهجه للغة من طرق، وما فتق لها من أساليب البيان وصور التراكيب، وهذا درس صعب جدًّا، ولكنه ضروري في تاريخ التراكيب، ورصد نمو الأساليب ويجد فيه النابهون من طلاب العلم، ومحبيه مجالًا فسيحًا لجهود صادقة»[١].

وكما أنها تفيد في إضافة بعض التراكيب وأساليب البيان، فهي تفيد في الوقوف على وجه مباينة القرآن لغيره من الأساليب واختصاصه بالبلاغة المطلقة.

٧ ـ أنها تقطع السبيل أمام المشككين في إعجاز القرآن ومثيري الشّبه حول صدقه وأنه من عند الله.

فبيان هذه الخصائص ودراستها تقطع الطريق حول من يزعم أن في القرآن تناقضًا أو اضطرابًا أو غيرها من المزاعم التي يدّعونها[٢].

٨ ـ أنها مهمة جدًّا للمشتغلين بترجمة معاني القرآن الكريم إلى غير اللغة العربية.

فخصائص الأسلوب القرآني من الضوابط التي تضبط بها الترجمة، وذلك أن أسلوب القرآن وخصائصه مباين لأساليب العرب، فكيف إذا أردنا ترجمته لغير العربية التي لها من سمات التعبير وتراكيب الكلام ما يختلف عن الأسلوب العربي فضلًا عن أسلوب القرآن، ولذا فإن أي ترجمة للمعاني تُفسد نظم القرآن وترابطه ومعانيه ومقاصده فإنها تُردّ، وعليه فإن لزامًا على المشتغلين بالترجمة العناية بدراسة هذه الخصائص لأنها تفيدهم كثيرًا في طريقة الترجمة وكيفيتها.

---

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد أبو موسى (ص١٢٠).

(٢) وقد أفردت فصلًا في الرد على الشبه المثارة حول أسلوب القرآن.

ويبيّن الشيخ محمد رشيد رضا خطر الترجمة لمن لم يكن له علم بالأساليب وخصائصها فيقول في معرض حديثه عن ما اختصَّ به أسلوب القرآن من نظمه وتأثيره: «إنني بعد كتابة ما ذكر تذكرت أن عند بعض معارفي ترجمة تركية للقرآن فاستعرتها منه فإذا هي ترجمة جميل بن سعيد(١)، وإذا فيها من النقص والحذف والخطأ فوق ما كنت أظن، ويُظَنُّ أنه أخذها من الترجمة الفرنسية؛ لأنه هو لا يعرف العربية، وهذه جرأة قبيحة لا تصدر عن رجل يؤمن بالله وكتابه ورسوله، وتدل على سوء نية هؤلاء الناس في الترجمة، وكون غرضهم منها العبث بدين الإسلام وتنفير الترك منه. وفتح أبواب الطعن لهم فيه، وقد راجعنا فيها ما ذكرنا من أسماء يوم القيامة فوجدناه يذكر ألفاظها العربية ويفسرها بيوم القيامة. وأما كنايات الوقاع فحذف منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، واكتفى بكلمة بما يدل على الحمل.

وترجم الملامسة بما معناه: «وإذا وجدتم بالمناسبات الجنسية مع النساء فتنظفوا» وفيه ما فيه، وأما الحرث فترجمه بكلمة «تارلا» وهي الأرض المعدة لزرع الحبوب دون المشجرة، ومن المعلوم أن الكناية تجامع الحقيقة، فإحلال الرفث إلى النساء في ليالي رمضان يدل بمفهومه على حظر الرفث بالقول على الصائم، وهو المعنى الحقيقي للكلمة كما يدل على تحريم الفعل المكنى عنه. والترجمة التركية لا تفيد الدلالتين»(٢).

٩ ـ أنها نافعة جدًّا في الدعوة إلى الله ﷻ.

فالداعية الذي يريد صلاح الناس إنما يقتفي أسلوب القرآن وطريقته في الدعوة إلى الله وذلك أن أسلوب القرآن بما اختصَّ به من التصريف

---

(١) جميل سعيد بك حفيد كمال باشا ناظر المعارف الأسبق، أحد المترجمين الأتراك الذين ترجموا القرآن. (انظر: تفسير المنار ٢/ ٣٠١).

(٢) المصدر نفسه (٩/ ٢٩٨).

والتأثير والبيان والوضوح والشمول، قلب طباع الناس وخالف به أهوائهم، فكذلك الداعية إلى الله الذي يرجو نفع الناس والتأثير فيهم يجب أن يكون على علم بهذه الخصائص في الاستشهاد بالآيات، أو بيان معانيها حسب ما يقتضيه الزمان والمكان.

وحسبك في بيان هذه الفائدة بما ذكره ابن الأثير(١) متحدثًا عن أدوات البيان فذكر أثر معرفة هذه الخصائص لمن يريد البيان الشافي فقال: «ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتّخذه بحرًا يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي كلامه، كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام؛ فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته؛ فإنه تجارة لن تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يرجع إليه، وذخر يعوّل عليه»(٢)، ولا شك أن الداعية إلى الله من أحرص الناس على ذلك.

١٠ ـ أن الاشتغال بها يطلِعك على كثير من مقاصد الكلام، ويغني عن كثير من علوم المتفلسفة.

فأسلوب القرآن الكريم بما احتوى من بديع التراكيب، وتنوع التصاريف، وثراء المعاني يغني الدارس له في تحصيل هذه المعاني والانتفاع بها، ما يجعله يقنع بما يجد ولا ينشغل بغيرها، وحسبك فيما قاله أبو حيان التوحيدي(٣) ناصحًا من اشتغل بعلم المنطق والفلسفة حتى

---

(١) هو: أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الجزري المنشئ، صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، ولد سنة (٥٥٨هـ)، ونشأ بالموصل، وحفظ القرآن، وأقبل على النحو واللغة والشعر والأخبار، توفي سنة (٦٣٧هـ). (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٣/ ٧٢).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (١/ ٤٧).

(٣) علي بن محمد بن العباس التوحيدي، أبو حيان: فيلسوف، متصوف معتزلي، نُعت =

انتهت إليه الرياسة فيها، وكان منشغلًا بذلك عن العلوم العربية الإسلامية، حيث قال له: «وأنت لو عرفت تصرّف العلماء والفقهاء في مسائلهم، ووقفت على غورهم في نظرهم، وغوصهم في استنباطهم، وحسن تأويلهم لما يرد عليهم، وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة والكنايات المفيدة والجهات القريبة والبعيدة، لحقّرت نفسك، وازدريت أصحابك، ولكان ما ذهبوا إليه وتابعوه عليه أقلّ في عينك من السّها عند القمر، ومن الحصا عند الجبل»[1]، فإذا كان هذا كلامه في التراث العربي وكلام العرب، فكيف بالقرآن الكريم وأسلوبه، ولا شك أن جزءًا كبيرًا مما ذكره من نظر الفقهاء والعلماء إنما ينصرف إلى القرآن الكريم والنظر في أسلوبه.

❊ ❊ ❊

= بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء، وقال ابن الجوزي: كان زنديقًا، مات عن نيف وثمانين عامًا. (سير أعلام النبلاء ١٧/ ١١٩).

(١) الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي (ص١٠٠).

ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

إعجاز القرآن

ويتضمن خمسة مباحث:

- المبحث الأول: عجز الخلائق عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه.
- المبحث الثاني: إعجاز القرآن في الحروف المقطعة.
- المبحث الثالث: مباينة القرآن لأساليب العرب.
- المبحث الرابع: علو فصاحة القرآن.
- المبحث الخامس: حسن تأليف القرآن.

المَبْحَثُ الْأَوَّلُ

عجز الخلائق عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه

نزل القرآن على نبينا محمد ﷺ، والعرب على درجة من البلاغة، استطاعوا بها الوقوف على أساليب الكلام والتربع على عرش البيان ومعرفة وجوه اللغة وتصريفها، وما يمكن به تصوير ما يقوم في أذهانهم وأنفسهم.

نزل القرآن على قوم يستطيع أحدهم حل الأمر بعد عقده، وهدم البناء بعد تشييده بفصاحته وبيانه، ومن ذلك ما طلبه جبلة بن الأيهم الغساني[1] من حسان بن ثابت رضي الله عنه حين قال له: يا أبا الوليد إن الخمر قد شغفتني فاذممها لي لعلي أرفضها فقال:

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ فِي الكَأْسِ لَمْ يَكُنْ ... لَهَا ثَمَنٌ مِنْ شَارِبٍ حِينَ يَشْرَبُ
لَها نَزَقٌ مِثْلَ الجُنُونِ وَمَصْـرَعٌ ... دَنِيٌّ وَأَنَّ العَقْلَ يَنْأَى وَيَعْـزُبُ

فقال: قد أفسدتها فحسِّنها، فقال:

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ فِي الكَأْسِ أَصْبَحَتْ ... كَأَنْفَسِ مَالٍ يُسْتَفَادُ ويُـطْلَـبُ
أَمَانِيّهَا والنَّـفْسُ يَـظْهَرُ طِيـبُهَا ... عَلَى حُزْنِهَا والهَمُّ يَسْلَى فَيَذْهَبُ

فقال: لا جرم، والله لا تركتها أبدًا[2].

---

(١) جبلة بن الأيهم الغساني، ملك غسان، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ وأهدى له هدية ولم يزل مسلمًا حتى ارتد نصرانيًّا في خلافة عمر وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم. (الطبقات الكبرى، لابن سعد ١/ ٢٦٤).

(٢) تعليق من أمالي بن دريد، لمحمد بن الحسن بن دريد الأزدي، (ص١١١).

نزل القرآن على قوم يستطيع أحدهم محاكاة نظيره وزنًا وقافية ومعنى، ومن ذلك ما كان من امرئ القيس[(١)] والحارث بن التوأم اليشكري[(٢)]، إذ قال له امرؤ القيس: إن كنت شاعرًا كما تزعم فملِّط[(٣)] أنصاف ما أقول، فقال له: قل:

فقال امرؤ القيس: أَحَارِ تَرَى بَرِيقًا هَبَّ وَهْنًا
فقال التوأم: كَنَارِ مَجُوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارِا
فقال امرؤ القيس: أَرِقْتُ وَنَامَ أَبُو شُرَيْحٍ
فقال التوأم: إِذَا مَا قُلْتُ قَدْ هَدَأَ اسْتَطَارَا
فقال امرؤ القيس: كَأَنَّ هَزِيزَهُ بِوَرَاءِ غَيْبٍ
فقال التوأم: عِشَارٌ وُلَّهٌ لَاقَتْ عِشَارَا
فقال امرؤ القيس: فَلَمَّا أَنَّ دَنَا لَقِفَا أُضَاخٍ
فقال التوأم: وَهَتْ أعجازُ رَيِّقِهِ فَحَارَا
فقال امرؤ القيس: فَلَمْ يَتْرُكْ بِذَاتِ السِّرِّ ظَبْيًا
فقال التوأم: وَلَمْ يَتْرُكْ بجلَّتِها حِمَارًا[(٤)].

---

(١) **هو**: امْرُؤ الْقَيْس بن حجر بن الْحَارِث بن عَمْرو بن حجر آكل المرار بن عَمْرو بن مُعَاوِيَة بن يعرب بن ثَوْر بن مرتع بن مُعَاوِيَة بن كنده. (طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام ١/ ٥١).

(٢) قيل: حدثت هذه مع الحارث، وقيل مع والده التوأم، وهو شاعر جاهلي وقيل: أدرك الإسلام. (انظر: المعمرون والوصايا، لأبي حاتم السجستاني ص٣١، ديوان امرؤ القيس، جمع عبد الرحمٰن المصطاوي ص١٠٣).

(٣) يقال: مالط فلان فلانًا إذا قال هذا نصف بيت وأتمه الآخر بيتًا. (لسان العرب ٧/ ٤٠٩).

(٤) **استطارا**: انتشر، **وهزيزه**: أي صوت رعده، **وعشار ولّه**: فاقدة أولادها فهي تكثر الحنين لا سيما إن رأت عشارًا مثلها، **وأضاخ**: اسم موضع، **وأعجاز ريقه: أي**: استرخت أعجاز هذا السحاب وهي مآخيره كما تسيل القربة الخَلَقُ إذا استرخت، وذاتُ السِّر موضع كثير الظباء والجَلْهَةُ ما استقبلك من الوادي. (لسان العرب ٦/ ٢١٤).

فبُهِتَ امرؤ القيس مما رأى من بداهة اليشكري، وأقسم ألا ينازع الشعر أحدًا[(١)].

هكذا نزل القرآن على قوم يستطيع أحدهم بتفننه أن يجعل القبيح حسنًا والحسن قبيحًا، كما سئل الأصمعي[(٢)]: من أشعر الناس؟ فقال: «من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرًا، وإلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا»[(٣)].

وحالهم مع اللغة في انسيابها وجريانها كما قال الرافعي[(٤)]: «لا يتكلفون لتركيب ولا يتلوَّمون[(٥)] على صنعة، وإنما تؤاتيهم الفطرة وتمدهم الطبيعة؛ فنسق الألفاظ إلى ألسنتهم، وتتوارد على خواطرهم، وتجري مع أوهامهم، وتستجيب فيهم لكل حركة من النفس لفظة المعنى الذي هو أصل هذه الحركة»[(٦)].

ومع ما أوتوا من القوة في الفصاحة، والحجة في البيان، والقدرة على التصوير إلا أنهم حين نزل عليهم القرآن وسمعوا آياته أدركوا يقينًا أنهم لا قِبل لهم به.

لقد أدركوا فور سماعهم أنه نزل بلغتهم وبأسلوبهم الجاري على

---

(١) بدائع البدائه، لعلي بن ظافر الخزرجي (ص٩٣).

(٢) هو: أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي الأصمعي، البصري، اللغوي، أثنى عليه أحمد بن حنبل في السُّنَّة، وقال المبرد: كان الأصمعي بحرًا في اللغة، وتصانيفه ونوادره كثيرة توفي سنة (٢١٥هـ). (سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٠/ ١٨٧).

(٣) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر (ص٦٤).

(٤) هو: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، أديب أصله من طرابلس الشام، ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، له العديد من الكتب والمقالات، توفي سنة (١٣٥٦هـ). (الأعلام للزركلي ٧/ ٢٣٥).

(٥) أي: لا ينقحون ولا يحككون في عمل الكلام.

(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، محمد صادق الرافعي (ص١٣١).

ألسنتهم من نداء وحصر واستثناء وتشبيه، ومع ذلك فقد أدركوا أن نظمه مختلف عن نظمهم وأسلوبه مغاير لأساليبهم، مع اعترافهم بتفوقه في البلاغة والفصاحة.

ولقد نزل القرآن أول ما نزل دون أن يدعوهم إلى المعارضة، ووَكَلَهُم في إدراك تميّز نظمه إلى طبيعتهم اللغوية، التي تدعوهم لمعارضة من يبزهم أو يتفوّق عليهم في فضاء العربية الرحب الذين هم رواد فضائها، أو يقرون بأن ما جاءهم به النبي ﷺ حق وأنهم لا قِبَل لهم به، وهذا يفيد أن مجرد النظم كان كفيلًا ببيان أن ما جاء به النبي ﷺ ليس من جنس كلام البشر وتسليم لهم بصدق النبوة وإقرار بالعجز، فلما قابلوا ذلك بالتكذيب والإعراض، أتاح لهم فرصة المحاكاة، وفتح لهم باب المعارضة[1].

وقد تكلم العلماء عن الوجه الذي تحدى الله به الخلائق أن يأتوا بمثله، وقبل الحديث عن ذلك يحسن أن أسوق الآيات التي بيّنت عجز العرب عن معارضة القرآن والتي اصطلح العلماء على تسميتها بآيات التحدي، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣] كما تحداهم أن يأتو بسورة مثله فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وكما جاء التحدي في السور المكية فقد ورد في السور المدنية في قوله جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

---

(١) وقد أشار على هذا الملمح الأستاذ محمود شاكر في مداخل إعجاز القرآن (ص١٥٨).

وبعد سرد هذه الآيات، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن:

ما الوجه الذي تحدى الله به الثقلين أن يأتوا بمثله أو بسورة منه في القرآن؟

وهذا السؤال قد أجاب عنه العلماء والمفسرون رحمهم الله تعالى عند تفسيرهم لهذه الآيات الكريمات، أو عند حديثهم عن وجه إعجاز القرآن، وذكروا عدة أسباب بيد أن هناك سببًا لا تكاد تجد مفسرًا أو أحدًا من العلماء تكلم عن الإعجاز إلا وتطرق له، ألا وهو: ما اشتمل عليه أسلوب القرآن من عجيب النظم.

والنظم: جمع اللؤلؤ في السلك.

قال في «لسان العرب»: النظم التأليف[1].

وقال ابن فارس: النون والظاء والميم: أصلٌ يدلُّ على تأليف شيءٍ وتأليفه[2].

وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل[3].

وإطلاق مصطلح النظم صاحَبَ فترة البحث في وجوه الإعجاز والكتابة فيه، بل عدّه كثير منهم هو الوجه الذي به عجز العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، وفي ذلك يقول الجاحظ[4]: «وكذلك دهر

---

(١) لسان العرب (١٢/٥٧٨).

(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٥/٤٤٣).

(٣) التعريفات، علي الجرجاني (ص٣١٠)، دار الكتاب العربي.

(٤) **هو**: عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ سمع من أبي عبيدة والأصمعي، وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن وكان صديقه، وأخذ الكلام عن النظام، وتلقف الفصاحة من العرب شفاهًا بالمربد، وكان من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ، توفي سنة (٢٥٥هـ). (انظر: معجم الأدباء ٥/٢١٠١).

محمد ﷺ، كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم وأجلُّها في صدورهم؛ حسن البيان ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له وانفرادهم به فحين استحكمت لغتهم، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناسَ خطباؤهم، بعثه الله ﷻ فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه فلم يقرعهم بعجزهم، وينقصهم على نقصهم حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبيَّن لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبيًّا قط مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات»(١).

ويقول: «لأن رجلًا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة؛ لتبيّن له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين، ألا ترى أن الناس قد يتهيأ في طباعهم، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: [الحمد لله] و[على الله توكلنا]... وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع، ولو أراد أَنطَقُ الناس أن يؤلِّف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان(٢)(٣)».

ويُعَدّ الجاحظ من أوائل من تكلم في هذا الباب، وله في ذلك كتاب في عداد المفقود سمَّاه: «الاحتجاج لنظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان»(٤).

---

(١) حجج النبوة، للجاحظ (ص١٤٤).

(٢) هما من يرجع إليهما نسب العرب. (جمهرة أنساب العرب، لابن حزم ص٧)، ومقصوده ولو استعان بجميع العرب.

(٣) حجج النبوة (ص١٤٤).

(٤) انظر: مداخل إعجاز القرآن (ص٦٩).

ويصف ابن قتيبة[١] القرآن وصفًا يظهر فيه ما يراه من أن سبب العجز عن معارضة القرآن هو نظم القرآن فيقول: «وقطع منه بمعجز التّأليف أطماع الكائدين وأبانه بعجيب النّظم عن حيل المتكلّفين»[٢].

ويقول الخطابي[٣]: «وإنما تعذر على البشر بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله»[٤].

ويبين الجرجاني هذا الوجه فيقول: «أعجزتهم مزايا ظهرتْ لهم في نظمهِ وخصائصُ صادفوها في سِياق لفظه، وبدائعُ راعَتْهم من مبادئ آيِهِ ومقاطِعها، ومجاري ألفاظِها ومواقعها»[٥].

والباقلاني[٦] وإن عد أوجه الإعجاز ثلاثة إلا أنه فصل القول

---

(١) هو: أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وإنما نسب بذلك؛ لأنه كان قاضي الدينور، أخذ عن إسحاق ابن راهويه، وأبي حاتم السجستاني، كان عالمًا بالنحو وغريب القرآن والشعر، توفي سنة (٢٧٠هـ). (انظر: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين ص١٧٢).

(٢) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص١١).

(٣) هو: أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي، من ولد زيد بن الخطاب، كان حجة صدوقًا، من أشهر تآليفه: كتاب غريب الحديث، وله أعلام السُّنن في شرح صحيح البخاري، ومعالم السُّنن في شرح سنن أبي داود، توفي سنة (٣٨٨هـ). (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٣).

(٤) القول في بيان إعجاز القرآن، للخطابي ضمن ثلاث رسائل، (ص٢٦)، دار المعارف.

(٥) دلائل الإعجاز (ص٣٩).

(٦) هو: أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني، كان ثقة إمامًا بارعًا، صنف في الرد على الفِرق، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري وقد يخالفه، قال أبو بكر الخطيب: كان ورده في كل ليلة عشرين ترويحة في الحضر =

وأطال النفس في بيان الوجه الثالث المتعلق بالنظم، وأشار إلى الوجهين الأوليين إشارة، ولعل ذلك إشارة منه إلى أن النظم هو الوجه المتعلق بالتحدي وطلب المعارضة لا سيما وقد صرح أن من سبقه قصدوا هذا الوجه فقال: «والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة»[١].

أما ابن عطية[٢] فقد عرض هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقول من قال: أن التحدي في هذه الآية وقع بالنظم وبما يتضمن من إخباره بالمغيبات، فقال: «هكذا قول جماعة من المتكلمين، وفيه عندي نظر، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب ردًا على قولهم افْتَرَاهُ، وما وقع التحدي في الآيتين هذه وآية العشر السور إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق، وما ألزموا قط إتيانًا بغيب»[٣].

ويقول الزمخشري[٤] عند آية سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن

= والسفر، فإذا فرغ منها، كتب خمسًا وثلاثين ورقة من تصنيفه. مات سنة (٣٠٤هـ). (انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠).

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٣٥).

(٢) هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية، أبو محمد الغرناطي القاضي، ولد سنة (٤٨٠هـ)، وكان فقيهًا، عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير بصيرًا بلسان العرب، ومات سنة (٥٤١هـ). (انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص٦٠).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٣/ ١٢٠).

(٤) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، الخوارزمي، كبير المعتزلة، كان مولده بزمخشر سنة (٤٦٧هـ)، ولقب جار الله؛ لأنه جاور بمكة زمانًا، وكان رأسًا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان وله التصانيف البديعة منها: «الكشاف في التفسير»، و«الفائق في غريب الحديث وأساس البلاغة» وغيرها، مات ليلة عرفة سنة (٥٣٨هـ). (انظر: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥١).

﴿مِّثْلِهِۦ﴾: «قلت: معناه: فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم»(١).

وعند آية سورة هود: قال: «فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟ قلتُ: معناه: مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى»(٢).

أما ابن عاشور فقد عد أوجهًا من وجوه إعجاز القرآن عند تفسيره لآية سورة البقرة، ولكنه أشار إلى أن وجه التحدي بسورة من مثله دون مقدارها لأمور ترجع إلى خصائص النظم وحسن سبكه وهذه إشارة منه إلى أن النظم هو المخصوص بالتحدي على وجه أقوى وأظهر من سائر وجوه الإعجاز فقال: «فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوق قدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه»(٣). ثم نقل قول الطيبي(٤): «ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة وإن كانت قصيرة دون الآيات وإن كانت ذوات عدد»(٥).

يتبيّن مما سبق أن أوجه الإعجاز التي تدل على صدق ما جاء به النبي ﷺ متنوعة ومتعددة والأمر في ذلك كما قال ابن عاشور: «ولم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن ويبرهن على صدق كونه من عند الله»(٦)، لكن الإعجاز المتعلق بالتحدي وطلب المعارضة هو بما تميز به أسلوب القرآن من النظم البديع. وبهذا نستطيع أن نفرق بين الوجه

---

(١) الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل، للزمخشري (٢/ ٩٨).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٨٣).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).
(٤) حسن بن محمد بن عبد الله شرف الدين الطيبي، إمام مشهور، وله مؤلفات كثيرة منها التفسير للقرآن العظيم والحاشية على تفسير الكشاف وكتاب التبيان في المعاني وشرح المشكاة، وقد توفي في سنة (٧٤٣هـ). (طبقات المفسرين للأدنه وي ص٢٧٧).
(٥) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (٧/ ٥٤).
(٦) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٦).

المتحدّى به، وبين سائر أوجه الإعجاز الأخرى التي ذكرها العلماء.

وبهذا يتبيّن أن نظم القرآن وإن جاء بلسان عربي فإن الإعجاز قام به لما يتضمنه من خصائص تباين المعهود من خصائص كل نظمٍ وبيانٍ تطيقُه قوى البشر في بيانهم.

وفي كون الإشارة إلى التحدي وطلب المعارضة في الآيات إنما هو في نظم القرآن فإنه ينبغي الإشارة إلى ملحظين مهمَّين:

الملحظ الأول: أن الاقتصار على النظم كان من باب التنزل معهم، لأدنى ما يمكن مما بلغوا فيه الغاية من تصريف الكلام على الوجه الذي يريدونه، وأن ما بعده من أوجه الإعجاز التي تتعلق بالمعاني أعظم وأظهر، فطالبهم بالوجه الأيسر منه، فإذا عجزوا عنه فغيره من صنوف الإعجاز أولى، وفي ذلك يقول د. محمد أبو موسى موجهًا لاختيار الجرجاني لوجه النظم وانصرافه عن الإعجاز في إصابة المعاني وصدقها وصحتها: «وأعتقد أن عناية عبد القاهر بهذا الوجه وانصرافه عما طرحه أولًا من إصابة المعاني وصدقها وصحتها، لم يكن لأن القرآن ليس معجزًا من جهة معانيه، وإنما لأن القرآن ذكر في تحديه لهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات؛ أي: مختلقات، والمهم أن تصيبوا خصائص نظمه وسياق لفظه.

وهذا هو الذي هدى عبد القاهر إلى باب النظم وشغله بالعبارة وبنائها وهيئاتها.

والذي أفهمه من الآية الكريمة أن الإعجاز قائم بالمعاني وأنه الأقوى والأظهر، وأن القرآن لما قال: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ إنما كان يتنزل معهم، ويمد لهم مجال الإمكان ويوسعه لهم، وكأنه يقول: إذا كانت المعاني مما لا عهد لكم بها ولا طاقة لكم عليها وليست من معادن معانيكم ولا من الأودية التي برعتم فيها فاتركوها وهاتوا مثله في

بناء لغته وقد بلغتم الغاية في إدارة اللغة على وجوه معانيكم التي افترعتم واختلقتم وأنتم في هذا سابقون وله مطيقون وهذا قاطع بأن الإعجاز بصحة المعاني واطراد استقامتها وسدادها أظهر وأبهر»(١).

الملحظ الثاني: أن التحدي القائم بالنظم، ملزِمٌ لهم بالإقرار بما في القرآن من أخبار ووعد ووعيد وغيرها من المعاني التي تدل على إعجاز القرآن وصدق ما جاء به الرسول ﷺ، وذلك أن عجزهم عن معارضة القرآن أن يأتوا بسورة من مثله إقرار لهم أنه من عند الله، فإذا كان من عند الله وجب تصديقه والإيمان به، وقد بين ذلك أ. محمود شاكر فقال: «وههنا معنى زائد: فإنهم إذا أقروا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل ـ أي: النظم ـ كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء فيه من أخبار الأمم، وأنباء الغيب ودقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون هو كله حق لا ريب فيه وإن ناقض ما يعرفون، وإن باين ما اتفقوا على أنه عندهم أو عند غيرهم حتى لا يشكون فيه، وإذن فإقرارهم من وجه النظم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين، دليل يطالبهم بالإقرار بصحة ما جاء فيه من كل ذلك»(٢). وواضح من كلامه الإشارة إلى أن كون التحدي بالنظم مع قيام العجز ملزم للإيمان بوجوه الإعجاز الأخرى سواء كان إعجازًا تاريخيًا أو علميًا او تشريعيًا أو غيبيًا كما هو واضح من قوله: «كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء فيه من أخبار الأمم، وأنباء الغيب ودقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون هو كله حق لا ريب فيه وإن ناقض ما يعرفون».

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:

---

(١) مدخلٌ إلى كتبَي عبد القاهر الجرجاني، د. محمد أبو موسى، (ص١٩٦، ١٩٧).

(٢) مداخل إعجاز القرآن (ص١٥٨).

١٠٣] تجد هذين المعنيين في غاية الوضوح، ذلك أن كفار قريش زعموا أن ما جاء به النبي ﷺ تعلمه من يهودي أو نصراني ـ على اختلاف الروايات ـ، تعريضًا بأن ما في القرآن من أخبار وغيبيات إنما هي من أخبارهم؛ لأنهم أهل كتاب، فلم يجبهم الله إلى هذه الشبهة، وردّهم إلى ما هربوا منه بعد أن أيقنوه، وطُلبوا لمعارضته فعجزوا عن محاكاة ما سمعوه، وأخبر أنه جاء بلسان عربي مبين، فكيف يكون بهذه القوة والفخامة في نظمه وأسلوبه والنبي ﷺ قد تعلمه من أعجمي، ثم تعجزون عن معارضته وأنتم أصل العرب.

وقد لاحظ أبو السعود[1] هذا المعنى عند تفسيره للآية فقال: «والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فإن زعمتم أن بشرًا يُعَلِّمُه معناه، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث في أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل كمال عجزهم»[2].

- **الأسس التي ينبني عليها النظم:**

والنظم ينبني على أسس تكشف عن سر إعجازه، ولا بد حينئذٍ أن تكون هذه الأسس فيها من الشمول والتكامل ما يبيِّن الإعجاز ويكشف سرّ التحدي.

وقد أشار إلى هذه الأسس الإمام الخطابي حيث قال في «الكشف» عن وجه التحدي والإعجاز: «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة:

---

(١) هو: محمد بن محمد بن مصطفى المولى أبو السعود العمادي الحنفي ولد سنة (٨٩٦هـ)، أخذ العلم على أبيه تولى الإفتاء في التخت السلطاني، وصنف إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم وقد صنف حاشية على تفسير الكشاف بلغها إلى آخر سورة الفتح، توفي سنة (٩٨٢هـ). (انظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ٣/ ٣١، طبقات المفسرين للأدنه وي ص٣٩٩).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٥/ ١٤٢).

لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه، أمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»[١].

والجرجاني قد أولى مسألة النظم اهتمامًا بالغًا وفصّل فيها وبسط حتى اشتهر بها ويرى أن النظم لا يكون نظمًا حتى ينبني الكلام بعضه على بعض، ويعلق بعضه ببعض، وذلك في قوله: «واعلمْ أنك إذا رجعتَ إلى نفسِك علمتَ علْمًا لا يعترضُه الشكُّ، أنْ لا نَظْمَ في الكَلِم ولا ترتيبَ، حتى يُعلَّقَ بعضُها ببعضٍ، وَيْبني بعضُها على بَعض، وتُجعلَ هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يَجهلُه عاقلٌ ولا يخْفَى على أحدٍ مِنَ الناس»[٢].

كما يرى أن التخيّر القائم على توخي معاني النحو، وإحسان وضع الروابط من أسس النظم الذي يبرز مزيته وحسن موقعه، فيقول: «اعلم أنْ ليسَ النظمُ إلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ علمُ النحو، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها»[٣].

ويقول: «واعلمْ أنّا لم نُوجِبْ المزيَّةَ من أجلِ العِلْم بأنفُسِ الفروقِ والوجوهِ فتستند إلى اللغة، ولكنَّا أوجبْناها للعلم بمواضِعها، وما ينبغي أن يصنع فيها فليس الفضْلُ للعلم بأنَّ [الواو] للجمع، و[الفاء] للتعقيب بغير تَراخٍ، و[ثم] له بشرطِ التَراخي، و[إنْ] لكذا و[إذا] لكذا، ولكنْ لأَنْ

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن، للخطابي ضمن ثلاث رسائل، (ص٢٦).

(٢) دلائل الإعجاز (ص٥٥). (٣) المصدر نفسه (ص٨١).

يتأتَّى لكَ إذا نَظَمْتَ شعرًا وألَّفْتَ رسالةً أنْ تُحْسِنَ التخيُّرَ، وأن تَعْرِفَ لكلٍّ مِنْ ذلك مَوضِعَه»[(١)].

ويرى أن التخير إنما هو قائم على المعنى وإلا اختل النظم وسلبت روحه فيقول: «وأما نظمُ الكَلِم: فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمِها آثارَ المعاني، وتُرتِّبها على حسبِ ترتب المعاني في النفس. فهو إذن نظمٌ يعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعضهُ معَ بعض، وليسَ هو النَّظم الذي معناهُ ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق»[(٢)].

وهكذا يتبيّن لك مقدار التوافق بين ما ذكره الخطابي والجرجاني في الأسس التي يقوم عليها النظم، وهي أسس قائمة على التكامل والشمول[(٣)].

وعلى هذا الشمول في معنى النظم عدَّ الباقلاني للنظم عشرة أوجه عند كلامه عن إعجاز القرآن[(٤)].

وبهذا يتبين أن نظم القرآن مفهوم واسع يشمل كثيرًا من الأوجه التي تبيّن ما اختصَّ به هذا الكتاب من أسلوب يعجز الخلائق أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، إضافة إلى غيره من الأوجه التي سأبينها في المباحث القادمة بإذن الله.

* * *

(١) دلائل الإعجاز (ص٢٥٠).

(٢) المصدر نفسه (ص٤٩).

(٣) **وانظر في ذلك**: مدخل إلى كتابَي عبد القاهر الجرجاني، (ص١٩٧)، ملامح أسلوبية في دلائل الإعجاز، محمد الواسطي، بحث منشور ضمن مجلة جذور (ص٤٢٨).

(٤) **انظر**: إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص٥٩).

المَبحَثُ الثَّانِي

إعجاز القرآن في الحروف المقطعة

الحروف المقطعة من المسائل التي ينبغي التطرق لها عند الحديث عن الإعجاز في أسلوب القرآن الكريم، وذلك أن عجز الخلائق أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما كان منصرفًا إلى ما تضمنه من عجيب النظم، كانت هذه الحروف من جملة نظمه، بل من أول ما يجده القارئ من بديع النظم، سواء في ترتيب المصحف أو في ترتيب النزول، فسورة البقرة هي ثاني السور في ترتيب المصحف، وسورة القلم ثاني السور في ترتيب النزول(١).

وقد كان لهذه الحروف وقع خاص استرعى الانتباه وشغل العقول، واستحث الأفهام للنظر فيها وفي دلالاتها.

وإذا أردنا معرفة ما ذكره العلماء في المراد بهذه الأحرف لوقفنا على جملة متعددة من الأقوال ذهب كل صاحب قول إلى تأويل يرتضيه، **لكن ما يهمنا من ذلك أمران:**

الأول: أن العرب الذين نزل عليهم القرآن، لم يروا في هذه الأحرف فسادًا لنظم أو مخالفة لفصاحة حتى يطعنوا في القرآن، خاصة وأنه وجد في أشعارهم التعبير بالحرف ووضعه موضع الكلمة ومن ذلك قول الشاعر: «قلنا لها قفي فقالت قاف»، **والمعنى**: فقالت: وقفْت.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٩٣).

كقول القائل:

بِالخَيْرِ خَيْرَاتٌ وَإِنْ شَرًّا فَا ... وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إِلَّا أَنْ تَا(١)

والمعنى: وإن شرًّا فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فكان التعبير بذلك أمرًا معروفًا بينهم.

الثاني: أن هذه الحروف وإن كان التعبير بها معروفًا، إلا أنها قد وقعت موقعًا في نظم الكلام لم يكن معهودًا عند العرب، فمن خلال الأبيات السابقة نرى للحروف التي وردت فيها تعلقًا وثيقًا بما قبلها مما يجعل معناها من الوضوح بمكان، أما أن يُبدأ بها الكلام فكان ذلك مما اختصَّ به القرآن، ولذلك تكاثرت الأقوال في تحديد المراد بمعناها لإيجاد متعلق بها، وهذا وجه من وجوه تفرُّد نظم القرآن وأسلوبه، ولذلك عدَّ العلماء الحروف المقطعة من أوجه إعجاز القرآن الكريم، وأن وقوعها هذا الموقع لا يجوز أن يقع إلا من الله ﷻ.

وإلى هذين المعنيين أشار السيوطي(٢) فقال: «والذي أقول إنه لولا **أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولًا متداولًا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك** على النبي ﷺ، بل تلا عليهم [حم فصلت وص] وغيرهما فلم ينكروا ذلك، **بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوفهم إلى عثرة**، وحرصهم على زلة، فدل على أنه كان أمرًا معروفًا عندهم لا إنكار فيه»(٣).

وعند التأمل فيما ذكره العلماء في أوجه الإعجاز في الحروف المقطعة، يمكن أن نخلص إلى أنها تدل على الإعجاز من ثلاث جهات:

---

(١) هذا البيت حكاه سيبويه. (انظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرد ٢/ ١٦).

(٢) **هو**: عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنف، ولد سنة (٨٤٩هـ)، وتوفي سنة (٩١١هـ)، (انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٣٠١).

(٣) معترك الأقران، للسيوطي (١/ ١١٨).

الجهة الأولى: الدلالة على الإعجاز من حيث موقع الحروف المقطعة المذكورة من سائر حروف المعجم وأوجه تركيب الكلام منها.

حيث نظروا إلى ما اختصت به الحروف التي افتتحت بها السور في الدلالة على غيرها، وما تضمنته من خصائص ترجع إلى شرف هذه الحروف، وأن هذه الحروف العربية هي مباني كتابه جل وعلا.

وفي ذلك يقول الزمخشري: «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء، وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء والسين، والحاء، والقاف، والنون - في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك: أن فيها من **المهموسة نصفها**: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء.

ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف والياء، والنون، **ومن الشديدة نصفها**: الألف، والكاف، والطاء، والقاف، **ومن الرخوة نصفها**: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء والياء، والنون.

ومن المطبقة نصفها: الصاد، والطاء، **ومن المنفتحة نصفها**: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون، **ومن المستعلية نصفها**: القاف، والصاد، والطاء، **ومن المنخفضة نصفها**: الألف، واللام والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون.

ومن حروف القلقلة نصفها: القاف، والطاء، ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس

المعدودة مكثورة بالمذكورة منها فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، **فكأن الله عز اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم»**[(١)].

ووجه آخر من وجوه الإعجاز في ذكر أنصاف الحروف وأشرفها ذكره الباقلاني وهو أن هذه التقسيمات التي قسّمت عليها الحروف لا تخلو من حالين: «أنه إذا كان القوم ـ الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ، رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر، **دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه ـ بعد العهد الطويل ـ لا يجوز أن يقع إلا من الله ﷻ؛ لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب.**

وإن كان إنما تنبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان، فذلك أيضًا من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان فإن كان أصل اللغة توقيفًا فالأمر في ذلك أبين.

وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضًا؛ لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى، وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه»[(٢)].

---

(١) الكشاف (١/ ٢٩، ٣٠)، وقد أشار إلى ذلك أيضًا الباقلاني في إعجاز القرآن (ص٦٩) وابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩)، وابن كثير في التفسير (١/ ١٥٩)، وابن القيم في بدائع الفوائد ذكر كلامًا نحوه (٣/ ١٧٣).

(٢) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٦٩).

الجهة الثانية: الدلالة على الإعجاز من حيث علاقة الحروف المقطعة بالسور التي وردت فيها.

والنظر في هذه الجهة تارة ما يكون في السمات المشتركة التي اتسمت بها السور التي افتتحت بهذا النوع من الحروف، وتارة يكون بالنظر لهذه الأحرف وعلاقتها بآيات السورة وسياقها ونظمها.

فأما من بحث في السمات المشتركة للسور المبتدأة بالحروف المقطعة فقد خلص إلى أنه ما من سورة تُفتتح بالحروف المقطعة إلا ويذكر فيها الاحتجاج للقرآن والانتصار له وبيان إعجازه كما قال ابن كثير[(١)]: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]. ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١، ٢] ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]. ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢] ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١ ـ ٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم»[(٢)].

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين، سمع من إسحاق الآمدي وابن عساكر والمزي وابن الرضي وشيخ الإسلام ابن تيمية، وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة سارت تصانيفه في. . . . .، مات سنة (٧٧٤هـ). (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ١٢٥، الأعلام للزركلي ١/ ٣٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٦٠).

ولعل في عبارة ابن كثير من الدقة والشمول، ما يكون مؤيدًا لما ذهب إليه من اطّراد هذا الوجه في جميع السورة المفتتحة بالحروف، حيث لم يشترط أن مجيء الإشارة إلى القرآن عقب الحروف مباشرة، وإنما أشار إلى أنه لا بد أن يُذكر فيها الانتصار إلى القرآن وبيان حجته، وبهذا يكتمل الاستقراء في سورتي العنكبوت والروم اللذان استثناهما الزركشي[١]، أو سورتي مريم والقلم اللذان استثناهما ابن القيم[٢].

ومن العلماء من لم يكتف بكون هذه السور فيها إشارة الإعجاز فحسب، بل يجعل الإعجاز مقصدًا من مقاصدها وغرضًا من الأغراض التي بنيت عليها هذه السور فالباقلاني يصرح أن هذه السور مبنية على هذا الوجه فيقول في دلالة القرآن على معجزة القرآن: «وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة إلا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه، ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده، وكثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته»[٣]. وإلى هذا القول ذهب ابن عاشور وقرره في غير موضع احتفالًا به، فقال في مطلع تفسير سورة إبراهيم: «واشتملت من الأغراض على أنها ابتدئت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وبالتنويه بشأنه»[٤]. وقال مثل ذلك سورة النمل[٥] وسورة العنكبوت[٦] وسورة يس[٧].

وهكذا يظهر أن هذا الوجه من وجوه الإعجاز إنما بني من جهة النظر إلى السمات والأغراض المشتركة التي اتسمت بها هذه السور.

أما النظر الثاني فإنما نُظِر إلى كل سورة على حدة وعلاقة نظمها

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٧٠).

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/ ١٧٣).

(٣) إعجاز القرآن (ص٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٨).

(٥) المصدر نفسه (١٩/ ٢١٥).

(٦) المصدر نفسه (٢٠/ ٢٠٠).

(٧) المصدر نفسه (٢٢/ ٣٤٢).

وسياقها بالحرف المبدوء به، وقد تلمّس العلماء في ذلك أوجهًا هي محل نظر وعناية، ومن ذلك ما أورده ابن القيم من تأملات حول هذه الحروف ومواضيع السور وأغراضها التي وردت فيها حيث يقول عن قوله: ﴿الٓمٓ ①﴾: «هذه الحروف تتضمن سرًا عجيبًا وهو أن للألف البداية واللام التوسط والميم النهاية فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه فمشتملة على تخليق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم. . . .، وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف فمن ذلك (ق) والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن وذكر الخلق وتكرير القول ومراجعته مرارًا والقرب من ابن آدم وتلقي الملكين قول العبد وذكر الرقيب وذكر السائق والقرين والإلقاء في جهنم والتقدم بالوعيد وذكر المتقين وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة.

وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: ٥] إلى آخر كلامهم ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم ثم خصامه ثانيًا في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص

منهم فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير (ص) وسورة (ق) غير حرفها»[١].

الجهة الثالثة: الدلالة على الإعجاز من حيث دلالة الحروف المقطعة على تحدي المخاطبين.

والنظر في هذه الجهة نظر إلى دلالة هذه الحروف على الإعجاز بالنظر في أحوال من نزل عليهم القرآن، وتلمس وجه مخاطبتهم بهذه الحروف في مطلع السور المفتتحة بها، ووقْع هذه الحروف عليهم إذ سمعوها فلم ينكروها، وفي ذلك يقول قطرب[٢]: «هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنه يقول للعرب: إنما تحديتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم فقوله: الم بمنزلة قولك: أ، ب، ت، ث، لتدل بها على التسعة والعشرين حرفًا»[٣].

ونقل ابن عاشور من جملة الأقوال في معنى هذه الحروف: «القول الرابع عشر: أنها سيقت مساق التهجي، مسرودة على نمط التعديد في التهجية، تبكيتًا للمشركين وإيقاظًا لنظرهم في أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تحدوا بالإتيان بسورة مثله هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم، كأنه يغريهم بمحاولة المعارضة ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف ومعالجة النطق، تعريضًا بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف تقاطيع اللغة، فيلقنها كتهجي الصبيان في أول تعلمهم بالكتاب، حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه المحاولة عجزًا لا معذرة لهم

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤).

(٢) هو: محمد بن المستنير، وقيل: أحمد، أخذ النحو عن سيبويه وهو الذي لقبه بقطرب لمباكرته إياه في الأسحار للقراءة عليه، وكان عالمًا ثقة، له مصنفات كثيرة؛ كـ«الاشتقاق والأضداد»، و«معاني القرآن»، توفي سنة (٢٠٦هـ). (إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، لعبد الباقي اليماني، ص٣٣٨).

(٣) نقل ذلك ابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٨٢).

فيه، وقد ذهب إلى هذا القول المبرد[١] وقطرب والفراء[٢]»[٣].

وهذا القول في حقيقته، بيان لوجه مخاطبة العرب بهذه الحروف في أوائل السور.

وقد أيَّد ابن عاشور هذا الوجه بعد أن نقله حيث ربط بين التحدي بالقرآن وهذا الوجه فقال: «وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزلة، وقلت: وهو الذي نختاره وتظهر المناسبة لوقوعها في فواتح السور، أن كل سورة مقصودة بالإعجاز؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته، ويؤيد هذا القول أن التهجي ظاهر في هذا المقصد، فلذلك لم يسألوا عنه لظهور أمره، وأن التهجي معروف عندهم للتعليم فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية المعهودة في التعليم في مقام غير صالح للتعليم، عرف السامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم؛ لأن حالهم كحاله في العجز عن الإتيان بكلام بليغ»[٤].

وهكذا ظلت آيات القرآن تعاجزهم وتتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، من أول نزوله حتى أول العهد المدني الذي نزلت فيه آية البقرة فحسمت الجدل العقيم، بعد أن لزمتهم الحجة على صدق المعجزة، بعجزهم مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله من تلك الحروف التي تقرأ مقطعة مفردة أو مركبة، فلا تعطي دلالة ما، لكنها حين تأخذ

---

(١) هو: أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي المازني، الملقب بالمبرّد، قرأ كتاب سيبويه على الجرمي، وكان إمامًا في العربية غزير الحفظ، له مصنفات كثيرة، توفي سنة (٢٨٥هـ). (إشارة التعيين ص٣٤٢).

(٢) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، أبو زكريا الفراء، أخذ عن الكسائي وهو من جلّة أصحابه، وكان أبرع الكوفيين، له مصنفات كثيرة في النحو ومعاني القرآن، توفي سنة (٢٠٧هـ). (إشارة التعيين ص٣٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٢١٢، ٢١٣).

مكانها في القرآن يتجلّى وجه بيانها وسر فصاحتها وغلبة حجتها[١].

وهذا الوجه يشير إلى أن مجال فخرهم غدًا سيفًا مصلتًا عليهم، فكلما تكلموا وعتوا وافتروا القول في القرآن، يذكرهم الله بضعفهم، وكأن هذه الحروف تنادي عليهم: أين أنتم يا أرباب الفصاحة والبيان من ميدان المعارضة والتحدي في أن تنظموا من هذه الحروف مثل القرآن، خير لكم من أن تتقولوا عليه الأقاويل، وتكثروا في وصفه بالأباطيل، فإن لم تفعلوا ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وعند التأمل في جميع ما ذكر من الأقوال على اختلاف الجهات ترى دلالتها جميعًا على الإعجاز، ولا تقاطع بين جهة وجهة أو بين قول وقول فكلها متكاملة شاملة في دلالة الأحرف المقطعة على الإعجاز.

ولله در ابن القيم حين قال: «وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق، د. عائشة بنت الشاطئ (١٨٠ - ١٨١).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٤).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

مباينة القرآن لأساليب العرب

كان نزول القرآن على النبي ﷺ واستماع العرب له كافيًا لمعرفة أن الأسلوب الذي جاء به القرآن مباين لأساليبهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وهذا ما أذهلهم، فهم يرون في ألفاظه وخطاباته ما يألفونه ويعرفونه فلا ينكرون أنه نزل باللسان العربي، فإذا ما نظروا في أسلوبه وطرق نظمه رأوا ما لا قِبَل لهم به وغدا حالهم كما قال الرافعي: «فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما أَلِفُوه من طُرُق الخطاب وألوان المنطق، غير أنهم ورد عليهم من طُرُق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة، وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود حتى أحسُّوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة؛ ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطّلع على قلوبهم»(١)، فكان ذلك وجهًا من وجوه الإعجاز، وخصيصة من خصائص الأسلوب.

وحيث كان أسلوب القرآن الكريم هو وجه الكمال اللغوي، فحسبي أن أشير في هذا المبحث إلى بعض مظاهر مباينة أسلوب القرآن لأساليب العرب:

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٣١).

أولًا: الروع الذي أخذ النبي ﷺ وقت نزول القرآن عليه:

ذلك أن جبريل حين نزل على النبي ﷺ بأول سورة العلق، أخذ النبي ﷺ من الروع ما أخذه وجبريل لم ينزل على النبي ﷺ إلا بلسان عربي مبين، فلا شك حينئذ أن النبي ﷺ سمع كلامًا غير الذي كان يألفه، وفي ذلك يقول أ. محمود شاكر: «وذلك أنه قد أتاه أمر لا قِبَل له به، وسمع مقالًا لا عهْد له بمثله، وكان رجلًا من العرب يعرف من كلامها ما تعرف، وينكر منه ما تنكر، كان هذا الروع الذي أخذه بأبي هو وأمي أول إحساس في تاريخ البشر، بمباينة هذا الذي سمع للذي كان يسمع من كلام قومه والذي كان يعرفه من كلام نفسه»(١).

وهذه الروعة والعظمة يمكن الوقوف على سرها في مثل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فمع ما تضمنته هذه الآية من فصاحة النظم وفخامته، غير أنك تجد الجرجاني يقول: «ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت»(٢).

فما وجه العظمة في نداء الأرض أو السماء وقد ناداها الناس قبل ذلك في نثرهم وشعرهم؟

ووجه العظمة هنا هو لب مباينة أسلوب القرآن لسائر الأساليب مع كون النداء هو النداء، وذلك أن الأمر حين نفذ إلى الأرض وحين بلغ إلى السماء حصل الاستماع ثم الاستجابة من المأمور إلى الآمر ﷻ، وهذه الاستجابة التي حصلت من الأرض والسماء لا تجدها في نداء البشر ولو اجتمعوا على ندائها قاطبة(٣).

---

(١) مداخل إعجاز القرآن (ص١٥٦). (٢) دلائل الإعجاز (ص٤٥).

(٣) انظر: مدخل إلى كتابَيْ عبد القاهر الجرجاني، د. محمد أبو موسى (ص٢٤٢).

ثانيًا: خلو الأسلوب القرآني من الطبع الإنساني المقترن بأساليب العرب:

وذلك أن الكُتَّاب والشعراء والأدباء مهما جوّدوا في أساليب الخطاب وتراكيب الكلام فإنَّ أساليبهم لا تنفك عن طبيعتهم وحالتهم النفسية التي جُبِلوا عليها، ومهما حاول بعضهم محاكاة كبار أهل الصنعة في اللغة، فإنك تجد التباين الواضح بين الأسلوبين لما يظهر في أسلوب كل كاتب من الطبيعة الإنسانية والنفسية الخاصة به.

ومن هنا كان في مباينة القرآن لأساليب العرب؛ لأنه ليس وضعًا إنسانيًا البتة، وهذا ما أحس به العرب فأدركوا أن هذا الأسلوب لا تؤديه طباعهم ولو اجتمعوا وتظاهروا عليه، ولولا ذلك لما أفحموا[(١)].

وهذا هو الوجه الذي يبيّن لك لم كان الشعراء متفاوتين في نبوغهم وتفوقهم بحسب ما يتطرقون إليه من المعاني، ولذلك ضُرِب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب[(٢)]، وذلك لما يعتريهم في تلبسهم بالأحوال التي يتصرفون عليها من الطبيعة التي تظهر على أسلوبهم، ولم تجد من استوى شعره في هذه الأغراض مجتمعة، فإذا نظرت إلى أسلوب القرآن لا تجد فيه شيئًا من ذلك.

ومع كثرة التصرف بين مواضيعه فإنه مستوٍ في حسن النظم وبديع التأليف، لا ترى فيه تباينًا أو اختلافًا؛ لأنه لا يلقاك بلغة أتقنها صاحبها، ولا يلقاك بأسلوب أجاد صاحبه وصفه وسبكه وإنما غرابته أنك لا ترى فيه شيئًا يمكن أن يحمل إليك مجهود الإنسان[(٣)].

وهذا الوجه كذلك هو الذي يوقفك على العِي الذي اعترى من

---

(١) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٤١).
(٢) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (٦/ ١٢٠).
(٣) انظر: إعجاز القرآن (ص٦١)، الإعجاز البياني، لبنت الشاطئ (ص١٦).

حاولوا معارضة القرآن، ذلك أنهم حاولوا التخلص من طبيعتهم، فأتوا بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم[١]، وإن القارئ ليعجب كيف لعربي من العصر الأول أن يتفوّه بمثل هذا الكلام.

ثالثًا: البلاغة المختصة بالقرآن:

وذلك أن أسلوب القرآن لما كان محتويًا على وجوه من البلاغات كالتشبيه والاستعارة والكناية والتجانس[٢] وغيرها من الوجوه، وكانت أساليب العرب لا تخلو عن هذه الضروب من البلاغة كان ذلك دليلًا على نزول القرآن بهذا اللسان العربي المبين، وإذا كان الأمر بهذه المثابة فلقائل أن يقول: «إن قلنا: ما وقع من التشبيه في القرآن معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار ما لا يخفى عليك، وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر، وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء»[٣]. وقل مثل ذلك في سائر أنواع البلاغة وضروبها.

والجواب الذي يتسابق إلى الذهن، هو أن البلاغة التي أودعت في أسلوب القرآن بلاغة خاصة به تباين ما كان عليه الأدباء وما تمايز به الشعراء والخطباء، أما تحديد وجه هذه البلاغة وكنهها والوقوف على

---

(١) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٤١).

(٢) التشبيه: هو تشبيه شيء بشيء، فيُذكر المشبّه والمشبّه به لاشتراكهما في صفة أو أكثر.
والاستعارة: أن يذكر المشبّه به دون ذكر المشبّه. (انظر: المثل السائر، لابن الأثير ١/٣٤٣). والكناية: هو اللفظ الدالّ على الشيء على غير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه. (انظر: المثل السائر ٢/١٨١).
والتجانس: أن تكون اللفظة تصلح لمعنيين مختلفين فالمعنى الذى تدل عليه هذه اللفظة هي بعينها تدل على المعنى الآخر من غير مخالفة بينهما، فلما كانت اللفظة الواحدة صالحة لهما جميعًا كان جناسًا. (الطراز لأسرار البلاغة، ليحيى بن حمزة الطالبي ٢/ ١٨٥).

(٣) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٢٧٦).

حقيقتها، فقد قصرت عنه الهمم كما قال الخطابي: «ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختصَّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده»(١).

وقد كان هذا التساؤل محل بحث وجهد للوقوف على كنه هذه البلاغة وحقيقتها مما دعى الباحثين إلى الغوص في ضروب البلاغة والنظر في أسلوب القرآن للظفر بهذه الإجابة(٢)، وقد تنوعت هذه الإجابات، والذي يتبين أن كل إجابة تصور جانبًا من جوانب الحقيقة التي تطلعك وتوقفك بمجموعها على البلاغة المختصة بالقرآن، **ومن هذه الأوجه:**

ـ **الوجه الأول:** أن أسلوب القرآن جمع من أعلى درجات الكلامِ الفاضلِ المحمودِ أرفعُه وأشرفُه، ووجه ذلك أن الكلام المحمود إما أنَ يكون من البليغ الرصين الجزل وهو أرفع هذه الأقسام وأفخمها، وإما أن يكون من الفصيح القريب السهل وهو أوسطها وإما أن يكون من الجائز الطلق الرسل وهو أقربها، وكل قسم من هذه الأقسام له ما يناسبه، ومهما حاول أحد الجمع بينهما سيقصر دونه القسم الآخر، أما أسلوب القرآن فقد حاز من كل قسم من هذه الأقسام حصة واتسق له من مجموع هذه الأقسام ضربًا من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة اختص بها عن سائر الأساليب(٣).

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٤).

(٢) ومن أوائل من اتجهوا للبحث في الإعجاز من هذا الجانب، الإمام الخطابي والباقلاني. انظر: الإعجاز البلاغي، د.محمد أبو موسى (ص١٩٧).

(٣) انظر: القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٦)

ـ **الوجه الثاني**: أن وجه البلاغة المختصة بالقرآن راجع إلى الطريقة البيانية التي انفرد به أسلوب القرآن عن سائر الأساليب(١)، وهذه الطريقة تسري في سائر وجوه البلاغات ولا تختص بوجه دون وجه، وهي التي تجعل من التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها مما ورد في القرآن ضربًا من ضروب الإعجاز، وهذا ما قرره الباقلاني حين قال: «فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادَّعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها ـ فأني لا أدفع ذلك وأصححه ـ، ولكن لا أدعي إعجازها لموضع التشبيه، ومن تلك الوجوه ما قد بيَّنَّا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان، وذلك لا يختص بجنسٍ من المبين دون جنس ولذلك قال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] فكرر في مواضع جل ذكره: أنه مبين فالقرآن أعلى منازل البيان»(٢).

ـ **الوجه الثالث**: أن البلاغة المختصة بالقرآن هي تلك البلاغة التي جعلت النظم يبنى على هذه الطريقة، حيث إنك لو أردت تبديل وجه من هذه الأوجه إلى وجه آخر لفسد النظم واختل، بخلاف بلاغة البشر التي تبنى على نظم الكلام بحيث لو أبدلت وجهًا من هذه الوجوه بغيرها لأمكن ذلك، بل ربما كان أجود وأبلغ، وقد أشار الرافعي إلى هذا الوجه وعدَّه من أبرز الفروق التي تميز بلاغة القرآن عن سائر البلاغات دون أن يشركه غيره فيه فقال: «ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن، وبين هذه الأنواع في كلام البلغاء، أن نظم القرآن يقتضي كلَّ ما فيه منها اقتضاءًا طبيعيًا بحيث يُبنى هو عليها؛ لأنها في أصل تركيبه، ولا تبنى هي عليه؛ فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء

(١) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٢٨١).

(٢) إعجاز القرآن (ص٢٧٦).

من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه، فضلًا عن أن يفي به، وفضلًا عن أن يربى عليه، ولو أدرتَ اللغة كلها على هذا الموضع، فكأن البلاغة فيه إنما هي وجهٌ من نظم حروفه بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء، فإن بلاغته إنما تصنع لموضعها وتُبنى عليه، فربما وَفَت وربما أخلفت، ولو هي رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها في مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف، بل لكان عسى أن يصح ويجود في مواضع كثيرة من كلامهم وأن نعرف له بذلك مزية في توازن حروفه وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة، ومما لا تغني فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها»[١].

- **الوجه الرابع**: أن البلاغة المختصة بالقرآن هي كل بلاغة لا سبيل إليها بالتعلم أو التصنع، وكل بلاغة يمكن تعلمها وتكلفها مهما بلغ حسن سبكها وجمال تأليفها فليست من البلاغة التي اختص بها أسلوب القرآن[٢].

والباقلاني إذ يقرر هذا الوجه فهو يقرره كالنتيجة والقاعدة، وهذا الوجه يمكن أن ينطبق على ما سبقه من الأوجه، وهو أن بلاغة بهذا الكمال الذي جمع أعلى درجات البيان، واتسق له من ضروب الكلام ما يجمع بين الفخامة والعذوبة حتى انساقت البلاغة فيه في نظم حروفه وكلماته، لا يمكن بلوغها بالتعلم والتكلف لأنها من خصائص أسلوب القرآن.

وهذا المعنى تجده مبثوثًا في كلام الخطابي حين قال: «وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٤٥).

(٢) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٢٧٥).

اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله»[١].

❊ ❊ ❊

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٦).

المَبحثُ الرَّابِعُ

علو فصاحة القرآن

الفصاحة من أشرف ما توصف به الألفاظ، ويكفيها شرفًا أن الله تعالى قد امتنَّ بها على العباد وعدّها من النعم التي أنعم بها عليهم، وفي ذلك يقول الخفاجي(١): «قد أكثر الناس من الدلالة على شرف الفصاحة وعظم قدر البيان والبلاغة ونبهوا بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة، وقد قال عزَّ اسمه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤] ولم يكن تعالى يذكر البيان ها هنا إلا وهو من عظيم النعم على عبيده وجميل البلاء عندهم لا جرم وقد قرن ذلك بذكر خلقهم فجعله مضافًا إلى المنة بخروجهم من العدم إلى الوجود ومن جانب النفي إلى الإثبات»(٢).

وقد حاز أسلوب القرآن من الفصاحة المقام الأعلى والمكان الأسمى، حتى غدا بفصاحته أحسن البيان، كما قال ابن القيم: «أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصف سبحانه به كتابه في قوله: ﴿وَلَا

---

(١) هو: عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان أبو محمد الخفاجيّ الحلبيّ، كان فصيحًا فاضلًا أخذ الأدب عن أبي العلاء المعرّي وغيره، وسمع الحديث وبرع فيه. ومات بقلعة إعزاز من أعمال حلب، توفي سنة (٤٦٦هـ). (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٩٦).

(٢) سر الفصاحة، للخفاجي (ص٦٠).

يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهي تفسيره وبيانه، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن ولهذا لا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتم بيانًا من كلام الله سبحانه ولهذا سمَّاه سبحانه بيانًا وأخبر أنه يسَّره للذكر»[١].

والفصاحة هي الظهور والبيان، وأفصح كل شيء إذا وضح، قال تعالى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤][٢].

وقيل: هي الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس، على عبارات جلية، ومعان نقية بهية[٣].

وقد عدَّ العلماء الكلام بليغًا إذا توفرت فيه هذه الشروط:

الأوّل: أن تكون الألفاظ عربية لا مما أحدثه المولدون ولا مما غلطت فيه العامّة.

الثاني: أن تكون من الألفاظ المستعملة لا من الوحشية المستثقلة.

الثالث: أن تكون العبارة واقعة على المعنى موفية له لا قاصرة عنه.

الرابع: أن تكون العبارة سهلة سالمة من التعقيد.

الخامس: أن يكون الكلام سالمًا من الحشو الذي لا يحتاج إليه[٤].

وقد سلم كتاب الله أن يعتريه شيء مما يقدح في فصاحته، ولذلك

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (١/ ٣٣٠).

(٢) **انظر**: سر الفصاحة (ص٥٨).

(٣) **انظر**: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص١٤٥).

(٤) **انظر**: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٢٤).

فإن ما يعبر عنه بالثقل أو الغرابة في القرآن لا يرجع إلى أصل اللفظ، ولا ينقص من فصاحته، فلا يكفي غرابته في الذهن أو ثقله على اللسان لتخرجه عن الفصاحة، فهي في حقيقتها قد بلغت الحد في الفصاحة، وقد فطن إلى ذلك د. محمد أبو موسى فقال معلقًا على شروط الفصاحة: «وينبغي أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعي وذوق؛ لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها من حيث إن هذا الثقل يصور معناها بحق، انظر كلمة [اثاقلتم] في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] **تجد فيها قدرًا من الثقل الفصيح**؛ لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض، واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه، وقد دعوا إليه في عام العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية»(١).

وقال مثل ذلك في الغرابة: «كان البلاغيون أعقل من أن يضعوا أصلًا للفصاحة يخرجون به آيات من القرآن، وجملة صالحة من حديث رسول الله ﷺ، ولو تأمل المعترضون عبارتهم لأدركوا ذلك؛ لأنهم يقولون في تحديد الغرابة: أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفتها إلى أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة فأشاروا إلى الموسوعات اللغوية الكبرى التي لا نظن أن القاموس، والأساس واحد منها»(٢).

ومن هنا عدّ العلماء الفصاحة من أوجه إعجاز القرآن، ومن خصائص نظمه، وليس القدر المعجز وجود الألفاظ الفصيحة وتكاثرها فيه، بل في استمرار الفصاحة استمرارًا لا يوجد في كلامٍ غيره ولا يقدر عليه أحد،

---

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني (ص٦٤).

(٢) المصدر نفسه (ص٦٧).

فالطبع الإنساني يعجز عن إدراك هذه الفصاحة والوصول لغايتها، وذلك لما يعتريه من سهو أو جهل أو سآمة تعرض له أثناء الكلام[١].

ولذلك فإن الفصيح متى ما سمع القرآن شهد بعلو فصاحته كما قال الباقلاني: «إن المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح، متى سمع القرآن عرف أنه معجز؛ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو»[٢].

وهذا المعنى طبقه الباقلاني في أوجه الخطاب وتقاسيمه في القرآن ورأى أن الفصاحة تدل على الإعجاز من حيث إن التفاوت الذي يقع في كلام الفصحاء بين الفصل والوصل، والعلو والنزول وغيرهما من أقسام الخطاب لا يوجد في أسلوب القرآن فسريان الفصاحة في أوجه خطابه وتقاسيم الكلام فيه يجعل المؤتلف كالمختلف والمتباين كالمتناسب وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة[٣]، والفصيح يعلم هذا من نفسه.

ويظهر وجه آخر من أوجه الإعجاز في فصاحة القرآن: وهو أن القرآن بما اشتمل عليه من الكمال البياني واستجماع محاسن الفطرة اللغوية، جمع العرب على لغة واحدة جعلت أهل كل لسان يأخذون بها ويرونها كمالًا في أنفسهم، ووجه ذلك كما يقول الرافعي: «قد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرؤوه بلحونهم وإن اختلفت وتناقضت؛ ثم بقي مع ذلك على **فصاحته وخلوصه**؛ لأن هذه الفصاحة هي في الوضع التركيبي، وتلك سياسة لغوية استدرج بها العرب إلى الإجماع على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة، كما وقع ذلك من

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠١).
(٢) إعجاز القرآن (ص٤٩).
(٣) انظر: إعجاز القرآن (ص٦٢) وهو المعنى الرابع الذي ذكره.

بعد فَجَرَتْ لغة القرآن على أحرف مختلفات في منطق الكلام؛ كتحقيق الهمز وتخفيفه، والمد والقَصر والفتح والإمالة وما بينهما، والإظهار والإدغام؛ وضم الهاء وكسرها من «عليهم وإليهم»، ونحو ذلك، فكان أهل كل لحن يقرؤونه بلَحنهم، وربما استعمل القرآن الكلمة الواحدة على منطق أهل اللغات المختلفة فجاء بها على وجهين، لمناسبة في نظمه: كَبرَاء، وبريء، فإن أهل الحجاز يقولون: أنا منك براء، لا يعدونها، وتميم وسائر العرب يقولون: أنا منك بريء، واللغتان: في القرآن»[1].

ويمكن أن نستجلي بعض هذه الفصاحة من خلال الوقوف على مظهرين من المظاهر الأسلوبية في القرآن:

أولًا: التعبير باللفظ تعبيرًا خاصًّا بأسلوب القرآن:

ليس خافيًا ما تضمنه الأسلوب القرآني من ألفاظ بينها من التقارب في المعنى ما يظن فيه الترادف وعند التأمل يتبيّن أن التعبير بهذا اللفظ في القرآن اكتسب خصوصية في الدلالة يظهر به تفوقه في الفصاحة عن سائر الكلام، وقد أشار الجاحظ إلى أن الناس قد يستعملون ألفاظًا مكان ألفاظ ويستخفون ذلك كاستخدامهم المطر والغيث أو الجوع والسغب وغير ذلك، بيد أنا نجد أسلوب القرآن يذكر المطر في موضع الانتقام دون الغيث، والجوع في موضع العقاب أو الفقر الشديد، وقل مثل ذلك في مجيء ألفاظ بصيغة الإفراد ولا تأتي مجموعة البتة، كلفظ [الأرض، والسمع] ونحو ذلك[2].

ولا شك أن هذه الألفاظ بينها من التقارب المعنوي في استخدام أحدهما مكان الآخر، أو استعمال اللفظ مفردًا أو مجموعًا ما يجعل

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص٤٧).

(٢) انظر: البيان والتبيين، للجاحظ (١/ ٤١).

العرب يتوسعون في التعبير بأحدهما مكان الآخر، ولما كان أسلوب القرآن يتسم بعلو الفصاحة وكمال الدلالة كان استعماله للألفاظ له خصوصيته في البيان.

فتارة تكون الفصاحة في استعمال اللفظ في كل موضع لمناسبة أو دلالة لا تدل عليها اللفظة الأخرى وإن اشتركت معها في المعنى، بل وإن استُعملت في الآية للدلالة على ذات المقصد، وهذا آكد في الفصاحة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] ففي هذا الموضع اختصَّ لفظ: ﴿نَصِيبٌ﴾ بالشفاعة الحسنة، واختصَّ لفظ: ﴿كِفْلٌ﴾ بالشفاعة السيئة، وكما نلاحظ أن لفظ: ﴿نَصِيبٌ﴾ ورد كثيرًا في القرآن في الخير والشر وغيرهما، أما لفظ: ﴿كِفْلٌ﴾ فلم يذكر سوى في هذه الآية فيما يتعلق بالشر، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] فيما يتعلق بالخير، وعند التأمل يتبين لنا كمال الفصاحة في إيثار هذين الموضعين بهذا اللفظ، فالكِفل وإن كان معناه الحظ والنصيب إلا أنه يتضمن معنى زائدًا.

فإن أصل الكفل يتضمن الحبس والحفظ والتحصين، كما قال الطبري[١]: «وأصل الكفل: الحظ، وأصله: ما يكتفل به الراكب، فيحبسه ويحفظه عن السقوط»[٢]، وفي «مقاييس اللغة»: «الكاف والفاء

(١) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد المفسر، أبو جعفر الطبري، من أهل آمل بطبرستان مولده سنة (٢٢٤هـ)، كان من كبار أئمة الاجتهاد، له كتاب «أخبار الأمم وتاريخهم»، كان ثقة صادقًا حافظًا رأسًا في التفسير إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علّامة في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة، وغير ذلك، توفي سنة (٣١٠هـ). (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧).

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٤٣٥).

واللام أصل صحيح يدل على تضمن الشيء للشيء، من ذلك الكفل: كساء يدار حول سنام البعير، ويقال هو كساء يعقد طرفاه على عجز البعير ليركبه الرديف، وإنما سمي بذلك لما ذكرناه من أنه يدور على السنام أو العجز، فكأنه قد ضمنه»[١].

ففي آية سورة النساء عظّم الله أمر الشفاعة السيئة تحذيرًا منها وكأن هذه الشفاعة تحبس صاحبها فتحيط به ولا يستطيع النجاة منها، وهذا الوصف أوضح في الدلالة وبيان المعنى، لما يترتب من الأضرار والمفاسد الناتجة عن الشفاعة السيئة وكأن كل ضرر ينتج عن هذه الشفاعة يحيط بصاحب الشفاعة إحاطة الكساء فيلزمه ويحبسه هذا الإثم كما يحبس الكساء صاحبه.

واستصحب هذا الأصل لمعنى الكفل في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨﴾ تجد فيه من دقة التعبير ما يزيد المعنى جلاء ووضوحًا، فإذا كان الكِفل: هو الكساء الذي يمنع صاحبه من السقوط، فإن الله تعالى قد وعد أهل الإيمان من أهل الكتاب بكفلين من الرحمة يحيطان بهم ويمنعهم من الوقوع في العذاب فكان التعبير بالكفل هنا أوضح في الدلالة لبيان أنه بسبب إيمانهم بنبي الله عيسى سيؤتيهم الله كفلًا من الرحمة يمنعهم ويحصنهم من العذاب، وسيضاعف لهم هذا الجزاء بكفل آخر من الرحمة لإيمانهم بالنبي محمد ﷺ، ولذا قال ابن جرير: «وقوله: يؤتكم كفلين من رحمته يعطكم ضعفين من الأجر لإيمانكم بعيسى ﷺ، والأنبياء قبل محمد ﷺ، ثم إيمانكم بمحمد ﷺ حين بعث نبيًا»[٢].

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٨٧)، **وانظر كذلك**: لسان العرب (١١/ ٥٨٨).
(٢) جامع البيان (٢٢/ ٤٣٥).

بهذا يتبيّن ما اختصَّ به أسلوب القرآن الكريم في التعبير باللفظ الأفصح في كل موضع من المواضع، وقد كان العرب يستخدمون كثيرًا من الألفاظ التي بينها قدر من الترادف أو التقارب في المعنى على سواء بينهما، وإن آثروا بعضها على بعض فلغرض غير المعنى؛ كالثقل والخفة والسجع والجناس وغير ذلك مما يقتضيه المقام، حتى أصبح القرآن بما تضمنه من دقة التعبير واختيار الألفاظ مقياسًا للفصاحة أعجز العرب أن يأتوا بمثله، وعلى هذا فإن ما ذكره ابن الأعرابي(١) حين قال: «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله»(٢). يمكن أن يزاد عليه فيقال: ولا يلزم العرب العلم به أو إدراكه كذلك(٣).

ولذا فقد عدَّ الخطابي هذا الوجه وهو عدم إحاطة العرب بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني، وعدم إدراك أفهامهم لجميع المعاني المحمولة على تلك الألفاظ من أسباب عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

ثانيًا: التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من عبارة:

تعددت الآيات التي تصور الخبر الواحد بألفاظ وأساليب متعددة، مع كمال الفصاحة وعدم الاختلاف، ولذلك لما وصف الله كتابه بأنه

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي، مولى العباس بن محمد بن علي بن العباس، وكان نحويًا كثير السماع، راوية لأشعار القبائل كثير الحفظ، لم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه، توفي سنة (٢٣١هـ). (طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزبيدي ص١٩٥).

(٢) المزهر، للسيوطي (١/ ٣١٤).

(٣) انظر: الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد (ص٢٢٨).

أحسن الحديث أعقبه بكونه متشابه فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد ذكر الزركشي أن من فوائد تكرار القصص في القرآن، ما يتضمن الفصاحة بإبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة، وأشار في ذلك إلى وجه لطيف في عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام في أن الله كرر قصص الأنبياء وساق قصة يوسف مساقًا واحدًا، إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي ﷺ قال لهم: (**إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في سائر القصص**)»[1].

وقد عدَّ محمد رشيد رضا هذا الوجه لما فيه ظهور الفصاحة واختصاص القرآن به وجهًا من أوجه التحدي فقال: «ولعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة، هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة وإزالة شبهة تخطر بالبال، كأنه يقول: أتحداكم أنتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن في قصصها مع السماح لكم بجعلها قصصًا مفتراة من حيث موضوعها، فإن جئتم به في مثل سوره القصصية في سائر مزاياها، فأنا أعترف لكم بدحض حجتي عليكم»[2].

ويعتبر الرافعي هذا الوجه من المعاني الدقيقة في التحدي فيقول: «وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجبًا: وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة»[3].

من خلال ما سبق يتبين ما اختصَّ به أسلوب القرآن من أنه حاز

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٩). (٢) تفسير المنار (١/ ١٦١).
(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٣٤).

الطبقة العليا في الفصاحة والبيان، ومهما بلغ المجتهد غايته في بيان وجه هذه الفصاحة وأسرارها فلن يستطيع، ولله.. ما أصدق قول ابن عطية حين فسّر قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فقال: «وهذه الآية بارعة الفصاحة جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، **وكل كتاب الله كذلك إلا أنَّا بقصور أفهامنا يبين في بعض لنا أكثر مما يبين في بعض**»(١).

❊ ❊ ❊

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٢٠١).

المَبْحَثُ ٱلْخَامِسُ

حسن تأليف القرآن

تبيّن في المبحث السابق كيف كانت الفصاحة وجهًا من وجوه الإعجاز في أسلوب القرآن، والفصاحة وإن كانت من خصائص الألفاظ، فلا يمكن إدراك سر فصاحتها إلا بالنظر في حسن ملائمة هذه اللفظة لجاراتها وحسن تأليف الكلمة مع الكلمة والجملة مع الجملة وهلمّ جرّا، وإذا تأملت الأمثلة في المبحث السابق، سيظهر لك أن وجه الفصاحة في اللفظ مرتبط بما يتعلق به من الكلام، فكان حسن التأليف حينئذٍ وجهًا آخر من وجوه الإعجاز اختصَّ به أسلوب القرآن، ولذلك يقول الجرجاني مؤكدًا هذا المعنى: «وهل تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: (لفظة متمكنة، ومقبولة)، وفي خلافه: (قلقة، ونابية، ومستكرهة)، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تَلِق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا[١] للتالية في مؤادها؟»[٢].

والباقلاني يعد حسن التأليف وجهًا من وجوه الإعجاز الذي يظهر به تفوق القرآن وتميزه في الفصاحة فيقول: «إنما يتبين فضل الكلام

---

(١) أي: ملائمة لها. (مقاييس اللغة ٥/٢٥٧).

(٢) دلائل الإعجاز (ص٤٤).

ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذها الأسماع وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديًا غامرًا سائر ما يقرن به؛ كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه وواسطة عقده والمنادى على نفسه بتميزه، وتخصصه برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه»[(١)].

ثم إن القرآن بما اختصَّ به من حسن التأليف جاء متلائمًا ومتناسقًا مع كثرة الأغراض وتعدد الموضوعات وتكاثر السور، وجاء متحدًا على تباعد النزول وتباين الأحوال «وأنت قد تعرف أن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نظمه انحلت وحدة معناه، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعًا، وانفصل ما كان متصلًا؛ كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحها مستويًا، أليس الكلام هو مرآة المعنى؟ فلا بد إذًا لإبراز تلك الوحدة الطبيعية المعنوية من إحكام هذه الوحدة الفنية البيانية، وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره؛ حتى تتماسك وتتعانق أشد التماسك والتعانق»[(٢)].

وهذا من جودة السبك وتمام التناسب في أسلوب القرآن[(٣)]، وحسبي هنا الإشارة إلى ركنين مما يقوم عليهما حسن التأليف.

أولًا: الروابط والعلاقات بين الجمل:

وهذا المظهر من أدق أبواب النظم، قال فيه الخطابي بعد أن ساق جملة من الأمثلة، «وهذا الباب عظيم الخطر، وكثيرًا ما يعرض فيه الغلط، وقديمًا عني به العربي الصريح فلم يحسن ترتيبه وتنزيله»[(٤)].

---

(١) إعجاز القرآن (ص٦٧). (٢) النبأ العظيم (ص١٧٦).
(٣) وسيأتي الحديث عن التناسب بالتفصيل في الفصل الثاني بإذن الله.
(٤) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٣٣).

ويقول ابن الأثير: «وهذا موضع لطيف المأخذ، وما رأيت أحدًا من علماء هذه الصناعة تعرض إليه ولا ذكره، وما أقول: إنهم لم يعرفوه، فإن هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى؛ لأنه مذكور في كتب العربية جميعها، ولست أعني بإيراده ههنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع «المعطوف» المعطوف عليه في الإعراب بل أمرًا وراء ذلك، وإن كان المرجع فيه إلى الأصل النحوي»(١).

فالروابط إذًا تكشف عما وراء الصناعة النحوية من ألوان المعاني، وتبرز الأسرار في أسلوب القرآن، وتبين خصوصيات التراكيب ومدى ارتباطها بالسياق العام.

ويبيّن ابن الأثير أثر هذه الروابط في بلوغ الكمال اللغوي فيقول عند قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]: «ألا ترى أنه لما قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ كيف قال: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ ولم يقل: ثم قدره؛ لأن التقدير لما كان تابعًا للخلقة وملازمًا لها عطفه عليها بالفاء؟ وذلك بخلاف قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾؛ لأن بين خلقته في بطن أمه، وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزمانًا، فلذلك عطفه بثمّ.

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾؛ لأن بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخيًا وفسحة، وكذلك بين موته ونشوره أيضًا، ولذلك عطفهما بثم، ولما لم يكن بين موت الإنسان، وإقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء، وهذا موضع من علم البيان شريف، وقلّما يتفطن لاستعماله كما ينبغي»(٢).

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ١٨٦).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ١٨٧).

ومن المواطن التي يظهر فيها أثر الروابط في حسن تأليف القرآن، تغاير الروابط والعلائق في الآيات المتشابهات، ومن ذلك ما أورده الزمخشري في وجه العطف بالواو في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨] والعطف بالفاء في وسط السورة بقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]، فقال: «السبب في ذلك أنّ هذه وقعت مسببة عن قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ [الزمر: ٤٥] على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأزّ من ذكره، دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه. **قلت**: ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه، وقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ ثم ما عقبه من الوعيد العظيم، تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل: قل يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجرأة، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقًا. أو إياهم خاصة إن عنيتهم به، كأنه قيل: ولو أنّ لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به. حين أحكم عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها»[1].

وبهذا يظهر أثر هذه الروابط وأنها ليست لربط بعض الكلام ببعضه فقط وإنما لما تدل عليه من استقامة المعنى، وتوضيح المفهوم من الكلام

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١٣٤).

وبيان الوشائج والصلات بين الجمل والآيات[١].

والروابط كما تكون حسية، فقد تكون معنوية، ويكون ارتباطها في غاية التمام وحسن الالتئام ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] فهذه الجملة وقعت موقع الاستئناف البياني، ومع ذلك فارتباطها بما سبق في غاية التناسب وحسن التأليف.

فارتباطها بقوله: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وقع موقع التعليل: فإن العدة من الأشياء فلما أمر الله بإحصاء أمرها علل ذلك بأن تقدير مدة العدة جعله الله، فلا يسوغ التهاون فيه.

وارتباطها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ وقع موقع التذييل: فإن الذي وضع تلك الحدود قد جعل لكل شيء قدرًا لا يعدوه كما جعل الحدود.

وارتباطها بقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وقع موقع التعليل: لأن المعنى إذا بلغن القدر الذي جعله الله لمدة العدة فقد حصل المقصد الشرعي الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ①﴾، **فالمعنى**: فإن لم يحدث الله أمر المراجعة فقد رفق بكم وحط عنكم امتداد العدة.

وارتباطها بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ وقع موقع التعليل كذلك: فإن الله جعل الشهادة قدرًا لرفع النزاع[٢].

فتأمل حسن الارتباط بما قبلها من الآيات مع كونها وقعت موقع الاستئناف.

---

(١) **انظر**: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد أبو موسى (ص١٩٢).

(٢) **انظر**: التحرير والتنوير (٢٨/ ٣١٤).

ثانيًا: وفرة الإفادة وتعدد الدلالة:

فأسلوب القرآن بما اشتمل عليه من حسن التأليف قائم على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة؛ ذلك أن حسن ترتيب الكلام والجمل في القرآن ينتج عنه دلالات لا تكاد تجدها في غيره، وفي ذلك يقول ابن عاشور: «إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها، ولها دلالتها المطوية وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادًا على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثرت في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة، ولها دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها وما بعدها، ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض أو نحوه. وهذه الدلالة لا تتأتَّى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة، وبتلك الإطالة تأتَّى تعدد مواقع الجمل والأغراض»(١).

تأمل هذه الدلالات في حذف الجواب في مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] كم من الدلالات المطوية في النفوس التي تصلح أن تقدر جوابًا، فحذف الجواب لكي تبرز هذه الدلالات بحسب ما تجد النفس من وقع هذا الأسلوب عليها، كما قال الزركشي: «حُذِف الجواب، إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى فجعل الحذف دليلًا على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه، وتركت النفوس تقدر ما شأنه ولا يبلغ مع ذلك كنه ما هنالك؛ لقوله عليه الصلاة

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١٠).

والسلام: (لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)»[(١)].

فهذا الحذف ما كان ليحمل هذه الدلالات إلا لما قام عليه من حسن التأليف وذكر ما يناسب دلالته على المحذوف، وحذف ما يكون حذفه متضمنًا في الكلام.

وكم تضمن هذا الأسلوب من الدلالات المطوية مما لا يقدر عليه بشر، حتى تهيبه المتهيبون ووصفه ابن القيِّم بأنه أسلوب بديع عجيب في القرآن[(٢)].

ومن الأساليب التي يبرز فيها من وفرة الإفادة وتعدد الدلالة ما يبهر: التقديم والتأخير، فهو يدل على التمكن في الفصاحة وانقياد الكلام لصاحبه، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق[(٣)].

ولك أن تنظر في بعض الألفاظ كيف كان تقديمها له دلالة في موطن وكيف كان تأخيرها له دلالة في موطن آخر، ثم تأمل في كل دلالة وكيف أن الكلام لا يستقيم إلا بهذه الدلالة، ومن ذلك مثلًا: ذكر المال والولد، وكيف قُدّم ذكر الأموال في مواضع، وأُخِّر في مواضع.

فتقديم الأموال على الأولاد في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، فلأنه ينتظمها معنى واحد وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة، ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٠٦).
(٢) انظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٠٩).
(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٣٣).

وأما تقديم الأهل والولد على الأموال في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤]، فلأنها متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله.

وأما تقديم الأموال في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]، فذلك أن الآية لما كانت في سياق الإخبار بما زين للناس من الشهوات التي آثروها على ما عند الله قدّم ما تعَلُّقُ الشهوةِ به أقوى، وهو النساء التي فتنتهن أعظم فتن الدنيا، ثم ذكر البنين المتولدين منهم فالإنسان يشتهي المرأة للّذة والولد وكلاهما مقصود له لذاته ثم ذكر شهوة الأموال؛ لأنها تقصد لغيرها فهي شهوة الوسائل[1].

والمقصود أن الروابط والعلائق بين الألفاظ والجمل في أسلوب القرآن ما كان لها أن تظهر بهذا الحسن إذا قصد منهما مجرد نظم الكلام وربطه ببعضه فقط، وإنما لما تبنى عليه تلك الدلالات في ثنايا هذه الروابط، وبهذا يظهر حسن التأليف وهذه هي المزية التي اختصَّ بها أسلوب القرآن.

وإلى ذلك يشير الجرجاني فيقول: «واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض، سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك، لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين، وذلك إذا كان معناك، معنىً لا تحتاج أن تصنع فيه شيئًا غير أن تعطف لفظًا على مثله... وإنما نحن في أمور تدرك

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ٧٥ ـ ٧٧).

بالفِكَرِ اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم وهذا باب ينبغي أن تراعيَه وأن تعنى به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام ودريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكل شكله، وقابلته بما هو نظير له، وميزت ما الصنعة منه في لفظه، مما هو منه في نظمه»[١].

فكلما دق نظر المتأمل ظهر له من عمق الدلالة وحسن التأليف ما لا يمكن أن يصدر مثله عن بشر، وتأمل كيف كان منزلة حرف (الواو) في جملة: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] حسنة التأليف عظيمة الدلالة، حتى قال بعض العلماء: «حُقّ لهذه الواو أن تكتب بماء العينين» وذلك لما كان في مجيئها بعد ذكر الأصناف الثلاثة دخولهم في الوعد لهم بالجنة[٢].

فتبارك من أودع كلامه من الحِكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام[٣].

* * *

(١) دلائل الإعجاز (١/ ٩٦).
(٢) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي (٥/ ٤٩٠).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٣١).

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

تناسب القرآن وائتلافه

ويتضمن ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: تناسب ألفاظ القرآن ومعانيه.
- المبحث الثاني: التناسب بين السورة والسورة.
- المبحث الثالث: التناسب في السورة الواحدة.

المبحث الأول

تناسب ألفاظ القرآن ومعانيه

الألفاظ وما تتكون منه من حروف وما تتعلق به من روابط هي الوسائل الدالة على المعاني، والمعاني غايات، وكلما صحت الوسائل كلما دلت على الغايات وأوصلت إليها بأقصر طريق وأحسنه، فكل حرف في اللفظ له أثر على المعنى، وكل رابط أو متعلق باللفظ يزيد في المعنى بقدر صلته وتعلقه، فاللفظ والمعنى بينهما تناسب وائتلاف.

وقد كثرت أقوال أهل العلم في بيان التناسب بين اللفظ والمعنى ما بين مؤصّل ومبيّن للروابط والعلائق بينهما، وما بين مطبّق له.

فقد عقد ابن جني[(١)] بابًا في ذلك وقال فيه: «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف وقد نبّه عليه الخليل[(٢)] وسيبويه[(٣)] وتلقَّته جماعة بالقبول له والاعتراف بصحّتِه»[(٤)]، وقال عنه إنه: «من أشرف فصول العربيَّة وأكرمها

(١) هو: أبو الفتح، عثمان بن جني الموصلي، أخذ العربية عن أبي علي الفارسي، (ت٣٩٢هـ). (انظر: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ص٢٠٠، معجم الأدباء ٤/ ١٥٨٥).

(٢) هو: أبو عبد الرحمٰن، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري، العروضي النحوي اللغوي (ت١٧٥هـ). (معجم الأدباء ٣/ ١٢٦٠، طبقات اللغويين والنحويين، ص٤٧).

(٣) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر، مولى بني الحارث بن كعب بن عمرو، ولد بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء، أخذ عن الخليل بن أحمد وكان أثبت من أخذ عليه، توفي سنة (١٨٠هـ)، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. (انظر: طبقات اللغويين والنحويين ص٦٦).

(٤) الخصائص، لابن جني (٢/ ١٥٢).

وأعلاها وأنزهها، وإذا تأملته عرفت منه وبِه ما يُؤنِقك ويذهب في الاستحسان له كل مَذْهَب بك»[١]، ووصْفُه هذا العلم باللطافة يدل على أنه بحاجة إلى إعمال الفكر وإمعان النظر.

وقد وصف ابن القيِّم[٢] أرباب هذا العلم بقوله: «وقد قدمنا أن الألفاظ مشاكلة للمعاني التي هي أرواحها، فيتفرس الفطن فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسه، كما يتعرف الصادق الفراسة صفات الأرواح في الأجساد من قوالبها بفطنته، وقلت يومًا لشيخنا أبي العباس ابن تيمية قدس الله روحه: قال ابن جني: مكثت برهة إذا ورد عليّ لفظ آخذ معناه من نفس حروفه وصفاتها وجرسه وكيفيّة تركيبه ثم أكشفه فإذا هو كما ظننته أو قريبًا منه فقال لي رَحِمَهُ اللهُ: وهذا كثيرًا ما يقع لي»[٣].

ويصف العلاقة بين اللفظ والمعنى فيقول: «اعلم أن الأصل هو المعنى المفرد وأن يكون اللفظ الدال عليه مفردًا؛ لأن اللفظ قالب المعنى ولباسه يحتذي حذوه والمناسبة الحقيقيّة معتبرة بين اللفظ والمعنى طولًا وقصرًا، وخفة وثقلًا، وكثرة وقلة وحركة وسكونًا، وشدة ولينًا، فإن كان المعنى مفردًا أفردوا لفظه، وإن كان مركبًا ركّبوا اللفظ وإن كان طويلًا طوّلوه»[٤].

والسيوطي يذكر رأي أهل اللغة فيقول: «وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يُطْبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني»[٥]، وقد

(١) الخصائص، لابن جني (١/ ٢١٥).

(٢) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي ولد سنة (٦٩١هـ)، وسمع على أبي بكر بن عبد الدائم والمجد الحراني وابن تيمية، وكان واسع العلم عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، له مؤلفات كثيرة ونافعة، توفي سنة (٧٥١هـ). (الدرر الكامنة ١/ ٤٨١).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١١٦).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ١٥٠).

(٥) المزهر في علوم اللغة، للسيوطي (١/ ٤٠).

عدّه من بدائع القرآن في كتاب الإتقان[1].

وقد بلغت عناية العرب باختيار اللفظ وتحسينهم له مبلغًا عظيمًا، لما له من الدلالة على المعنى الذي هو في نفوسهم أبلغ وأقوى، ترى هذا في تحليل ابن جني لتراثهم إذ يقول: «وذلك أن العرب كما تُعْنَى بألفاظها فُتصلحها وتهذِّبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة، وبالُخَطب أُخرى، وبالأسماع التي تلتزمها وتتكّلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قَدْرًا في نفوسها، فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها فإنها لما كانت عُنوان معانيها وطريقًا إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتّبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهبَ بها في الدلالة على القصد»...إلى أن قال: «فإذا رأيتَ العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسَّنوها وحَمَوْا حواشيهَا وهذَّبوها وصقَلوا غُرُوبها وأرهفوها فلا تَرَيَنَّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ بل هي عندنا خِدْمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها»[2].

ومع عناية العرب بهذا التناسب بين اللفظ والمعنى في كلامهم وأشعارهم وخطبهم وبلوغهم في ذلك مبلغًا عظيمًا، فإنهم يقفون عاجزين أن يبلغوا في ذلك مبلغ الكمال وأول ما يشهد عليهم بذلك صنيعهم، فترى أحدهم مهما بلغ حرصه على تناسب الألفاظ واختيار الحروف وتعانق المعاني، ومهما استحسن الناس كلامه وأعجبوا به غير أنه يستشرف الكمال ولا يستحسن ما قدّمه رجاء أن يقدّم ما هو أحسن وأبلغ.

فإذا نظرت في كتاب الله وجدت هذا التناسب والائتلاف بين ألفاظه ومعانيه جارٍ مجرى الشمول والاستقصاء وهذا من خصائصه[3].

---

(١) وقد عقد له فصلًا فيه، انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٦).

(٢) الخصائص (١/ ٢١٥، ٢١٧).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ١١٠).

ومن خصائص التناسب في اللفظ والمعنى أنه تناسب مطّرد فمهما اختلفت الأفهام أو تفاوتت الثقافات، أو تبدلت الأزمان يبقى التناسب بين اللفظ والمعنى قائمًا وكل مطّلع يدرك منه ما يفتح الله عليه(١) ـ وذلك حين يكون المتأمل صحيح الفهم على علم بأساليب القرآن وأوجه مخاطباته ـ.

وقبل بيان صور ومظاهر هذا التناسب في أسلوب القرآن، يحسن الإشارة إلى أن هذا التناسب ليس تناسبًا في دلالة اللفظ على المعنى فحسب، بل هو تناسب بين ألفاظ الكتاب وبين معاني الحياة التي تجعل القرآن واقعًا مُعاشًا في حياة الناس، تلك المعاني التي يحتاجها الإنسان في حياته وعلاقاته، وشعوره، واعتقاده والتي تعينه على عمارة الأرض والاستخلاف فيها.

تأمل هذا التناسب في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

فهذه الأرض وما فيها من جبال راسيات وصخور صماء هيأ الله لنا شقها ونحتها وغرسها فإذا الجبال بيوت آمنة، وإذا الهضاب رياض مثمرة، وهذا المعنى العظيم في عمارة الأرض واستثمار منافعها في غاية التناسب مع اللفظ القرآني ﴿ذَلُولًا﴾ فالذَّلول على وزن (فَعول) ومصدره: (الذِّل) دون (الذُّل)، والذل بالكسر: السهل المنقاد من غير صعوبة، أما الذُّل بالضم: فيه انقياد بمشقة، فهذه الأرض اليابسة الصلبة سهلها الله لنا منقادة دون عناء بأيسر ما يكون من صنوف التذليل(٢)، ثم جاء اللفظ القرآني بصيغة المبالغة ﴿ذَلُولًا﴾ تأكيدًا لهذا المعنى ومتناسبًا تناسبًا تامًا

---

(١) انظر: مناهل العرفان (٢/ ٣٠٨).

(٢) انظر: جامع البيان (١٤/ ٥٥١)، الفروق اللغوية، للعسكري (١/ ٣٢)، المحتسب، لابن جني (٢/ ١٧)، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان (٨/ ٢٢٦).

مع سُنَّة الله في هذه الحياة، وحفْزًا واستنهاضًا لطبيعة النفس البشرية التي قد يكتنفها العجز واليأس فيما تلاقي من صعوبات الحياة.

وفي ذلك يقول الرافعي: «وإنما اطرد ذلك للقرآن ـ أي: التناسب ـ وامتنع أن يكون في مقدور الخلق؛ لأنه تفصيل للحروف على النحو الذي يأخذه فيه تركيب الحياة، مما أجرى الله عليه نشءَ الخلق وبعث الحياة»(١).

هذا التناسب بين ألفاظ القرآن ومعانيه تلحظ مظاهره وصوره في أساليب كثيرة تبدأ من بناء الكلمة واختيار حروفها، إلى التناسب في الزيادة في مبنى الكلمة أو التضعيف فيها، أو التناسب في اختيار الجملة، وكذلك التناسب في اختيار الفعل وما يتعدى به، إلى غير ذلك من أساليب القرآن الكريم.

أولًا: تناسب الحروف في الكلمة:

الحروف عند العرب تتفاوت قوةً ضعفًا وهذا التفاوت يؤدي إلى تفاوتٍ في المعنى تلحظ هذا في استقراء ابن جني لألفاظ اللغة وحروفها فتراه يقول: «فإن كثيرًا من هذه اللغة وجدْتُه مضاهيًا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها، ألا تراهم قالوا قِضم في اليابس، وخِضم في الرّطْب، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف»(٢).

وعند الرجوع إلى كتاب الله تلمس هذا التآلف بين الألفاظ ومعانيها، فإن كان المعنى يتضمن قوة جاء معه الحرف الأقوى، وإن كان يحتمل ليونة وسهولة جاء معه ما يناسبه، **ومن ذلك:**

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٦٤).
(٢) الخصائص (١/ ٦٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، **ومعنى** قوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: تحرّكهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله وتغريهم بها حتى يواقعوها ﴿أَزًّا﴾ إزعاجًا وإغواء[(١)].

فكلمة: (الأزّ)، وكلمة: (الهزّ) دلالتهما على الحركة والاضطراب واحدة إلا أن (الأزّ) بالهمز يدل على معنى إضافي دقيق يناسب اختيار الهمزة في التعبير عنه، فالأز فيه معنى الاستعجال والاحتيال والإزعاج.

يقول ابن فارس في بيان معنى (الهز والأز) والفرق بينهما: «الهاء والزاء: أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ في شيء وحركة» «والهمزة والزاء يدلّ على التحرّك والتحريك والإزعاج، قال الخليل: الأزُّ: حمل الإنسانِ الإنسانَ على الأمرِ برفقٍ واحتيال»[(٢)].

ويقول الشوكاني[(٣)] في هذه الآية: «فإن الأزّ والهزّ والاستفزاز **معناها**: التحريك والتهييج والإزعاج، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرّك الكافرين وتهيجهم وتغويهم وذلك هو التسليط لها عليهم، وقيل: **معنى** الأزّ: الاستعجال، وهو مقارب لما ذكرنا؛ لأن الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وإزعاج»[(٤)].

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٦]، وصف الله العين بـ (النضخ)، والنضح والنضخ يستعملان في وصف

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٥١)، **وانظر**: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٦٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٩)، (١/ ١٣).

(٣) هو: محمد بن علي بن محمد الشوكاني ولد سنة (١١٧٢هـ)، ولازم القاضي أحمد بن محمد الحرازي، ودرس على القاسم بن محمد الخولاني، له مؤلفات في أغلب العلوم، ومن ذلك: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، و«فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من التفسير»، و«إرشاد الفحول»، وغيرها من الكتب (ت١٢٥٠هـ). أبجد العلوم، للقنوجي (٣/ ٢٠١).

(٤) فتح القدير، للشوكاني (٤/ ٤٧٩).

الماء إلا أن النضخ بالخاء أقوى من النضح بالحاء[١]، وذلك أن «النون والضاد والحاء أصلٌ يدلُّ على شيءٍ يُندَّى، وماء يُرشّ، فالنَّضْح: رشُّ الماء، قال أهلُ اللُّغة: يقال لكلٍّ ما رقَّ: نَضْحٌ أما النون والضاد والخاء قريبٌ من النضح، إلَّا أنّه أكثر منه، يقولون: النَّضْخ كاللّطْخ من الشّيء يبقى له أثَر»[٢].

وبهذا يتبين أن لفظ (النضخ) في الآية كانت أنسب في وصف عيون الماء، قال الزمخشري: «فوّارتان بالماء، والنضخ أكثر من النضح؛ لأن النضح غير معجمة مثل الرش»[٣]، وهذا الفوران فيه من زيادة الخير والنعيم والبركة ما يناسب نعيم أهل الجنة، فكان لفظ النضخ أدل على المعنى من النضح.

ثانيًا: التناسب في تضعيف الكلمة أو الزيادة فيها:

لئن كان اختيار الحرف في أصل الكلمة مؤثرًا في المعنى بحيث يؤدي إلى المعنى الأنسب فإن الزيادة في مبنى الكلمة بالتضعيف أو غيره لا بد أن تكون لعلة تناسب المعنى المراد، وقد كان العرب يرون أن تضعيف الكلمة يزيد المعنى المحدّث به قوة[٤].

ومن القواعد التي اصطلح عليها العلماء أن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى وذلك لما بين اللفظ والمعنى من التناسب والائتلاف[٥]، **ومن الأمثلة على ذلك:**

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٧/ ١٨٥)، تفسير اللباب، لابن عادل (ص٤٧٧٦)، فتح القدير (٧/ ١١٤).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٤٣٨).

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٤٥٣).

(٤) انظر: الخصائص (٢/ ١٥٥).

(٥) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٦)، البرهان في علوم القرآن (٤/ ٣٤)، مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣٧).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، وردت هذه الآية في بيان ما حل بقوم فرعون من العقوبة ومعنى قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ فعاقبناهم بكفرهم بالله عقوبة شديد لا يُغلَب، مقتدر على ما يشاء، غير عاجز ولا ضعيف[(١)].

وكلمة: ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ في هذه الآية أنسب من كلمة [قادر] في الدلالة على المعنى فـ ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ هنا: بالغ القدرة إلى حد لا يدرك الوصف كنهه؛ لأن صيغة الافتعال مبناها على المعاجلة، من عاجل فعلًا أجهد نفسه فيه، فكان على أتم الوجوه، وهذه الغاية هي المرادة ليس غيرها[(٢)].

والاقتدار هنا في غاية التناسب لما كان عليه فرعون من الطغيان ولما حل به من النكال والعذاب من وجهين[(٣)]:

الأول: قوة الأخذ مع شدة العقاب التي لا تصدر إلا عن قوة وغلبة متناسب مع التكذيب الحاصل من قوم فرعون الذي بلغوا فيه أعلى دركات التكذيب، فالتعبير بـ (كلّها) في هذه الآية: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ وفي سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦] فيه دلالة على بلوغ أقصى مراتب التكذيب لجميع الآيات التي من شأنها أن تبيّن لهم الطريق الصواب فاستحقوا بذلك شدة العقاب، كيف وقد جمعوا مع ذلك الإصرار وردّ الحق قبل مجيئه كما في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

الثاني: الدلالة على عظيم القدرة وبسطها فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادرِ وذاك أن [مقتدر] اسم فاعل من اقتدر، و[قادر] اسم

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٥٤).
(٢) نظم الدرر، للبقاعي (٧/ ٣٦٥)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٤).
(٣) انظر: المثل السائر (٢/ ٥٦).

فاعل من قدر، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل، وهذا فيه تبكيت لما زعمه فرعون حين قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فكان هلاك فرعون الذي بلغت قوته وقدرته ما جعله يدّعي صفات الألوهية، بكلمة واحدة من المقتدر الجبار ذو القدرة العظيمة ﷻ.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، فكلمة ﴿فَدَمْدَمَ﴾ أصلها من الدال والميم (دمّ) وهي تدلّ على غِشْيان الشَّيء، ومنه الطلاء واللطخ والإطباق فتقول: ناقة مدمومة؛ أي: ألبستها الشحم، وثوب مدموم؛ أي: لطخ بالطلاء والعرب تقول دَمَمْت على فلان، ثم تقول: من المبالغة دَمّمْت بالتشديد، ثم تقول من تشديد المبالغة دَمْدَمت، والتركيب يدل على غشيان الشيءِ الشيءَ، ولما كانت الآية فيها معنى تضعيف العذاب وتكرير الإطباق جاء اللفظ مضعفًا[١].

وبهذا يكون لفظ: (الدمدمة) مناسبًا لما عليه المعنى من شدة العقوبة وحال الدمار الذي حلّ بقوم ثمود بل مناسبًا لما وصفهم الله تعالى في السورة من الطغيان والشقاء والتكذيب وعصيان الأمر فكان هذا الجزاء مناسبًا للمعاصي المتكررة التي اقترفوها.

ثالثًا: التناسب في التعبير بالاسم أو الفعل:

من التناسب الذي نلحظه بين اللفظ والمعنى: أثَرُ اختيار الجملة في الدلالة على المعنى، وقد يظهر لك بادي الرأي أن التعبير بالاسم أو

(١) انظر: معاني القرآن، للزجاج (٥/ ٣٣٣)، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٢٦٠)، مفاتيح الغيب، للرازي (٣١/ ١٧٩)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣١).

الفعل، أو التعبير بصيغة الماضي أو صيغة المضارع يدلان على معنى واحد والتعبير بأحدهما يغني عن الآخر، فقد تخبر عن زيد مثلًا فتقول: (زيد ذاهب) أو (زيد يذهب) أو (ذهب زيد) للإخبار بذهاب زيد، ولكن كل جملة لها دلالة لا تحملها الجملة الأخرى، ومعرفة الفروق ومناسبة كل جملة لما تدل عليه، باب من أبواب البلاغة.

وإذا أجلتَ النظر في كتاب الله لا تجد التعبير بالاسم أو الفعل إلا ودلالته على المعنى أبلغ الدلائل وأنسبها، بل التعبير بغيره يفسد المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾: أنه قلّبهم على جنوبهم بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾؛ أي: أن الكلب قد بسط ذراعيه على موضع الباب[(١)].

فالتعبير بالفعل ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ دلّ على تكرّر هذا الفعل، أما التعبير بالاسم ﴿بَاسِطٌ﴾ دلّ على طول المدة[(٢)]، والسبب في تنوع دلالة الجملتين أن الفعل يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء، وأما الاسم فيثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء[(٣)].

يقول الجرجاني: «فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ فإن أحدًا لا يشك في امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا: كلبهم يبسط ذراعيه، لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة

---

(١) معالم التنزيل، للبغوي (٥/١٥٨).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/٣٧٣)، التحرير والتنوير (١٥/٣٦).
(٣) انظر: دلائل الإعجاز (١/ ٥٠).

وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة، وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئًا فشيئًا»(١).

ولهذا التناسب يعلل الزركشي بين بعض الألفاظ فيقول: «ومن هذا يُعرَف لم قيل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ ولم يقل المنفقين في غير موضع، وقيل كثيرًا: [المؤمنون والمتقون]؛ لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال وحيث يراد ثبوت الاتصاف بها فالأسماء»(٢).

فهذا المثال يبيّن وجه المناسبة بين نوع الجملة وبين المعنى الدالة عليه.

أما التناسب في التعبير بصيغة المضارع أو الماضي وما يدلان عليه، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

فصيغة الماضي المعبر بها في قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ عدل بها إلى المضارع في قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لمعنى لا يصلح التعبير عنه بالماضي، فالمضارع يفيد استحضار تلك الهيئة الجميلة وتمثلها كأنها حاضرة مشاهدة بعد نزول المطر، والماضي لا يفيد دوام استحضارها؛ لأنه يفيد انقطاع الشيء(٣).

أما التعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فقد يظن ظان أن هذا اللفظ مخالف لمعناه، وذلك أن القيامة

---

(١) دلائل الإعجاز (١/ ٥٠).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٦٧).
(٣) انظر: تفسير الكشاف (٣/ ١٦٨)، فتح القدير (٥/ ١٣٣)، أضواء البيان (٥/ ١٩٥).

وأهوالها أمور لم تحدث بعد فكيف يعبر عنها بصيغة الماضي؟

وهنا يكمن سر البلاغة في أن التعبير بالماضي هو الأنسب في ذكر أهوال يوم القيامة، وذلك أن الكفار كانوا ينكرون البعث بل ويستبعدونه، فجاء التعبير بالماضي عن المستقبل تنزيلًا للأمر منزلة الوقوع، فيحصل بهذا التعبير ما يحصل من الزجر والاتعاظ مع الرد والتهديد للمكذبين والمنكرين، ولذا فإن هذا التعبير غالبًا ما يكون في الأمور الهائلة العظيمة كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١] وغيرها من الآيات[١].

رابعًا: التناسب في تعدية الفعل:

الأفعال كما تأتي لازمة فإنها ترد متعدية، وكما أن كلّ فعل له معنى يدلّ عليه فإن لكل حرف معنى يدل عليه كذلك، فإذا تعدَّى الفعل بحرف من حروف المعاني فلا بدّ حينئذٍ من تأثر هذا الفعل بما تعدى به، فقد يؤثّر عليه هذا الحرف فيضمّنه معنى آخر، أو يوجّهه أو يخصّصه فتتعدّد معاني الأفعال بحسب ما تتعدى به من حروف.

ولما كانت ألفاظ القرآن الكريم موافقة للمعنى، فإن الناظر بعين التأمل والتفكر يظهر له وجه التناسب في تعدية الأفعال بما يناسبها.

ففي قول الله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان: ٦]، والعين يُشرب (منها) لا (بها)، فعدّي الفعل (يشرب) بـ (الباء) حتى يتضمن الشرب معنى الإرواء وهذا فيه من كمال اللذة وحصول الفائدة ما

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٧٢)،أضواء البيان (٢/ ٣٢٦)، روح المعاني، للآلوسي (١٢/ ٢٨٢).

لا يؤديه (يشرب منها)[١].

ومن الأمثلة التي يتبين للقارئ فيها التناسب في تعدية الفعل: قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

يخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين تسلية لهم أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا خبالًا، لكن تعدية ﴿خَرَجُواْ﴾ بحرف الجر (في) ضمّنها معنى آخر فالخروج (مع) المؤمنين فيه نوع ممايزة ووضوح، أما الخروج (في) المؤمنين متضمن معنى الخفاء والتغلغل والمخالطة وكأنهم منهم، وهذا أقدر على إثارة البلبلة والفتنة، فهم لو خرجوا كانوا سيخرجون متلبسين بلباس الإيمان ولذلك قال الله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ ولو كان يعلم المؤمنون أنهم منهم لما استمعوا لهم[٢]، وعليه فيضمن معنى ﴿خَرَجُواْ﴾ الاختلاط والممازجة[٣].

وهذا المعنى متناسب مع طبيعة المنافقين التي تظهر الإيمان وتبطن الكفر، والتي من طبعها التلبيس والإرجاف.

ومن الأمثلة في تعدية الفعل ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، فقد جاء الفعل [خرج] متعديًا بحرف جر آخر فتضمن الخروج معنى زائدًا مناسبًا لما سيق من أجله، فقارون لم يخرج لقومه خروجًا عاديًا، وإنما [خرج عليهم] وهنا ضمّن الخروج معنى الترفع والاستعلاء، فخروجه كان خروج تكبر واستعلاء وتفاخر بزينته وأبّهته، وهذا هو المعنى المناسب للآيات السابقة التي بينت نصح قومه له وما رد به عليهم من صلف وتكبر، حيث لم يتّعظ ولو زمنًا يسيرًا

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٨).
(٢) وهذا هو الأرجح والله أعلم. انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٠).
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٥)، روح المعاني (٥/ ٣٠٢).

فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، بل كان من صلفه أنه أتبع رده خروجه باستعلاء وتكبُّر، ولذا جاء العطف بالفاء في ﴿فَخَرَجَ﴾ دالّة على التعقيب فكأن **المعنى**: قال إنما أوتيته على علم عندي فخرج(١).

وهذا الباب من أبواب التناسب يحتاج إلى فكر وإعمال ذهن، كما يقول ابن القيِّم: «هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى وطريقة حذاق أصحابه يضمّنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن»(٢).

وهكذا نرى التناسب بين ألفاظ القرآن ومعانيه من خلال الصور التي ذُكِرت واضحًا ظاهرًا، وكأنما صُهِر اللفظ ومعناه في قالب واحد وصيغت منه سبيكة محكمة الصنع حسنة المظهر.

فما من لفظة في كتاب الله من أوله إلى آخره إلا وهي أجمل ما تكون وأنسب مع المعنى التي أريدت من أجله، وما ظهر فيه وجه المناسبة أقل مما لم تدركه عقولنا «فهو ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ وهو ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ فلو أن رجلًا من بني آدم له علم أو حكمة أو خطبة أو قصيدة أو مصنف فهذّب ألفاظها وأتى فيها بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى فكيف بكلام رب العالمين وأحكم الحاكمين لا سيِّما وقد قال فيه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨]»(٣).

❋ ❋ ❋

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (٢٠/ ١١١)، مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٦).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٥١).

المَبْحَثُ الثَّانِي

التناسب بين السورة والسورة

جاءت سور القرآن الكريم مؤلّفة من الآيات التي كانت تنزل على النبي ﷺ، على تنوع الأحداث والوقائع، واختلاف الأماكن وامتداد الزمان، وتباين الظروف والأوقات وكان جبريل عليه السلام يرشد النبي ﷺ إلى مواضع كل آية في سورها، حتى اكتمل نزول القرآن وترتيبه على نسق واحد في الإحكام والتفصيل والبيان.

ولئن ظهر لك تناسب ألفاظه ومعانيه وشدّك ترابط آياته، فإن تناسب سوره وتناسقها سائرٌ بك في أعلى دروب البلاغة، ليصل بك إلى ما اختصَّ به هذا الكتاب العزيز من حسن التأليف وجودة السبك.

وإن إمعان النظر في التناسب بين السور وبعضها يقف بالقارئ على جملة من المظاهر الدالة على أن هذا التناسب من خصائص هذا الكتاب العزيز.

أولًا: التناسب العام في ترتيب سور القرآن:

فقد جاء ترتيب سور القرآن ترتيبًا متناسبًا متدرجًا يبدأ بالطوال ثم المئين ويتبعه المثاني ثم يختم بالمفصل، فعن أوس بن حذيفة[1] قال:

---

(١) هو: أوس بن حذيفة بن أبي عمرو الثقفي، وهو أوس بن أبي أوس، وفد على النبي ﷺ روى عنه ابنه وعثمان بن عبد الله، وعبد الملك بن المغيرة، كان في وفد ثقيف، فأنزلهم في قبة بين المسجد وبين أهله، فكان يختلف إليهم فيحدثهم بعد العشاء الآخرة توفي سنة (٥٩هـ). (انظر: أسد الغابة، لعز الدين ابن الأثير ١/ ١٦٨).

سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل[(١)]، ومع ما تميز به هذا التناسب العام في الترتيب فقد جاءت كل سورة طويلة كانت أو قصيرة تامة المقاصد مستوفية الأغراض متناسبة مع ما تليها.

ولك أن تنظر في كتب المؤلفين وطريقتهم في الترتيب فإنهم إن راعوا التناسب بين الموضوعات فإن من النقص أن يوجز أحدهم في باب فيترك إكماله لغرض التناسب في الطول أو القصر، مع اجتهاده في ترابط كل باب مع ما يليه ثم تراه يرجع عليه بالتقديم والتأخير.

فجاء القرآن بهذا التناسب والترتيب الدال على الإحكام والجمال، مع ما اشتمل عليه من التيسير على الناس في التلاوة والحفظ.

وهنا يظهر تناسق السور بعضها مع بعض وتلاحقها في الطول والقصر مما يبعث القارئ على النشاط والجد فكلما انتهى من حزب جدّ في الحزب الذي يليه.

ثانيًا: تعدد المناسبات بين السور:

كلما كثرت روابط البنيان كلما اشتد وقوي إحكامه، ومن المظاهر الدالة على جودة تأليف الكتاب العزيز وحسن سبكه: تعدد روابطه ومناسباته، فكل مناسبة في سورة من السور آخذة بعناق أختها متصلة بها.

وهكذا تجد أسلوب القرآن الكريم ظاهر التناسب متعدد العلائق بين السور من عام أو خاص، أو علاقة حسية أو عقلية وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (١٩٠٢١) (٣١/ ٣٦٢)، وأبو داود في سننه، باب تحزيب القرآن برقم (١٣٩٣) (٢/ ٥٥)، وابن كثير في فضائل القرآن (ص١٤٨) وحسّن إسناده.

والنظيرين والضدين ونحو ذلك[١]، فتتفق للمتأمل من خلال هذه العلائق ألوان من التناسب، ومن ذلك: مناسبة السورة لما قبلها وبعدها، ومناسبة ختام السورة لمطلع السورة التي تليها، ومناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها، ومناسبات عامة بين السورة والسورة، ومناسبة مجموعة من السور لمجموعة من السور.

فهذا التنوع والتعدد في المناسبات دليل على اختصاص أسلوب القرآن الكريم بالحسن والجودة، أضف إلى ذلك اختصاص هذه المناسبات بالتعاضد والترابط فلا تجد مناسبة تبطل أختها، بل تقويها وتعضدها، هذا مع اختلاف الأزمان وتباين الأفهام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولذا قال فخر الدين الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[٢].

ومن الأمثلة التي تبيّن أوجه المناسبات وتعددها ما أورده المفسِّرون من لطائف حول المناسبات بين سورة الإسراء وما قبلها وما بعدها، **ومن ذلك:**

١ ـ أن الله تعالى عدّد في سورة النحل كثيرًا من النعم في المأكل والمشرب والمركب والمسكن حتى سميت سورة النحل بسورة النعم[٣]، وجاءت سورة الإسراء مبينة للخلق نعمة ما اختصَّ الله به هذه الأُمَّة من إرسال الرسول ﷺ وتشريفها به، ونعمة القرآن وما فيه من هداية للخلق[٤]، فجمعت السورتان بين نعمة صلاح الدنيا وصلاح الدين[٥].

٢ ـ بيّن الله تعالى في سورة النحل شفاء الأبدان وهو العسل، فقال

(١) **انظر**: البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٥). (٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١١٣).
(٣) وقد ورد ذلك عن قتادة. **انظر**: تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٩٥).
(٤) **انظر**: التحرير والتنوير (١٤/ ٦).
(٥) **وانظر**: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة علماء (٤/ ٢٠٦).

عن النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] ثم بيَّن في سورة الإسراء ما هو شفاء للأبدان والقلوب وهو القرآن فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

أما مناسبة السورة لما بعدها، فمما ورد فيها من أوجه المناسبات ما يلي:

١ ـ لما سألت قريش النبي ﷺ عن الأشياء التي أخبرتهم بها يهود وهم فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ورجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها والروح[١] فجاء جواب هذه المسائل في سورة الإسراء وسورة الكهف[٢].

٢ ـ أن السورتين تضمنتا إثبات النبوَّة، فتضمنت سورة الإسراء الرد على الذين أنكروا الإسراء والمعراج كونهما من خوارق العادات، ثم لم يقنعوا بذلك وجاءوا يسألون عن أخبار قد حدثت في الزمن الغابر تعنتًا وتكذيبًا، وهذا ما تضمنته سورة الكهف، والإخبار بذلك من خوارق العادات، فدلت السورتان على إثبات نبوة النبي ﷺ.

أما مناسبة خاتمة السورة لفاتحة ما بعدها:

فقد جاءت خاتمة سورة الإسراء تنتظم جملة من الروابط والعلائق بينها وبين بداية سورة الكهف **ومن تلك المناسبات:**

١ ـ جاء في ختام سورة الإسراء الأمر بالحمد في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] وجاء في بداية سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

---

(١) هذا الخبر أخرجه ابن جرير الطبري (١٥/١٤٣)، وابن المنذر. (**انظر**: الدر المنثور، للسيوطي ٩/٤٧٩).

(٢) **انظر**: البرهان في ترتيب سور القرآن، لابن الزبير الغرناطي (ص٢٣٤).

٢ ـ جاء في ختام سورة الإسراء الحديث عن القرآن الكريم وعن بعض سماته وحال التالين له وذلك في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٥ ـ ١٠٧] وجاء في بداية سورة الكهف بيان خصائص هذا الكتاب وأنه قيّم لا عوج فيه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١، ٢].

٣ ـ نفى الله تعالى في ختام سورة الإسراء أنه اتخذ ولدًا وذلك في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وأنذر في بداية سورة الكهف الذين افتروا هذه الفرية العظيمة فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤](١).

وأما مناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها فتظهر في وجوه عديدة:

١ ـ ابتدأت سورة الإسراء بالتسبيح فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] وابتدأت سورة الكهف بالتحميد فجاء التسبيح أولًا لأنه تنزيهٌ لله عما لا ينبغي وهو إشارة إلى كونه كاملًا في ذاته وجاء التحميد عبارة عن كونه مكملًا لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملًا في ذاته ونهاية الأمر كونه مكملًا لغيره.

٢ ـ افتتحت السورتان بخصيصتين من خصائص النبي ﷺ وهما الإسراء وإنزال الكتاب، فالإسراء به إلى بيت المقدس وعروجه يقتضي حصول الكمال له وإنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملًا للأرواح

(١) **انظر في ذلك:** نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٤٤١)، التفسير الموضوعي لسور القرآن (٤/ ٢٨٩).

البشرية وناقلًا لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية[١].

وبعد سرد جملة من المناسبات لهذه السورة الكريمة بإيجاز، لك أن تنظر فيها مرة أخرى فهل ترى بينهما تعارضًا واختلافًا مع تنوعها وكثرتها، بل كل مناسبة تقوي الأخرى وتعضدها.

وإنّ الكاتب أو الشاعر لينظم قصيدة أو يؤلف كتابًا، ثم تراه يراجع نفسه ويخالفها في تقديم فصل على فصل، فإذا فرغ؛ نظر أخرى، فرجع يقدم ويؤخر ويتعجب كيف غاب عنه الأمر قبل ذلك، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ثالثًا: حصول التناسب مع تباعد النزول بين السور واختلاف مكان النزول:

معلوم أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ على اختلاف الأماكن، فكان منه ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة، ومنه ما نزل حال الحضر وحال السفر، فإذا نظرت في اختلاف الأحوال والأماكن ورجعت لتتأمل وتتمعن في هذا الاختلاف، سترى وتعلم أنه لم يكن ليؤثر في ترابط القرآن وتناسبه، ولئن كان التناسب بين سورة مدنية ومدنية وبين سورة مكية ومكية لا غرابة فيه، فكيف الحال حين ترى التناسب بين سورة مكية وأخرى مدنية أو العكس، وهذا ما لا يكون في غير القرآن، وأنت تجد النقاد يفرّقون بين الأديب حال كونه في حاضرة أو بادية، أو حال انتقاله من مكان إلى مكان.

ومن ذلك ما ذكره الأدباء أن عليّ بن الجهم[٢] مدح الخليفة المتوكل بقوله:

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٢١).

(٢) هو: علي بن الجهم بن بدر بن مسعود بن أسيد من بني النضر بن كنانة يكنى أبا الحسن =

أَنْتَ كَالكَلْبِ فِي وَفَائِكَ بِالعَهْدِ وكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الخُطُوبِ

فلما سكن بغداد ورأى ما فيها من حضارة قال:

عُيُونُ المَهَا بَيْنَ الرَّصَافَةِ والجسْرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلا أَدْرِي(١)

فهل من تناسبٍ بين ما قاله بعد سكنى بغداد وبين ما قاله قبل ذلك؟

لا ريب أن هذا الانفصال وذاك الاختلاف المكاني يستلزم في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدع مجالًا للارتباط والاتصال بين هذا الكلام، وهذا ما لا تجده بين سور القرآن مكيّها ومدنيها، هذا مع اشتمال كل نوع منه على خصائصه وسماته.

ولك أن تنظر بين سورة مدنية وأخرى مكية، في مدى التناسب والتناسق بينهما، ليطمئن قلبك وينشرح صدرك إلى ما اختصَّ به هذا الكتاب من جودة السبك وحسن التأليف **ومن ذلك:**

ـ التناسب بين سورة مدنية وأخرى مكية (سورتي المائدة والأنعام):

تضمنت سورة المائدة الحديث عن تفاصيل الأحكام سواء في الصيد والذكاة وأحكام الطهارة ثم الحديث عن الجنايات والأيمان إلى غيرها من الأحكام التفصيلية كما تضمنت الحديث عن أهل الكتاب سواء في أحكام التعامل والنكاح أو في دعوتهم والتحذير من موالاتهم ومناقشتهم وبيان معتقداتهم، وهذه المواضيع من سمات السور المدنية.

أما سورة الأنعام، فقد عالجت قضية التوحيد وهو المحور الذي تدور عليه السورة وقد افتتحت بها، مع ذكر البراهين والشواهد الدالة

= وأصله من خراسان، وهو شاعر مطبوع عذب الألفاظ سهل الكلام مقتدر على الشعر، مدح المعتصم والواثق وجالس المتوكل، ومات سنة (٢٤٩هـ) بناحية حلب، (**انظر:** معجم الشعراء للمرزباني ص٢٨٦).

(١) **انظر:** ديوان علي بن الجهم (ص١٤٣).

عليه كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥] والآيات التي تليها، بل حتى في الحديث عن بهيمة الأنعام كان الحديث يدور عن الشرك الواقع فيها من التحليل والتحريم بالهوى وإشراك الله في الذبح ونحوه مع ذكرٍ لعاداتهم السيئة وتسفيه عقولهم التي قادتهم لهذه الخرافات، كما اشتملت السورة على جملة من قصص الأنبياء وسُنَّة الله فيهم، ثم اختتمت السورة بذكر أصول الأخلاق والآداب الاجتماعية، مما هي من سمات وخصائص السور المكية.

ومع تميز السورتين بخصائص الفترة التي نزلت فيها ومعالجة قضاياها، إلا أن تناسبهما يجعلهما مترابطتين متلاحمتين، ومن ملامح هذا التناسب: أن سورة المائدة لما كانت مشتملة على بيان حال اليهود والنصارى وبيان افتراءاتهم على الله تبارك وتعالى من نسبة الولد له، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، وعدم تقدير الله تعالى حقَّ قدْرِه حين قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وغيرها، أعقب ذلك ببيان حال كفار قريش في سورة الأنعام، وأنهم اتخذوا الهوى والشيطان أربابًا من دون الله في التحليل والتحريم كما في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وبين حال المشركين في أنهم لم يقدِّروا الله تعالى حق قدره، ومن ذلك ما ذكره تعالى في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] وما سبقها.

وفي هذا بيان للتشابه بين حال مشركي العرب وبين حال أهل الكتاب، وتعريض بهم وإنذار لهم بما حل بهم، وقد جاء في ختام سورة

الأنعام الإشارة إلى ذلك[١]، كما في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦ ـ ١٤٨].

ومن التناسب كذلك: أنه جاء الحديث في كل من السورتين عن أحكام الصيد والأطعمة وما يجوز منها وما لا يجوز، ولما كان الحديث في سورة الأنعام يتضمن الرد على المشركين في تحريمهم ما أحل الله وتحليل ما حرّم الله، أرجعهم في تفاصيل المحرمات إلى ما بيّنه ﷻ في سورة المائدة فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ﴾ [الأنعام: ١١٩] ومعلوم أن التفصيل في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ الآية [المائدة: ٣][٢].

ومن التناسب بين خاتمة سورة المائدة وبداية سورة الأنعام: أن سورة المائدة قد اختتمت بقضاء الله بين عباده، وإثبات ملكه تعالى للسماوات والأرض، حيث قال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠] فجاءت فاتحة سورة الأنعام مبينة خلق السماوات والأرض، وأن الله تعالى قد قضى بين خلقه ما يكون من مولدهم حتى موتهم، ثم ما يكون من الفصل بينهم في الآخرة، الأمر الذي من شأنه أن يُعبَد تعالى حق عبادته، ويحمد حق حمدِه، لا أن

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٧/١٠٦).
(٢) انظر: جامع البيان (٩/٥١٣).

يماري في ذلك ويعدَل عنه إلى غيره، فجاء الحمد في بداية سورة الأنعام مناسبًا لهذا المعنى والله أعلم[١].

رابعًا: التناسب في مقاصد السور:

تضمنت كل سورة من سور القرآن الكريم مقصدًا أو غرضًا يجمع ما اشتملت عليه السورة من أفانين ما تصرف فيه من القول كأمرٍ ونهيٍ وقصصٍ ونحوه، وقد جعل العلماء من معاني السورة هذا المعنى، كونها كالسُّور الذي يجمع بيوت المدينة في حد واحد ويضفي عليها صبغة واحدة، يقول ابن عاشور: «السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة»[٢].

ومن خصائص أسلوب القرآن في هذا الباب أنه مع انفراد كل سورة بمقصد من المقاصد فإنه يكون في غاية التناسب مع مقصد السورة التي تليها مما يجعل هذا التناسب يقف بنا على مقصد جامع لهذه السور، ليس في حسن التأليف فحسب، بل جمال المعنى وشموله الذي مؤداه العمل بهذا الكتاب وتطبيق أمره.

وحتى يتبيّن ارتباط المقاصد بين السور، نقف على ما ذكره المفسِّرون من مقاصد في سورة محمَّد وسورة الفتح وسورة الحجرات:

فالمقصود من سورة محمَّد دعوة المؤمنين لحفظ الدين بإقامة الجهاد وردِّ الكافرين[٣].

وقد جاءت الآيات في هذه السورة تحث المؤمنين على ذلك كما

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢٣٩)، تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور للسيوطي (ص٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨٢).

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي (٢/ ٤٨٧).

في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [محمد: ٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] وغيرها من الآيات.

أما سورة الفتح فإن مقصودها: الحديث عن الفتح العظيم والأسباب الجالبة لهذا الفتح، وما يترتب عليه من مكاسب وثمرات، فبيّنت أحداث صلح الحديبية ومعية الله للمؤمنين، فجاءت الآيات دالة على ذلك في مثل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، وقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨][١].

أما سورة الحجرات فإن مقصودها هو: بناء الأخلاق والآداب في المجتمع المسلم بين الراعي والرعية والأحوال الجالبة لوحدته وتآلفه[٢].

وعند الصعود للنظر إلى مقاصد هذه السور مجتمعة يظهر حينئذ مقصد عام لهذه السور يكشف عن حكمة التناسب بينهم.

فالسور تتحدث بصورة عامة عن النصر والتمكين وأسبابه وتعالج قضايا فكرية وسلوكية تبيّن أن النصر لا يتأتى بإقامة الجهاد فحسب بعيدًا عن مراد الله ورسوله ﷺ ولذا جاءت السور الثلاث مؤكدة على طاعة الله ورسوله، وأنها أهم أركان النصر فجاءت سورة محمد ﷺ مفتتحة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٦٠)، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (٧/ ٢٨٤).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٠٠)، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (٧/ ٣٣٤).

عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: طاعة وقول معروف أمثل وأحسن[1]، وجاء في سورة الفتح التأكيد على الإيمان بالله ورسوله ﷺ واتباعه هو الطريق لكل خير وفلاح، وإن خالفَتْ هوى النفس، وإن كان في ذلك ترك الجهاد.

وذلك ظاهر في سياق قصة الحديبية مع ما دل عليه قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الفتح: ٨ ـ ١٠]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٢٨ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٨، ٢٩].

ثم جاءت سورة الحجرات تبيّن ما لهديه ﷺ من منزلة عظمى في مصالح الأمّة وأنه أتم وأكمل وأرحم للعباد وأن رأيهم والنزول عليه يوقع في الحرج والمشقة[2] فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] وموضحة سببًا آخر من أسباب النصر، ألا وهو التآخي والاجتماع، ونبذ الفرقة والاختلاف، والدعوة للتصالح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] والآيات التي تليها، ثم جاء في أواخر السورة جمع هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٤٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٢).

كما بينت السور طبيعة المنافقين حال الحرب والصلح، وأنَّ شقّ الصفّ والتقدم بالمعاذير والتخلف عن طاعة الله ورسوله هو ديدنهم، محذِّرة من الاستماع لهم وكاشفةً عن أساليبهم، فهذه جملة من أوجه التناسب بين مقاصد السور الثلاث.

ومن تطبيقات العلماء في ذلك ما ذكره تقيّ الدين ابن تيمية حيث قال في معرض حديثه عن سورة العلق: «فلما أمر في هذه السورة بالقراءة ذكَر في الّتي تلِيها نزولَ القرآن ليلةَ القدر وذكرَ فيها تنزل الملائكة والروح ـ وفي [المعارج] عروج الملائكة والروح وفي [النبأ] قيام الملائكة والروح ـ فذكر الصعود والنزول والقيام، ثمّ في التي تليها تلاوتَه على المنذَرين حيث قال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]. فهذه السور الثلاث منتظمة للقرآن أمرًا بِه وذِكرًا لنزوله ولتلاوةِ الرسول له على المنذَرين، ثمّ سورة [الزلزلة] و[العاديات] و[القارعة] و[التكاثر] متضمنةٌ لذكر اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب، وكل واحد من القرآن واليوم الآخر قيل هو النبأ العظيم. ثمّ سورة [العصر] و[الهمزة] و[الفيل] و[لإيلاف] و[أرأيت] و[الكوثر] و[الكافرون] و[النصر] و[تبت] متضمِّنةٌ لذكرِ الأعمال حسنها وسيِّئها وإن كان لكل سورة خاصة»[(١)].

خامسًا: ترابط أوائل سور القرآن بأواخره:

لا ينحصر تناسب السور بين سورتين متتاليتين أو سور متتالية، فإن جودة سبكه تأخذك لأبعد من تلك المظاهر، وإن التناسب بين أول القرآن وآخره دليل من الدلائل على ما اختصَّ به أسلوب القرآن من دقة التناسب وحسن التأليف.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٧٧، ٤٧٨)، وانظر: إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٩٣).

يقول الفراهي[(١)]: «إني رأيت في ترتيب كلام الله وله الحمد على ما أراني، أن الكلام ينجر من أمر إلى أمر، وكلُّه جديرٌ بأن يكون مقصدًا، فيشفي الصدور ويجلي القلوب ثم يعود على البدء فيكون كالحلقة»[(٢)].

فسورة الفاتحة وإن أجملت ما فُصِّل في آيات القرآن وسُوَرِه من الأصول والفروع والمعارف، فهي دائرة على أمرين: وهما الثناء على الله تعالى وسؤاله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: **(قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)**[(٣)].

وهكذا نجد سورة الإخلاص والمعوذتين في تناسبهما وارتباطهما بسورة الفاتحة، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «أما سورة الإخلاص والمعوذتان، ففي الإخلاص: الثناء على الله وفي المعوذتين: دعاء العبد

---

(١) هو: عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان الأنصاري الفراهي، ولد سنة (١٢٨٠هـ) في قرية فريهه راسخ في العلوم العربية والبلاغة، عاكف على تدبر القرآن، له مؤلفات في التفسير وعلوم القرآن، مات سنة (١٣٤٩هـ). (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، لعبد الحي الطالبي ٨/ ١٢٦٧).

(٢) دلائل النظام، للفراهي (ص٥٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم (٩٠٤).

ربه ليعيذه، والثناء مقرون بالدعاء، كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الرب والعبد، نصفها ثناء للرب، ونصفها دعاء للعبد، والمناسبة في ذلك ظاهرة، فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبرًا عن الله كنصف الفاتحة وسورة الإخلاص، وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب وأنفعه وأوجبه ما كان طلبًا من الله كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين»[١].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٤٧٨، ٤٧٩).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

التناسب في السورة الواحدة

جاء القرآن الكريم مقسَّمًا إلى سورٍ معلومةٍ، كلّ سورة لها ما يميِّزها عن غيرِها والتقسيمُ المحضُ لهذه السوَر على هذا النحو من خصائصِ هذا الكتاب العزيز الذي لم تعهده العرب قبل نزول القرآن.

وإذا نظرتَ إلى السورة وما اشتملت عليه من تنوّعِ الآياتِ في القَصص أو الأحكام أو المواعظ ونحوها، وجدتَ أن هذا التنوع يجمعهُ رابطٌ يؤلِّف بين معانيه وأغراضه، ولذا كانت السُّورة بهذه المثابةِ في دَلالتها على المقصدِ واستيفائها للغرض وهنا يَظهَر الحُسْن الفائق في الجمْع بين التنوع والائتلاف؛ «لأن الشيءَ إذا كان جنسًا وجُعِلتْ له أنواع واشتملت أنواعه على أصنافٍ كان أحسنَ وأفخمَ لشأنه وأنبل ولا سيما إذا تلاحقَت الأشكال بغرابةِ الانتظام، وتجاوبت النَّظائر بحسن الالتئام وتعانقت الأمثال بالتشابه في تمام الأحكام وجمال الإحكام»(١).

وقد عدَّ الزمخشري هذا التناسب القائم بين السور من فوائد تقسيم القرآن إلى سورٍ، فقال: «ومنها أن التفصيل سببُ تلاحقِ الأشكال والنظائر وملاءَمَةِ بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم»(٢).

ويلفت ابن عاشور إلى مَلحظ التناسبِ في السورة مع تنوع

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٦٢).

(٢) الكشاف (١/ ٩٨).

أغراضِها في كون التَّحدي بسورة من القرآن فيقول: «وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن لأنَّ من جملةِ وجوهِ الإعجاز أمورًا لا تَظْهَر خصائِصها إلا بالنَّظر إلى كلامٍ مستوفى في غرضٍ من الأغراض، وإنما تنْزل سور القرآن في أغراضٍ مقصودةٍ فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام»(١).

ومن خلال النّظر في ما ذكره العلماء في بيان أوجه التناسب وصوره في السورة الواحدة سواء بين مقاطع السورة أو بين مطلع السورة وخاتمتها أو في التعرف على مقصدها ووحدتها الموضوعية، نستطيع أن نقف على تلك الأسباب التي جعلت هذا التناسب من خصائص السورة التي قصد بها التحدي في الإتيان بمثلها.

أولًا: قوة الروابط في السورة الواحدة وتعددها:

المناسبات قائمة على معرفة أوجه الارتباط بين الجمل والآيات، فحين تأتي الآية مستقلة عن الأخرى بالبيان، أو مبدوءةً بنوعٍ مغايرٍ للآية التي تليها، أو يبسط الكلام في موضع ثم يعاد الكلام إلى ما بدئ به، يظهر للمتأمل حسن الروابط بين الآيات وجمالها في دلالتها على المقصود، سواء كانت الارتباطات لفظية كحروف العطف وأسماء الإشارة وألفاظ التوكيد، أو معنوية كالطباق والمقابلة والاستطراد وما شابه ذلك(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٠).

وهذه الروابط تمتاز عن غيرها، في أنك تقرأ الآية مفردة أو بين كلام كثير فتراها تدلُّ على نفسِها وتعلو على ما قُرِن بها لعلو جنسها وتمام مقصودها، فإذا ضُمَّت إلى أخواتِها أرَتْك بروابطها القلائِد منظومة كما كانت تريكَ عند تأمُّل الأفرادِ منها اليواقيتَ منثورةً والجواهرَ مبثوثةً[(١)].

ففي سورة ص: نزلت السورة مبينةً لموقف مشركي قريش من القرآن، وتعجُّبِهم من رسالة النبي محمد ﷺ، ثم عرّجت بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام واختتمت بذكر قصة سجود الملائكة لآدم عليه السلام وامتناع إبليس عن ذلك، ولقد جاء في هذه السورة من الروابط ما جعلها محكمة السبك منتظمة المباني والمعاني، ومنها:

- الإشارة بـ (هنالك) إلى الأحزاب في قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] وبـ (أولئك) في قوله: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٣، ١٤].

فالإشارة بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى الأحزاب المراد بهم كفار قريش الذين صدر منهم الاستعلاء والتكبر والتعجب من رسالة النبي ﷺ، فبيّن الله تعالى حالهم وأنهم مهزومون، ثم جاء باسم الإشارة في الآية الأخرى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الأحزاب الذين كذّبوا رسُلَهم، ليربط بين حال كفار قريش وبين من سبقهم من المكذِّبين الذين حلّت بهم العقوبة، لكي لا يستبعدوا العذاب وليتعظوا بمن سبقهم.

قال أبو حيان[(٢)]: «أولئك الأحزاب: أي: الذين تحزَّبوا على

---

(١) إعجاز القرآن (بتصرف)، (ص٤٠).

(٢) هو: محمد يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الجياني الأصل، الغرناطي المولد والمنشأ المصري الدار، ولد سنة (٦٥٤هـ)، سمع من أبي جعفر بن الزبير وغيره، وكان إمامًا منتفعًا به، صنّف في التفسير والغريب وغيرهما، توفي سنة (٧٤٥هـ). (انظر: طبقات المفسرين للأدنه وي ص٢٧٨).

أنبيائهم، كما تحزَّبت قريش على رسول الله ﷺ، وهم قوم نوح ومن عطف عليهم؛ أي: هؤلاء العظماء لما كذَّبوا وجب عقابهم، فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بالرسول ﷺ»[١].

وهذا ربْطٌ لطيفٌ وانتقال سَلِسٌ من بيان حال كفار قريش في تكذيبهم وما توعدهم الله به من العقوبة إلى بيان حال الأحزاب قبلهم وما نالهم بسبب التكذيب من العقوبة.

- العطف بذكر نبي الله داود على أمر نبينا محمد ﷺ بالصبر في قوله: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

فالعطف بذكر قصة نبي الله داود عليه السلام بعد أمر النبي ﷺ بالصبر، تناسب لطيف في بيان عاقبة الصبر، بذكر قصة نبي الله داود، وكيف صبر على ما لاقاه من الأذى حتى كانت له العاقبة الحسنة، من كشف الكرب، والتمكين في الأرض دون أن يكون له سلف أو سلطان، ففي ذلك إشارة إلى أن شأن نبينا محمد ﷺ سيصير إلى العزة والسلطان[٢].

- المجيء باسم الإشارة [هذا] في قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩].

فقد جيء باسم الإشارة هنا بعد ذكر عدد من الأنبياء للانتقال إلى ذكر نوع آخر وهو ذكر الجنة وأهلها ولذلك لما تمّ ذكْر أهلِ الجنّة وأرادَ أن يُعْقِبَهُ بذكرِ أهلِ النار قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥][٣].

- ومن الروابط المعنوية في ذكر قصة أيوب عليه السلام بعد ذكر قصة داود وسليمان عليهما السلام الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، فإن الله لما أمر نبيه بالصبر، وذكر ابتلاء داود وسليمان، وأثنى عليهما، ذكر من كان أشد

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٤١).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٦).
(٣) انظر: الكشاف (٤/ ١٠٠)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٥٠).

ابتلاء منهما، وأنه كان في غاية الصبر، بحيث أثنى الله عليه بذلك[١].

- ومن الروابط كذلك أن السورة مع تنوع موضوعاتها فقد ابتدأت بالحديث عن القرآن ثم جاء قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] في وسطها، ثم جاء الختام في السورة عودًا على البدء بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] للتأكيد على مقصد السورة من غلبة هذا الكتاب العزيز ومن أُرسِل به، وتوعد من كذّبه بالخسران كما يُفهم من ثنايا السورة[٢].

هذه جملة من الروابط التي تدل على تلازم التناسب في آيات السورة الواحدة وهذا ما لا تجدُه في أي نَظْم، أن يجريَ في قصيدة متنوعة الأغراض على طريقة واحدة في المدح أو الهجو أو الرثاء، والأمر في ذلك كما قال الباقلاني: «كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها، لم تستوف ما استوفته، ثم تجد فيما تنظم ثِقَل النَّظم ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصةٍ إلى قصة وفصلٍ إلى فصل، حتى تتبين عليك مواضع الوصل، وتستصعب عليك أماكن الفصل ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، وأمثالًا سائرة وحكمًا جليلة، وأدلة على التوحيد بينة، وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة»[٣].

ثانيًا: التناسب في الآية الواحدة:

من الأسباب التي تبيّن جودة التناسب بين الآيات في السورة أنك ترى الآية بينها من الجمل ما تظن أنها منفصلة عما قبلها فإذا تأملت وتمعنت وجدت جَمال الاتصال وروعة التناسب في الآية أو بين الآيات،

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٦٠).
(٢) انظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/ ٤١٦).
(٣) إعجاز القرآن (ص١٩٥).

فيكون الترتيب بهذا التناسب أجمل ائتلافًا وأقوى اتصالًا من أيِّ كلام مؤتلف في غير القرآن العزيز، ومن الشواهد على ذلك: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

هذه الآية قد اشتملت على جملتين: **الأولى**: السؤال عن الأهِلَّة، **والثانية**: نفي البِر عن إتيان البيوت من ظهورها، ومن لا يمعن النظر في تناسب الآية واتساق جملها، لا يقف على مقصودها، ولذا فقد أخطأ من فسّر قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ أنها مثَلٌ في جِماع النِّساء، أمَرَ بإتيانهن في القُبُل لا من الدُّبُر وسمَّى النِّساء بيوتًا للإيواء إليهنَّ كالإيواء إلى البيوت[١]، وهذا بعيد كل البعد عن ارتباط الآيات بالحج، ولذا قال ابن عطية: هذا بعيد مغيِّر نمَط الكلام[٢].

أما عن وجه اتصال الكلام ومناسبته، فقد ورد في الآية السؤال عن الحكمة من الأهلَّة ثم جاء الجواب عنها وعن النهي عن إتيان البيوت من ظهورها، وقد ذكَر العلماء أن من البلاغة أن يأتي الجواب أعم من السؤال عند الحاجة إلى ذلك، وذلك أنه تعالى لما أجابهم عما سألوا عنه في الأهلَّة بيّن لهم ما لم يسألوا عنه تعليمًا لهم حقيقة البِرّ ورحمة بهم في تخفيف ما اعتادوا عليه.

فقد أخرج الطبري بسنده عن قتادة[٣] أنه قال: سألوا نبي الله ﷺ

---

(١) حُكي هذا القول عن ابن زيد وحكاه المهدوي ومكي عن ابن الأنباري عنه. انظر: المحرر الوجيز (١/ ١٦٢)، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٤٦).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ١٦٢).

(٣) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي أبو الخطاب، ولد سنة (٦٠هـ)، روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب وأبي العالية، وروى عنه أيوب السختياني، ومعمر بن راشد والأوزاعي، وقد كان رأسًا في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها =

عن ذلك: لم جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ قال: (هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ فِي حَجِّهِمْ، وَصَوْمِهِمْ، وَفِطْرِهِمْ، وَنُسُكِهِمْ)(١)، وفي الأمر بإتيان البيوت من أبوابها أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا، كَانَتِ الأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾»(٢) وهذا يدل على أن هذه الحادثة كانت تحتاج بيانًا لا يقلُّ عن بيان الحكمة من الأهلَّة.

وبهذا يتبين وجه المناسبة بين الجملة الثانية والتي قبلها وهي أن سبب نزولها كان مواليًا أو مقارنًا لسبب نزول الآية التي قبلها وأن مضمون كلتا الجملتين كان مثار تردد وإشكال عليهم من شأنه أن يسأل عنه(٣).

ومن الأوجه الدالة على ائتلاف الكلام واتصاله في هذه الآية أن العرب كانوا يُخْرِجون الحج عن وقته الذي عينه الله له فيحرّمون الحلال، ويحلّون الحرام، فقد كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرًا، ثم كانوا يحجون في كل شهر عامَين ولاء، وبعد ذلك ينذِلون(٤) فيحجون عامين

= توفي سنة (١١٨هـ). (انظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩ ـ ٢٨٣).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨١) بسند حسن عن عبد الرزاق، وروي من طريق أبي العالية كذلك بسند جيد. انظر: الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، د. حكمت بشير (١/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ برقم (١٨٠٣)، ومسلم في كتاب التفسير برقم (٣٠٢٦).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٤٤)، التحرير والتنوير (٢/ ١٧٩).

(٤) ينذِلون بمعنى ينتقلون، قال ابن فارس: النون والدال واللام أصل صحيح يدل على نقل واضطراب. يقولون: ندلت الشيء ندلًا، إذا نقلته (مقاييس اللغة ٥/ ٤١٠).

ولاء، حتى كانت حجة أبي بكر في ذي القعدة حقيقة، وهم يسمونه ذا الحجة، فكان من التناسب ذكر إتيان البيوت من ظهورها كمثال لمخالفة الواجب في الحج وشهوره(١).

ومن الأمثلة كذلك:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، **فقد اشتملت الآيات على معانٍ ثلاث:**

الأولى: بيان أن الله تعالى أوحى إليه هذا القرآن حال كونه قبل النبوة لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن حين نزَلَ وقُرِئ صار نورًا يهدي به الله من يشاء من عباده وهذا معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾.

الثانية: إثبات أن النبي ﷺ هو الهادي إلى الطريق المستقيم بالدلالة والإرشاد، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

الثالثة: الإخبار بصيرورة الأمور إلى الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ فإذا تأملت في الجمل الثلاث رأيت أن كل جملة منها يمكن أن تستقل بالبيان وتمام المعنى، غير أن الجملتين الأُولَيَيْن موتلفتانِ فالله هو الذي أوحى إلى نبيه ﷺ وبيده سبحانه الهداية، وهو الذي أرسله بهذا الروح ليدل الخلق إلى طريق الهداية، أما جملة ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ فهي منفصلة عما قبلها، لكن حينما اتصلت بالجملتين السابقتين صارت أشد ائتلافًا وألطف انتظامًا من

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٥/ ٢٨٧).

الحديث المؤتلف، وذلك أن الوحي الذي أوحاه تعالى من خصائص ربوبيته ودلائل ألوهيته، وبيّن أن النبيّ ﷺ لم يكن ليعلَمَ ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه وأنه لم يكن ليهتدي؛ فكيف كان يهدي لولاه، فهو تعالى الذي صيّر الهداية له بإرادته، فالأمور كلها صائرة له ﷻ، ومما قوّى هذا التآلف إسناد الضمير إلى الله تعالى في: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ وفي: ﴿أَمۡرِنَاۚ﴾ الذي لا تصير الأمور إلا إليه فلا يستطيع أي مدّع من البشر أن يقول: إنه يوحِي رُوحًا من أمره، فليست هي من صناعة البشر وليست من المعاني التي أَلِفَت النفس أن تصدر منها(١).

هذه الصورة الجميلة التي تراها في السورة من استقلال كل آية وتمامها ثم إضفاء معنى آخر باتصالها يقول عنه محمد رشيد رضا مبيّنًا اختصاص الأسلوب القرآني به: «وهذا الضرب من البيان مما امتاز به القرآن على سائر الكلام، فإنك لترى فيه فنونًا من الاستدراك والاحتراس قد جاءت في خلال القصص وسياق الأحكام، تقرأ الآية في حكم من الأحكام، أو عظة من المواعظ، أو واقعة تاريخية فيها عبرة من العبر، فتراها مستقلة بالبيان، ولكنها باتصالها بما قبلها قد أزالت وهمًا أو تممت حكمًا»(٢).

ثالثًا: التناسب في ترتيب الآيات مع تباعد وقت النزول:

من الأسباب التي تبين اختصاص أسلوب القرآن العزيز في قوة التناسب وجودة السبك أنك ترى التناسب بين آيتين أو أكثر في سورة من السور مستويًا على سوقه عجيبًا في ائتلافه، فإذا نظرت إلى دواعي هذا التناسب في الفكر البشري لا تجدها.

---

(١) **انظر**: إعجاز القرآن (ص١٩٩، ٢٠٠)، **وانظر**: آل حم الشورى والزخرف والدخان، د. محمد أبو موسى (ص٢٣٧).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٩).

تقرأُ السورة من القرآن، فيعجبك تناسبها ويشدُّك ائتلافها، فإذا قرأت في نزولها تبيّن لك أن بعضها نزل في وقتٍ، والآيات التي تليها نزلت بعدها بسنوات أو أنها نزلت في حادثة، والآيات التي تليها نزلت في حادثة أخرى، ومن عادة هذا التباعد في غيْر القرآن أن يُحدِث تغييرًا في الأسلوب، نتيجة الانفعال النفسي الناتج عن التأثر بالأحداث والوقائع، أو نتيجة التطور المعرفي الناتج عن البعد الزمني وهذا ما يوقفك على مظهر من مظاهر عزة هذا الكتاب في أسلوبه الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

فهذه الآيات نزلت في كعب بن الأشرف حين قدم مكة فقالت له قريش: أنت حَبْر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصُّنبور المنبتر[١] من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية؟ قال: أنتم خير منه[٢] وهذا من اليهود كتمان وخيانة لما عرفوه من صفة النبي ﷺ الذي كتب في التوراة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) **الصنبور**: سفعات تنبت في جذع النخلة، غير مستأرضة في الأرض. ثم قالوا للرجل الفرد الضعيف الذليل الذي لا أهل له ولا عقب ولا ناصر صنبور، والمنبتر مثلها في المعنى: أي: الذي لا ولد له. (لسان العرب ٤/ ٣٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٤٢)، ورواه ابن كثير عن البزار في تفسيره وقال: وهو إسناد صحيح (٨/ ٥٠٤).

ثم قال تعالى عقب الآيات التي عابت صنيع يهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فهذه الآية نزلت متأخرة عما قبلها ولكن التناسب بينهما تناسب متّسق والصلة وثيقة، والانسجام جميل؛ لأن هذه الآية تأمر بالأمانة في عمومها كما ترى وتلك الآيات تأمر بأمانة خاصة وكأنهما سيقا في سياق واحد مما يجعل الأمانة الخاصة التي معنا تنتظم في سلك الأمانة العامة انتظامًا ممتازًا وتدخل فيها دخولًا أوليًا[(١)].

ومن هذا التناسب في الترتيب، قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ إلى آخر الآيات [العلق: ٦، ٧].

هذه الآيات وما بعدها نزلت في شأن أبي جهل وإيذائه للنبي ﷺ عند صلاته في البيت، أما ما سبقها من الآيات في بداية سورة العلق فقد ابتدأ نزول الوحي بها على النبي ﷺ في غار حراء[(٢)].

وقد كان بين نزول أول السورة وبين قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ زمنًا تخلله نزول آيات أُخَر في سور شتى، كما أن الجهة المعلقة بالنزول مختلفة، لكن الترتيب في السورة جعل المختلف مؤتلفًا فجاءت تامة التناسب قوية الترابط.

فأول السورة وإن نزل في أمر النبي ﷺ بالقراءة، فقد تضمّن الثناء على الحالة التي ينتقل فيها الإنسان إلى الأرفع من الدرجات، والأكرم من المنازل، الذي رتّب الله فيه الحكم بالأكرمية على وصف التعليم، الذي ينقل الإنسان من الحال الأدنى إلى الحال الأعلى، ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف من العلم لذكره الله عقب صفة الأكرمية.

---

(١) انظر: مناهل العرفان (١/ ١٣٦).
(٢) انظر: الدر المنثور (٨/ ٥٦١، ٥٦٥).

ولما ذكَر تعالى هذه المنزلة العظيمة التي يمنحها للإنسان، حذّر من المنزلة التي تناقضها، والتي تردي الإنسان إلى السُّفول، ألا وهي طغيانه إذا رأى نفسه قد استغنت بما لديها من المال والولد والعلم، فيفرح ويبطر ويتكبّر وينسى حق الله ونعمته عليه(١).

وكما أن الآيات الأولى عامة في مرادها، فقد نزلت على خير من يستحق هذا الوصف الكريم ﷺ، فكذلك الآيات التي تلتها عامة في جنس الإنسان إلا أنها نزلت في أجدر من يتصف بالطغيان والتكبر ونسيان حق الله وهو أبو جهل، وهذه المقابلة في غاية التناسب التي تجعل التلائم قائمًا والترابط قويًا.

وهذا التناسب والترابط بين الآيات: «يجعل الإنسان يقرأ طائفةً من الآيات فلا يلبث أن يعرف لها صفةً من الحس تُرافِد ما بعدَها وتمدُّه، فلا تزال هذه الصفة في لسانه ولو استوعب القرآن كلَّه، حتى لا يَرى آية قد أدخَلَت الضَّيمَ على أختها، أو نكَّرت منها، أو أبرزتها على ظلٍّ هي فيه، أو دفعتها عن ماء هي إليه، ولا يَرى ذلك كلَّه إلا سواء وغاية في الرُّوحِ والنَّظْم والصِّفة الحسِّية»(٢).

كما أن هذا التناسب بين الآيات في السورة الواحدة دليل قاطع، وحجة دامغة على أولئك المستشرقين الذين تنادوا لإعادة ترتيب المصحف حسب السياق التاريخي(٣).

رابعًا: تميّز كل سورة بسمة خاصة:

ويقصد بالسمة: البناء اللفظي والملامح والسمات التي انفردت بها

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٢).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٩٢).

(٣) ومن هؤلاء: المستشرق الألماني نولدكه، والمستشرق الفرنسي بلاشير وغيرهم، وسيأتي بيان ذلك في الفصل الثامن.

كل سورة عن أختها في عرضها لمقصد السورة وأهدافها، فقد يكون موضوع السورتين واحد، لكن سمة السورة هي التي تحدد الطريقة التي ستعالج السورة من خلالها موضوعًا ما[١]، وعلى هذا فانفراد كل سورة بما يميّزها سبب في ترابط السورة وتناسبها، سواء عند النظر إلى سورتين في جملتهما أو إذا نظرنا إلى بعض آياتهما على حدة، كما سيتبيّن في المثالين التاليَيْن:

١ ـ جاءت سورة الأنعام والأعراف تعالجان موضوعًا واحدًا ألا وهو موضوع العقيدة، فإذا نظرنا إلى السورتين في عرضهما لهذا الموضوع نجد سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها، وتعرض موضوع حقيقة الألوهية، وتواجه جهالة العرب في حينها مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق، وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة الكثيرة الموفورة من مشاهد الكون وبواعث الفطرة ومشاهد الغيب واليوم الآخر، في أبدع لون من ألوان التناسق.

أما سورة الأعراف فتعرض موضوع العقيدة من طريق آخر، ومن جهة أخرى فهي تعرضه في مجال التاريخ البشري، وفي مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها، وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وهو يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ، يواجه بها البشرية جيلًا بعد جيل، وقبيلًا بعد قبيل[٢]، فهذا مثال بين موضوع سورتين على وجه الإجمال.

٢ ـ أما هذا المثال ففيه بيان لآيتين متشابهتين وردتا في سورتين

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٧٤٥)، وقد اعتنى سيد قطب بهذا المسلك في كتابه وأبرزه إبرازًا أدبيًا وزاده توضيحًا ببيان أوجه المقارنة بين السورة التي تعالج موضوعًا واحدًا.

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ١٠١٦) (٣/ ١٢٤٤).

مختلفتين مع ظهور سمة كل سورة في الآية التي وردت فيها.

ففي سورة إبراهيم ورد قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] فالآيتان في بيان كثرة نعم الله تعالى على عباده وجاءت بعد تعداد جملة من النعم، إلا أنه لما كانت سورة إبراهيم أكثرها في بيان أحوال الكفار وأن أكثر الخلق هالك مُعرِض عما يأتيه من نعمة الهداية، ختم الآية ببيان ما اقتضى ذلك من صفات وهما الظلم والكفر اللذان ينافيان صفة الشكر، ولما كانت سورة النحل سورة النعم وقد ابتدئت بالنهي عن استعجال العذاب؛ لأن الرحمة أسبق، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع ناسب ختم الآية بالمغفرة والرحمة(١).

فهذه الأمثلة تبيّن تميّز كل سورة بسمة تضفي لونا بديعًا من ألوان التناسب بين آيات السورة.

هذه جملة من الأسباب التي بيّنت اختصاص السورة من سور القرآن بهذا الترابط والتناسب، وهي بذلك تخلص بنا إلى وحدة موضوعية للسورة تشمل جميع آياتها والأمثلة السابقة خير شاهدٍ على ذلك، ففي آيات سورة النساء ترى فيها الحث على الأمانة والأمر بها في سياقات مختلفة التنوع تدل على أهمية هذه الركيزة في سبيل الاجتماع والتآلف والتي تعتبر الخيانة فيه أعظم ما يشق الصف وهي منافية للأمر بالتقوى والتذكير بأصل الخلق الداعي إلى الاجتماع.

وقُل مثل ذلك في سورة ص التي تنوعت فيها الأخبار والقصص، وذكر تخاصم أهل النار، وامتناع إبليس عن السجود، وإغوائه لعباد الله، لتخلص إلى غرض جلي في السورة ألَا وهو نصرة الله لأوليائه وغلبته لهم.

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١١/ ١٣٠).

وهكذا نجد أنه مع تنوع موضوعات السورة الواحدة، حيث الأحكام والعقيدة والقصص والأمثال والوعد والوعيد، إلا أننا نجدها مجتمعة في سياق واحد، متناسبة متناسقة، تصب كلها في هدف واحد، وتدور كلها حول محور واحد، وينظمها عقد واحد، ويربطها رابط واحد، فلا تناقض ولا اضطراب، ولا تفكك ولا تنافر بين الموضوعات، فهذا الترتيب متوافق مع الهدف العام للقرآن، وهو التذكير المتجدد مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣][١].

ويقول سيد قطب[٢]: «ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو»[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات، أ.د. أحمد الشرقاوي (ص١٧).

(٢) هو: سيد قطب بن إبراهيم، مفكر وأديب مصري، ولد في أسيوط، وتخرج بكلية دار العلوم وعين مدرسًا للعربية، وكان يطالب ببرامج تعليمية تتمشى والفكرة الإسلامية، عكف على تأليف الكتب ونشرها إلى أن صدر الأمر بإعدامه فأعدم، وله رسائل عديدة، أعدم سنة (١٣٨٧هـ). (الأعلام للزركلي ٣/ ١٤٧).

(٣) في ظلال القرآن (١/ ٢٨).

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

تصريف القول في القرآن

ويتضمن تمهيد وثمانية مباحث:

- المبحث الأول: تصريف القول في الألفاظ والمعاني.
- المبحث الثاني: تصريف القول في فواتح السور وخواتمها.
- المبحث الثالث: تصريف القول في تذييل الآيات.
- المبحث الرابع: تصريف القول في تقرير العقيدة.
- المبحث الخامس: تصريف القول في تقرير الأحكام.
- المبحث السادس: تصريف القول في الترغيب والترهيب.
- المبحث السابع: تصريف القول في إيراد القصص.
- المبحث الثامن: تصريف القول في إيراد الأمثال.

تمهيد

التصريف في اللغة مأخوذ من (صرَّف)، والصاد والراء والفاء معظم بابه يدل على رجع الشيء، وتصريف الكلام: صرْفُه من حال إلى حال.

وقال أبو عبيد(١): صرْف الكلامِ: تزيينه والزيادة فيه، وإنما سُمِّي بذلك لأنه إذا زين صرف الأسماع إلى استماعه(٢).

وقال في «لسان العرب»: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأحقاف: ٢٧]؛ أَي: بيَّنَّاها، وتَصْريفُ الآيَاتِ تَبْيينُها(٣).

وفي التعريفات للجرجاني: التصريف: تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلا بها(٤).

وعلى هذا فالتصريف فيه معنى التنويع والتبيين والتزيين، ومجيء المعنى الواحد بألفاظ مختلفة.

والتصريف من خصائص أسلوب القرآن الكريم، الذي كان من أعظم مقاصده هداية الناس، ولما كانت طبائع النفس البشرية متقلبة من حالٍ إلى حالٍ، وكانت البلاغة أن يبلغ المتكلم بكلامه ما يريد من نفس

---

(١) هو: القاسم بن سلّام، أبو عبيد التركي البغدادي، مولى الأزد كان أبوه مملوكًا روميًّا، كان مؤدبًا صاحب نحو وعربيّة، وطلب الحديث والفقه، وولي قضاء طرسوس وله من التصانيف: «غريب القرآن»، و«غريب الحديث»، و«القراءات»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«معاني القرآن» وغيرها، مات بمكة (٢٢٣هـ). (طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣٧، معجم الأدباء ٥/ ٢١٩٨).

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٣٤٢)، المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٤٨٢).

(٣) لسان العرب (٩/ ١٨٩).

(٤) التعريفات (ص٥٩).

السامع بإصابة موضع الإقناع من العقل، والوجدان من النفس، كان التصريف من أعلى درجات البلاغة في الأسلوب القرآني، الذي تحدَّى الله الإنس والجن به في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الإسراء: ٨٨، ٨٩]، قال ابن عاشور: «لما تحدَّى الله بلغاء المشركين بالإعجاز تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام، مدمجًا في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثل، وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال»[١].

ويقول محمد رشيد رضا: «بل تأمل المعنى الواحد من المعاني المكررة في القرآن لأجل تقريرها في الأنفس ونقشها في الأذهان؛ كالاعتبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول، وأفطن لاختلاف النظم والأساليب فيها، فمن المختصر ما في سور الذاريات والنجم والقمر والفجر، ومن المطول ما في سورة الأعراف والشعراء وطه، لعلك إن تدبرت هذا تشعر بالبون الشاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق وتحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكمًا ضروريًا وجدانيًا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك، وإن عجزت عن بيانه بقولك»[٢].

وتصريف القول في الآيات التي جاء الحديث فيها عن تصريف القول على تفرق مواضعها وتنوع دلالالتها واختلاف سياقها، خير مثالٍ أفْتَتِح به هذا الفصل.

فتصريف القول أدعى للقبول، وأقرب في وصول الحق إلى النفوس المقبلة؛ لأنه يحيي القلوب وينير البصائر ويأخذ بالألباب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٤). (٢) تفسير المنار (١/ ١٦٧).

﴿يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وكما أن في النفوس مَن طبيعتها الجدال والجموح عن الحق، وصعوبة الانقياد إليه، صرّف الله في آيات الكتاب العزيز ما يقيم الحجة على المنكرين المكذبين، فما من خطاب عقلي أو وعظي في بيان الأحكام والعقائد ونحوهما، أو عرض قصصي في القرآن، إلا رأيت من التصريف في آياته ما يقيم الحجة ويزيل الشبهة، ولقد ذم الله المعرضين الجاحدين للحق بعد تبيين الآيات لهم فقال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقد بيّن الله أن الغاية من تصريف القول في القرآن: الفقه، والتذكر، والتقوى، والأوبة، والرجوع فقال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤١] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه: ١١٣] ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، كما دلت الآيات أن التصريف يكون في الأمثال، كما يكون في القصص، وفي الوعد والوعيد والأدلة والبراهين، وفي القرآن أجمع كما قال القرطبي[(١)]: «أي: وجّهنا القول فيه بكلِّ مَثَلٍ يجب به الاعتبار، من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة»[(٢)].

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي فرح الأنصاري الخزرجي المالكي، سارت الركبان بتفسيره وله كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، إمام متفنن متبحر في العلم، توفي سنة (٦٧١هـ). (طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٢٧).

وفي هذا الفصل أتناول أوجه تصريف القول من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: تصريف القول في الألفاظ والمعاني.

المبحث الثاني: تصريف القول في فواتح السور وخواتمها.

المبحث الثالث: تصريف القول في تذييل الآيات.

المبحث الرابع: تصريف القول في تقرير العقيدة.

المبحث الخامس: تصريف القول في تقرير الأحكام.

المبحث السادس: تصريف القول في الترغيب والترهيب.

المبحث السابع: تصريف القول في إيراد القصص.

المبحث الثامن: تصريف القول في إيراد الأمثال.

* * *

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

تصريف القول في الألفاظ والمعاني

من أوجه تصريف القول في القرآن الكريم، تصريف الألفاظ والمعاني، والمتأمل في أسلوب القرآن يدرك أن تصريف الألفاظ في القرآن الكريم جاء على قدر من التفنن البديع المحكم المنبئ عما يتضمنه من دقائق المعاني وبدائع الحِكَم.

وبيّن الرافعي هذه الدرجة البديعة من تصرف الألفاظ والمعاني فقال: «وإنك لتحارُ إذا تأملت تركيب القرآن ونظمَ كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها؛ وتقعد بك العبارة إذا أنتَ حاولت أن تمضي في وصفه حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك، وأجمعَ لما في نفسك، وأبينَ لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز، وما عسى أن تقول في كلام ترى للفظ من الألفاظ فيه معنى؛ ثم ترى كأن لهذا المعنى في التركيب معنى آخر، هو الذي يفيض على النفس ويتصل بها، فكأنه كلام مداخل، وكأن اللغة فيه لغتان، ثم ما أنت قائل في كلام جاء من الإبداع في التأليف ومن وجوه التفنن في تلوين المعاني بحيث نفى العربَ جميعًا عن لغتهم، وهم في أرقى ما اتفق لهم من الصور اللغوية، واستبد بها دونهم، واستغرق كل ما جاء به من محاسن البيان، حتى لم يدع لمن يقابل بينه وبين كلامهم إلا حُكمًا واحدًا تنتهي إليه المقالة من أي جهاتها سلك؛ وهو أن العرب أوجدوا اللغةَ مفرداتٍ فانية، وأوجدها القرآن تراكيبَ خالدة»(١).

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٧٠).

والسيوطي يعد طريقة القرآن في اختياره للألفاظ التي تتصرّف على وجوه، من أعظم أوجه الإعجاز فيقول: «وهذا الوجه من أعظم إعجازه، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهًا، وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر»(١).

وكيف لا يصل حد الإعجاز وأنت ترى الكلمة هي الكلمة، تتصرف حروفها بالزيادة والنقص، أو التعريف والتنكير فيقتضي ذلك تصرفًا في المعنى، أو يكون اللفظ واحدًا ويتصرف على وجوه كثيرة أو عدة أوجه، **ويتبيّن ذلك من خلال ما يلي:**

أولًا: تصرف اللفظ في بنائه:

حقق أسلوب القرآن الغاية من البلاغة والفصاحة، ومن أعظم وجوه هذه الفصاحة أن ترى اللفظ واحدًا، يتصرّف بالزيادة والنقص، أو التعريف والتنكير، أو اختلاف صيغة الجمع، إلى غيرها من الأوجه التي تطرأ على اللفظ، وهو مع تصرفه في تمام الغاية من المقصود، فأي تغيّر في المبنى يلقي بظلاله على المعنى على أتم ما يكون من وجوه المعاني.

وأنواع التصرف في اللفظ كثيرة ومنها:

- **التصرف في اللفظ بالتعريف والتنكير:**

ومن أمثلة ذلك:

تعريف وتنكير كلمة [بغير الحق] في وصف بني إسرائيل بقتل الأنبياء، حيث وردت معرفةً بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو

---

(١) معترك الأقران (١/ ٣٨٧).

بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، ووردت منكرة في سورة آل عمران، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وكذلك في سورة النساء في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

فتصرّفَ لفظ: [الحق] بين التعريف والتنكير، وهذا التصرف اللفظي، لا بد أن يتبعه تصرّف في المعنى، فإذا ما تأملنا في موضع سورة البقرة حيث ورد اللفظ معرّفًا كان السياق في الإخبار عن أناس معيّنين وهم الذين قاموا بهذه الجريمة، وقد كان الحق الذي يبيح لهم القتل معروفًا ومعهودًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، فكان قوله: [بغير الحق]؛ أي: بغير وجه معتبر في شريعتهم، فلما كان الحق عندهم معروفًا، ناسب أن يأتي اللفظ بصيغة التعريف، أما المواضع الأخرى فقد ورد اللفظ بصيغة التنكير، وذلك أن الخطاب في هذه المواطن لما كان متجهًا إلى اليهود المعاصرين للنبي ﷺ، وكان السياق في توبيخ هؤلاء بما فعله أسلافهم لاعتقادهم صواب ذلك، كان المراد بذلك استغراق النفي والتأكيد على جرم فعلهم وتقبيحه، ولم يكن المراد الحديث عن موجبات القتل، ولذا

ناسب أن يكون المنفي بصيغة التنكير حتى يكون عامًا، إمعانًا في التشنيع عليهم وتقبيح هذا الفعل الذي أقروا أسلافهم عليه[(١)].

• التصرف في اللفظ بالزيادة والحذف:

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وإضافة إلى ما في التصرّف في هذين الموضعين من التفنن، يبيّن ابن كثير وجه التصريف في ذلك وأثره في تصرّف المعنى فيقول: «وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسّره له وبيّنه ووضّحه وأزال المُشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلًا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلًّا بما يناسبه لفظًا ومعنًى، والله أعلم»[(٢)].

• تصرف اللفظ بالإفراد والجمع:

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]، وجاءت بالجمع في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤] فتصرّف اللفظ بين الإفراد والجمع

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٣/ ٧٦)، التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨٨).

للدلالة على موصوف واحد، وهذا وإن كان من التفنن في التصريف الواقع في لغة العرب، غير أن لهذا التصريف أثر في تصرف المعنى المبني على اللفظ، وتوجيه المعنى يرجع إلى أمرين:

الأول: أن تصريف اللفظ بين الإفراد والجمع، راجع إلى تعدد المقالة، حيث قالت فرقة من اليهود: إنما نعذب بالنار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، وقالت الأخرى: لن تمسنا النار إلا أربعين يومًا مدة عبادة العجل[1]، فتصرّفت آية البقرة بما يحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبر بجمع الكثرة، وتصرفت آية آل عمران بما يحتمل قول الفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة[2].

الثاني: أن آية سورة البقرة جاءت بالإفراد لما يناسب الإيجاز الواقع فيها، أما آية سورة آل عمران لما كان فيها شيء من البسط بدلالة قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ناسب أن تأتي بصيغة الجمع، والله أعلم[3].

- **تصرف اللفظ على أكثر من وجه:**

ومن ذلك لفظ [نجّيناكم] حيث ورد متصرفًا على وجوه، فجاء متصرّف المصدر بين [التنجية والإنجاء] فجاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠]، ففي الآية الأولى [نجيناكم] من التنجية، وفي الآية الثانية [فأنجيناكم] من الإنجاء، و[نجيناكم وأنجيناكم] وإن كانتا لغتين، إلا أن النجاة من أذى فرعون الذي جاء

---

(١) **انظر**: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١/ ٢٠٧).

(٢) **انظر**: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٩٣).

(٣) **انظر**: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، لابن الزبير الغرناطي (١/ ٤٦).

ذكره في الآية الأولى، لما كان متدرجًا ناسب ذكره مضعّفًا، لما فيه من تكرار النجاة وتعدد مراحله، أما في الآية الثانية التي ذكّرهم الله فيها بنعمة الإنجاء من لحاق فرعون والغرق، جاء بـ [أنجيناكم] لما فيه من السرعة ولكون الحادثة واحدة(١).

وتجدر الإشارة إلى أن ما ورد في الآية الأولى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ جاء نظيره في سورة الأعراف وطه بلفظ [أنجيناكم]، فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١]، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [طه: ٨٠]، **ووجه ذلك**: أن تصرفها على هذا الوجه قُصِد به من كان من بني إسرائيل في زمن النبي ﷺ، ويكون تذكيرهم بالإنجاء من حيث بقاء نسلهم وذريتهم فتكون لمن كان في عهد موسى تنجية، وتكون لذريتهم من بعدهم إنجاءً، والله أعلم(٢).

كما جاء لفظ: [أنجيناكم] كذلك متصرّفًا بين إسناده إلى نون العظمة، وإسناده إلى ضمير الغائب، وإسناده إلى ضمير المتكلم، فقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١] جاءت القراءة المتواترة بـ [أنجاكم] مسندًا إلى ضمير الله ﷻ، جريًا على خطاب موسى لقومه: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠] وعلى قراءة النون يكون الخطاب من الله تعالى على طريقة الالتفات(٣).

وفي سورة طه في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ

---

(١) **انظر**: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/٣٥٩).

(٢) **انظر**: تفسير المنار (٩/١٠١). (٣) **انظر**: البحر المحيط (٥/١٥٩).

جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [طـه: ٨٠]، وردت القراءة المتواترة بـ: (بإسناد الخطاب إلى ضمير المتكلم [أنجيتكم])[(١)].

هذه بعض الأوجه في تصريف القول في بناء اللفظ وما يتبعه من تصرّف في دقائق المعاني، وما يتضمنه من التفنن البديع.

ثانيًا: تصرف اللفظ في معناه:

وهذا الوجه من أوجه تصرّف اللفظ والمعنى في أسلوب القرآن، لكن اللفظ باق على أصله لا يطرأ عليه تصرفٌ في بنائه إلا أن معانيه تتصرف، وقد ألّف يحيى ابن سلّام[(٢)] كتابًا جمع فيه كثيرًا من هذه الألفاظ، وآثر أن يسمي كتابه: «التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرّفت معانيه».

وإذا ما تأملنا وجه التصريف في المعاني رأينا أنها تعود على أصل واحد، ثم بعد ذلك قد تتصرف على هذه الوجوه في القرآن، وقد تطّرد على معنى واحد، إلا في مواضع يسيرة.

ومن الأمثلة على ذلك: لفظ (الهدى) كيف تصرّف هذا اللفظ إلى عدة معانٍ ثم إن هذه المعاني كلها تدور على أصل واحد، فمن معاني الهدى: البيان كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، والدعاء كقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، والإلهام كما في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، إلى غير تلك الأوجه التي تصل إلى ثمانية عشر وجهًا، وعند النظر في تصريفاتها نرى أنها تدور على أصل

---

(١) انظر: الدر المصون في علم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (٨/٨٦).

(٢) يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة أبو زكريا البصري حدث عن سعيد بن أبي عروبة، والثوري، ومالك وجمع وصنف، وله اختيار في القراءة من طريق الآثار، وله تفسيره الذي ليس لأحد من المتقدمين مثله، مات بمصر سنة (٢٠٠هـ). (سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٩٧).

واحد وكل المعاني تنطلق منه، وقد فصّل الحكيم الترمذي[(١)] هذا الأصل فقال: «فالحاصل من هذه الكلمة كلمة واحدة، وذلك أن الهدى هو الميل يقال في اللغة: «رأيت فلانًا يتهادى في مشيته»؛ أي: يتمايل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: ملنا إليك، ومنه سميت الهدية هدية؛ لأنها تميل بالقلب إلى مُهديها وإن القلب أمير على الجوارح، فإذا هداه الله لنوره؛ أي: أماله لنوره اهتدى»[(٢)].

وكما أن اللفظة الواحدة في الأسلوب القرآني قد تصل إلى أوجه كثيرة، فإنها قد ترد على معنى مطّرد في القرآن، إلا في موضع أو موضعين تأتي بمعنى مغاير، ومن ذلك: كلمة (الأسف) أصلها واحد، وهو الفوت والتلهف، فمتى كان ذلك على من دونه صار غضبًا، ومتى ما كان على من فوقه صار حزنًا، ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظًا وغضبًا، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزنًا وجزعًا فاطّرد في القرآن على معنى الحزن؛ كقوله تعالى في قصة يعقوب عليه السلام: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، إلا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]، فإن معناه: أغضبونا، وأما قوله في قصة موسى عليه السلام: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٦]، فقال ابن عباس: مغتاظًا[(٣)].

---

(١) هو: محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي، أبو عبد الله، حدث عن: أبيه وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر، وحدث عنه يحيى بن منصور القاضي والحسن بن علي من مشايخ نيسابور، قال الذهبي: له حكم ومواعظ لولا هفوة بدت منه. (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٠).

(٢) تحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي (ص٢٠)، وانظر: تهذيب اللغة (٢/ ١٠٧)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٧٧)، الكشف والبيان، للثعلبي (٤/ ٢٩٠).

(٣) انظر: مقاييس اللغة (١/ ١٠٣)، المفردات (ص٧٥)، أفراد كلمات القرآن العزيز (ص٩)، لابن فارس وقد جمع في هذا الكتاب ٣٤ لفظًا من ألفاظ القرآن الكريم على هذا المنوال.

وكذلك كلمة [البروج] فإن أصلها البروز والظهور، فجاءت مطّردة في القرآن بمعنى الكواكب؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] إلا في سورة النساء ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨] فإنها القصور الطوال المرتفعة في السماء الحصينة وهذا على غير ما اعتادته العرب في إطلاق البروج، إذ إنها عبرت بالبروج عن القصور ثمّ سمّت بها بروج السماء[١].

هذه بعض الأوجه في تصرّف القول في لفظه ومعناه مما اختصَّ به أسلوب القرآن.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٣٨)، المفردات (ص١١٥)، أفراد كلمات القرآن العزيز (ص٩).

المَبْحَثُ الثَّانِي

تصريف القول في فواتح السور وخواتمها

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

التصريف في فواتح السور

نزلت سور القرآن الكريم متنوعة الفواتح، تبدأ بأول سورة فإذا هي قد افتتحت بالحمد، ثم تنتقل للزهراوين، وقد افتتحا بحروف مقطعة، ثم سورة النساء والمائدة وقد افتتحتا بالخطاب، فالأولى افتتحت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والأخرى بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تصرّف بديع يشد انتباه القارئ ويأخذ بلبّ البليغ. ولقد عدّ العلماء الأنواع التي تصرفت عليها فواتح السور عشرة أنواع، وهي:

الاستفتاح بالحمد والثناء، والاستفتاح بحروف التهجي، والاستفتاح بالنداء والاستفتاح بالجملة الخبرية، والاستفتاح بالقَسَم، والاستفتاح بالأمر، والاستفهام والدعاء، والتعليل[(١)].

ومع تعدد هذه الأنواع، فإن تمام البلاغة في حسن افتتاح كل سورة بما يناسبها مع تحقق المراد وتقرير المعاني، وهذا ما جعل السيوطي يعد هذا الوجه من أحسن أوجه البلاغة عند البيانيين، وعلّل ذلك فقال: «وهو أنْ يتأنَّقَ فِي أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السمع فإن كان محررًا قِبَل السامع قَبِلَ الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه، وإن كان في نهاية الحسن،

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٦٤)، وقد فصل في عدد كل نوع من هذه الأنواع.

فينبغي أن يُؤتى فيه بأعذب اللفظ وأرقّه، وقد أتت فواتح جميع السور على أحسن الوجوه وأكملها كالتحميدات، وحروف النداء، والهجاء»[(١)].

ومع تصرف كل نوع من هذه الأنواع العشرة إلى وجوه، إلا أن هناك سماتٍ مشتركة تعين على تلمس أسرار هذا التصريف في فواتح السور، وهي:

أولًا: التفنن في الأساليب:

لئن تعددت فواتح سور القرآن في تصرفها، فقد تفننت في تنوعها، وتأنقت في حسن مواضعها، فكل فاتحة من فواتح سور القرآن فيها من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ما تقصر عن كنه وصفه العبارة؛ كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور، وكذا الابتداء بالنداء؛ كقوله في مفتتح سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: ١]، وفي سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١]، فإن مثل هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه، وكذا في الابتداء بالحروف نحو: [الم وحم]، مما يبعث على الاستماع والتطلع نحوه؛ لأنه يقرع السمع شيء غريب ليس بمثله عادة[(٢)].

وكما أن التفنن في الفواتح أعذب في اللفظ فهو كذلك مما يعطي المعنى قوة ويزيده بيانًا، وقد بيّن ذلك القزويني[(٣)] بقوله: «ينبغي للمتكلم

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٥٨).

(٢) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف الدمشقي (١/ ١٠٤).

(٣) **هو**: محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعيّ، المعروف بخطيب دمشق، ولد بالموصل سنة (٦٦٦هـ)، ولي القضاء بدمشق ومصر، من كتبه تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، والإيضاح في شرح التلخيص، توفي سنة (٧٣٩هـ). (انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ١٩٢).

أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه، حتى تكون أعذب لفظًا، وأحسن سبكًا، وأصح معنى، الأول: الابتداء لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وإن كان في غاية الحسن» ثم قال: «وجميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها، يظهر ذلك بالتأمل فيها مع التدبر لما تقدم من الأصول»(١).

ولنعرض من المثال ما يوضح المقال، فمن التفنن في الفواتح:

- **الاستفتاح بالتسبيح**: قال الزركشي: «جاء التصرف في صيغها على أربع أحوال: فبدأ بالمصدر منها في سورة الإسراء؛ لأنه الأصل، ثم الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ في الحديد والحشر والصف؛ لأنه أسبق الزمانين، ثم المستقبل في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في سورة الأعلى، استيعابًا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهي أربع: المصدر والماضي والمستقبل والأمر المخاطب فهذه أعجوبة وبرهان»(٢).

- **ومن ذلك**: الاستفتاح بلفظ: [تبارك] فلم يأت هذا اللفظ إلا في موضعين وهما في بديع مكانهما درة مضيئة وجوهرة منيرة، ووجه ذلك كما قال ابن عاشور: «افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب؛ لأن غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة أو مقترنة بحرف غير منفصل، وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع؛ لأن الندرة من العزة، والعزة من محاسن الألفاظ»(٣).

- **ومن التفنن العجيب**: الاستفتاح بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، فالافتتاح بهذه الآية له وقع عظيم في النفس، ومفاجأة لأولئك المشركين الذي كانوا يستعجلون فيه العذاب استهزاءً

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (١/ ٣٩٠، ٣٩٥).
(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٦٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٣١٥).

واستبعادًا لوقوعه فافتتحت السورة بالفعل الماضي المتضمن تحقق الوقوع، فجاء حاسمًا جازمًا يوحي بصدور الأمر وتوجه الإرادة، وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدره الله لوقوعه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإن سنة الله تمضي وفق مشيئته، لا يقدمها استعجال ولا يؤخرها رجاء، فأمْر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى، أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر، لا يستقدم ساعة ولا يتأخر[(١)].

ومما يُلحظ في تفنن الفواتح: الشمول، وأنت ترى ذلك في كل نوع من أنواع الفواتح، فلم يكتف في الثناء بالتحميد فقط، بل جاء بالتحميد والتعظيم والتسبيح على تنوع صيغه كذلك، وجاءت الحروف المقطعة بحرف وحرفين إلى خمسة أحرف وفي مجموعها من الشمول ما استوعبت جميع صفات الحروف ومخارجها[(٢)].

وترى الشمول كذلك في السور التي افتتحت بالنداء، فقد تنوع النداء فشمل عموم الناس، وجاء النداء خاصًا إلى المؤمنين بالخلة التي شرّفهم الله بها، وما يستحثهم على الطاعة والامتثال، وافتتحت سورٌ بالنداء إلى النبي ﷺ، مما يدل على أن هذا القرآن نزل هاديًا إلى الناس كافة لا تختص به فئة دون فئة أو قوم دون قوم.

وإذا تأملت في مطلع كل سورة رأيت فيها من الشمول والبلاغة والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه[(٣)].

ثانيًا: اختصاص كل نوع بخصائص مشتركة:

فقد اختصَّ كل نوع من أنواع الفواتح بخصائص مشتركة مع تنوع التصريف فالحروف المقطعة على تنوعها واختلاف تصريفها قد ذكر بعدها

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢١٥٩).
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٦٨).
(٣) انظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، لابن أبي الإصبع (١/ ٢٢).

ما يتعلق بالقرآن الكريم سواء كان مباشرًا أو في ثنايا السورة كما قال الزركشي: «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن»(١).

أما السور التي افتتحت بالثناء، فلها ما يخصها ويظهر حسنها وبديع تصريفها فقد اختصت بحمد الله وتعظيمه وتنزيهه، بما تفرد به من الملك والخلق والرزق والتدبير الشرعي والقدري، وقد بيّن الزركشي هذا المعنى عند حديثه عن هذا النوع فقال: «فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله لثبوت صفات الكمال، وهو سر عظيم من أسرار الألوهية»(٢).

ولعل من هذه الخصائص في الأربع عشرة سورة المفتتحة بالثناء أن الله تعالى أثنى على نفسه بتفرده بالربوبية وتفرده بالخلق، والوحي، والملك، وتفرده بالأسماء الحسنى والصفات العلى، وبهذا فقد جمعت هذه الفواتح توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ومن الخصائص المشتركة التي اختصت بها هذه الفواتح: أن الثناء على الله بـ: [تبارك] جاء في موضعين الأول في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهذا فيه ثناء على الله تعالى بهذا الكتاب الذي فيه التشريع والحكم للناس في أمور معاشهم ومعادهم.

والثاني في سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وفيه الثناء على الله تعالى بتفرده بالملك، واختصاص الله تعالى بالملك والتشريع يدلان على عظمته وكبريائه التي لا تليق إلا به تعالى ولذا فقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] «فلما كان الخلق والأمر ليس

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٧٠). (٢) المصدر السابق (١/ ١٦٥).

إلا منه، لا جرم كان الثناء المذكور بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ لا يليق إلا بكبريائه وكمال فضله ونهاية جوده ورحمته»[١].

أما الآيات المفتتحة بالتسبيح: فقد تصرفت في مواضع مختلفة منها ثمانية عشر موضعًا في تنزيه الله تعالى عن الولد والشريك، ومعلوم أن التسبيح تنزيه لله تعالى، إلا أن جميع آيات التسبيح المفتتح بها في أوائل السور جاءت لإثبات صفات الكمال لا لتنزيه الله تعالى عما لا يليق به وإن كانت متضمنة فيها، وهذا في الفواتح أكمل وأبلغ؛ لأنه أول ما يقرع السمع ويستقر في النفس.

ولذا كانت صفات الثبوت في القرآن على العموم أكثر من الصفات التي نفت عن الله ما لا يليق به[٢].

وقد بيّن ابن عاشور هذا الوجه في فاتحة سورة الإسراء فقال: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلامٍ متضمنٍ ما يجبُ تنزيه الله عنه، يؤذن بأن خبرًا عجيبًا يستقبله السامعونَ دالًّا على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه فإن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيهًا أو تنقيصًا لا يليقان بجلال الله تعالى مثل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التنزيه، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به» إلى أن قال: «ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى، ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلًا للشك في قدرة الله وللإشراك به كان من شأنه أن ينطق المتأمل بتسبيح الله تعالى»[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (١٤/ ٢٧٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥)، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لابن عثيمين (ص٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠).

وإذا تأمل المتأمل في كل نوع من أنواع الفواتح لاح له من الخصائص ما يميزها عن غيرها على اختلاف تصريفها.

ثالثًا: تصرف مطلع كل سورة حسب الملابسات التي نزلت بها السورة(١):

كل سورة تنزل في وقت من الأوقات لها من الظروف والأحوال ما لم تنزل في وقته السورة الأخرى، وقد تعالج السورة قضية من القضايا بحاجة إلى أن تفتتح بأسلوب غير ما افتتحت به السورة الأخرى لما في الافتتاح من تنبيه للسامعين كما سبق ذكره.

وهكذا تصرّفت فواتح السور حسب الملابسات والمواقف التي نزلت فيها السورة.

ـ فالاستفتاح بالجمل الخبرية تصرّف على وجوه، فمرة يكون بالفعل، ومرة يكون بالمصدر، وثالثة بأدوات التوكيد، وكل فاتحة منها لها من الأسباب ما يناسبها.

فسورة التوبة قد افتتحت بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] ومجيء الخبر منكّرًا بهذه الصيغة في مطلع السورة دالٌّ على الغرض المراد منها، فهي مفتتحة كما تفتتح العهود والمواثيق والصكوك، كما أن هذه البراءة أمر حادث لم يُعهَدْ عند المخاطَبين ذاتُها ولا عنوانُ ابتدائِها من الله تعالى ورسولِه وهذا كاف في فهم المقصود(٢).

ـ أما الاستفتاح بالقسَم، فقد أقسم الله تعالى بمكة في موضعين

---

(١) انظر: الطراز ليحيى الطالبي (٣/ ٢٠٤)، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، د. عبد الله النقراط (١/ ١٧٣).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٠)، التحرير والتنوير (١٠/ ١٠٣).

جاءت الأولى في فاتحة سورة البلد أما الثانية فقد جاءت معطوفة على ما افتتحت به سورة التين من القسَم بـ: [التين، والزيتون، وطور سينين]، والتأمل في هذين الموضعيْن يظهران جمال التصريف العجيب وعلاقته بالسورة، وقد أبان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عن هذا الملحظ فقال: «فالمقسم به في الموضعين: مكة المكرمة، والمقسم عليه في الموضعين خلق الإنسان، ولكن في **الموضع الأول** كان المقسم عليه مكابدة الإنسان من أول ولادته إلى نشأته، إلى كدِّه في حياته، إلى نهايته ومماته، ومن ذلك مكابدته ﷺ منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله، ولحقت به أمه وهو في طفولته وبعد الوحي كابد مع قومه ولقي منهم عنتًا شديدًا، حتى تآمروا على قتله، فلكأنه يقول له: اصبر على ذلك، فإن المكابدة لا بد منها، وهي ملازمة للإنسان كملازمتك لهذا البلد منذ ولادتك.

أما في الموضع الثاني: فالمقسم عليه، وإن كان هو خلق الإنسان، إلا أنه أراد خلقه في أحسن تقويم، وهي أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضًا للنعم، وتعددها من التين والزيتون، سواء كان المراد بهما الفاكهة المذكورة أو أماكنها، وهو بيت المقدس مع طور سينين فجاء بمكة أيضًا ولكن بوصف مناسب، فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، فكأنه يقول: إن من أنعم على تلك البقاع بالخير والبركة والقداسة، أنعم على الإنسان بنعمة حسن خلقته وحسن تقويمه وفضله على سائر مخلوقاته، والله تعالى أعلم»[١].

- وفي تصرف الحروف المقطعة غير ما سبق من كون الحديث بعدها يكون عن القرآن، فإن تصرف كل حرف في سورته يكون مبنيًا على ما تضمنته السورة في اللفظ والنظم، كما سبق بيان ذلك[٢].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٤٤٣)، وانظر في ذلك: الكشاف (٤/ ٧٥٣)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (٥/ ٣١٣)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٤٧).

(٢) وذلك في المبحث الثاني من الفصل الأول من الكتاب.

المطلب الثاني

التصريف في خواتم السور

التصريف في خواتم السور فيه من التنوع والجمال والبلاغة كما قيل في فواتح السور، فهي آخر ما يقرع الأسماع، ولهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوف النفس إلى ما يذكر بعد.

وقد اتسمت خواتم السور في عجيب تصريفها بسمات **يمكن إجمالها في الآتي:**

أولًا: التفنن والتنوع:

فالتفنن في أواخر السور كالتفنن في أوائل السور الدال على عجيب النظم وبديع التصريف، فكما أن الفواتح هي أول ما يقرع السمع فإن الخواتم آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس وفيها من التنوع كالدعاء والوصايا والثناء على الله تعالى وتعظيمه ومدح الرسول ﷺ وعباد الله الصالحين، والبشارة والنذارة.

ففي الدعاء مثلًا ما جاء في ختام سورة البقرة بإضافة [نا] الدالة على الفاعلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي سورة المؤمنون يأتي الدعاء بأسلوب الأمر من الله تعالى لنبيه بالدعاء فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

[المؤمنون: ١١٨]، ثم يأتي حكاية عن نبي الله نوح في أواخر سورة [نوح]: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [٢٨].

وقد تنوع الثناء على الله تعالى في خواتم السور من تحميد وتنزيه وتعظيم، وهذا التفنن في المباني دالٌّ على ما حواه من عظيم المعاني.

وقد اجتهد ابن أبي الإصبع(١) في الإبانة عن جمال هذا التصريف في النصف الأول من القرآن فقال: «وجميع خواتم السور الفرقانية في غاية الحسن ونهاية الكمال؛ لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل، إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى في النفوس بعدها تطلع ولا تشوّف إلى ما يقال؛ كالدعاء الذي ختمت به سورة البقرة والوصايا التي ختمت بها آل عمران، والفرائض التي ختمت بها النساء، والتبجيل والتعظيم الذي ختمت بهما المائدة، والوعد والوعيد الذي ختمت بهما الأنعام والتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة التي ختمت به الأعراف، والحض على الجهاد وصلة الأرحام اللذين ختمت بهما الأنفال، ووصف الرسول ﷺ ومدحه والاعتداد على الأمم به، ووسيلته ووصيته، والتهليل، الذي ختمت به براءة وتسليته عليه السلام التي ختمت بها سورة يونس، ومثلها خاتمة هود، ووصف القرآن ومدحه الذي ختمت به يوسف، والرد على من كذب الرسول ﷺ الذي ختمت به الرعد، ومدح القرآن وذكر فائدته والعلة في إنزاله الذي ختمت به إبراهيم

---

(١) هو: عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ابن أبي الإصْبع العدوانيّ، البغدادي ثم المصري: مولده ووفاته بمصر، ولد سنة (٥٩٥هـ)، وهو شاعر، من العلماء بالأدب، له تصانيف حسنة، منها: «بديع القرآن» و«تحرير التحبير»، و«الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح»، و«البرهان في إعجاز القرآن»، توفي سنة (٦٥٤هـ). (انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي ١٤/ ٧٥٩).

ووصية الرسول التي ختمت بها الحجر، وتسلية الرسول ﷺ وطمأنينته ووعد الله سبحانه الذي ختمت به النحل، والتحميد الذي ختمت به سبحان وتحضيض الرسول ﷺ على الإبلاغ والإقرار بالبشرية والأمر بالتوحيد الذي ختمت به الكهف، وقد أتيت على نصف القرآن ليكون مثالًا لمن نظر في بقيته ولم أطل بالبقية لكثرة سور النصف الأخير، والله أعلم»[1].

ثانيًا: موافقة خواتم السور لفواتحها:

لقد كان من عادة العرب في خطبهم وقصائدهم أن يرجعوا بآخر كلامهم على أوله فكان من البلاغة «ردّ الأعجاز على الصدور» وهذا وإن تفاوت لدى الخطباء والأدباء مع استدراك أحدهم على الآخر، فإنك تراه عامًّا في كتاب الله على طول السورة وقصرها وكثرة مواضيعها، وهذا ما يجعله وجهًا من أوجه إعجاز القرآن الكريم حتى قال أبو حيان: «وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء، وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كل سورة، وذلك من أبدع الفصاحة، حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله»[2]، وأفرد له السيوطي كتابًا بعنوان: «مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع».

فإذا أضفت إلى التناسب أن فواتح السور متصرفة على أوجه، وخواتم السور متصرفة على أوجه فقيام التناسب في بداية كل سورة ونهايتها مع هذا التصرف وجه من أوجه تفرّد أسلوب القرآن في تصريف القول بموافقة فاتحة السورة لخاتمتها، وهذا ما لا يستطيع مجاراته بشر،

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر (ص٦٢١).
(٢) البحر المحيط في التفسير (٢/ ٧٥٥).

فالعادة مانعة من قيام التناسب مع وجود التغاير والتنوع، ولذا حين حاول مسيلمة معارضة القرآن جعل يطبع على قالبه، فجاء بشيء لا يشبهه ولا يشبه كلام نفسه، وجنح إلى أقرب ما في الطباع الإنسانية وأقوى ما في أوهام العرب من طرق السجع، فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][١].

ثالثًا: اشتمال خواتم السور على الوصايا الجامعة والمقاصد العامة:

اشتملت خواتم السور على وصايا جامعة ومقاصد كلية عامة تؤذن بختام الكلام على أتم الوجوه وأحسنها، ولذا قال صاحب «الطراز» حين تكلم عن الاختتامات: «هو عبارة عن توخّي المتكلم ختم كلامه بما يشعر بالنجاح والتمام لغرضه»[٢]، ويقول ولي الله الدهلوي[٣]: «وكما أن السلاطين يختمون رسائلهم بجوامع الكلم ونوادر الوصايا على التمسك بالأوامر المذكورة، والتهديد لكل من يخالفها ويخرج عنها، كذلك الله ـ تبارك وتعالى ـ ختم أواخر السور بجوامع الكلم ومنابع الحكم، والتأكيد البليغ والتهديد العظيم»[٤]، فانتظام هذه الوصايا في جميع خواتيم السور مع تصريف الآيات فيها من خصائص هذ الكتاب العزيز.

وعند التفصيل والوقوف على خواتم بعض السور نجد مثل قوله

---

(١) انظر: تاريخ آداب العرب، للرافعي (٢/ ١٣٥).

(٢) الطراز لأسرار البلاغة (٣/ ٢٠٤).

(٣) هو: الشيخ أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي، له حظ وافر من العلم، رحل إلى الحرمين سنة (١١٣٤هـ)، فأقام بهما عامين وصحب علماءهما صحبة شريفة وتتلمذ على الشيخ أبي طاهر الكردي المدني توفي سنة (١١٧٦هـ). (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام ٦/ ٨٦٥).

(٤) الفوز الكبير في أصول التفسير، للدهلوي (ص١٤٣).

تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥][1] فقد اشتملت على وصايا وقواعد وبينت حقائق اليوم الآخر إلى غير ذلك.

أما على سبيل الإجمال فعند تتبع خواتم السور يتبيّن أنها اشتملت على ثلاث قضايا كلية يختتم بها الكلام مع ما فيه من التنوع وحسن التوافق والانتظام:

الأولى: الحديث عن الله تعالى وصفاته وسعة علمه وإحاطته وتعظيمه وتمجيده واللجوء إليه، وهذا ظاهر في معظم سور القرآن الطوال والقصار على حد سواء.

الثانية: الحديث عن القرآن وبيان منزلته ومقاصده وعظمته.

الثالثة: الحديث إمهال المعاندين وتخويفهم باليوم الآخر، وتثبيت المؤمنين وتبشيرهم بما أعد الله لهم في ذلك اليوم.

فما أحوجنا أن نقف على هذا الأسلوب العظيم من أساليب القرآن في تصريف خواتم السور ونستفيد منه في التذكير والإرشاد.

* * *

---

(١) **انظر**: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢٨)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٦٧).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

تصريف القول في تذييل الآيات

عرّف الزركشي التذييل بقوله: أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقًا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه[١].

والمراد به هنا: جملةٌ تأتي في ختام الآية بعد تمام المعنى لبيانه أو تقريره[٢].

وأنت ترى في خواتيم الآيات من التنوع ما يبهر العقول، فترى الخاتمة من الآية هي عينها في آية أخرى، ثم ترى آيات متشابهة اللفظ وفاصلتهما مختلفة، وترى فواصل متفقة الجرس وأخرى مختلفة وهذا في غاية البلاغة والبيان.

وقد أشار الباقلاني إلى هذا المعنى فقال: «وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالًا؛ فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلًا في وزنه، وذلك شبيه بجملة

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٦٨).

(٢) لطائف التذييل في القرآن الكريم، أ.د. أحمد الشرقاوي ـ بحث محكّم (ص١٣).

الكلام الذي لا يتَعَمَّل فيه ولا يتصنع له، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق»(١).

ويمكننا الوقوف على ما أشار إليه الباقلاني بالنظر إلى التصريف في تذييل الآيات من خلال ما يلي:

أولًا: تذييل الآيات جاء مصرفًا على أنواع:

إن الناظر لخواتم الآيات لأول وهلة لا يظن وجود روابط تجمعها أو أنواع تنضوي تحتها، ولكن عند التفكر والتأمل في تصريف الآيات التي بيَّنها الله لقوم يعلمون، يتبيّن أن آيات القرآن التي تربو على ستة آلاف آية على اختلافها وتنوعها وطولها وقصرها يجمعها رابط واحد وهو الدلالة على المعنى الذي سيقت من أجله الآية ثم هي بعد ذلك متفرعة على أنواع.

وقد قرّر هذا المعنى الزركشي فقال: «اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة، مقاطع الكلام وأواخره وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولًا، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك، لكن منه ما يظهر ومنه ما يستخرج بالتأمل للبيب، وهي منحصرة في أربعة أشياء: التمكين والتوشيح والإيغال والتصدير»(٢).

فمن التمكين قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ

---

(١) إعجاز القرآن (ص٣٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٧٨)، والتصدير: أن تتقدم في أول الآية لفظة بعينها، وإن كان في أثناء الصدر سمي توشيحًا، والإيغال: أن يفيد معنى زائدًا بعد تمام معنى، والتمكين وهو أن تمهد قبلها تمهيدًا تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها مستقرة في قرارها (المصدر نفسه).

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٢٦ ـ ٣٠]، فهذه أربع آيات كل آية جاءت ممكّنة لما ابتدأته، متعلقة بها، مضْفِية الكمال المطلق لله ﷻ فيما أخبر عن نفسه، فلما كان العالم ملكه، أثبت غناه المطلق حتى عن هذا العالم، الذي خلقه إنعامًا لخلقه فاستحق به الحمد، وذيّل الآية الأخرى بصفتي العزة والحكمة؛ لأن الذي لا تنفد كلماته عَزِيزٌ لا يعجزه شيء، حَكِيمٌ لا يخرج من علمه وحكمته شيء، ولما كان الخلق على اختلاف لهجاته وأجناسه، وتنوع حاجاته، وتفرقه واجتماعه، عند الله تعالى كنفس واحدة، مكّن هذا المعنى بصفتي السمع والبصر، فهو يسمع كل صوت ويبصر أي مخلوق، ولا يشغله إدراك بعضها عن بعض، ولما كان دخول الليل في النهار، والنهار في الليل بحساب وتقدير، لا ينبغي لواحد إدراك الآخر، ختم هذه الآية بعظيم قدرته، وأن هذه الإحاطة جرت مجرى الشمول في جميع الخلق، ثم ختم الآية الأخيرة بعلو شأنه وكبير سلطانه أن يدعى غيره ممن هو مفتقر إليه(١).

فتأمل جمال هذا المعنى ولا ينسينّك ذلك إدراك تنوع التصريف وقوّة التمكين فيه.

ومن أمثلة التصدير قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، وقوله: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]،

---

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠٢).

والمراد به: أن تختم الآية بلفظة تقدمتها في أول الآية.

ومن التوشيح قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧] فجملة: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ التي ذُيِّلَتْ بها الآية دالَّة على المعنى السابق لها ولذا شبَّه هذا النوع بالوشاح الذي يوضع على العاتق.

أما الإيغال ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١] فقد ذُيِّلت الآية بـ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ مع أن الكلام تمّ معناه فجاءت هذه الجملة لتزيد المعنى وضوحًا وجمالًا[١].

وهذه الأنواع تشتمل على تفريعات وأقسام، وكلها تدل على التصريف العجيب والتفنن البديع في تذييل الآيات.

ثانيًا: التصريف في تذييل الآيات من جهة النظم والتركيب:

من التنوع والتصريف الذي اتسم به التذييل في الآيات القرآنية أن خواتم الآيات جاءت مشتملة جميع حروف العربية عدا حرف الخاء لصعوبة الوقف عليه، ويلاحظ أن هذا التنويع قصد به تنبيه السامعين لهذه الفواصل حال الوقف عليه[٢].

كما أن في وجود جميع حروف المعجم عدا الخاء في فواصل الآيات، مع كثرة ختم الفاصلة بالألف والواو والنون دون غيرها، إشارة إلى أن هذا التصريف قصد به نقل العرب من شيء ألفوه، ورأوا فيه جمال الوقف مع تمكن البلاغة، إلى الوقوف على حروف لم يعهدوا الوقوف عليها بهذا الجمال وهذه العذوبة في غير القرآن، وفي تعقيب

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٨٠ ـ ٩٦).

(٢) انظر: الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، السيد خضر (ص٧٧).

الزركشي على ما حكاه سيبويه في كتابه حين قال: «أمّا إذا ترنّموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت»[١] بقوله: «وجاء القرآن على أعذب مقطع وأسهل موقف»[٢]، إشارة إلى سر من أسرار هذا التصريف.

ومن التصريف في تذييل الآيات من جهة النظم: ما نقله السيوطي عن ابن الصائغ[٣] حيث تتبع ما يربو على الأربعين وجهًا في تصريف خواتم الآيات وذكر منها:

- التقديم والتأخير، في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤١].
- الحذف؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤].
- الزيادة، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].
- إيثار تذكير اسم الجنس كقوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].
- إيثار تأنيثه نحو: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. . . إلخ ما ذكره من الأوجه.

وهذه الأوجه التي ذكرها ابن الصائغ وإن عد أن تصريف النظم فيها جاء مراعاة لمناسبة فواصل الآيات، إلا أن الأصل فيها أنها جاءت لمعنى مقصود لا يتم إلا بهذا الترتيب، ففي التقديم والتأخير يقول الجرجاني: «وهو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المَحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بكَ إلى لَطيفة، وَلَا تَزال تَرى شِعرًا يروقُكَ مسْمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقكَ ولطفَ عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى

(١) الكتاب لسيبويه (٤/ ٢٠٤). (٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٦٩).

(٣) هو: محمد بن عبد الرحمٰن بن علي بن أبي الحسن الزمردي الشيخ شمس الدين ابن الصائغ النحوي الحنفي، ولد قبل سنة (٧١٠هـ)، واشتغل بالعلم وبرع في اللغة والنحو والفقه، مات سنة (٧٧٦هـ). (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٥/ ٢٤٩).

مكان»(١) فهذا وصفه له في العربية، فكيف بكتاب الله.

وفي الحذف يقول: «هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تبن»(٢)، وقد بوّب ابن جني لهذه الأوجه وغيرها التي ذكرها ابن الصائغ بما أسماه «باب في شجاعة العربية»(٣)، وذكر منه هذه الأوجه(٤).

فكل هذا يؤكِّد على أن تنوع التذييل بهذه الأوجه لم يقصد به فقط المناسبة بل ما تضمنه من الدلالة على المعنى.

أما من جهة التركيب فنجد التذييل متصرِّفًا على أوجه:

ـ اتفاق التذييل في آيات متتالية: وهذا التوافق والتوالي في اللفظ من محاسن البيان وبديع القول(٥)، **ومن ذلك** قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠، ٥١]، فكرّر قوله: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما(٦).

---

(١) دلائل الإعجاز (١/١٠٦). (٢) دلائل الإعجاز (١/١٤٦).

(٣) سمي الحذف بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّده سواه والحذف هنا إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه الأصل، ويكون التعويل فيه على السياق والقرائن. (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٢/٣، خصائص التراكيب ص٢٥٠).

(٤) **انظر**: الخصائص (٢/٣٦٢).

(٥) **انظر**: نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ص٧٠).

(٦) الكشاف (٤/٤٠٥)، البحر المحيط (٩/٥٦١).

وتأمل عجيب التصريف بتوافق الفواصل ثم بالمطابقة عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٠ ـ ٥٣] فتوافق كلمة [قريب] اختلفتا في المعنى فصارا من قبيل الجناس التام بل من أحسنه وكذلك القول في [مكان بعيد] في التي تليها، ثم جاءت المطابقة البديعة بين المكان القريب والمكان البعيد(١).

ـ اتفاق المطلع واختلاف التذييل: وهذا من الثراء اللفظي في أسلوب القرآن الكريم ومن التفنن في تذييل الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وقد نقل الزركشي عن ابن المنيّر(٢) قوله: «كأنه يقول إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان كونك ظلومًا وكونك كفارًا ولي عند إعطائها وصفان وهما أني غفور رحيم أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء»(٣).

وتارة يكون التغاير لتعدد الحكم على صاحب الوصف، حسب

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤).

(٢) هو: أحمد بن محمد بن منصور الإسكندراني، ابن المنير المفسر ناصر الدين أبو العباس، ولد سنة (٦٢٠هـ)، تبحر في التفسير والفقه والعربية والبلاغة والإنشاء، ومن تصانيفه: «التفسير للقرآن العظيم»، و«الانتصاف من الكشاف بيّن فيه ما تضمنه في الاعتزال» وناقشه في الأعاريب، توفي سنة (٦٨٣هـ). (انظر: طبقات المفسرين للأدنه وي ص٢٥٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٠٠).

الحال المتلبس بها، كما بيّن الله حال من أشرك به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] فلما كان المخاطب في الآية الأولى أهل الكتاب نبههم أن الشرك من قبيل الافتراء تحذيرًا لهم من الافتراء.

أما الآية الثانية فكان الخطاب متجهًا إلى المسلمين بيّن لهم أن الشرك من الضلال تحذيرًا من مشاقة الرسول ﷺ[١].

ثالثًا: التصريف في تذييل الآيات من جهة المضمون:

كما اتسم التذييل في الآيات القرآنية بالتصريف في نظمه وتركيبه، فلا ينبغي أن يغفَل عن المقصد الأسمى والمزية العظمى، ألا وهو التصريف في المضمون والمعنى.

فالتصريف في النظم والتركيب جار على مراعاة المعنى في المقام الأول، ويمكننا الوقوف على جملة من المضامين عند خواتم الآيات:

- تقوية المعنى:

فارتباط خواتم الآيات بما قبلها من الكلام واتصالها به، وتصرف اللفظ لما يدل عليه السياق، يضيف إلى جمال اللفظ قوة المعنى وعمق الدلالة، فحين يكون اللفظ مثلًا على وزن من الأوزان ثم ينتقل إلى وزن آخر خلاف الأصل، فلا بد أن يكون ذلك لتضمنه معنى أقوى مما عليه الوزن الآخر ومن ذلك قول أبي نواس:

فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوَ مُقْتَدِرٍ حَلَّتْ لَه نِقَمٌ فَأَلْغَاهَا[٢]

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي (ص٤٠٥).
(٢) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (٢/ ٥).

فـ «مقتدر» أقوى في الدلالة من «قادر» فهي أدل على التمكن من القدرة في إمضاء العقوبة وهكذا رجعت هذه الكلمة على العفو لتضفي عليه قوة في الثناء(١).

ومن أمثلة تصرف خواتم الآيات بما يتضمن قوة المعاني ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فالحجاب يوصَف بأنه ساتر لكن وصفه بـ [مستور] جعل هذا الحجاب من شدة ما يحجب، كأنه مستور بساتر آخر، وذلك في قوة ما تقول: «حجاب فوق حجاب»، فيكون أثر هذا الستر تعدى موضعه حتى شمل الحجاب نفسه، وهذا التعبير أقوى في الدلالة على عدم انتفاع الكفار بالقرآن وشدة إعراضهم عنه، وهو أقوى كذلك في بيان أثر القرآن في كونه حافظًا لقارئه عما يضره(٢).

وقد ورد في تذييل الآيات كثير من الألفاظ التي عُدل بها إلى وزن آخر لا لمراعاة اللفظ واتساقه فقط، وإنما لما يعطي من قوة المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] فـ[غفارًا] أدل على كثرة المغفرة من [غافر] وغير ذلك كثير في تذييل آيات القرآن الكريم.

- حسن التعليل:

كثيرًا ما تأتي الآيات مذيّلة بما يبين المقصد ويدل على الحكمة، وأكثر ما يكون ذلك في الآيات التي ختمت بأسماء الله تعالى وصفاته وبيان أن هذا الفعل صادر منه سبحانه عن علم وقدرة، أو عفو ومغفرة، أو عزة وغلبة، أو إحاطة وشمول، والدلالة على العلة بهذه الطريقة من

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/١٩٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٥/١١٧)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبد العظيم المطعني (١/٣١٨).

البلاغة بمكان، بحيث تختم الآية بما تتضمن علة الشيء دون التصريح به مع ما تحتويه من دلالة أخرى فيزداد المعنى بها حسنًا وجمالًا.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فإبراهيم عليه السلام دعا ربه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فأنعم الله عليه بهذه الهبة العظيمة وهي الذرية، ثم هي نعمة أخرى إذ وهبه الله ذلك في حال الكِبَر حيث يكون الوالد أحوج ما يكون للولد، والنعمة الثالثة أن جعلهما الله من أهل النبوة، فكان تذييل الآية بـ: ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ من حسن التعليل لما تضمنته الآية من حصول الدعاء من إبراهيم عليه السلام وإجابة الله لدعائه[(١)].

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، فلما بيّن الله تبارك وتعالى امتناعه عن اتخاذ الولد، ونزّه ذاته عن ذلك ذيّل الآية بـ ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد؛ لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه، ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد؛ لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكًا له[(٢)].

- **الاستدلال على الأحكام:**

يأتي التذييل مبيّنًا ومقررًا لحكم شرعي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، فتذييل الآية بصفة التقوى جعلها بعض المفسرين مرجحًا للقول باستحباب الوصية، قال ابن العربي[(٣)]:

---

(١) انظر: البحر المحيط (٦/٤٤٩)، تيسير الكريم الرحمٰن، لابن سعدي (ص٤٢٧).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/٢١٦).
(٣) محمد بن عبد الله، ابن العربي الأندلسي المالكي، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، =

«قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فهذا يدل على كونه ندبًا؛ لأنه لو كان فرضًا لكان على جميع المسلمين، فلما خص الله تعالى من يتقي ـ أي: يخاف تقصيرًا ـ دل على أنه غير لازم، وقد بيّنا أنه يتصور أن تكون الوصية واجبة على المسلمين إذا كان عليه دين وما يتوقع تلفه إن مات فتلزمه فرضًا المبادرة بكتبه، ولكن ليس من هذه الآية، وإنما هو من حديث ابن عمر، ومما صح من النظر، وأنه إن سكت عنه كان تضييعًا له»[1].

وقد يكون منها ما يستدل به على أدلة الأحكام كذلك ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢] بعد الحديث عن اليهود، فقد استُدِلّ بها على إثبات القياس وقالوا: حقيقة الاعتبار في مقايسة الشيء بغيره، وقد أمر الله بالاعتبار والأمر للوجوب، فيكون الاعتبار الذي منه القياس واجبًا[2]، وهذا المعنى الشمولي الذي استنبط من خاتمة هذه الآية لا ينافي ما ذكره المفسرون من دلالة الآية كذلك على الاتعاظ بما حل باليهود الذين قذف الله في قلوبهم الرعب، فهذا معنى سلوكي وذاك معنى أصولي، لا يبطل أحدهما الآخر مما يؤكد اختصاص القرآن الكريم بهذا التصريف البديع.

ـ تضمنها لقواعد عامة وأصول راسخة:

فقد تضمن تذييل الآيات قواعد راسخة وسننًا إلهية في الكون والنفس والمجتمع فالتذييل آخر ما يبقى في الذهن، ولربما حفظ دون سائر الكلام لما فيه من الإيجاز والدلالة على المقصود، وقد تصرّفت خواتم الآيات في تقرير هذه القواعد الكلية العامة وتأكيدها.

= كريم الشمائل، كان مقبلًا على نشر العلم وتدوينه، له تصانيف بديعة، توفي سنة (٥٤٣هـ). (سير أعلام النبلاء ٢٠/١٩٨ ـ ٢٠٣).

(١) أحكام القرآن، لابن العربي (١/١٠٤).

(٢) انظر: روضة الناظر، لابن قدامة (٢/١٦٨)، شرح مختصر الروضة للطوفي (٣/ ٢٦٠).

ففي طبيعة النفس ومعرفة كوامنها جملة من القواعد القرآنية التي ذيّلت بها آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وقد كان النبي ﷺ يربي بمثل هذه الخواتيم أصحابه ويستشهد بها في مواطنها، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرَقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال: (أَلَا تُصَلِّيَانِ؟) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شيئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: (﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾)(١).

ومن القواعد القرآنية التي ذيلت بها الآيات، ما ورد في أحوال الآخرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وفي سورة الأعراف: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [١٦٩]، وفي سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، فهذه الآيات جاءت تذييلًا لما سبقها، وتنوعت أساليبها بما يتناسب وسياق الآية التي سيقت معها وهي مع ذلك مستقلة بالبيان في تقرير الحقيقة التي تنازعها ملذات الحياة الدنيا وملهياتها.

والتذييل المشتمل على هذا التصريف البديع باب واسع، وهو دليل على أن ما اشتمل عليه هذا الأسلوب من إصلاح النفس والمجتمع، وما

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجمعة، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١١٢٧)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

تضمنه من معانٍ يتجاوز قضية التنوع والتصريف لقصد اللفظ ومراعاة الفواصل، فهذه دلالة جمالية لها بابها.

كما أن له دلالة في إعمال الفكر واستنهاض الهمم، فالله تعالى قادر على أن ينزل التذييل على قدر من التماثل، لكنه جل وعلا صرّف هذه الآيات، فكان منها ما هو متشابه، وكان منها ما هو متنوع المفردات والتراكيب والدلالات، فنتج لنا من المعاني ما هو قريب الإدراك، ومنها ما يحتاج إلى إعمال الذهن وإدامة النظر، واستنباط الأحكام[1].

* * *

(١) انظر: الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي (ص٢٢٢).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

تصريف القول في تقرير العقيدة

نزل القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ لإقامة الدين الخالص لله، وهذا هو التوحيد الذي أمرنا الله بأن نفرده له وقد وصفه ابن القيِّم بقوله: «التَّوْحِيد ألطف شَيْء وأنزهه وأنظفه وأصفاه فأدنى شَيْء يخدشه ويدنّسه ويؤثّر فِيهِ فَهُوَ كأبيض ثوب يكون، يؤثّر فِيهِ أدنى أثر وكالمرآة الصافية جدًّا، أدنى شَيْء يُؤثر فِيهَا، وَلِهَذَا تشوّشه اللحظة واللفظة والشهوة الْخفية، فَإِن بَادر صَاحبه وَقلع ذَلِك الْأَثر بضده، وَإِلَّا استحكم وَصَارَ طبعًا يتعسّر عَلَيْهِ قلعه»(١)، ولما كان التوحيد بهذه المنزلة، تصرفت آيات القرآن الكريم وتنوعت أساليبه في عرض أدلة التوحيد وتقرير الاعتقاد، مع حسن العرض وجمال النظم لتقع في النفس كل موقع.

وينبغي التنبيه على أنه ليس المقصود بآيات العقيدة حصرها في آيات محددة معلومة، أو ما استشهد به العلماء في مسائل التوحيد والاعتقاد فقط، بل هي شاملة لجميع آيات القرآن، وهذا من بديع التصريف كما قال ابن القيِّم: «إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد

---

(١) الفوائد، لابن القيم (ص١٩٥).

ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد»[١].

وهكذا اشتملت آيات القرآن على بيان أصول الاعتقاد والاستدلال عليه، فما من أصل من أصول الدين إلا وتجد في القرآن ما يدل عليه كما قال ابن تيمية في تعليقه على قول الله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩] حيث قال: «ولهذا اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم، ونزه الله عما يوجد في كلامهم؛ من الطرق الفاسدة ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال»[٢].

وهذا من أدلّ الدلائل على ما اختصَّ به أسلوب القرآن في تصريف آيات القرآن في قضية واحدة وهي توحيد الله تبارك وتعالى.

ويمكننا الوقوف في هذا المبحث على تصريف القول في آيات العقيدة من خلال ما يلي:

- **المطلب الأول**: تصريف القول في طرق الاستدلال.
- **المطلب الثاني**: تصريف القول في بيان أثر التوحيد ومنزلته.
- **المطلب الثالث**: تصريف القول في تلازم مسائل التوحيد.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم (٣/ ٤١٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٧).

المَطْلَبُ الأوَّلُ

تصريف القول في طرق الاستدلال

نوّع القرآن الكريم في طرق الاستدلال، وعرَضها بأساليب متنوعة وطرائق مختلفة فمنها ما يكون تقريره بطريق السمع، ومنها ما يكون بعرض الحجج العقلية، ومنها ما يحث فيه على النظر والتفكر والتعقل، أو يزري فيه على العقول التي تُعرض عن مثل هذه الآيات البينات.

كما صرَّف تبارك وتعالى لعباده طرق النظر التي تدل على وحدانيته، فدعاهم إلى النظر في آيات الكتاب المسطور وهو القرآن، وآيات الكتاب المنظور في الكون والآفاق، وآيات الكتاب المأثور في أخبار الأمم السابقة وقد جمعت في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ ـ ٦][١].

وتنويع طرق الاستدلال في إثبات توحيد الله وكثرة تصريفها لتتمكن العقيدة في النفوس وتستقر[٢]، وليذعن العباد ويتذكروا، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقليّة صحيحة، وهي شرعيّة؛ دلّ القرآن عليها وهدى النّاس إليها وبيّنها وأرشد إليها وهي عقليّة؛ فإنّ نفس كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن، ومولودًا ومخلوقًا من نطفة ثمّ من علقة،

(١) انظر: الأشاعرة عرض ونقد، د. سفر الحوالي (ص٤٨).
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤١٣).

هذا لم يُعلم بمجرّد خبر الرسول، بل هذا يعلمه النّاس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول، أو لم يُخبر، لكنّ الرسول أَمَر أن يُستدلّ به، ودلّ به، وبيّنه واحتجّ به؛ فهو دليل شرعيّ؛ لأنّ الشارع استدلّ به، وأمر أن يُستدلّ به؛ وهو عقليّ لأنّه بالعقل تُعلم صحته»[١].

ومن طرق الاستدلال التي تصرّفت في القرآن لإثبات الاعتقاد:

أولًا: التقرير:

فقد وردت نصوص كثيرة تقرر أصول الاعتقاد وتثبته، فمنها ما جاء على سبيل الخبر، ومنها ما هو على سبيل الأمر أو الحث، ومنها ما جاء على سبيل النهي عما يخالف الاعتقاد ونحو ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، حيث جاء تقرير الألوهية بالأسلوب الخبري الذي لا مجال فيه إلا إلى القبول والتسليم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، جاء التقرير بالإخبار عن شهادة الملائكة وأولوا العلم بألوهيته ومن قبل ذلك شهادته جل شأنه على ذلك.

أما قوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، فقد جاء التقرير بأسلوب النهي عن اتخاذ الشريك معه في ألوهيته وعبوديته.

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، جاء بأسلوب الأمر بالعلم بها وبمقتضاها.

---

(١) النبوات، لابن تيمية (١/ ٢٩٣).

وفي باب تقرير الأسماء والصفات يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي إثبات القدر يقول جل وعلا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وفي إثبات البعث بعد الموت يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

فهذا التصريف والتنويع في تقرير التوحيد له أثر قوي في تصحيح الاعتقاد.

ثانيًا: الدعوة إلى النظر والاعتبار:

فمن تصريف القول في إثبات الاعتقاد ما دعا الله إليه العباد من النظر والاعتبار في آيات الله تعالى المقروءة والمنظورة والمأثورة.

وهي من الطرق التي استعملها القرآن في الإقناع وإقامة الحجة، فقد ورد عن أبي الضحى[(١)] في قول الله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قال: لما نزلت هذه الآية عجب المشركون وقالوا: إن محمدًا يقول: إلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[(٢)].

---

(١) هو: أبو الضحى، مسلم بن صبيح مولى لآل سعيد بن العاص القرشي يروي عن ابن عمر وابن العباس والنعمان بن بشير، عداده في أهل الكوفة روى عنه منصور والأعمش، مات سنة (١٠٠هـ)، في خلافة عمر بن عبد العزيز. (انظر: الثقات لابن حبان ٥/ ٣٩١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن أبي الضحى وعن عطاء بن أبي رباح نحوه، وأبو الضحى: تابعي، وعطاء تابعي والمرسلان يقوي أحدهما الآخر ولهما حكم الرفع. (تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم ١/ ٢٧٢، الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ١/ ٢٦٨).

وقد تنوعت وتصرفت الأساليب في ذلك، فمن الآيات ما تضمنّت النظر والتأمل لا على سبيل الأمر، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فتضمنت هذه الآية وصفه جل وعلا بالخلق الذي يجعل المشرك يقف ويتأمل في أن الخالق هو المستحق للعبادة، كما هي دعوة للمؤمنين بامتنان الله عليهم بالخلق على الصورة الكاملة وذلك يستلزم منهم إخلاص العبودية له جل شأنه.

ومن الآيات التي تدعو إلى النظر بأسلوب الحث على التعقل والتفكر كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله تعالى في إثبات البعث: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

أما الدعوة إلى السير في الأرض والنظر للاعتبار، فكما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٥٩] بعد أن حكى جل شأنه خبر من أماته الله مائة عام ثم بعثه، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وهكذا جاءت آيات القرآن متصرفة في الدعوة إلى النظر في السماء والنجوم والشمس والقمر والأرض والجبال والبحار والأنهار والإنسان

والحيوان والنبات والجماد، داعية إلى التأمل الصحيح والنظر الدقيق في هذه الآيات البينات، وليس بعد ذلك سوى الإيمان بوحدانية الله جل وعلا الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

كما يوجه القرآن بهذه الآيات العقول إلى ملاحظة الواقع المشاهد والتزام المنطق السليم في الحكم على الأشياء كالبعث بعد الموت وإفراده تعالى بالألوهية وغير ذلك من مسائل الاعتقاد[(١)].

ثالثًا: المجادلة بالحجج العقلية:

وهي من طرق الاستدلال على توحيد الله تعالى وترسيخ قواعد الإيمان، ودحض شبه المشركين وأهل الضلال، وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من معتقدات، بل إن من السور ما بني على المحاجة لترسيخ قواعد الدين وأصول الاعتقاد: كما قال البقاعي[(٢)] في سورة الأنعام: «وهي كلها في حجاج المشركين وغيرهم من المبتدعة والقدرية وأهل الملل الزائغة، وعليها مبنى أصول الدين لاشتمالها على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب الملحدين وإنزالها على الصورة المذكورة يدل على أن أصول الدين في غاية الجلالة»[(٣)] فالجدال العقلي من طرق الاستدلال في إثبات الاعتقاد مع تنوّعه وتصرّفه مما جعل العلماء يستنبطون منه أصول الجدل والمناظرة والوصول إلى الحق بأقصر طريق دون تشتت في الفكر أو خروج عن المقصد.

وقد تنوعت طرق الجدل في القرآن لغرس العقيدة الصحيحة، فمنه

---

(١) أساليب الدعوة إلى الله في القرآن الكريم، أبو المجد سيد نوفل، مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٠ ـ ٥١)، (ص٢١٥).

(٢) هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مفسِّر ولغوي، أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق سنة (٨٨٥هـ). (انظر: الأعلام للزركلي ١/ ٥٦).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٢).

ما كان مباشرًا مع من نزل عليهم القرآن من كفَّار قريش كما في سورة الأنعام، أو من أهل الكتاب كما في سورة آل عمران أو سورة المائدة، ومنه ما ساقه الله تعالى لسان رسله وأنبيائه وجدالهم مع أقوامهم وهي كثيرة في القرآن، وقد ورد في سورة «هود» على سبيل المثال من حوار الرسل مع أقوامهم «حول حقائق العقيدة التي وردت في مطلع السورة، والتي يجيء كل رسول لتقريرها، وكأنما المكذبون هم المكذبون، وكأنما طبيعتهم واحدة، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ»(١).

كما تنوعت طرق الجدل والمحاجة في القرآن وتصرفت هذا التصرّف، لدحض الشبه وإبطال دعاوى المشركين، فلا طريق بعد ذلك إلا للتسليم والإذعان أو الاستكبار والطغيان كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وسر هذا الإقناع يرجع إلى ما يلي:

أ ـ تنوع أدوات الجدل في القرآن التي تخاطب الناس على اختلاف طبائعهم وعقولهم وعلومهم، وقد عدّ السيوطي جملة منه كالسبر والتقسيم وذلك بحصر ما يندرج تحت أمرٍ ما من أقسام وأنواع، وبالتالي يبطل ما عداه من أقسام لعدم وجودها وذلك كقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

ومنها كذلك الانتقال من دليل إلى دليل آخر لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة أو يماري فيه؛ كحوار إبراهيم عليه السلام مع النمرود وانتقاله من

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٧٠).

دليل الإحياء والإماتة إلى مطالبته بإخراج الشمس من مغربها، وغير ذلك من أنواع الحوار[١].

ب ـ أن غالب ما يستدل به من الحجج في القرآن، الاستدلال بما في الطبيعة من ظواهر وسنن، ونظام واتساق «والطبيعة كتاب مفتوح كل إنسان قادر على قراءته وفهمه وهي متجددة أمام النظر فيها آيات وعِبَر، ولذلك نستطيع أن نفهم سر اختيار القرآن هذا المصدر لسوق الأدلة، ولفت الأنظار؛ لأن القرآن سهلٌ ميسّر، ينأى عن التعقيد والصعوبة ففي الكون والطبيعة تتجلّى مظاهر القدرة الخلّاقة العظيمة»[٢].

ج ـ وضوح الأدلة دون أي غموض يؤثر على الدليل مع تميزه بالإنصاف[٣].

ولذا أنكر الله على المعاندين تكذيبهم بعد ظهور الحجة وبيان المحجة فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٦٤ ـ ٦٦)، وانظر: الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام، أ.د. أحمد الشرقاوي (ص٦٠)، بحث محكم لمؤتمر الحوار بجامعة الشارقة.

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٤٥٦).

(٣) انظر: المصدر نفسه (١/ ٤٥٧).

المَطْلَبُ الثَّانِي

تصريف القول في بيان أثر التوحيد ومنزلته

إنّ الأدلة القرآنية لم تكتف بسوْق الأدلة وعرضها لإقامة الحجة فحسب، بل جمعت معها علاج الأمراض وإصلاح النفوس مع حسن العرض وجمال النظم، وهذا التصرف في الأدلة القرآنية سر من أسرار الأسلوب القرآني يكشف عنه ابن القيِّم إذ يقول بعد أن قرر تضمن القرآن للبراهين: «فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك»، ثم يقول: «وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبًّا للرشد»[١].

ولذلك نرى أدلة القرآن في إثبات الاعتقاد على تنوعها صيغت صياغة تعالج الفرد والمجتمع، **ومن أمثلة ذلك:**

أولًا: بيان أثر العقيدة على الأعمال والسلوك:

أما أثر العقيدة على الأعمال، فقد جمع الله بين النهي عن الشرك وغيره من المحرمات لما لهما من الأثر والارتباط: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١] فهذه الآية جمعت مع النهي عن الشرك أصول

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٤٤).

المحرمات ومجامعها في الأعمال والأقوال، ثم ختمت بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾(١) فجمعت في نهيها أعظم ما يُفسد حياة الفرد والأسرة والمجتمع، فكما أن الفرد يفسد عمله بالشرك، فكذلك تفسد حياة الأسرة والمجتمع بارتكاب هذه المنهيات العظام، وكذلك ففي ارتكابها تأثير على توحيد العبد الذي يتضمن الرضا بالقدر، والمراقبة، وما من معصية إلا ولها أثر على إيمان العبد، ولذا كان اقتران الشرك بغيره من المحرمات له أثر في التنفير منها أو الإقلاع عنها.

أما تأثيره على السلوك: فتأمل ما سيق على لسان العجماوات من الطيور من استعظام الشرك والغَيْرة على التوحيد وتعظيم الله حين استدلت على ذلك بغريزتها التي وهبها الله في البحث عن الغذاء، فهذا الهدهد يقول لنبي الله سليمان: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٦].

فتأمل كيف أنكر الهدهد الشرك واستعظم السجود لغير الله بما أدرك من تفرده ﷻ بإخراج الخبء، فكيف بمن يتقلبون في آلاء الله ونعمه ثم يشركون به، فليت أكثر الناس عرفوا من الشرك ما عرف الهدهد؛ فأنكروه، وعرفوا الإخلاص فالتزموه(٢).

---

(١) انظر: تفسير المنار (٨/ ١٦١).

(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٧٧).

ثانيًا: ربط الانحرافات العقدية بمسبباتها لمعالجتها والتخلص منها:

فلقد بيّن الله تعالى في غير آية أن عدم تعظيم الله هو سبب كثير من الانحرافات في توحيد الله وإثبات صفاته وإنزال الكتب ودعاء غير الله فقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ونظائرها في سورتي الحج والزمر وذلك أن العابد معظّم لمعبوده، متألِّه خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتألُّه والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطي حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه، فمن فعل ذلك فما عظّم الله حق تعظيمه.

وقد قرّر ابن القيِّم هذا المعنى وجعل عامة الانحرافات في توحيد الله راجعة إلى عدم التعظيم(١).

ثالثًا: تمكين الله لدينه ولأهل التوحيد وحفظه لهم:

فمن آثار التوحيد العظيمة الوعد بظهور هذا الدين واستخلاف أهل التوحيد كما في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والتعبير القرآني بلفظ المضارع في قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ يدل على تجدد الوعد كلما تجدد الشرط مما يستحثُّ أهل التوحيد على إخلاص العبودية لله حتى تتحقق لهم حسن العاقبة.

كما تصرّفت آيات القرآن كذلك ببيان عاقبة المشركين تأكيدًا لهذه

---

(١) انظر: الداء والدواء (ص٣٩).

الثمرة ببيان ضدها فقد بشّرهم الله بالحسرة والهزيمة وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ومع استمرار الكره والبغض لهذا الدين فإن هذا الدين باقٍ ظاهر كما وعد الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وبعد عرض هذه المظاهر القرآنية في بيان أثر التوحيد، يتبيّن أن الأسلوب القرآني في عرضه للأدلة بهذا التصريف **يهدف إلى ثلاثة أمور**:

أ ـ بيان العقيدة الصحيحة وتعظيمها في النفوس.

ب ـ علاج أمراض الشبهات والشهوات.

ج ـ وبناءَ الأمة بناء سليمًا وتوجيهها للدعوة إلى الله وفق المنهج القرآني، بناءً يكفل لمن التزم به التمكين في الأرض[1].

---

(١) **وانظر كذلك**: أساليب الدعوة إلى الله في القرآن الكريم ـ أبو المجد سيد نوفل ـ مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٢ ـ ١١٠).

المَطلَبُ الثَّالِثُ

تصريف القول في تلازم مسائل التوحيد

أنزل الله القرآن الكريم وأمرنا بالاستمساك به والاستسلام لجميع أحكامه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وعاب الله على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وتوعدهم بالعقاب حين خاطب بني إسرائيل بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة: ٨٥].

وفي تصريف القول في القرآن، ببيان هذا التلازم، تأكيد على كمال الشريعة التي أخبر الله بها في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

ومن أوجه التصريف في ذلك:

أولًا: التلازم بين مسائل التوحيد:

فكثيرًا ما يُستدل بالإقرار بالربوبية على توحيد الألوهية كما في أوّل أمر في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فجعل الله ﷻ خلقه لهم حجّة عليهم في استحقاقه العبادة[(١)].

وكما أن في هذه الآية تلازمًا بين توحيد الألوهية والربوبية، ففيها تضمن للإيمان بالبعث وأنها من مقتضيات إفراد الله بالعبادة كما قال

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/ ١٠٥).

الشنقيطي: «أشار في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت، **وبيّنها مفصلة في آيات أُخر**:

الأول: خلق الناس أولًا المشار إليه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني.

البرهان الثاني: خلق السماوات والأرض المشار إليه بقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢]؛ لأنهما من أعظم المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من باب أحرى.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها؛ فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت، كما أشار له هنا بقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢]»(١).

ومن الآيات التي تبيّن هذا التلازم وتقرره قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤، ٥٥] فهذا تقرير بالربوبية موصلٌ وملزم إلى إفراده سبحانه بالعبودية كما قال الإمام محمد بن عبد الوهاب(٢): «فاعلم أنّ أهمّ ما فرض على العباد معرفة أن الله رب كل شيء ومليكه ومدبره بإرادته، فإذا عرفت هذا فانظر ما حقُّ مَن هذه صفاته عليك بالعبودية

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ١٧).

(٢) هو: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد من آل تميم الإمام العلامة الشهير، ولد في العيينة سنة (١١١٥هـ)، ظهر في أثناء القرن الثاني عشر بنجد فدعا إلى توحيد الله بالعمل والعبادة، حتى عُدّ من المجددين، توفي سنة (١٢٠٦هـ). (انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم ص١٦).

والمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والتأله المتضمِّن للذل والخضوع لأمره ونهيه، فإن الله قد استعبد الناس بالإلٰهية الجامعة لصفات الكمال كلها»[١].

ومن التلازم الذي صُرِّف في آيات القرآن الكريم: التلازم بين القدر وبين توحيد الله، فقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] وغيرها من الآيات كثير في تقرير ألوهية الله وتقديره لكل شيء، وقد قال ابن عباس ﷺ: «الإيمان بِالْقدرِ نظام التَّوْحِيد فَمن وحّد الله وَكذّب بِالْقدرِ كَانَ تَكْذِيبه بِالْقدرِ نقضًا للتوحيد»[٢] ودلالة ذلك: أن الإيمان بالقدر إيمان بعموم علم الله ﷻ وأنه لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يغيب عنه الظاهر ولا الخفي، ولا الجزء ولا الكل، كل ذلك في علمه والتكذيب بذلك وصف له جل وعلا بالجهل وعدم الإحاطة، والجاهل وعديم الإحاطة لا يكون ربًا، ولا إلٰها تعالى ربنا عن ذلك[٣].

ومن الآيات التي جمعت بين مسائل التوحيد وتضمّنت كل مسألة الإيمان بأختها قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] فقد تضمّنت الآية أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل،

---

(١) الرسائل الشخصية، للإمام محمد بن عبد الوهاب (ص١٧٤).
(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، لابن بطة (٢/١٥٩).
(٣) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، يحيى العمراني (١/٥٧).

وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادَّعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده، كيف يقولون ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة[١].

ثانيًا: التلازم بين حصول أثر التوحيد وثمرته:

تبيّن فيما سبق كيف تصرّفت آيات القرآن الكريم في الدلالة على أثر التوحيد الذي ينتج عنه التقوى والإخبات والعمل الصالح وغيرها من الآثار الكثيرة، ولما كانت هذه الآثار من أسس التوحيد وأصوله جاءت متلازمة مع الثمرة التي وعد الله بها أهل التوحيد من العاقبة الحسنة.

فلما كان الإخبات أثرًا من آثار التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤] بشّر الله المخبتين بالفوز فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥] وكثيرًا ما يأمر الله تعالى عباده بالتقوى التي هي من آثار توحيد الله تعالى، وجاءت الآيات تعد المتقين بالجنة كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، وقد أمر الله عباده بالصبر الذي هو من آثار التوحيد وبشر الصابرين بالعاقبة الحسنة كما في قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٣، ٥٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٦٨).

وكذلك ما يتعلّق بآثار الشرك بالله من فساد الأعمال والأخلاق لدى أصحابها جاء فيه التلازم بين هذه الآثار وبين عقوبة الله لهم، فقد أخبر الله عن استهزاء قوم نوح وتكبر قوم صالح وتطفيف قوم شعيب، وفساد أخلاق قوم لوط، ثم جمع الله بين هذه العقوبات وبين الكفر في كونها سبب العقوبة.

يقول د. عبد الراضي محمد(١): «ولذلك حينما يورد القرآن قصص الفساد لدى الأمم السابقة، يقرن ذلك بما تلاه من جزاءٍ ومصيرٍ ناله المفسدون ويصدّر ذلك بطلب النظر والتأمل في التلازم بين الذنب والعقاب للاعتبار والتخويف. يقول تعالى عقب قصة قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]»(٢).

* * *

(١) هو: أ.د. عبد الراضي محمد عبد المحسن، أستاذ الفلسفة في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة له من المؤلفات: «منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في دراسة النصرانية» «ماجستير»، و«النبوة بين اليهودية والنصرانية والإسلام» «دكتوراه». (انظر: السيرة الذاتية له في موقع كلية دار العلوم http://darelom.cu.edu.eg/cvradi.htm).

(٢) الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د. عبد الراضي محمد عبد المحسن (ص١١١).

المبحث الخامس

تصريف القول تقرير الأحكام

اشتملت آيات أحكام القرآن الكريم على ما اختصَّ به هذا الكتاب من التصريف، فمن المعلوم أن أحكام القرآن قد اشتملت على كثير من الفروع والتفصيلات، ما يتعذر على البشر في بيانها انتقاء الألفاظ وابتكار المعاني وتفنن الأساليب، وأنت ترى ذلك في لوائح كثيرٍ من الأنظمة والقوانين، فهي غير متداولة على ألسنة الناس ليسهل التعبير عنها.

ولذلك كان ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الألفاظ البليغة والأساليب البديعة في آيات الأحكام وتنوعها عرضًا وتقريرًا من خصائص أسلوب القرآن الكريم.

وانظر إلى الدقة والبلاغة والتفصيل الشافي في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ الآية [النساء: ٩٤ ـ ١٠٢] وهي آيات متنوعة الأحكام؛ كحكم التخلف عن الجهاد وحكم أهل الأعذار، والأمر بالهجرة، واستثناء المستضعفين، وأحكام قصر الصلاة وصلاة الخوف وغيرها، فتأمل هذه الآيات ثم ارجع إلى كتاب من كتب التفاسير لترى المعاني والدلالات التي دلت عليها الآيات في كثرتها وتنوعها، فقد تضمنت أنواعًا من البلاغة والبديع، منها الاستعارة في قوله: ﴿ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حيث استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء، والسبيل لدينه، وفي: ﴿لَّا يَسۡتَوِي﴾ عبر

به وهو حقيقة في المكان عن التساوي في المنزلة والفضيلة، وفي: ﴿دَرَجَةً﴾ حقيقتها في المكان فعبّر به عن المعنى الذي اقتضى التفضيل.

ومن ذلك: التجنيس المماثل في: ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ ﴿غَفُورًا﴾. والمغاير في: ﴿يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ﴿عَفُوًّا﴾ وفي: ﴿يُهَاجِرْ﴾ ﴿مُهَاجِرًا﴾.

وفي قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ إيجاز بديع حيث يُعلَم منها أن ثمة طائفة أخرى.

كما أجملت الآية ما تصنعه كل طائفة في بقية الصلاة، ولكنها أشارت إلى أن صلاة النبي ﷺ واحدة؛ لأنه قال: ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ فجعلهم تابعين لصلاته، وذلك مؤذن بأن صلاته واحدة، ولو كان يصلي بكل طائفة صلاة مستقلة لقال تعالى: [فلتصل بهم].

وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ استعمل الأخذ في الحس، **والمعنى**: لأن أخذ الحذر أخذٌ معنوي، إذ حقيقة الأخذ التناول، وهو يستعمل في التلبس بالشيء والثبات عليه، وأخذ الأسلحة حقيقة حسية.

تأمّل هذه البلاغة في الألفاظ، وتأمل كذلك الانتقال من تشريعٍ إلى تشريع آخر فهو جارٍ على طريقة الأسلوب القرآني في التفنّن والتماس المناسبات[١].

وهذا المعنى في التصرف والتفنن هو الذي عناه الباقلاني حين قال: «إن المعاني التي تضمنها القرآن في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع، وذلك أنه قد عُلِمَ أن تخيُّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعانٍ مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، **فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف**

---

(١) **انظر**: البحر المحيط (٤/٤٦)، التحرير والتنوير (٥/١٨٦).

وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر»[١].

والمقصود أن آيات الأحكام لما كانت على هذا القدر من التفنن والتصرف وصنوف البلاغة والبيان كان العلم بها مما يعين على فهم الأدلة واستنباط الأحكام.

بل إن من العلماء من بنى كتابه على طريقة القرآن في تصريف آيات الأحكام ومن هؤلاء: العز بن عبد السلام[٢] في كتابه: [الإلمام في بيان أدلة الأحكام] حيث قال في مقدّمة كتابه: «ثم أدلة الأحكام ضربان: أحدهما لفظي يدل بالصيغة تارة وبلفظ الخبر أخرى، والثاني معنوي يدل دلالة لزوم إما بواسطة وإما بغير واسطة، فكل فعل طلبه الشارع أو أخبر عن طلبه، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو نصبه سببًا لخير عاجل أو آجل، فهو مأمورٌ به، وكلُّ فعلٍ طلب الشارع تركه، أو أخبر أنه طلب تركه، أو ذمّه، أو ذمّ فاعله لأجله، أو نصبه سببًا لشرٍّ عاجلٍ أو آجلٍ، فهو منهيٌّ عنه، وكلُّ فعلٍ خيّر الشارع فيه مع استواء طرفيه، أو أخبر عن تلك التسوية، فهو مباح...»[٣].

ويمكن التطرق لتصريف القول في آيات الأحكام **من خلال المطالب التالية:**

المطلب الأول: تصريف القول في عرض الأحكام وتقريرها.

المطلب الثاني: تصريف القول في وسائل عرض الأحكام.

المطلب الثالث: تصريف القول في الصيغ الدالة على الأحكام.

---

(١) إعجاز القرآن (ص٤٢).

(٢) هو: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، من كتبه: «التفسير الكبير»، و«الإلمام في أدلة الأحكام»، و«قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» وغيرها، توفي بالقاهرة سنة (٦٥٩هـ). (الأعلام ٤/ ٢١).

(٣) الإمام في بيان أدلة الأحكام (ص٨٢).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

تصريف القول في عرض الأحكام وتقريرها

لم يأت أسلوب القرآن الكريم في عرضه للأحكام ببيان ما يجب على العباد وما لا يجب لإقامة الحجة عليهم فحسب، وإنما صُرِّفت فيه أساليب عرض الأحكام بما يناسب مصالح العباد في الهداية والاتباع والامتثال، **ومن تلك الأوجه:**

أولًا: تصرف الآيات بالتدرج في عرض الأحكام:

وأسلوب التدرُّج في عرض الأحكام وتقريرها، منه ما هو تدرُّج في طريقة القرآن في التشريع ومنه ما هو تدرُّجٌ في الحكم الواحد.

وتبيِّن عائشة ﵂ أسلوب القرآن في التدرج العام في التشريع فتقول: «إنما نزل أوّل ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّل شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[١].

أما ما يتعلق بالتدرج في حكم معيّن، فذلك مثل تحريم الخمر، فقد جاء على مراحل[٢]، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل:

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، برقم (٤٩٩٣).
(٢) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (١/ ٢٤٩).

٦٧] فوصف الله تعالى في هذه الآية ما كانوا يتخذونه من النخيل والأعناب، وفي عطف السَّكَر على الرزق الحسن دلالة على التغاير وإشارة إلى الكراهة التي تمهِّد لتحريمها(١).

ثم أنزل الله قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فبيّن أن إثمها أكبر من نفعها فتركها قوم وشربها آخرون، ثم أنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، وذلك حينما صنع عبد الرحمٰن بن عوف ﷺ طعامًا، فدعا ناسًا من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلي بهم، فقرأ: [قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون] هكذا إلى آخر السورة بحذف [لا]، فحرّم عليهم شربها في أوقات الصلاة(٢)، وهكذا أصبح شربها في أوقاتٍ محدودة، حتى أنزل الله تعالى تحريمها التام في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، فقد أخرج الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «صنع رجل من الأنصار طعامًا، فدعانا، قال: فشربنا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش، فقالت الأنصار: نحن أفضل منكم! قال: فأخذ رجل من الأنصار لحيي جمل فضرب به أنف سعد ففزره(٣)، فكان سعد أفزر الأنف، قال: فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى آخر الآية»(٤).

---

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامعه (٧/ ٤٦)، والترمذي في السنن، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، برقم (٣٠٢٦)، والحاكم في المستدرك وصححه (٢/ ٣٣٦).

(٣) فزرت أنف فلان فزرًا؛ أي: ضربته بشيء فشققته، فهو مفزور الأنف. (لسان العرب ٥/ ٥٣).

(٤) جامع البيان (١٠/ ٥٦٩)، قال الشيخ أحمد شاكر: رواه أبو جعفر بثلاثة أسانيد. كلها صحيحة.

فالتدرج في تحريم الخمر جعل النفوس تتشوّف وترتقب تحريمه، كما ورد عن عمر ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»[١]، ولذلك لما حرّمت سالت سكك المدينة بالخمر، كما قال أنس ﷺ: «إني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا وفلانًا إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حُرِّمت الخمر، قالوا: أهرق[٢] هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل»[٣]..

وهكذا نجد أن الأسلوب القرآني في تحريم الخمر جاء بما يلي:

أولًا: بناء الحكم، فقد جاء التحريم مبنيًا بعضه على بعض وكل آية تأتي تضيّق على متعاطي الخمر.

ثانيًا: تخليص النفس من حبها وآثارها فقد تمكن حبها من قلوبهم حتى قال قائلهم:

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنَنِّي بِالْفَلَاةِ فَإِنَّنِي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذُوقُهَا[٤]

أما تخليص النفس من آثارها، فقد كانوا يجدون لشربها لذة ونشوة فجاءت الآيات ببيان آثارها السيئة شيئًا فشيئًا، فالخمر هي الخمر وآثارها التي صاحبت التحريم هي آثارها من قبل، ولكن التدرُّج في بيان الآثار من دواعي الإقناع وخصوصًا عندما يشاهدون آثارها في أنفسهم، ففرّق أوّلًا بين السكَر والرزق الحسن ثم غلّب آثارها السيئة على منافعها

(١) كما أخرج ذلك الطبري في تفسيره (٥/ ٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٠٠)، والإمام أحمد في مسنده برقم (٣٧٨)، وصححه شعيب الأرناؤوط.
(٢) بمعنى: صبّها. (انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٩٨٢).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، برقم (٤٣٤١)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، برقم (١٩٨٠).
(٤) قائل هذا البيت: أبو محجن الثقفي ﷺ، (الشعر والشعراء، لابن قتيبة ١/ ٤١٤).

بأسلوب الإجمال فقال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ثمّ فصّل تفصيلًا يسيرًا بعد هذا الإجمال في أنها تجعل الرجل لا يعي ما يقول مما يتنزه المسلم بعدها أن يشربها في الصلاة، أو خشية أن يسخر الناس منه، ثمّ فصّل تفصيلًا أكثر وضوحًا في كونها رجس من عمل الشيطان لما توقعه من الخصومة والعداوة والبغضاء، حتى ذهب حبها من قلوبهم حتى قال عمر ﷺ: «ضَيْعَةً لك! اليوم قُرِنْتِ بالميسر»(١).

ثالثًا: سهولة التطبيق وسرعة الامتثال، وهذا ناتج عن الأمرين السابقين.

ثانيًا: التصريف بين النسخ والإحكام:

فقد جاءت عامة آيات القرآن الكريم محكمة، وجاء منها كذلك ما هو ناسخ وما هو منسوخ، والنسخ في آيات القرآن من صور تصريف القول في القرآن الكريم وقد عدّه السيوطي من أوجه إعجازه ومن خصائص هذه الأمة(٢)، والتصريف بين النسخ والإحكام دل عليه قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] فمن الآيات ما نسخ حكمه وتلاوته ومنها ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته، ومنها ما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

والنسخ من طرق تقرير الأحكام، فإن الله تعالى يقرُّ للعباد ما فيه مصلحتهم فيما أثبت وفيما نسخ؛ لأنه المتصرف العليم بما يصلح للعباد في كل وقت وحين كما قال عن نفسه جل وعلا: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وفي ذلك حمْل الأمة على تسليم الحُكم لله وتفويض الأمر له، ودلالة ذلك واضحة في تذييل الآية

(١) جامع البيان (٣/ ٦٨٠).

(٢) انظر: معترك الأقران (١/ ٨٣).

بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧] قال ابن كثير: «يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى.. فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا»(١).

وتصريف الآيات بين ما هو ناسخ وما هو منسوخ وبين ما نسخ إلى أخف أو أشد، من الخير الذي دلَّ عليه قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] «وقد أجملت جهة الخيرية والمثلية لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكنٍ فتجده مرُادًا، إذ الخيرية تكون من حيث الاشتمال على ما يناسب مصلحة الناس، أو ما يدفع عنهم مضرة، أو ما فيه جلب عواقب حميدة، أو ما فيه ثواب جزيل، أو ما فيه رفق بالمكلفين ورحمة بهم في مواضع الشدة وإن كان حملهم على الشدة قد يكون أكثر مصلحة»(٢).

وفي تصريف آيات القرآن بين الناسخ والمنسوخ ردٌّ على من زعم أن هذا القرآن من قول النبي ﷺ، ومن تجرأوا على الله وزعموا استحالته لأنه يلزم منه البداء وقد رد الله شبهتهم بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٥٩).

﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بيْنَ إذا وجوابها، وفائدته تقرير لمصلحة التبديل وتعريض بجهلهم بمعرفة ذلك، فإن الله يشرع الحكم وهو عالم بأن مصلحته ستنقضي في الوقت المعين، وأنه عند ذلك الوقت ينسخ ذلك الحكم ويبدِّله بالحكم الجديد الذي فيه المصلحة؛ فإذا جاء ذلك الوقت المعين أنجز ـ جل وعلا ـ ما كان في علمه السابق من نسخ ذلك الحكم، الذي زالت مصلحته بذلك الحكم الجديد الذي فيه المصلحة، وقد كان هذا الأمر من خوارق العادات وقت نزول القرآن ليجعل ذلك آيةً للنبي ﷺ ودلالةً قاهرةً على صدقه، ليردَّ بذلك قولَ مَن حكى عن القرآن أنّه افتراءٌ من الرسولِ ﷺ، إذًا يستحيل من بشَرٍ أن يفعله(١).

ثالثًا: تصريف الآيات بين العموم والخصوص والإطلاق والتقييد:

فإن من طرق تقرير الأحكام أن يأتي اللفظ عامًا مستغرقًا على ما يدل عليه أو يدخل عليه ما يخصّصه، وتارة يأتي اللفظ عامًّا وقد أريد به الخصوص.

وقد تنوّعت أساليب القرآن في تقرير الأحكام وعرضها بهذه الطرق، فمن صيغ العموم ما هو حرف كـ (ال) التعريف التي ليست للعهد؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ومنها ما هو اسمٌ؛ كالاسم الموصول كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦]، ومنها ما يدل السياق على عمومه؛ كالنكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

---

(١) انظر هذا المعنى في: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٩١)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٤٤٦)، الانتصار للقرآن للباقلاني (١/ ٤١١).

أما ما يتعلّق بالعام المخصوص فقد تصرف في القرآن بين ما هو متصل وبين ما هو منفصل فمن المتصل المخصوص ما يخصص بالاستثناء؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [النور: ٤، ٥]، ومنه ما خصص بالغاية قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ومنه ما خصص بالشرط قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

ومن العام المخصوص بآية منفصلة ما جاء في تخصيص عدة المطلقة الحامل والمطلقة غير المدخول بها من عموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فقد خصصت بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

والمقصود أن تقرير الحكم والخروج به من الحالة الخاصة ليشمل جميع ما يصلح له ومن ثم تخصيص ما يحتاج إلى تخصيص، ثم التفنن والتنوع بضروب من الأساليب التي تدلُّ على التوسع والتجدد في المعاني، لون من ألوان البلاغة والإعجاز المخالف لمعهود البشر في التشريع والأحكام، مع ما يصاحب ذلك من ربط آي الكتاب ببعض الأمر الذي يستدعي حفظه وإعمال الذهن فيه بالتفكر والتدبر والاستنباط.

وكذلك تصرُّف آيات القرآن بين الإطلاق الدالِّ على الحقيقة بلا قيد، وبين ما يقيّده مما يراعى فيه هذا التنوع في تقرير الأحكام، لما فيه من إعمال الذهن في حمل المطلق على المقيّد من عدمه عند اتحاد الحكم والسبب، أو اختلافهما، أو اتحاد أحدهما دون الآخر، وقد أبان الزركشي عن ذلك بقوله: «إن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب والضابط أن الله تعالى إذا حكم في شيء بصفة أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقًا

نظر؛ فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر»(١).

ومن أمثلة ذلك:

إطلاق الشهادة في البيوع ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وتقييدها باشتراط العدالة في الرجعة: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، والوصية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وكما أن في تصرّف الآيات بين الإطلاق والتقييد من التوسعة على العباد في فتح باب الاجتهاد، ففيه أيضًا مجال واسع من جهة حِكَم النظم القرآني في الإطلاق في موضع والتقييد في آخر، فإن المواضع التي وردت فيها الشهادة مطْلقة، فيها جانبان عالمان بصورتها ويذبّان عن مصالحهما فيتضح الحق من خلال سعيهما في إحقاق الحق فيها، أما المواضع التي قيدت فيها الشهادة بالعدل فهي آكد، ولذا كان التقييد فيه مزيد عناية واهتمام، لتعلقها بأمور النساء أو لتعلقها بأمر الوصية التي لا علم للموصَى له بها ويخشى ضياعها.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥).

المَطْلَبُ الثَّانِي

تصريف الآيات في أساليب عرض الأحكام

فقد اقتضى التصريف الذي خص الله به كتابه الحكيم أنْ تُعرض الأحكام فيه بصور متعددة ومتنوعة، يتبيّن من خلالها جمال العرض وقوّة التحدي.

وقد ذكر العلماء أن التنوع في الأغراض مع تمام البلاغة في جميعها أمر معجز فأنت ترى الشاعر يمتاز بالمدح فإذا جاء إلى الزهد قصّر، والأديب إذا تكلم في بيان الأحكام، لم يكن كلامه مثل كلامه في غيره، أما نظم القرآن فلا يتفاوت في شيء ولا يتباين في أمر.

وفي هذا المطلب معنى آخر وهو أنك تقرأ آيات الأحكام فترى إحكام نظمها وبلاغة لفظها ومعانيها في سياق الأمر أو النهي المباشر، كما ترى تمام إحكامها فيما يرد في سياق القصة أو المثل كذلك، ولا يوجد مثل هذا في خطبة خطيب أو قصيدة شاعر أو موعظة حكيم.

وتصريف القول بذكر الوسائل الدالة على الأحكام مما يثبّت الحكم ويؤكده ويرغّب فيه إن كان خيرًا، وينفِّر عنه إن كان شرًا، فهي دعائم للأحكام وتوابع لها يستدَلُّ بها ويستنبط منها، ولذلك يقول العز بن عبد السلام بعد ذكر جملة من هذه الوسائل: «وهذه الأحكام كلها والأنواع بأسرها شاهدة لما ذكرتُه من أن التأكيد والتكرير أنفع وأنجع من ذكر الشيء مرة واحدة، فإن ما ذكرناه من توابع الأمر يتنزل منزلة تكريره. والله يسمع من يشاء من عباده، فطوبى لمن فهم خطابه»[١].

(١) قواعد الأحكام (١/١٦٦).

ومن أساليب القرآن في عرض الأحكام ما يلي:

أولًا: أسلوب القصة:

فالقصص القرآني قد احتوى على جملة من الأحكام الفقهية الذي كان منهلًا نهل منه العلماء في الاستدلال والاستنباط، وفي عرض الحكم عقب القصص أو أثناءها ميزة عظمى في تصوير الحكم مرتبطًا بالأشخاص أو الأحداث مما يعين في تثبيته ويعين على تطبيقه.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، وردت هذه الآية بعد قصة ابني آدم، ومع أن هذه الآية لا علاقة لها بأخبار بني إسرائيل، وجاء الكلام فيها مستأنفًا، إلا أن في الانتقال من القصة إلى بيان ما تضمنت الآية من أحكام الحرابة تخلّصًا بديعًا ومناسبًا إلى تشريع العقاب، كما أن في ذكر القصة بيان لأثر هذا المنكر العظيم ومفسدته، تمهيدًا للجزاء العظيم الذي شرّع لمن يقوم بهذا الجرم.

وفي تضمن القصص للأحكام ما يكون فيه من الاقتداء والاهتداء بمن امتدحهم الله أو أمرنا بالاقتداء بهم، وهم الأنبياء صلوات الله عليهم، فكما استفدنا جواز الإجارة من قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، ففيها كذلك بيان لمنهج الأنبياء في الإجارة وكيف يكون الأجير مع أجيره، ولذا فقد أجاب ابن عباس رضي الله عنه سعيد بن جبير حين سأله عن أي الأجلين قضى موسى فقال: (**قضى أكثرهما وأطيبهما، إن**

النبيّ إذا وعد لم يخلف)[(١)].

ولقد تضمن أسلوب القرآن الكريم صحة الاستدلال بالقصص القرآني في الأحكام الفقهية وغيرها من الأحكام، وذلك أن كل حكاية وقعت في القرآن؛ فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ردٌّ لها، أو لا يقع، فإن وقع ردٌّ فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه، وإن لم يقع معها ردٌّ فذلك دليل صحة نفس المحكي وإقراره، فالقرآن حجة الله على الخلق على الجملة والتفصيل والإطلاق والعموم، فيمتنع أن يحكى فيه ما ليس بحق ثم لا ينبه عليه[(٢)].

واستنادًا إلى هذا المعنى فقد استنبط العلماء مثلًا: صحة أنكحة الكفار من قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩][(٣)]، ومن العلماء من استنبط جواز الكفالة من قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢][(٤)]، فلم يرد بعد هذه القصص تعقيب فدلت على صحة ما حُكِي عنهم.

وأما دلالة التعقيب بعد ذكر القصص، ففي قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] تقرير لإصابة سليمان عليه السلام في ذلك الحكم وإيماء إلى خلاف ذلك في داود عليه السلام بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ لكن لما كان المجتهد معذورًا مأجورًا بعد بذله الوسع قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[(٥)].

وما أجمل ما قاله الحسن البصري: «والله لولا ما ذكر الله من أمر

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامعه بسنده عن سعيد ابن جبير (١٨/ ٢٣٥).
(٢) انظر: الموافقات، للشاطبي (٤/ ١٥٨).
(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤).
(٤) انظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٦٤).
(٥) انظر: الموافقات (٤/ ١٦٥).

هذين الرجلين لرأيت أن القضاة قد هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده»[١]. وهذا الأثر عن الحسن يبيّن بجلاء ما تضمنه أسلوب القرآن من بلاغة اللفظ والمعنى في الدلالة على حكم تفصيلي في ثنايا القصص القرآني، كما تجد هذه القصة على نفس الاتساق والانسجام مع سياق القصص قبلها وبعدها.

ثانيًا: أسلوب المثل:

فأمثال القرآن الكريم من الأساليب القرآنية الدالة على الأحكام، وقد عدّها علماء الفقه والأصول مما ينبغي على المجتهد تعلمه، كما قال الماوردي: «من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات والمثل بلا ممثل؛ كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام»[٢].

ودلالته على الأحكام من جهتين:

الجهة الأولى: أن منه ما يجري مجرى الاستدلال العقلي على حكم شرعي، قال ابن القيِّم: «ضرب الأمثال وصرفها في الأنواع المختلفة، وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به، وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلًا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم»[٣].

الجهة الثانية: اشتمالها على تصوير الأعمال وتفاوتها في الثواب أو العقاب، كما قال العز بن عبد السلام: «إنما ضرب الله تعالى الأمثال

---

(١) **انظر**: الدر المنثور (٥/ ٦٥٠).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٥/ ١٩٣٣) ـ طبعة مجمع الملك فهد، قال المحقق: لم أجده في تفسيره في مظانه وهو في أمثال القرآن المنسوب إلى الماوردي (٢/ب).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٠١).

في كتابه تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل من الأمثال على تفاوت في ثوابٍ أو على إحباطِ عملٍ، أو على مدحٍ أو ذمٍّ أو على تفخيم أو تحقير، أو على ثواب أو عقاب، فإنه يدل على الأحكام»(١) وقد عدّها الشافعي مما ينبغي على المجتهد معرفته(٢).

والدلالة على الحكم بهذا الأسلوب وبهذه الصورة مع دلالته على الحقائق دون مبالغة، لا يصدر إلا من خبير يعلم ما يلامس العقول والنفوس، فتقبِل على ما يصلحها وتحجم عما يضرها.

وتعرّف على ذلك من خلال المثل الذي ضربه الله لآكلي الربا وتمثيله بالممسوس في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فقيامهم من قبورهم سكارى وصرعى مضطربين، من هول ما ينتظرونه من عظيم العقاب وشدته كحال من يتخبّطه الشيطان من المس، وهذا القيام حقيقة كما رجحه جمهور المفسرين، يدل على أن هذا الجزاء الأخروي من جنس أعمالهم وأحوالهم التي صارت كأحوال المجانين، من انسلاخ العقل في طلب المكاسب الربوية وسرعة حركتهم واضطرابها بسبب جشعهم في طلب المال من أي طريق(٣).

وقد اشتمل هذا المثل: على القياس الصحيح بين الممسوس وبين قيام المُرابي يوم القيامة بمنطوق الآية، وبين حال المرابي في بحثه عن المال بمفهومها، كما اشتمل على تقبيح صورة الربا الدال على التحريم والمستلزم من العاقل ذي الفطرة السليمة الترك والابتعاد، واشتمل كذلك

---

(١) الإلمام في بيان أدلة الأحكام (ص١٤٣).
(٢) انظر: الرسالة (ص٣٤).
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٥٤)، تيسير الكريم الرحمٰن (ص١٦٦).

الرد على من قاس البيع على الربا وفساده، فأين تجد هذا في أمثال العرب قاطبة.

ثالثًا: أسلوب السؤال والجواب:

أسلوب السؤال والجواب من طرق التصريف في عرض آيات الأحكام في القرآن الكريم، فمن الأوجه التي يقع عليها السؤال في القرآن الكريم سؤال الاستفتاء(١).

وقد ورد أسلوب السؤال والجواب فيما يتعلق بالأحكام في تسع مواضع من القرآن منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وهذا الأسلوب في عرض الأحكام أسلوب يلامس واقع الناس وحاجتهم، فلما أجاب الله عن سؤال الصحابة عن الأهِلَّة بأنها مواقيت للناس في الحج، وكان واقع الناس بعد رجوعهم من الحج دخول البيوت من ظهورها، كان الجواب أعم من السؤال.

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ترى أن الإجابة القرآنية جاءت ملامسة لواقعهم، دعتهم فيها إلى إعمال العقل، واكتفت بتوجيههم إلى ضررها الذي يشاهدون آثاره بينهم، تحفيزًا لهم

---

(١) انظر هذه الأوجه: بصائر ذوي التمييز (ص٨٦٢).

لإعمال عقولهم لتركه والابتعاد عنه قبل أن ينزل التحريم المطلق له.

وقد جاء الأمر بسؤال أهل العلم عما ينفع في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] ونهى أن يكون السؤال عما لا ينفع أو يوقع في الحرج فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

رابعًا: تعليل الأحكام:

فمن التصريف في آيات الأحكام أن تأتي آيات القرآن الكريم متضمنة للعلل وحِكَم التشريع، وهي من الأساليب في عرض الأحكام وتأكيدها كما يقول السّعدي: «وقد اعتنى القرآن الكريم في دعوته للخير ونهيه عن الشر بذكر آثار الخير وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة»(١).

وفي مجيء الحُكم متضمنًا للعلة أثر في التطبيق، فمعرفة علل الأحكام تزيد الإيمان وتطمئن القلب وذلك أن الحُكم إذا أتى من الشارع ﷻ سلّم العبد وانقاد للعمل به؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، فإذا علم الحكمة والفائدة للحكم ازداد إيمانه وترسخ يقينه واطمأن قلبه وكان أسرع في الإذعان(٢).

وقد تصرّفت الآيات وتنوّعت في عرضها للحِكَم بأساليب شتى وطرق متنوعة حتى لا تملها الأسماع ولا تسأم منها النفوس.

فتارة يذكر مع الحكم سببه مقرونًا بحرف السببية مقدمًا أو مؤخرًا

---

(١) انظر: القواعد الحسان لابن سعدي (ص٣١).

(٢) انظر: حجة الله البالغة، للدهلوي (١/ ٦٢)، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف البدوي (١٠٣)، شرح التلويح على التوضيح، للتفتازاني (٢/ ١٤٤).

كما في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ الآية [المائدة: ٣٢].

وتارة يأتي الأمر بشيء ويردفه بوصف يبين عاقبته حسنة كانت أم قبيحة كما في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقوله تعالى في الخمر مبينًا عاقبته السيئة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وحينًا يذكر الحُكم معللًا إياه بحرف من حروف التعليل كما في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وبهذا يتبيّن أن الأسلوب القرآني لم يكتف بربط الناس بخالقهم من خلال الآيات الكونية أو التذكير باليوم الآخر أو الإخبار عن أسمائه وصفاته فحسب، بل إن مجيء آيات الأحكام متضمنة لحِكَمها من دلائل الربوبية، وتعظيم الخالق سبحانه فبمعرفتها يطّلع العبد على رحمة الله بعباده في التشريعات التي وضعها للبشرية، وبها يستدلون على ما قصرت عنه أذهانهم من تلمس حكم التشريع، فلا عجَب حينئذ أن تكون هذه الطريقة في عرض الأحكام من أجلّ المسائل الإلهية، لما فيها من الاطلاع على شيء من أسرار التشريع التي تدل على وحدانية الله في شرعه وخلقه(١).

(١) انظر: منهاج السُّنَّة النبوية (٣/ ٣٩).

ولذا يقول ابن القيِّم عن هذه المسألة: «فيجب أن يكون المكلف على علم بها إذ هي من أسنى المقاصد وهو قطب رحى[١] التوحيد ونظامه ومبدأ الدين المبين وختامه»[٢].

(١) قطب الرحى هي الحديدة المركبة في وسط حجر الرحى، وتطلق على جماع الأمر والذي تدور عليه توابع هذا الأمر. (لسان العرب ١/ ٦٨٢).

(٢) شفاء العليل، لابن القيم (١/ ٢).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

تصريف الآيات في الصيغ الدَّالَّة على الحكم

تواضع الأصوليون من خلال الاستقراء على أن الصِّيَغ الدالة على الحكم راجعة إلى (افعل) و(لا تفعل)، فإن اقترن بالأمر ما يُشعر بعدم العقاب على ترك الأمر فهو ندب، وكذلك النهي إن اقترن به ما يدل على عدم العقاب على الفعل فكراهة[١] بَيْد أن هذه الصيغة في أسلوب القرآن تصرّفت في لفظها وأسلوبها بما يعجز الفصحاء والبلغاء، **فمن تصريف القول في الصِّيَغ الدالّة على الأحكام ما يلي:**

أولًا: تصرفه في إيراد الحكم بصيغة الإنشاء وبصيغة الخبر:

فمن الإنشاء قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، وهذا في الأمر الدال على الوجوب، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ۚ﴾ [المائدة: ٢]، في الإباحة لوجود قرينة تصرف الأمر عن الوجوب وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] في النهي الدال على التحريم.

كما جاء إيراد الحكم بصيغة الخبر في قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فالأول خبر بمعنى الأمر والثاني خبرٌ بمعنى النهي.

---

(١) انظر: روضة الناظر (١/ ٩٧).

ثانيًا: تعدد الألفاظ الخبرية وتنوعها الدالة على الفعل أو الترك:

مثل: [شرع] في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]، و[كتب] في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، و[فرض] في قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢].

أما ما يدل على الترك فمثل: [حرّم] في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، و[نهى] في مثل قوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

ثالثًا: وصف الفعل بما يدل على حسنه أو وصفه بما يدل على قبحه:

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أو اقترانه بالوعد؛ كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، أو الوعيد كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤][(١)].

فالتصرف في إيراد الألفاظ والصِّيغ بهذه السعة في الأحكام والتنوع في الأساليب مما انفرد به الأسلوب القرآني وخالف به معهود البشر في باب الشرائع التي عرفت صياغتها البشرية بلونها الجامد المحدد والتي لا يستطيع واضعوها الخروج بها عنه إلا عجزوا عن تحديد المراد والوفاء بالمقصود[(٢)].

---

(١) انظر: مناهل العرفان (٢/ ٣١٩).

(٢) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، د. عبد الستار فتح الله سعيد (ص٧١٨).

المَبْحَثُ السَّادِسُ

تصريف القول في الترغيب والترهيب

تصرفت آيات القرآن الكريم في ترغيب العباد في الخير وترهيبهم من الشر، وبلغ الأمر من كثرتها أن جعلها بعض العلماء نصف المواضيع التي تضمنها القرآن[1]، فإذا كانت بهذه المثابة، فلا شك حينئذٍ أن أوجه التصرف والتنوع فيها متعددة ومتكاثرة.

وعلى هذا فقد اشتملت آيات القرآن من المواعظ والترغيب والترهيب ما يوجب للعبد رغبة في الخير ورهبة عن الشر، فإذا تحصل للعبد ذلك، على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب له تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يُرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

ولذا كان تصريف القول بالترغيب والترهيب مُصلحًا للنفس حال إقبالها وإعراضها، فمن المعاني المتضمنة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ أي: من كل مثل من الترغيب والترهيب، وأنباء الأولين والآخرين، وذكر الجنة والنار[2].

---

(١) وقد ذكر ذلك ابن جزي في تفسيره حيث قال: أن معاني القرآن ترجع إلى شيئين: «أحدهما بيان العبادة التي دعي الخلق إليها، والأخرى ذكر بواعث تبعثهم على الدخول فيها وتردّدهم إليها، فأما العبادة فتنقسم إلى نوعين، وهما أصول العقائد وأحكام الأعمال، وأما البواعث عليها فأمران وهما: الترغيب والترهيب» (التسهيل ١/ ١٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (٧/ ١١١).

والترغيب والترهيب من القول البليغ الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يعظ به المنافقين، كما في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣] فالقول البليغ هو ما كان وجيز المباني غزير المعاني، مشتملًا على الترغيب والترهيب، والإعذار والإنذار(١).

ويبيّن ابن كثير طرق تصريف القول بين الترغيب والترهيب في القرآن فيقول: «وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة ـ أي: الأنعام ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] والآيات في هذا كثيرة جدًا»(٢).

وقال في موطن آخر: «فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة، وذكر النار وأنكالها وعذابها، والقيامة وأهوالها وتارة بهذا وبهذا، لينجع في كل بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر»(٣).

ومن طرق تصريف القول الواردة في القرآن للترغيب في الخيرات والترهيب عن السيئات ما يلي:

أولًا: ترغيب المؤمنين بالحياة الطيبة، وترهيب المعرضين بخلاف ذلك:

فقد وعد الله من عمل الصالحات بقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن

---

(١) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٢/ ٤٣٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٥٧). (٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٥).

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، والعمل الصالح في هذه الآية هو ما استكمل ثلاثة شروط:

الأول: موافقته لما جاء به النبي ﷺ.

الثاني: أن يكون خالصًا لله تعالى.

الثالث: أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله تعالى قيّد العمل الصالح بالإيمان ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

والمراد بالحياة الطيّبة هي الحياة في الدنيا، وطِيبُ الحياة فيها شامل لوجوه الراحة من أيّ وجه كانت(١).

وسبب هذه الراحة: أنّ بيْن الإيمان والعمل الصالح أوثق ارتباطٍ وأعمقه وأقواه في التطهير النفسي من دنس الأهواء ونزغات الشيطان، الأمر الذي تسمو به النفس إلى حب الفضائل من الصدق والوفاء، والكرم والشجاعة، والتضحية والإيثار، وفي هذا ارتقاء بالنفس عن المستوى المادي القاصر المحدود الذي يترك أطيب الثمرات في السلوك ويتيح للإنسان أن يحيا حياة كريمة طيبة(٢).

وهذا المعنى تصرّف في القرآن بأساليب متنوعة فمن ذلك: الوعد بصلاح الحال كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، والوعد بتفريج الكربات والرزق الحسن كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ

(١) ومما يرجّح هذا المعنى ما ذكره الشنقيطي في أضواء البيان: وفي الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة؛ وتلك القرينة هي أننا لو قدّرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ لكان تكرارًا، (٢/٤٤١).

(٢) انظر: لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب (ص٢٢٥).

أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومن تصريف القول في هذا المعنى ما وعد الله به الأمم السابقة من طيب العيش ترغيبًا لهم في الإيمان والعمل الصالح وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦][(١)].

وقد حقّق الله هذا الوعد لقوم يونس حين رجعوا إلى التوحيد والإيمان، كما قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، قال قتادة: «لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتُرِكَتْ إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذفَ الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجّوا إلى الله أربعين ليلة، فلمّا عرَف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشَفَ الله عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم»[(٢)].

وهذه العاقبة الحميدة مما ترغب الناس في الإيمان والعمل والصالح.

ويقابل هذا الترغيب: الترهيب من المخالفة والإعراض والشرك ما حذر الله به المعرضين من عواقب وخيمة بيّنها الله في عدد من الآيات ومن ذلك ما يحصل لهم من الغفلة عن الحق كما قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

(١) انظر: أضواء البيان (١/ ٤١٦).
(٢) جامع البيان (١٢/ ١٩٣).

يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، بل إن المعرض يقيّض الله من الشياطين من يؤزه ويزيّن له باطله كما في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧] ولا شك أن الثمرة حينئذٍ، ضيق العيش واضطراب الحال، وكفى بذلك ترهيبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، والسبب في ذلك أن مجامع همِّه ومطامح نظرِه تكون إلى التحيّل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه، فهو متهالك على الازدياد خائف على الانتقاص غير ملتفت إلى الكمالات ولا مهتم في أن يسعى إلى الفضائل، ويجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر، بل إن بعضهم يبدو للناس في حالة حسنة ورفاهية عيش ولكن نفسه غير مطمئنة إلى غير ذلك من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله جل وعلا[(١)].

ثانيًا: ترغيب المؤمنين في الآخرة بالنجاة والفوز، وترهيب المشركين بالهلاك والعذاب:

وقد صرّف الله هذا المعنى في آيات كثيرة، ومواضع شتى **يمكن إجمالها في ثلاثة مواطن:**

الأول: الوعد بالنجاة والثبات في البرزخ وعند البعث.

أما البرزخ: فهي مرحلة تتضمن عدة مراحل وهي ما بين موت الإنسان إلى مبعثه من قبره، وجاءت مجموعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]؛ أي: يبشرونه

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٣١٠)، التحرير والتنوير (١٦/ ٣٣١).

عند موته، وفي قبره، وحين يبعث(١).

وجاءت مفصلة في عدد من الآيات: أما بشراه عند الموت، فيدل عليه قوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، وهذا يقال للروح عند الموت، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ...**) إلخ الحديث(٢).

أما البشرى في القبر فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (**إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**)(٣).

أما ترهيب أهل الكفر، فقد بيّن الله ما يجدونه من عذاب في القبر وذلك في خبره جل وعلا عن قوم فرعون حيث قال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فقد ذكر غير واحد من التابعين أن هذه الآية تدل على عذاب القبر

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ١٧٧) قال ابن كثير في تعليقه على هذا القول: وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدًا، وهو الواقع.

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٥٠٩٠)، وابن ماجه في السنن، باب ذكر الموت والاستعداد له برقم (٤٢٦٢)، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات (مصباح الزجاجة ٢/ ٣٤٩)، قال الألباني: صحيح. (صحيح الجامع ١/ ٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٣٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧١).

في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: «ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب[١]، وهذا كله ترهيب وتحذير لأهل الكفر أن يموتوا على كفرهم».

وأما عند البعث: فقد وعد الله أهل الإيمان بعدم الحزَن، مع ما يجدونه من الحفاوة عند قيامهم من قبورهم بعد النفخة الأخيرة باستقبال الملائكة لهم كما قال ﷻ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر وأمن منه، فهو مما بعدَه أحرى أن لا يفزَع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده، وفي تهنئة الملائكة لهم من الحفاوة والكرامة من الله ما فيه[٢].

أما أهل الشرك فقد أوعدهم الله حال بعثهم بقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] قال الطبري: «نسوق أهل الكفر بالله يومئذ إلى موقف القيامة زرقًا، فقيل: عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين من الزرق، وقيل: أريد بذلك أنهم يحشرون عميًا»[٣] وفي هذا ترهيب من القدوم على الله بهذه الصورة المفزعة، وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ثالثًا: الوعد بالنجاة في يوم القيامة وعرصاتها للمؤمنين، وإيعاد الكافرين بالعذاب ومعاينته:

فيوم القيامة يوم طويل وفيه من المشاهد والأحوال من خروج

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣١٩)، وقد ورد هذا القول عن مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب.

(٢) انظر: جامع البيان (١٦/ ٤٢٢).

(٣) المصدر نفسه (١٦/ ١٦١).

الناس من قبورهم وحشرهم، وعرضهم، وحسابهم، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ولم تزل آيات القرآن تتصرف لتبشر المؤمنين من ساعة خروجهم من قبورهم بذهاب الفزع والطمأنينة في عرصات القيامة وحلول الأمن، وتوعد الكفار بالعقوبة والهلاك كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩، ٩٠].

أما في مشهد الميزان والحساب وتطاير الصحف: فقد بشّر الله الذين ثقلت موازينهم بالأعمال الصالحة بالفلاح، وذلك في قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦، ٧].

وقد دلت الآيتان على أن تلبسهم بالفلاح والعيش المرضي مستقرٌّ وحاصلٌ، مع كونهم لم يدخلوا الجنة إلى الآن، وفي ذلك غاية الترغيب إلى الأعمال الصالحة في الدنيا التي تثقل الموازين في الآخرة.

وتأمل جمال الأسلوب وحسن وصف العيشة الراضية في مشهد آخر من مشاهد القيامة حين يؤتى المؤمنون كتابهم بأيْمانهم في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٣].

أما في الترهيب من ترك العمل الصالح أو الشرك: فقد أخبر الله عنهم أنهم خسروا أنفسهم بعد أن كان في استطاعتهم النجاة حين تنصب الموازين فقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] ويُؤتَوْن كتابهم بشمائلهم من وراء أظهرهم

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩].

أما المرور على الصراط: وهو أصعب المواقف وأشدها فقد تصرّفت الآيات محمّلة ببشرى النجاة للمؤمنين، والحسرة والعذاب للكافرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

والملاحظ في الأسلوب القرآني لهذه الآيات أنها جاءت بأسلوب الشرط وتعليق الجزاء على الوصف الذي يتلبس به صاحبه حال اجتياز الصراط إن كان من المتقين أو الظالمين، وذلك أن موقف القيامة وأهوالها يجتمع فيه المؤمن والكافر ثم يتمايزون في هذه العرصات والأحوال والله أعلم.

رابعًا: الوعد بدخول الجنة للمؤمنين، ودخول النار للكافرين:

لا شك أن أعظم ما يرغب في العمل حصول الثمرة منه، وأعظم ثمرة ينتظرها أهل الإيمان هي دخول الجنة، وقد تصرّف التعبير القرآني في الدلالة على هذا الوعد بأفعال متعددة؛ كالوعد، والتبشير، والإثابة، والإحلال، والإيراث، والدخول.

ومع دلالة هذه الأفعال على أن الجنة جزاء أهل التوحيد إلا أن كل فعل يتضمن أمرًا زائدًا فالوعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٧٢] يحصل معه طمأنينة القلب بتحققه مما يدفع الممتثل إلى الاهتمام بالعمَل الذي يوصله إلى الثمرة التي ضمِنها الله له ولذلك فقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥]، فقوله: ﴿كَانَتْ﴾ تدل على أن أمر الله في تحققه كالواقع؛

لأن وعْدَ الله يلزم منه الصدق والقدرة[١].

أما التعبير بالبشرى في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] فهي تدل على ما يلقاه أهل الإيمان والتوحيد من السرور الذي يداخلهم حين سماعهم البشرى فتتهلّل بذلك أساريرهم، إذ البشرى تدل على تغير بشرة الوجه بالخبر السار.

أما الإثابة في قوله: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥]، تدل على المجازاة على الأقوال والأعمال، وفي هذا أعظم الأثر في أن يحتسب المؤمنون أجرهم على الله في كل عمل يعملونه، فإن الله تعالى قال عن نفسه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وقد ختمت الآية بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال الطبري: «وإحسان المحسن في ذلك أن يُوَحِّد الله توحيدًا خالصًا محضًا لا شرك فيه، ويقر بأنبياء الله وما جاءت به من عند الله من الكتب، ويؤدي فرائضه، ويجتنب معاصيه»[٢].

أما الإحلال في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥] فإن الإحلال يدل على التحوّل، فجاء التعبير بالماضي الدال على تحقق الوعد وجاء الخبر على لسان أهلها، كأنهم شاهدوها وعاينوها، بأنهم تحوّلوا من دار الخوف والحزَن إلى دار ليس فيها تعب ولا نصب ولا وجع ولا إعياء وهذا تحوُّلٌ لا انتقال بعده ولذا جاءت الإضافة في قوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ وهي الدار

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١١٩)، تفسير سورة البقرة، لابن عثيمين (١/ ٢٦٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ٦٠٦).

التي لا نقلة معها عنها، ولا تحول[1]، وفي هذا أعظم ترغيب في أن يعمل الإنسان ويجدَّ؛ لأنه يعلم أنه سيتحوّل إلى دار الراحة كما قيل لأبي الدرداء: متى الراحة؟ قال: «إذا دخلنا الجنّة»[2].

أما التعبير بـ «نورث» في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، فهو يفيد استحقاق أهل التوحيد للجنة بأكمل أنواع الاستحقاق فالوراثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برد ولا إسقاط[3].

أما التعبير بالدخول: فلما كانت غاية المؤمنين هي دخول الجنة، تكرر فعل الدخول باختلاف تصاريفه وتعدد وصف ما يشاهده الداخل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الحج: ١٤، ٢٣، محمد: ١٢]، فقد جاءت هذه الآية في مواضعها الثلاث مقررة هذا النعيم بأسلوب الاستئناف وإن كان مقتضى الظاهر أن تكون معطوفة على ما يناسب السياق، فعُدِل عن ذلك الأسلوب إلى هذا النظم لاسترعاء الأسماع إلى هذا الكلام إذا جاء مبتدأ به مستقلًا مفتتحًا بحرف التأكيد ومتوّجًا باسم الجلالة، والبليغ لا تفوته معرفة أن هذا الكلام قسيم للذي قبله[4].

كما جاء الدخول بصيغتي الأمر والماضي كذلك في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، وقوله: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، والتعبير بالماضي عن المستقبل يدل على تحقق الوقوع، وهذه أعظم بشرى ترغب على العمل الصالح، كما أن في

---

(١) المصدر نفسه (١٩/ ٣٨١). (٢) الزهد، لهناد بن السرى (١/ ٧١).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١٥)، وفي الآية أربعة أقوال لا تعارض فيها وتدل على المعنى المذكور. (انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٢/ ١٢٢).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣١).

التعبير بالماضي في سياق السورة إشارة أنهم فازوا بهذا النعيم من أول وهلة فقد نُزِّهوا عن الخوض في المجادلة التي بين الشيطان وأهل الكفر.

وهذا الدخول، دخولٌ دائم لا خروج معه، ولذا وصفهم الله بأنهم أصحابها فقال في غير موضع من القرآن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1] و﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤].

ولما كان الداخل إلى مكان ينتظر ما يبهج نفسه ويُؤنس مُقامه، هيّأ الله لأهل طاعته من هذا النعيم أكمله وأوفاه، فقد تصرفت آيات القرآن لتبشرهم بمن يصاحبون وبما يشاهدون، وبما به يتلذذون فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، وقال عن حسن الجوار: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وقال عن التنعم والتلذذ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

أما ما توعد الله به المشركين والمعرضين عنه، فإنه لما كان أعظم الخزي هو دخول النار كما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، فقد جعلها الله عاقبة المكذبين بالله، الذين كانوا ينكرون ما يسمعون من آيات الله ويبطشون بأهل الإيمان، لشدة كرههم سماعه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ

---

(١) وذلك في سورة البقرة: ٨٢ والأعراف: ٤٢ ويونس: ٢٦ وهود: ٢٣.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]، وكفى بذلك ترهيبًا لمن عقل واتعظ.

وتصرّف آيات القرآن في إنذار المكذِّبين بالنار كثيرة جدًا، فمن الآيات ما ينذر بأن النار هي عاقبة أهل الشرك والكفر؛ كقوله تعالى: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، والتعبير بالعاقبة يدل على الإنذار والترهيب بأن منتهى الكافرين مهما بلغوا من الطغيان أو كثرة الأموال والأولاد إلى النار، وهي العبرة الحقيقية، ولذا فقد أمر الله نبيّه أن يحتج على أهل الشرك بهذه العاقبة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

كما جاء التعبير بالمأوى والمثوى كما في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، فالتعبير بالمأوى دل على المرجع كذلك، لكن فيه إشارة إلى أن شركهم هو الذي قادهم إلى النار، فالمأوى مفعَل من أوى إلى كذا إذا ذهب إليه فكأن أفعالهم هي التي قادتهم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥] فجعل هذا المأوى جزاء كسبهم وعملهم وجعْلُ العمل سببًا وطريقًا للمأوى السيء تنفيرٌ من هذا العمل، خاصة وأن هذا المأوى لا رجوع بعده ولا خروج منه، فهو مقرُّهم الدائم ومصيرهم الأبدي ومثواهم الأخير، ولذا ختمت الآية بقوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ وختمت الآيات المماثلة لها بأنه مصيرهم المحتوم كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

وجاء التعبير كذلك بالنّزُل في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢] وهذا من التصريف في آيات الوعيد التي فيها مزيد بيان بأن هذه العاقبة السيئة وذلك المثوى الأخير على ما فيه من التعذيب بالنار، ففيه ما يزيد ذلك العذاب عذابًا بما أعده الله فيها، وذلك أن النُّزُل بضمتين بمعنى ما يعد للنزيل من الضيف والقِرى[1]، وعلى هذا فلن يكفيهم من العذاب حرارة النار بل فيها من أضعاف العذاب ما يزيدهم في النار شدة وألمًا.

ومن تصرّف آيات الوعيد في بيان ما يلاقيه أهل النار من صنوف العذاب قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢].

ولما كان الوجه أشدّ أعضاء الجسد تألّمًا، وأوّل ما يصله من العذاب تصرّف في آيات كثيرة دون سائر أعضاء الجسد ومن ذلك تخصيص الرأس بصب الحميم فوقها فقد ورد في تفسيرها أنه ينفد إلى أجوافهم فيسلت ما فيها، ويذوب ما في بطونهم من الشحوم ويتساقط ما عليهم من الجلود نسأل الله السلامة والعافية[2].

ومن تصريف القول في بيان عاقبة أهل الشرك تلك الطريقة المهينة التي يدخل بها أهل النار النار فقد جمع الله لهم بين الإذلال والإيلام

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٤٥).
(٢) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل (١/ ٩٢٢).

حال دخولهم مقيّدين مسحوبين إلى النار كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢](١)، وهم في ذلك يدفعون دفعًا شديدًا بجفوة وغلظة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، ثمّ يكبون على وجوههم ويطرح عليهم ما كانوا يعبدون من دون الله من الأصنام وغيرها بعضها فوق بعض وقد أخبر الله بذلك فقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢ ـ ٩٥].

ومن أعظم الترهيب والوعيد في البيان القرآني أن أخف ما يكون من عذاب النار لا يطيقه أحد فكيف بأشده كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]، يقول ابن عاشور: «والمس: اتصال بظاهر الجسم، والنفحة: المرة من الرضخ في العطية، يقال: نفحه بشيء إذا أعطاه، وفي مادة النفح أنه عطاء قليل نزر، وبضميمة بناء المرة فيها، والتنكير، وإسناد المس إليها دون فعل آخر أربع مبالغات في التقليل، فما ظنك بعذاب يدفع قليله من حل به إلى الإقرار باستحقاقه إياه وإنشاء تعجبه من سوء حال نفسه»(٢).

هذا ما يجدون من أخف العذاب فكيف ما يجدون من أشدّه مما صرّف الله ذكره في كتابه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وزيادة العذاب هنا لما جمعوه من الكفر والصدّ عن سبيل الله(٣).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٠٣). (٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٨٠).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٦٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٦٩٣)، أضواء البيان (٢/ ١٧٥).

هكذا تصرّفت آيات القرآن الكريم في ترغيب أهل الإيمان، وترهيب أهل الكفر والعصيان، وقد تكاثرت الآيات وتنوعت في بيان هذا الأمر؛ لأن العاقبة هي الغاية والثمرة التي يسعى لها كل فريق وسينتهي بها مآل الفريقين إما إلى الجنة أو إلى النار.

* * *

المَبْحَثُ ٱلسَّابِعُ

تصريف القول في إيراد القصص

المتأمل في تصريف القول في إيراد قصص القرآن يدرك حقيقةَ ما عبّر عنه الباقلاني في حديثه عن القصص حيث قال: «أما الوجه الثاني الذي ذكرناه، من إخباره عن قصص الأولين، وسير المتقدمين، فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الأخبار، ولم يشتغل بدرس الآثار، وقد حكى في القرآن تلك الأمور حكاية من شهدها وحضرها»[1].

وقد فصّل هذا الوجه حين استشهد من قصة موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وقوله: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، وقوله: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، حيث قال: «تصرّف بذكر القصة في وجوه، وأتى على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، ليكون أبلغ في تعجيزهم، وأظهر للحجة عليهم، وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها، تامة في معناها»[2].

ووجه آخر من وجوه التصريف في القصص القرآني يشير إليه

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٤٩). (٢) المصدر نفسه (ص١٨٩).

الرمّاني[١] بقوله: «أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، فقد جاء في القرآن في غير قصة، منها قصة موسى ﷺ، ذكِرت في سورة الأعراف، وفي طه، والشعراء، وغيرها لوجوهٍ من الحكمة، منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة»[٢].

ومن التصرف في القصص القرآني بأعلى درجات البلاغة أنك تقرأ القصة مختصرة مثل القصص الواردة في سورتي الذاريات والقمر، ثم تقرؤها مطوّلة كما في القصص الواردة في سورتي الأعراف وهود وترى كل قصة في سورتها مستقلة بالبيان وافية بالمعنى المراد.

ويكشف الزركشي عن وجه كون التصريف في القصص من خصائص أسلوب القرآن فيقول في معرض حديثه عن تفريق القصص وأحداثه في السور وما بين ذلك من التنوع والتغاير: «فكأن الله تعالى فرّق ذِكْر ما دار بينهما ـ أي: موسى وفرعون ـ وجعله أجزاء ثم قسّم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف ﷺ خاصة فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معان عجيبة:

منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة ولا أحدث مللًا فباين بذلك كلام المخلوقين.

---

(١) **هو**: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي المعتزلي، أخذ عن: الزجاج، وابن دريد وطائفة وعنه: أبو القاسم التنوخي، والجوهري، وهلال بن المحسن، وصنف في التفسير، واللغة، والنحو والكلام مات سنة (٣٨٤هـ). (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٤).

(٢) النكت في إعجاز القرآن، للرماني (ص١٠١).

ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصانًا، وتقديمًا وتأخيرًا، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها فيكون شيئًا مُعادًا، فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات.

ومنها: أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ ـ لما فيها من التغيير ـ ميلًا إلى سماعها لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء، مع تغاير أنواع النظم وبيان وجوه التأليف فعرفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ولا يقع على كلامه عدد لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومن الخصائص كذلك تصرف القصص بسلوكه أسلوب المحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب فكان مجيئه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان»[١].

ومن خصائص تصريف القصص أن القرآن قد اشتمل على قصص من أخبار أهل الكتاب، وكان ذلك قصارى علمهم، وفي ذلك تحدٍّ عظيم لهم، ثم زاد على ذلك بذكر أخبار لم تذكر في كتبهم كقصة هود وصالح وشعيب عليهم السلام[٢].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٧).

(٢) انظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية (٢/ ٧٨)، التحرير والتنوير (١/ ٦٥).

وسيكون الحديث في هذا المبحث من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: التصريف في نظم القصص.

المطلب الثاني: التصريف في تنوّع القصص.

المطلب الثالث: تصريف القول في الغرض من إيراد القصص.

المطلب الأول

التصريف في نظم القصص

تنوعت أساليب النظم القصصي في القرآن الكريم وتراكيبه، وتعددت مظاهره تشابهًا واختلافًا.

فترى قصة انتظمت في سورة واحدة، وترى قصصًا متفرقة في السور وترى مشهدًا من مشاهد القصة ذُكِر في سورة، ولم يرد له ذكر بعد ذلك، أو ترى مشهدًا تنوع ذكره بقدر من التشابه بين السورتين.

كما ترى كذلك جملًا قد تشابه ذكرها أو تكرر في أكثر من قصة، إلى غير تلك المظاهر في تراكيب القصص القرآني.

وهذه الطريقة في عرض القصص لم يعهدها الناس قبل ذلك، ولذا وجد من طعن في إعجاز القرآن واختلال نظمه لتفرق ذكر القصص في سور القرآن ولم تكن مجموعة في سورة واحدة.

وقد أُتي هؤلاء من قصور الفهم وعدم إدراك التصريف القرآني العجيب في قصص القرآن، وقد جاء القرآن بهذا وهذا ليتبيّن للمتبصر المدرك سر تميّز أسلوب القرآن عن غيره بهذه الطريقة.

فقد جاءت سورة يوسف كاملة متتابعة الأحداث في سورة واحدة؛ لأن طبيعة هذه القصة تستلزم أن يكون سياقها متصلًا حدثًا بعد حدث وقصة بعد قصة، وذلك لأنها رؤيا تتحقق شيئًا فشيئًا ويومًا بعد يوم، ولذا جاءت بدايتها بقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ثم ختمت بعرض سريع ومختصر للأحداث التي وردت في السورة على لسان يوسف لأبيه حين قال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي

مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، أما غيرها من القصص كقصة سليمان مثلًا جاءت مفرّقة؛ كقصته مع بلقيس في سورة النمل أو قصته مع الجن في سورة سبأ، أو قصته التي قصها الله في سورة ص والفتنة التي تعرّض لها، وذلك لأنها يمكن تفرد قصةً قصةً دون أن يكون هناك انقطاع بين قصة وأخرى(١).

وهذه الطريقة في نظم القصص وتركيبها تظهر لونًا مميّزًا لم يكن موجودًا قبل ذلك في محاور القصص المتعارف عليه.

ومن طرق التصريف في نظم القصص القرآني: وهي أن الشخصية تُذكر في مواضع كثيرة تستدعيها الأحداث المذكورة في مواضع متفرقة من القرآن الكريم، فيظنها البعض تكرارًا وليس هو كذلك بل هو عرض للحدث أو الواقعة مع ظهور الشخصية في هذه الوقائع والأحداث المتفرقة، وهذا من خصائص أسلوب القرآن وذلك أن القصص التاريخي كان يغلّب الشخصيّة على الحدث، فيكون الشخص هو المحرك الرئيس للقصة، وأحداثها تدور عليه، أما القصص القرآني فيهتم بالأحداث ويضعها في موضعها المناسب لها، بحيث يستدعي الحدث ذكر الشخصية فتتفاعل معها تفاعلًا يفي بالعبرة التي سيقت القصة من أجله، ولو كان المقصود في القصص القرآني إبراز الأشخاص بذواتهم لاستقلّت كل قصة بجميع أحداثها في سورة واحدة وإنما تم تفريقها في الموضع المناسب لها، وهذه لفتة مهمة في معالجة قضية التكرار في القصص(٢).

ومن مظاهر التصريف في نظم القصص: ما يكون من التشابه أو الفروق اللفظية في القصة الواحدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٣٧).
(٢) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، (ص٤١ - ٤٢).

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] فقد جاءت مستأنفة، دون ما ورد في سورة هود والمؤمنون بالعطف، وهذا لون من ألوان التصريف في نظم القصص، وهذا التصريف لا يخلو من معنى، ومن ذلك أن سورة الأعراف جاءت مستأنفة، وسورة الأعراف تعد أول سورة يذكر فيها الأنبياء بهذا الوجه على التوالي، وأول قصة ذكرت في السورة فناسب أن تكون مستأنفة، أما في سورة هود، فقد ورد فيها ذكر النبي ﷺ والإشارة إلى موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾ [هود: ١٧] ثم ذكر حال من آمن بالله ورسله وحال من أعرض، وشبههما بالأعمى والأصم والبصير والسميع فكان عطف قصة نوح على ما سبق مناسبًا للسياق. وكذلك العطف في سورة المؤمنون حيث عُطِفت على قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، ففيها إيماء إلى ذكر قصة نوح وكيف نجاهم الله بحملهم في الفلك[1].

وقل مثل هذا في كل اختلاف لفظي في قصص القرآن تجده متصرفًا على نسق مناسب لسياق السورة الواردة فيه.

ومن مظاهر التصريف في نظم القصص، ما يجريه الله على لسان الأنبياء في حوارهم مع أقوامهم؛ كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقال عن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، بينما جاء على لسان صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وجاء على لسان شعيب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى

---

(١) انظر: درة التنزيل (٢/ ٥٩٣)، قطف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي (٢/ ١٠١٤).

﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وفي هذه الآيات من التصريف قدر كبير من التشابه اللفظي وقدر من الاختلاف في التركيب فقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ جملة فعلية تدل على التجدد وهي في موضعها مناسبة لما رُمِي به نوح عليه السلام من تهمة الضلال لأنها من صفات الأفعال، أما قوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ جملة إسمية مناسبةٌ لما رُمِيَ به هود عليه السلام من السّفه الذي هو ضد التؤدة والحكمة وهو من غرائز النفس، فدل على ثبات عقله.

وقد جاء البلاغ في قصتي نوح وهودٍ عليهما السلام بلفظ المستقبل، بينما ورد في قصتي صالح وشعيب عليهما السلام لفظ الماضي، والفرق بينهما أن البلاغ في قصتي نوح وهود عليهما السلام ما زال في بدايته والنصح ما زال مستمرًا قائمًا، أما في قصتي صالح وشعيب عليهما السلام، فقد جاء بعد أداء الرسالة واستحقاق قومهم العذاب توبيخًا لهم وتقريعًا، ولذا جاءت بعد أن تولى عنهم[(١)].

فتأمل بلاغة التصريف في نظم القصص القرآني، ودلالة كل لفظ على المعنى في سياقه الخاص.

وهذا التصريف في نظم القصص يعطي سعة في التعامل معها وفي عرضها فيمكن أن تُعرض القصة بأسلوب منهجي بجمع الأحداث وربطها، كما في قصص نوح وهود وشعيب عليهم السلام، كما يمكن عرض قصة واحدة بجميع أحداثها ويمكن أن نعرض كل قصة في سياقها الذي جاء به القرآن.

وهذه السعة في التعامل مع القصص لا يمكن أن تكون إلا في قصص القرآن ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) انظر: البرهان (١/ ١٨٩).

المَطْلَبُ ٱلثَّانِي

تصريف القول في تنوع القصص

فمن خصائص التصريف في القصص القرآني أنه لم يكتف بتصريف الأساليب أو تصريف الأحداث وتفريقها في السور فحسب، بل صرّف الله تعالى في أنواع القصص فذكر الله قصص الخلق قاطبة من ملائكة وإنس وجن وحيوان وطير، وكلها مشتملة على وصف القصص بالحُسن المطلق، والحق المبين، مع حصول العبرة والاتعاظ.

ولئن كان القُصّاص يبدعون في لون واحد من ألوان القصص وأنواعها، فقد جاء القرآن بما لم يخطر لهم ببال، كخبر سليمان عليه السلام عندما أتى على واد النمل، أو خبره مع الهدهد، وكخبر الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وغيرها من القصص فأنّى للنبي ﷺ أن يعلم هذا إلا بوحي من السماء وتأتي كل هذه القصص في غاية الحسن وتمام البلاغة، فلم يكن في مجيء هذه القصص مدخلًا في الطعن في القرآن، بل دل على صدقه وتفوّقه وأنه وحي من الله.

وفي تصريف أسلوب القرآن بتنوع هذه القصص، تنبيه للأمة إلى توسيع مداركها وإعمال عقولها فيما حولها مما خلق الله.

كما أن في هذا التنويع إزراء بالمكذبين المعاندين، فحين يخبر الله عن الهدهد قوله في توحيد الله وإنكار الشرك: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]، وحين يخبر عن مقالة الجن في الإيمان بالقرآن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، وهم من هم في الفهم والبلاغة والرأي، ومع ذلك

يتعجبون من دعوة النبي ﷺ كما أخبر الله عنهم: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤، ٥]، فإن في ذلك إزراء بهؤلاء المكذبين لكي يعودوا على عقولهم بالاتهام.

وفي التنويع بذكر القصص تصحيح للمفاهيم والتصورات، فحين عرض كفار قريش على النبي ﷺ الملكَ مقابل ترك دعوته وضعفاء قومه ظنًّا منهم أنه يريد الملك جاءت قصص القرآن ترد عليهم وتلجمهم، فذكر الله قصة نبيه سليمان وقد جمع الله له بين الملك والنبوّة، وذكر لهم ذا القرنين ملك الدنيا وكان من عباد الله الصالحين ولم يمنعه ذلك من الإيمان والتسليم، وقص الله عليهم نبأ من أهلكهم واستأصل شأفتهم لأنهم أعرضوا عن الإيمان بالحجة ذاتها التي احتج بها الكفار على النبي ﷺ، كما أخبر الله عن قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: ٢٧].

وفي إيراد قصة لقمان المتصف بالحكمة وذكر وصاياه في العبودية ومحاسن الأخلاق، عقب قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦] تنبيه للناس إلى الاشتغال بأحسن القصص عن لهو الحديث، فقد رُوِي أن النضر بن الحارث كان يأتي بقصص فارس والروم ويحدِّث بها ليصرف الناس عن القرآن[(١)].

كما أن في تنويع القصص بذكر أحوال الأمم وما كانوا فيه من قوّةٍ وضعف ومن مكّن الله لهم في الأرض كطالوت ومن معه ممن ذكر الله مقالتهم حين قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

(١) انظر: الدر المنثور (٦/٥٠٣)، وقد أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٤٨٣٠) (٧/١٦٧).

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أو في ذكر من تخاذلوا عن الأخذ بأسباب القوة كحال بني إسرائيل الذين قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وما حصل لهم من عقوبة وأمثال هذه القصص تصحيح وإحياء للأمة.

ومن مظاهر التصريف في تنوع القصص: التنوع في تصوير الأحداث في قصة واحدة أو حدث واحد، فقد صوّر لنا القرآن كيف نجى الله موسى وقومه من بطش فرعون بطرق متنوعة، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩] وفي سورة الشعراء: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [٦٠ ـ ٦٦]، وفي سورة الدخان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ [٢٢ ـ ٢٤].

ففي هذه الآيات تصوير دقيق لتلك الحادثة من خلال ضم الآيات لبعضها فموسى عليه السلام يدعو ربه أن يكشف البلاء الذي أصاب قومه من بطش فرعون خشية الاستسلام أو المواجهة الناتج من شدة الإيذاء، فيستجيب الله لنبيه ويوحي له بكشف الكربة بقوله: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ويستجيب موسى لأمر ربه بقومه متجهًا إلى سيناء ليلًا وتأتي آية طه لترسم له طريق النجاة مفصّلًا ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ وتتضح الصورة لموسى عليه السلام ولكن قومه لا يعلمون عن هذا المصير شيئًا، أو أنهم لم يبلغوا من اليقين

بوعد الله ما بلغ موسى حتى قالوا عندما رأوا اقتراب فرعون وجنوده: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٦٦﴾[1].

وهكذا صوّرت مجموع الآيات بتصريف القول والتعبير فيها هذه الحادثة تصويرًا دقيقًا لمراحل نجاة موسى وقومه.

---

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، لعبد الكريم الخطيب (ص١٤٥).

المطلب الثالث

تصريف القول في الغرض من إيراد القصص

وصف الله تعالى قصص القرآن بعدة أوصاف، فوصفها بأنها أحسن القصص فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، فجميع قصص القرآن توصف بهذا الوصف، كل قصة في الموضع الذي جاءت فيه، ووصف الله القصص كذلك بأنها الحق الذي لا مرية فيه فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ولما اجتمع في القصص الصدق والحسن، تميّز عن غيره من القصص التي يُتكلَّف فيها، ويدخلها ما يدخلها من الكذب والمبالغات بقصد تحسينها وتنميقها، ولذا فقد اختصَّ القصص القرآني بأسلوب جعله يترفّع أن يساق بقصد التفكّه، أو إثارة الاستغراب، أو حصول المؤانسة بها، بل كان له مقاصد سامية وأغراض عظمى، دل عليها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقد تصرّفت الآيات في ذكر الغرض من إيراد القصص.

فمن الأغراض ما جاء تعقيبًا على قصة أو مجموعة من القصص، ومنها ما جاء في ثنايا القصص، ومنها ما فُهِم من تصرف القصص حسب الوقائع والأحداث، ومن أهم هذه الأغراض:

أولًا: التفكّر، فقد جاء قوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، بعد إيراد جملة من القصص في السورة، والتفكّر يكون بإعمال الفكر في سنن الله في الأمم والنظر في العواقب وأسباب النجاة والهلاك.

ومن التفكر: التفكر بما يصلح النفس وما يفسدها؛ كالنظر في قصة ابني آدم أو قصة يوسف وإخوته التي قال الله عنها: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أو كقصة الرجل الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها والتي جاء التعقيب بعدها بقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ففيها من مواطن التفكر ما يصلح النفس ويزكيها.

ثانيًا: التذكير، فكثيرًا ما يرد التعقيب بعد قصص الأنبياء والمرسلين بهذا الغرض، كما ورد في سورة هود بعد ذكر جملة من قصص الأنبياء: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، فذكر القصص حينئذٍ، من طرق التذكير التي يحصل بها الانتفاع، ولذا فقد تنوّعت القصص ما بين مفصّلة وموجزة، لما في كل لون من الذكرى ما يقتضيه المقام، وكان هذا الأسلوب أعلى وأرفع من أسلوب السرد القصصي للأحداث لمجرد معرفتها وإن لم تتضمن ما يفيد، ومع ذلك ففيما طواه القصص القرآني من أحداث إشارات ولمحات تذهب بها النفس كل مذهب، ويتحرك الذهن في تصورها دون الحاجة لتفصيلها في القرآن، فقد قص الله علينا قصة يوسف عليه السلام، من حين التقاطه من الجب إلى وصوله أرض مصر بقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢٠، ٢١]، فطوى الحديث عن تلك المسافة التي قطعت حتى وصل إلى أرض مصر.

ومما جاء مفصلًا لما فيه من تذكيرٍ ونفعٍ: ما كان من موسى عليه السلام حين وصل ماء مدين وقصته مع المرأتين اللتين كانتا تسقيان، ثم توليه إلى الظل، وما كان من خبره مع أبيهما، وبهذا يرتقي الأسلوب القرآني

بالقصة إلى أقصى مراتب البلاغة، بل يشكل منهجًا جديدًا في عرض القصة بقصد التذكير(١).

ومن أوجه تصريف القصص لغرض التذكير: أن القصص القرآني لم يقف عند نقل الخبر بأسلوبه المعجز فحسب، بل أتبعها بمواطن التذكير والاعتبار فبعد أن ذكر الله خبر ثمود وعادٍ وفرعون في سورة الحاقة أعقبها بقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]، وبعد ذكر قصة موسى في سورة النازعات عقّب عليها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٦، ٢٧](٢).

ثالثًا: الاهتداء والاقتداء، وهي من أغراض القصص التي أمر الله نبيّه بامتثالها فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقد آتاهم الله النبوة وعالجوا من أقوامهم ما عالجوا، فكان في الاهتداء بهديهم سير على نهجهم ولذا استنهض الله همم المؤمنين بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فكان في تذييل الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وما بعدها من الآيات دعوة للاقتداء والتشبه بمثل هؤلاء القوم في عدم الوهن والضعف والاستكانة.

رابعًا: تثبيت النبي ﷺ وتسليته، ولا شك أن في تصريف قصص الأنبياء وما أيّدهم الله به، وقصص المكذبين وما حلّ بهم من النقمة، وفي ذكر القصص التي تشير إلى سنن الله في التمكين، تثبيتٌ وتسلية للنبي ﷺ ولأمته، ولذا خاطب الله نبيّه بذلك فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] وها هو ﷺ يتمثل بموسى عليه السلام حين جاءه رجل وهو يقسم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٦٤)، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه (ص١٢٧).
(٢) انظر: الاستقامة، لابن تيمية (٢/ ٢٣٨).

غنائم غزوة حنين فقال له: «والله ما أراد محمد بهذا وجه الله» فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك تمعّر وجهه، وقال: (رَحِمَ اللهُ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)[١].

* * *

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه، برقم (٦٠٥٩).

المَبحث الثّامِن

تصريف القول في إيراد الأمثال

صرّف الله الأمثال في القرآن كما صرّف غيرها من الآيات مما يؤكد على أن التصريف من خصائص أسلوب القرآن العظيم، وقد نصت الآيات على تصريف الأمثال في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ [الكهف: ٥٤]، وهاتان الآيتان وإن أخبر الله تعالى فيهما أنه صرّف الأمثال للناس، إلا أن التقديم والتأخير في كل آية له دلالته، فتقديم ذكر القرآن في آية الكهف فيه تنويه بشأن القرآن فيما احتواه من جميع صنوف الأمثال وضروبها، ولذا كان من أعظم علوم القرآن[١].

أما تقديم ذكر الناس في آية الإسراء فله دلالة أخرى تأخذنا إلى مظهر من مظاهر علوّ شأن المثل القرآني وأنه قُصِد به التحدي والإعجاز لمن نزل عليهم القرآن في تنوعه وتصريفه في السور والآيات[٢].

ولما كان الناس هم المخاطبون بضرب الأمثال وتصريفها، جعل الله الأمثال المضروبة من أنفسنا، ومما نشاهده حولنا كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ [الروم: ٢٨]، ويعلل الحكيم الترمذي ذلك بقوله: «فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء فضرب الله لهم مثلًا من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٣٥٢).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٤).

عنهم فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا»[١]، وهذا الذي يجعل من ضرب الأمثال القرآنية على تصرفها مادة حيّةً مستمرّة الجِدَة والرّقة والجزالة؛ لأنها ضربت من مادة حية متجددة الرواء والنّماء[٢].

والأمثال القرآنية على تصرفها تتّسم بالوضوح الذي يظهر جليًا في الأمثال المضروبة، وفي بيان ذلك يقول أبو السعود: «إبراز المعنى المقصودِ في معرض الأمرِ المشهود، وتحلية المعقولِ بحِلْية المحسوس، وتصويرُ أوابد المعاني[٣] بهيئة المأنوس لاستمالة الوهم واستنزالِه عن معارضتِه للعقل واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية وفهم الدقائق الأبية كي يتابعَه فيما يقتضيه ويشايعَه إلى ما يرتضيه»[٤]، وقد نص الزركشي على ذلك بقوله: «ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعْوَن شيء على البيان»[٥]، وقد عدّ الطاهر بن عاشور طريقة القرآن في تصريف الأمثال من مبتكرات القرآن لما اختصَّ به من الوضوح وجمال التركيب[٦].

ومن خصائص الأمثال أنها مع تصرفها وتنوع ضروبها وتباعد نزولها، وتعدد أغراضها، يصدق بعضها بعضًا، فتجد كل مثل له دلالته وغرضه الذي سيق من أجله ومجموع هذه الأمثال تدل على عقيدة واحدة لا تناقض فيها ولا اضطراب وعلى معانٍ متلازمة يعضد بعضها بعضًا.

ولك أن تتأمل في هذين المثلين اللذين ضُربا في بيان أعمال

---

(١) الأمثال من الكتاب والسُّنَّة، الحكيم الترمذي (ص١٤).

(٢) خصائص التعبير القرآني (٢/ ٢٨١).

(٣) أوابد المعاني: غرائبها، قال الزمخشري: فلان مولع بأوابد الكلام وهي غرائبه. (أساس البلاغة ١/ ١٧).

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ٧١).

(٥) البرهان في علوم القرآن (٤٨٧).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٢١).

الكفار، وهما قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، فمع كون الممثل واحدًا، غير أن الممثّل به قد اختلف، فهذا رماد والآخر سراب ومع كون المثل الأول نزل في سورة مكية، والمثل الثاني نزل في سورة مدنية، ومع أن لكل مثل دلالته الخاصة، ومع كل ذلك، ترى بينهما من التوافق في المعنى وتأكيد المراد ما يوفي الغرض ويثري المعنى ويؤثر في النفس.

وقد تعددت الأمثلة المضروبة في القرآن في تصرفها وتنوعها وسيكون الحديث عنها من خلال ما يلي:

المطلب الأول: تصريف القول في أساليب ضرب الأمثال.

المطلب الثاني: تصريف القول في الغرض من ضرب الأمثال.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

تصريف القول في أساليب ضرب الأمثال

لما كان القرآن الكريم مشتملًا على أصناف كثيرة من الأمثلة، تصرفت أساليب ضرب الأمثال سواء في طريقة ضرب المثل أو في الممثل به، أو في تراكيبه، وهذا التصرف ألبسها جمال المباني وشمول المعاني، ومن هذا التصرف:

أولًا: دوَران المثل بين التصريح به وتضمينه:

فالتصريح بالمثل كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] والأداة الغالبة في مثل هذا النوع «الكاف»[(١)].

ومن الأمثلة ما كان على طريقة التشبيه الضمني كقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

ومن الأمثلة ما لم يرد فيه تشبيه، وقد سمّاه القرآن مثلًا كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣][(٢)].

---

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني (٢/ ٢٨٢).

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان (ص٢٩٢).

وفي ذلك يقول ابن تيمية: «الأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلًا ومنها ما لا يسمى بذلك»[١]، وبمثل هذه الطريقة في ضرب الأمثال تميز المثل القرآني عن المثل العربي الذي اقتصر على الدلالة اللفظية فحسب[٢].

ثانيًا: دوران المثل والممثل به، بين الإفراد والتركيب:

فمما ورد في تمثيل مفرد بمفرد، قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

وتمثيل مركب بمركب كما في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ أي: «مثل المشركين في اتخاذهم ما يحسبونه دافعًا عنهم، وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه، كمثل العنكبوت تتخذ لنفسها بيتًا تحسب أنها تعتصم به من المعتدي عليها، فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك فيسقط ويتمزق، وهذه الهيئة المشبه بها مع الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها، فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها وتزول بأقل تحريك، وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف وهو السكنى فيها وتوهم أن تدفع عنهم، كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن»[٣].

وكذلك يأتي المثل بتمثيل مفرد بمركب كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٦٥).
(٢) انظر: المصدر نفسه (١٤/ ٦٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٢).

كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، ولم يرد في أمثال القرآن أن يمثل مركب بمفرد[١].

ثالثًا: التنوع في الممثل به تنوعًا يوحي بالثراء والتفنن ودقة القياس وصحته:

ولا غرابة في ذلك إن كان الكون والحياة والإنسان والطبيعة بما حولنا هي تلك العناصر التي يمثّل بها، ولا غضاضة في ضرب المثل بأي شيء إن كان يوصل إلى المقصد من ضربه كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] ومما يلاحظ في هذه الأمثال ما يلي:

١ ـ أن الله تعالى نوّع ضرب بعض الأمثال في مواطن متفرقة كالمطر والماء والريح وغيرها أما تلك الأمثلة التي عابها المشركون واستحقروها، فلم تضرب إلا في تصوير أحوالهم في اتخاذ الآلهة أو الإعراض عن الهدى ولم تأت إلا في هذا السياق، ويشهد لهذا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، ومثل السوء: هو القبيح من الأمثال[٢]، فكانت بذلك أبلغ في النظم، وأدق في تصوير حالهم.

٢ ـ أن الأمثلة التي كثر دورانها في القرآن، هي أكثر المحسوسات تواجدًا في حياة الناس، وأكثر ما ينتفع بها، ولكنها لم تأت على صورة واحدة بل جاءت متنوعة في أشكالها وأنواعها وطريقة انتفاع الناس بها، ولذا كثر في القرآن الأمثلة المائية؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٨).

(٢) انظر: جامع البيان (١٤/ ٢٥٨).

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] في بيان المطر حال نزوله وما يصحبه من رعد وبرق، وكقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤] في حال نزوله على حجر أملس، أو في حال إصابته البستان في الآية التي تليها، إلى غير تلك الأمثلة التي كان الماء هو مادة ضرب المثل فيه، وقل مثل ذلك في المثل الناري، لما في تلك الأمثلة من تلبس الناس بها ومشاهدتهم لها، وهذا أقرب في الانتفاع بالمثل وتذكره بمجرد رؤيتهم للممثل به، وهو أبرع في تفنن تصريف المادة الواحدة على عدة ضروب، وقد ورد في الأمثلة القرآنية الإشارة إلى هذا الملحظ؛ كقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤]، وكقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرعد: ١٧]، وكقوله: ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨] فهذا الرماد هو أثر تلك النار التي بها ينتفعون.

٣ ـ أن الأمثلة القرآنية وإن كانت مستمدّة من الطبيعة وواقع الناس في تراكيبها، إلا أن الأسلوب القرآني لم يعوّل على خرافة من خرافات العرب؛ لأن في ميدان الحقائق الصادقة ما يفي بالأغراض بل يزيد المعنى عمقًا وتأثيرًا[١].

---

(١) انظر: التصوير البياني، د. محمد أبو موسى (ص١٥١).

المَطْلَبُ الثَّانِي

تصريف القول في الغرض من ضرب الأمثال

لما كان المقصد الأساسي من تصريف الأمثال في القرآن أن تكون مضروبة «للناس» فلا شك أنها ضربت لحِكَم عظيمة وأغراض سامية نبيلة، وبِرُقِيّ الأمثال إلى ذروة البلاغة في النسج، وذروة المعنى في الوضوح والبيان، لم تترك شأنًا مما يحتاجه الناس مما يزيدهم تمسّكًا بالدين ويحث على اتباع الأوامر والنواهي إلا بيّنته، ويبيّن الرازي هذا المعنى بقوله: «المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردًا عن ضرب مثل له، لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مُثّل بالنور، وإذا زُهّد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أُخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت، كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجردًا، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله»[(١)].

ولذلك حصل الارتباط الذهني بالمثل المضروب وما ضُرب له، ولِأحدنا أن يلاحظ ذلك في نفسه، فبمجرّد رؤية الأرض وقد تزيّنت بالعشب بعد نزول المطر يتمثل لنا مشهد الحياة الدنيا وزينتها وسرعة

---

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٣١٢).

انقضائها، وبنفور الإنسان من جيفة ميتة رآها تظهر له صورة الغيبة في أقبح الصور وأشنعها، وعندما يتراءى لأحدنا سراب وهو في طريقه، يستحضر صورة العمل الذي ما أريد به وجه الله، وهذا المعنى حقق الغرض من ضرب المثل فجمع بين التذكر لارتباط المحسوس بالمعقول، وجمع معه التفكّر في قياس النظير على نظيره، وما يحصل معه من أثر في النفس، والتفكّر في حالها مع المثل المضروب، ولا شك أن التذكر والتفكّر من مقاصد ضرب الأمثال التي بيّنها الله تعالى بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وبهذا يكون قلب العبد وروحه في حالة يقظة وفكر دائم لا ينقطع، وهما من أعظم أسباب الانتفاع بالآيات، وإذا فقدهما العبد فأي هداية ترجى له، ولذلك نعى الله جل وعلا على أولئك الذين وقفوا عند ظواهر الأمثلة وتركوا التفكر أو التذكّر وجادلوا فيما يضرب الله لهم من الأمثال، وأخبر أن ذلك سبب ضلالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وبضرب الأمثال في القرآن الكريم نستطيع أن نخلص إلى التصرّف في أغراضها من خلال أمرين:

أولًا: تصرف الأمثال ببيان أسباب الهداية والضلال:

فالأمثال حين قصد بها الهداية لمن آمن بها وعقل معناها، فقد احتوت على مضامين الهدى وأسبابه، وهذه هي السمة الظاهرة في جميع أمثال القرآن[1].

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني (٢/ ٢٧٩).

وقد جمع د. عبد الله النقراط هذه الأغراض في اثني عشر غرضًا[١]، ويمكن تلخيصها إلى ما يلي:

أولًا: الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك كما في قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

ثانيًا: إثبات البعث والجزاء كما في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

ثالثًا: إثبات النبوّة والرسالة، ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣، ١٤].

رابعًا: بيان أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين؛ كقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

خامسًا: بيان حال المنافقين؛ كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

سادسًا: بيان سنن الله تعالى التي لا تتخلف، ومن الأدلة التي تبينها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

---

(١) انظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (٢/ ١٠٤٩).

سابعًا: بيان حقيقة الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثامنًا: الحث على الأعمال الصالحة، والنهي عن الأعمال القبيحة، كما في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤، ٢٦٥].

وكل غرض من هذه الأغراض تنوعت الأمثال فيه وتصرّفت تصرّف ما يتضمنه من أحوال، وكل هذه الأمثال يستفاد منها في كونها دليلًا على الحكم أو الغرض الذي جاء من أجله، وهذا من أعظم ما يختص به أسلوب المثل في القرآن الكريم[(١)].

ثانيًا: تصرف الأمثال في الغايات التي ضرب من أجلها:

ضرب الله الأمثال في كتابه لتكون منارة هدى، تدل القلوب إلى الخير والبر وتحجبها عن اقتراف الإثم والعصيان، ولذا فقد اشتملت على المدح والذم، والتفخيم والتحقير، واستنهاض الهمم واستنفارها إلى غير تلك الأغراض التي تصرفت في أمثلة القرآن ويمكن إيجازها فيما يلي[(٢)]:

أولًا: تقريب الصورة إلى ذهن المخاطب، ومن ذلك قوله تعالى:

---

(١) **انظر**: مجموع الفتاوى (١٤/ ٦٣).

(٢) **انظر هذه النقاط في**: دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل (ص٣١٠).

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩] ففي مثل هذه الآيات تصوير لما قد يعلم معناه، ولكن يصعب إدراكه على الصورة المرجوّة بدون توضيح.

ثانيًا: الإقناع وتصحيح المفاهيم، والإقناع يتميّز بقوة الحجة، وعامة الأمثلة التي ضربها الله في قضية البعث بعد الموت تندرج تحت هذا الغرض ومن أقوى هذه الأمثلة في التحدي والإقناع قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١].

ثالثًا: تزيين العمل وتحبيبه في النفوس، وتقبيحه والتنفير منه، ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] في تحبيب النفوس في الكلمة الطيبة. وقوله في: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] في تنفير النفوس من الكلمة الخبيثة.

رابعًا: إثارة الرغبة في العمل أو الرهبة والتحذير منه، فقد حذّر الله من الرياء ورغّب في الإخلاص بالمثل الذي ضربه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤، ٢٦٥].

خامسًا: المدح والذم:

أما في المدح: فقد ضرب الله مثلًا في مدح صحابة نبيه ﷺ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وأما في الذم: فقد ذم اليهود الذين أعرضوا عن الإيمان بما جاء في التوراة بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

سادسًا: **استنهاض الهمم**، ومما يصلح مثلًا لهذا الغرض قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فتأثر الجبال بالقرآن وهي جامدة قاسية تستنهض النفس، وتشحذ الهمّة في ألا تكون أقسى من هذا الجبل، وهذا الأسلوب من الأساليب الذكية التي تحرّك كوامن النفس وتعالج الفتور.

فهذه بعض التقسيمات في تصرف أغراض المثل القرآني ومقاصده، وبهذا يتبيّن لنا أن تصريف الأمثال في القرآن وما اختصّ به من دقة وروعة وبيان في كشف المعاني الخفية مع ما فيه من التفنن، يصل إلى المقاصد المرادة من ضرب المثل في تحريك نوازع النفس وتحريك كوامنها في الدعوة إلى الخير والتحذير من الشر.

* * *

ٱلْفَصْلُ ٱلرَّابِعُ

بيان القرآن

ويتضمن تمهيد وثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: وضوح القرآن.
- المبحث الثاني: دقة تعبير القرآن.
- المبحث الثالث: جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

تَمْهِيدٌ

البيان: هو الوضوح، يقال: بانَ الشيءُ بَيانًا: اتَّضح، فَهُوَ بَيِّنٌ، وهو مَا بُيِّنَ بِهِ الشيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرِها[١]، ويصف الجاحظ البيان بقوله: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان»[٢].

ولا تحسن المعاني، ولا تقوم الدلالات إلا بالبيان، وكلما كانت الدلالات قادرة على كشف ما خفي من المعاني كان البيان بليغًا، ولذا لا بدَّ لهذه العبارات من مقوّمات وسمات، وهي التي عبّر عنها الجاحظ بقوله: «وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور؛ كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي، هو البيان الذي سمعت الله ﷻ يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم»[٣].

ولما كان البيان بهذه المنزلة العليا والمزية العظمى، حاز القرآن الكريم منه على أعلى المراتب.

---

(١) لسان العرب (١٣/ ٦٧).

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ (١/ ٨٢).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٨١).

وقد تكاثرت الآيات وتنوعت في وصف القرآن الكريم بالبيان، فوصف الله القرآن كله بالبيان في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقد جاء البيان في الآية الأولى قبل الهدى والموعظة، وفي الآية الثانية قبل الهدى والرحمة، وهذا يبيِّن أنه لا وصول إلى طريق الهداية والاتعاظ وحصول الرحمة إلا بالبيان الذي جاء به القرآن.

قال السعدي: «فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمةً ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة، فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح»، وقال الواحدي(١) عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]: «ولأن الله يوفق للصواب ولسبيل الحقّ من أراد، أنزل هذا القرآن آيات بيِّنات»(٢).

ووصِفت آيات القرآن بالبيان في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]، فهي آيات واضحات في لفظها ومعناها دالة على جميع المطالب العالية(٣)، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩]، فالآيات واضحة الدلالات مع ما اشتملت عليه من

---

(١) علي بن أحمد بن محمد بن علي أبو الحسن الواحدي النيسابوري، لغوي مفسّر، صنف التفاسير الثلاثة البسيط والوسيط والوجيز وأسباب النزول وغيرها، مات في (٤٦٨هـ). (انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٩).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٧٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٤٠٢).

العلوم النافعة المفيدة، فكيف يطلب لها دليل وهي الدليل، ولا أدلَّ على بيانها من استقرار حفظها في الصدور، ولو كان فيها لبس أو غموض؛ لما تيسَّر حفظُها ولما أُتقِن ضبطُها، فأضحى البيان مع سهولة حفظها في الصدور من خصائص هذا الكتاب العزيز[1].

وسيكون الحديث في هذا الباب من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: وضوح القرآن.

المبحث الثاني: دِقَّة تعبير القرآن.

المبحث الثالث: جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

* * *

(١) انظر: الكشاف (٣/٤٥٨)، في ظلال القرآن (٥/٢٧٤٦).

المَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ

وضوح القرآن

تتجلى عظمة القرآن الكريم في وضوح أسلوبه، ولو أن أديبًا أو كاتبًا أودع كتابه من فنون المحسّنات اللفظية وألوان البديع، ثم خرج غامضًا مبهمًا؛ لهجره الناس وعزفوا عنه، فالوضوح هو أصل البيان وأساسه، وما أرسل الله الرسل بلسان قومهم إلا ليبيّنوا لهم الدين ويوضحوا لهم الرسالة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وتظهر العظمة في وضوح القرآن على امتداد الأزمان وتنوع أوجه الخطاب واختلاف أحوال المخاطبين، فالجميع يقرأ القرآن فيرى فيه الوضوح التام والبيان المطلق لم يتغيَّر على مر الأزمان واختلاف الأحوال.

ولما كان أسلوب القرآن جاريًا على هذا القدر من الوضوح أنكر جل وعلا على من لم يتدبره؛ لأن من كمال الحجة وضوح المحجة.

والوضوح في أسلوب القرآن من مظاهر كون القرآن مهيمنًا على ما سبقه من الكتب حيث قال جل وعلا عنه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ولا يكون القرآن مهيمنًا وحاكمًا على غيره إلا بما فيه من الوضوح والبيان[(١)].

ولنا أن نتلمس هذا الوضوح في جوانب عدة من أسلوب القرآن، **ومن ذلك:**

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٤).

أولًا: وضوح الألفاظ والمعاني:

وذلك أن الوضوح والغموض يتفاوتان في الكلام بحسب المعنى المراد، أو اللفظ الدال على المعنى، وقد جمعت ألفاظ القرآن خصائص الفصاحة والوضوح؛ إذ نزلت بلسان عربي مبين، وانتقي منها ما لم يخرج عن الاستعمال أو كان شاذًا، فكانت ألفاظًا مألوفة معهودة، وهي مع ذلك خفيفة الجريان على اللسان، فاجتمع في ألفاظ القرآن صفتي الفخامة والعذوبة، ففخامته في جزالته، وعذوبته في سهولته وهما في غير القرآن لا يجتمعان في لفظ واحد فقد يكون اللفظ جزلًا بليغًا لكن فيه نوع صعوبة وقد يكون اللفظ عذبًا سهلًا، وبهذا نجد اللفظ القرآني واضحًا دون ركاكة أو وعورة فيه وهذه فضيلة في البيان اختصَّ بها أسلوب القرآن، ولا يشكلنّ على وضوح ألفاظه وجود الغريب، فالحق أن الغريب الموجود في كتاب الله ليس المراد منه الوحشي المتنافر إنما المختار منه النمط الأقصد[(١)].

فإذا كان وضوح الألفاظ بهذه المنزلة، فإن معاني القرآن من باب أولى فلا تجد فيها ما منزعه في الفهم بعيد، أو سَبْر أغواره خفي، أو يلتبس فَيُفْهَم على غير المراد.

كما أنك تجد المعنى بعيدًا عن التعقيدات، لا يحتاج إدراكه إلى مقدمات فلسفية ولذا كانت معاني القرآن معجزة، كما قال الخطابي: «وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»[(٢)]، ويقول الزركشي: «فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون، لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون»[(٣)].

---

(١) انظر: القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٦)، الطراز (١/ ٦٢).

(٢) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٧). (٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤).

كما أن من وضوح معاني القرآن أنك إذا أخذت معنًى من معاني القرآن وجمعت ما تفرق منه في ثنايا الكتاب العزيز وجدت أن كل معنى مكمّلٌ للمعنى الآخر ومتعانق معه، فهو بمفرده دال على معنى، وبمجموعه دال على معنى دون تعقيد أو التباس.

إذا أدركنا هذه الأوجه من الوضوح في ألفاظ القرآن ومعانيه استطعنا أن نفهم ونوجّه قول ابن عباس ﵄: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»(١) وذلك أنه قد اجتمع في أسلوب القرآن الكريم ما يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة(٢).

بهذا الوضوح والبيان في الأسلوب عبّر القرآن عن مكنونات الأنفس في مثل قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] وعن مقالة العجماوات في مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

ثانيًا: وضوح الحجج والدلالات:

فإذا كانت ألفاظ القرآن ومعانيه بهذه المنزلة، فلا شك حينئذ أن دلالاته ستكون واضحة وكذلك الحجج التي حاجَّ بها القرآن مخالفيه، فهي على أعلى قدرٍ من الوضوح دون غموض أو تعقيد، بل إنه ما من حجة يكابر فيها المعاندِ إلا وترى بعدها حجة أخرى أوضح منها وأشد بيانًا،

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٠).

(٢) انظر: النبأ العظيم (ص١٤٨).

فحين أخبرنا الله ﷻ عن الذي حاج إبراهيم ﷺ في ربه، وعن كذبه حين قال له نبي الله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فعاند قائلًا: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، نرى أن القرآن قد أعرض في رد مقالته، وجاءه بحجة أخرى أقوى وأشد وضوحًا فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، قال البغوي(١): «دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل ترك القتل إحياء له، فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى، لا عجزًا، فإن حجته كانت لازمة؛ لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت فكان له أن يقول: فأحْيِ من أمتَّ إن كنت صادقًا، فانتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى»(٢).

وهذا الوضوح في الحجج هو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، وقد أحسن ابن الوزير(٣) حين بيّن ما اختصَّ به أسلوب القرآن من الوضوح في المحاجة بعدة أمور:

أولًا: أن هذه الحجج من أَجْمع العلوم وأوضحها في الأفهام.

ثانيًا: خلوها من فضول الكلام وحشْوِه الذي امتلأت به حجج أهل المنطق والكلام.

---

(١) هو: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، الشافعي، المفسر، صاحب التصانيف، كـ«شرح السُّنَّة»، و«معالم التنزيل» وغيرهما، كان يلقب بمحيي السُّنَّة، وكان إمامًا راسخًا في التفسير والفقه وكان زاهدًا، وكان لا يلقي الدرس إلا على طهارة، وكان مقتصدًا في لباسه، توفي سنة (٥١٦هـ). (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٤٢).

(٢) معالم التنزيل (١/ ٣١٦).

(٣) هو: محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل بن المنصور الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير: ولد سنة (٧٧٥هـ)، مجتهد باحث، من أعيان اليمن، له كتب نفائس، توفي سنة (٨٤٠هـ). (انظر: البدر الطالع ٢/ ٨١، الأعلام ٥/ ٣٠٠).

ثالثًا: سهولة فهم عباراته مما يورث النفع العام للخواص والعوام[١].

وهكذا نرى أن أسلوب القرآن يجعل من مشاهدات الناس وما ألفوه، مادة لترسيخ الدلالات والحجج دون الحاجة إلى تعقيدات وسفسطات تُذهِب بَرْد اليقين واطمئنان القلب بالإيمان، ولك أن تقرأ أوّل أمرٍ في القرآن فقد استدلّ جل وعلا على استحقاق عبوديته بإقرارهم بما يرون ويشاهدون من مظاهر ربوبيته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، **فهذا الاستدلال على وضوحه تضمن عدة أمور:**

أولها: إقامة البراهين بخلقتهم وخلقة السماوات والأرض والمطر والسماوات.

ثانيها: التلطف بذكر ما لله جل وعلا عليهم من حقوق وما تفضل عليهم وخصهم به.

ثالثها: الدلالة على صفات المعبود جل وعلا من الحياة والقدرة والحكمة والرحمة؛ لأن في الاستدلال بهذه المشاهدات بيانٌ لآثار رحمته بالعباد وحكمته في تقدير الأرزاق والأقدار، ولذا كان أكثر ما يأتي ذكر المخلوقات في القرآن في معرض الاستدلال على وحدانية الله[٢].

ومن الأمثلة في وضوح الحجج قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]: «فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن

---

(١) **انظر:** ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، لابن الوزير (ص٧).

(٢) **انظر:** التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٧٥).

يسألهم على جهة الاحتجاج وإقامة الدليل على أن الرزاق لهم من السماوات والأرض من هو؟، ثم أمره أن يقتضب الاحتجاج بأن يأتي جواب السؤال إذ هم في بهتة ووجمة من السؤال، وإذ لا جواب لهم ولا لمفطور إلا بأن يقول: هو الله، وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح؛ لأن المحتج يريد أن يقتضب ويتجاوز إلى حجة أخرى يوردها»(١).

وهذا الوضوح في الحجج يقرره القاضي عياض(٢) بقوله: «فجمع فيه ـ أي: القرآن ـ من بيان علم الشرائع، والتنبه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلةً بيّنة، سهلة الألفاظ موجزة المقاصد، رام المتحذلقون أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]»(٣).

ثالثًا: وضوح الأحكام:

فكما جاء الأسلوب القرآني واضح الألفاظ والحجج فهو أيضًا واضح في بيان الأحكام، وقد قرّر القرآن هذا الوضوح بطريقين:

الطريق الأول: التعقيب ببيان الآيات بعد ذكر الأحكام، وهذا كثير

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٤١٩).

(٢) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي، الأندلسي، ثم السبتي، المالكي، ولد سنة (٤٧٦هـ)، وتفقه واستبحر من العلوم، وجمع وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق، توفي سنة (٥٤٤هـ). (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٢).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (١/ ٥٣٦).

في القرآن، ففي أحكام الصيام ختم الله أحكامه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وحين نبَّههم إلى مضار الخمر ذيَّل ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وفيما يتعلق بأحكام الطلاق قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وفي الحثِّ على الصدقة قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، إلى غير تلك الأمثلة والنماذج التي تدل على البيان الشافي لأوامر الله ونواهيه.

الطريق الثاني: أنه قررها كقاعدة قرآنية شاملة لجميع التكاليف، وذلك في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، قال ابن عاشور: «فإكمال الدين هو إكمال البيان المراد لله تعالى الذي اقتضت الحكمة تنجيمه، فكان بعد نزول أحكام الاعتقاد، التي لا يسع المسلمين جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام ـ التي آخرها الحج ـ بالقول والفعل، وبعد بيان شرائع المعاملات وأصول النظام الإسلامي، كان بعد ذلك كله قد تم البيان المراد لله تعالى في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾»[1].

ومما يدل على شمول الوضوح في جميع التكاليف ما أعقب هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فاتصال هذه الآية بما قبلها دلّ على وضوح التكاليف فرضًا ونفلًا، أخلاقًا وآدابًا[2].

وهكذا فإن الوضوح في أسلوب القرآن يدل على أن القرآن جاء

---

(١) التحرير والتنوير (٦/١٠٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/٥٨٦)، نظم الدرر (١١/٢٣٥).

للإفهام ولا يوجد في القرآن ما لا معنى له، وفي هذا رد على الزنادقة والجهمية الذين ادَّعوا هذه الدعوى، قال ابن تيمية: «لا يجوز أن يكون الله أنزل كلامًا لا معنى له ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٠).

المَبْحَثُ الثَّانِي

دقة تعبير القرآن

من تمام الأسلوب القرآني، دقته في اختيار الألفاظ ودلالتها على المعاني، وقد أشار الجاحظ إلى أن دقة المدخل مما يُظهِر المعنى، وهو من البيان الذي امتدحه الله تبارك وتعالى[١]، وتكمن الدقة في الأسلوب القرآني من حيث إحاطة الله تعالى وعلمه باللفظة الأحق بهذا المقام، وقد نبّه ابن عطية إلى هذا المعنى حين قال: «فإذا قدّر الله اللفظة في القرآن علم بالإحاطة اللفظة التي هي أليق بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود، حتى كمل القرآن على هذا النظام الأول فالأول»[٢] وقد أرجع الخطابي هذه الدقة إلى أنها أحد أسباب عجز البشر عن الإتيان بمثله فقال: «وإنما تعذر عن البشر الإتيان بمثله لأمور:

منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ»[٣].

ودقة تعبير القرآن تتجلى في أمرين:

الأول: دقة الألفاظ:

فكل لفظ في القرآن الكريم في مكانه له دلالته الذي لا يؤدّى إلا

(١) انظر: البيان والتبيين (١/ ٨١). (٢) المحرر الوجيز، (٣/ ٣٦٠).
(٣) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٧).

به، وتتبع ذلك باب من أبواب البيان تفرّد به القرآن، يقول عنه الجاحظ: «وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»(١).

وقد أشار ابن الأثير إلى مسلك من مسالك الدقة في التعبير، وهو أن يكون اللفظان متقاربين في المعنى والدلالة، وكلاهما حسن الاستعمال في المقام المعبَّر عنه غير أن كل لفظ في موضعه أدق وأنسب، فقال: «ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك وهذا لا يدركه إلا من دقَّ فهمه وجلَّ نظره» ثم قال: «ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة، وإن كانا مختلفين في الوزن، ولم يستعمل القرآن أحدهما في موضع الآخر(٢).

ومن أوجه الدقة في البيان القرآني تلك الدقة التي نراها في الألفاظ التي تعددت القراءات فيها، خاصة ما يختلف فيه أصل المادة اللغوية فيها كـ (تبلو) و(تتلو) فأنت ترى أن كل لفظة حلَّت محلَّ أختها واستوتا في الدقة، ثم إن أي لفظة يمكن أن تكون متقاربة المعنى مع أحد

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٤١).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ١٦٤).

اللفظتين لو حلّت محلها لأبعدت القراءة الأخرى، إذ أن من أحد شروط القراءة موافقة الرسم، فلو سلّمنا جدلًا أن يحل لفظ [تقرأ] مثلًا محل (تتلو) لفسد النظم لأمرين، لعدم أدائها نفس المعنى الذي يؤديه لفظ (تتلو) ولاختلاف الرسم الذي يمنع ورود القراءة الأخرى وهي تبلو، إضافة إلى ما يؤديه مجموع اللفظين من معنى لا يؤديه أحدهما بمفرده.

الثاني: الدقة في التركيب:

وهذه الدقة حين تكون في مجموع كلام متعانق لا ينفك أحدهما عن الآخر فإن ذلك دليل آخر على اختصاص القرآن بالدقة المتناهية في البيان، كما يقول الرافعي: «لا جرمَ أن المعنى الواحد يعبَّر عنه بألفاظ لا يجري واحدٌ منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة؛ لأن لكل لفظ صوتًا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة، وربما اختلف وكان بغير ذلك أشبه»[(١)].

ومن الدقة في التركيب، الدقة في ترتيب الألفاظ والجمل في الآية للدلالة على المعنى المراد، وتساوي ألفاظها في الجزالة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: ٨٥] «فقد أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء، فإنها أقل استعمالًا، وأبعدُ من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، فإن [تزال] أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالًا منها، وأتى بأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض فاقتضى حسنُ الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة تَوَخيًا لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٥٥).

وتتناسب في النظم»[(١)].

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقد بيّن ابن الأثير دقة الترتيب فيها حيث قال: «وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غُصْنَا منه في بحر عميق لا قرار له، فإن هذه الآية قد تضمَّنت خمسة ألفاظ، وهي: ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم، فلمَّا وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قُدِّمَ منها لفظتا: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ و﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ وأُخِّرَت لفظة ﴿وَٱلدَّمَ﴾ آخرًا، وجعلت لفظة ﴿وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ﴾ في الوسط، ليطرق السمع أولًا الحسن من الألفاظ الخمسة وينتهي إليه آخرًا ثم إن لفظة ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أحسن من لفظتي: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ وأخف في الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخرًا، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية»[(٢)].

ومن الدقة في التركيب ما يجعل اللفظ في موضع مستحسنًا رائقًا، ويكون في موضع آخر على خلاف ما وجدت من الاستحسان، **ومن الأمثلة على ذلك:** لفظة: [تؤذي] فقد جاءت في آية من القرآن وبيت من الشعر، فجاءت في القرآن جزلةً متينة وفي الشعر ركيكة ضعيفة، فأثّر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] جاءت ﴿يُؤْذِى﴾ مضافة إلى ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾.

أما في الشعر فقد جاءت مفردة دون إضافة في هذا البيت:

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٩٥).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ١٦٩).

تَلَـذُّ لَهُ الـمُـرُوءَةُ وَهْـيَ تُـؤْذِي وَمَنْ يَـعْشَقْ يَلِـذُّ لَهُ الغَرَامُ[١]

وقد أماط اللثام عن دقة التعبير القرآني لهذه اللفظة ابن الأثير حين قال: «وهذه اللفظة التي هي [تؤذي] إذا جاءت في الكلام، فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة، ألا ترى أنه قال: «تلذ له المروءة وهي تؤذي» ثم قال: «ومن يعشق يلذ له الغرام» فجاء بكلام مستأنف.

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي، وأُضِيف إليها كاف الخطاب فأزال ما بها من الضعف والركة، وذاك أنه ﷺ اشتكى، فجاءه جبريل عليه السلام ورقاه، فقال: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ»[٢].

فانظر إلى السرّ في استعمال اللفظة الواحدة، فإنه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها»[٣].

بقيت الإشارة إلى أنه لما كانت الدقة في التعبير من خصائص الأسلوب القرآني وأنه لا يقوى أحد على أن يعارض هذه الدقة، فإنه لا يستقيم بحال ترجمة ألفاظ القرآن ونقلها إلى لسانٍ غير عربي؛ لأن مثل هذه الدلالات التي تختلف فيها دقائق المعاني لا توجد في غير العربية، إضافة إلى القدر الذي اختصَّ به الأسلوب القرآني، ولا يترجم منه إلا ما دل على المعاني المطلقة[٤].

❊ ❊ ❊

---

(١) قائل البيت هو المتنبي. انظر: ديوان المتنبي (٤/ ٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، برقم (٢١٨٦) (٤/ ١٧١٨).

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ١٦٧).

(٤) انظر: الموافقات (٢/ ١٠٦).

المَبْحَثُ ٱلثَّالِثُ

جمع القرآن بين الإجمال والبيان

لئن اختصَّ الأسلوب القرآني بالبيان المطلق، فإن اشتماله على الإجمال ميزة كبرى ومزية عظمى، وإنك لتعجب أشد العجب كيف يجتمع الإجمال والبيان في موضع واحد، مع ما اشتمل من الوضوح في فهمه، وكم من كلام مبسوط يصعب فهمه ولا يتضح مقصده، فإن رام صاحبه الإجمال والاختصار أفسد الكلام وشتّت الفهم.

أما القرآن الكريم فبيانه مجمل وإجماله بيّن، وهذا المعنى هو الذي قصده د. دراز في حديثه عن الإجمال والبيان بقوله: «وهذه عجيبةٌ أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه، ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتّسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس، أو إلى اللغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف[1] والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسها، دون كدِّ خاطرٍ ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلامًا ولغات، بل ترى صورًا وحقائق ماثلة، وهكذا يخيّل إليك أنك قد أحطت به خُبرًا ووقفت على معناه محدودًا، ولو رجعت إليه كرَّة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى

---

(١) الشَّفُّ: ضَرْبٌ من السُّتور يُرِي مَا وَرَاءه، وجَمعه: شُفُوف. (انظر: تهذيب اللغة ١١/ ١٩٤).

جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة»[١].

وهذه الطريقة في الأسلوب القرآني تأخذ بأيدينا لمعرفة وجه من أوجه اشتمال القرآن على علوم الأولين والآخرين بهذا الإجمال.

وتأمّل في سورة الفاتحة وهي سبع آيات، وكيف أجملت جميع ما ورد في القرآن، «فقد أجملت سورة الفاتحة علم الأصول الذي مداره على معرفة الله وصفاته وإليه الإشارة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بـ ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ومعرفة المعاد وإليه الإشارة بـ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وعلم العبادات وإليه الإشارة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وعلم السلوك وهو عمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية وإليه الإشارة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ وعلم القصص، وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾»[٢]، فأجمل في الفاتحة جميع مقاصد القرآن وهذا هو الغاية في البيان مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة.

وتأمّل وجهًا آخر من وجوه الإجمال في سورة الفاتحة، يبيّنه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر وإنشاء وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبرًا عن الله كنصف الفاتحة وسورة الإخلاص وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب وأنفعه وأوجبه ما كان طلبًا من الله؛ كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين»[٣]، فأجملت سورة الفاتحة بذلك حقيقة

(١) النبأ العظيم (ص١٥١).
(٢) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٦٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٧٩).

الإيمان الذي هو ذكر الله والثناء عليه، ودعاؤه والالتجاء إليه.

وكما اتسم الإجمال بالبيان فهو كذلك في تمام الإحكام، فما من لفظة كان الإجمال فيها محتاجًا إلى البيان إلا وتجد بيانها في القرآن شافيًا.

خذ مثلًا قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

تأمّل في الأمر المأتيّ في الآيتين لتقف على مظهر بديع في طريقة القرآن في الإجمال والبيان، فحين أخبر الله تعالى عن إتيان أمره في سورة النحل أعقبها بقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وكفى بهذه الجملة في بيان المراد بهذا الأمر، فما هو الأمر الذي يستعجله المخاطبون؟ ولذا لمّا اختلِف في هذا الأمر هل المراد الأحكام والفرائض، أم أنه الوعيد الذي استعجله الكفار في العذاب وقيام الساعة؟ كان في قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ بيانًا شافيًا لهذا الأمر المراد، وأنه وعيد المشركين وإنذارهم بالعذاب وقرب قيام الساعة، كما قال ابن جرير: «فإنه لم يبلغنا أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ استعجل فرائض قبل أن تفرض عليهم فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها، وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيرًا»(١).

لعلَّ بهذا المثال قد اتضح لك غرض من أغراض البيان بعد الإجمال، وما فيه من التهويل والتعظيم لهذا الأمر، ومن ذلك ما أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما أن الصحابة رضوان الله عليهم حين نزل قول الله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ رفعوا رؤوسهم، فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(٢).

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٦٠).

(٢) المصدر نفسه، (١٤/ ١٥٩)، تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٧٥).

أما في آية المائدة: فلما أخبر الله عن حال المنافقين في توليهم لليهود والنصارى والركون إليهم خشية الحاجة إليهم في أي وقت من الأوقات، ردّ ظنهم السيّء بقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ فانظر إلى الإجمال في: ﴿أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بدون تعقيب، وقارن بينه وبين الأمر الذي في سورة النحل، وذلك أنه لما كان الركون إلى الكفار متجددًا، والمسارعة إليهم من هذه الفئة مستمرة في كل زمان ومكان أجمل الله هذا الأمر دون تحديد له، لتذهب النفس فيه كل مذهب، وليكون صالحًا لأي أمر يأتي به الله في كل وقت وحين، فقد يكون في زمنٍ من الأزمان بالجزية، وقد يكون في فضحهم وكشف مخططاتهم، وقد يكون بالإيقاع أو بأي أمرٍ تقتضيه إرادة الله وما أجمل قول ابن جرير في تعقيبه على هذه الآية بعد أن فسّر الأمر في الآية بالجزية حيث قال: «وقد يحتمل أن يكون الأمر الذي وعد الله نبيه محمدًا ﷺ أن يأتي به، هو الجزية، ويحتمل أن يكون غيرها، غير أنه أيّ ذلك كان فهو مما فيه إدالة المؤمنين على أهل الكفر بالله وبرسوله، ومما يسوء المنافقين ولا يسرهم؛ وذلك أن الله تعالى قد أخبر عنهم أن ذلك الأمر إذا جاء أصبحوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمين»[(١)]، وكلما حصلت المداولة بين أهل الحق والباطل وظهر أهل النفاق فنحن ننتظر أمر الله الذي يجعلهم على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين.

هكذا يأتي الإجمال في القرآن الكريم تام البيان والوضوح، وهكذا يظهر لك غرض آخر من أغراض الإجمال في أن القرآن هو المعجزة الباقية الذي جاء للناس هداية وبيانًا في كل عصرٍ ومصر.

ولقد حفل القرآن الكريم بأساليب كثيرة، كل أسلوب منها يوقفك على هذه الخاصية بأبهى حللها وأجمل صورها، **ومن خلال ما سبق من**

---

(١) جامع البيان (٨/ ٥١٤).

الأمثلة يمكن أن نُجمِل طريقة القرآن الكريم في جمعه بين الإجمال والبيان في عدة نقاط:

أولًا: التعبير بالألفاظ الجامعة التي تتضمن الأصول:

ولا شك أن هذه الأصول تدل على الفروع وما تتضمنه، وقد عبّر السيوطي عن هذا الأسلوب بـ «الإيجاز الجامع»(١).

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق كلّها؛ لأن في: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ صلة القاطعين والصفح عن الظالمين، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الأرحام وصرف اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه(٢)، قال ابن عطية: «وصية من الله ﷻ لنبيه ﷺ تعم جميع أمته وأخذ بجميع مكارم الأخلاق وأُمِر بكل ما عرفته النفوس مما لا ترده الشريعة»(٣)، ويقول القرطبي: «هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام وتقوى الله في الحلال والحرام وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار، وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحض على التعلّق بالعلم والإعراض عن أهل الظلم والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة، قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط»(٤) فإذا تأمّلت كم من معنى أُجمل في هذه الآية، فتأمّل كم من

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١٨٢).
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٢٦).
(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٤٩١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤٤).

آية بيّنت هذه المعاني وبسطتها لتقف على طريقة القرآن في جمعه بين الإجمال والبيان بهذه الطريقة البديعة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فقد أجْملت الأمر بكل خصال الخير والنهي عن كل خصال الشر، كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن لخير أو لشر، آية في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية»[١]، وقال ابن عاشور: «هذه الآية استئنافٌ لبيان كونِ الكتابِ تبيانًا لكل شيء، فهي جامعة أصول التشريع»[٢]، ويقول السعدي في قوله تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]: «حتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبرْ هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى»[٣].

ولما كانت هذه الآية جامعة كل خصال الخير على إجمالهما؛ فإن أي آية في القرآن تأمر بخير واجب أو مندوب، وأي آية في القرآن تنهي عن منكر واجب أو مكروه هي بيان لهذه الآية[٤]، ولا تعجب بعد ذلك إذا كانت هذه الآية سببًا لدخول الناس في الإسلام لما جمعت من مكارم الأخلاق على إجمالها فقد ورد أن النبي ﷺ حين قرأها على عثمان بن مظعون استقر الإيمان في قلبه واطمئن به[٥]، كما رُوِي أن الوليد بن المغيرة حين قال عن القرآن: «إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة فإن

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٣٣٧). (٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن (٤٤٧).

(٤) ولك أن تنظر مثلًا في كثرة الآيات التي استشهد الشنقيطي بها في تفسيره لهذه الآية وغيره من المفسرين. (انظر: أضواء البيان ٢/ ٤٦٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (٢٩٢٢)، وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٧): إسناده حسن.

أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر» إنما قاله بعد سماع هذه الآية[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فهذا اللفظ مع إجماله قد اشتمل على الأمر بالدعوة، والجهر بها، والشجاعة في تبليغها.

كما شمل جميع ما أوحى الله إلى نبيه ﷺ وأُمر ببيانه، كما تضمّن أثر هذه الدعوة في الناس، فبيّن اللفظ جميع ما في الرسالة من الدعوة إليها وأحوال المدعوين.

وحكى أبو عبيد[٢]: أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فسجد، وقال: (سجدت لفصاحته)[٣].

وعلّل ابن عاشور هذه الفصاحة فقال: «وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة (اصدع) في إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها وكلمة ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ في إيجازها وجمعها»[٤]، وذلك أن التبليغ والبيان قد يشق على بعض القلوب فتنصدع والمشابهة بينهما، فيما يؤثِّره التصريح في القلوب، فيَظهرُ أثرُ ذلك على ظاهر الوجوه من القبض والانبساط، ويلُوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة فانظر إلى جليل هذه الاستعارة وعظم إيجازها وما

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره عن حماد بن زيد عن عكرمة مرسلًا. انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٦/ ٣٨).

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، ولد سنة (١٥٧هـ)، وقرأ القرآن على: أبي الحسن الكسائي، وأخذ اللغة عن: أبي عبيدة وجماعة، قال ابن سعد: كان أبو عبيد مؤدبًا، صاحب نحو وعربية، وطلب للحديث والفقه، وصنف كتبًا، وحدّث، وحج، فتوفي بمكة سنة (٢٢٤هـ). (انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠).

(٣) ذكره الماوردي في تفسيره (١/ ٣٠)، والقاضي عياض في الشفا (١/ ٥٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٠٧).

انطوت عليه من المعاني الكثيرة[١].

ثانيًا: التعبير بالكلمات الجامعة لمعانٍ متعددة:

فقد يراد التعبير عن أمر ووصفُه بعدة أوصاف، فيُعبّر بكلمة واحدة تدل على هذه الأوصاف مجتمعة، وقد عدّ ابن عاشور هذا الأسلوب من خصوصيات بلاغة القرآن فقال: «ومما أعده في هذه الناحية: صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة، وأشملها لمعان عديدة مقصودة، بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها، ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها»[٢]، وهذه المعاني المتعددة المقصودة من اللفظ قد يرد بيانها في مواضع متفرقة من القرآن، وقد يكتفى بذكرها مجملة اكتفاءً بدلالة اللغة مع قصد الأسلوب القرآني جميع تلك المعاني.

ومن أمثلة النوع الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] فتأمل كيف عظّم الله بيته ووصفه بأشرف الأوصاف من كونه أول بيت وأقدمه، إذ إن من معاني العتيق: القديم، ولا شك أن هذا المعنى يوحي بالأفضلية والنّفاسة والتعظيم، وكونه منارة هدى وبركة وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وهو عتيق كذلك من حيث دلالته على أنه معتق من تسلط الجبابرة لا يظهر عليه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥][٣] فالتعبير بهذه الكلمة في هذا الموضع في غاية الإجمال مع ما احتواه من البيان دون لبس أو اختلاط.

---

(١) بديع القرآن، لابن أبي الإصبع (ص٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٣).

(٣) انظر: جامع البيان (١٦/ ٥٢٩).

ومن الأمثلة على النوع الثاني قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥] فالحرد في اللغة يدل على القدرة وعلى الجد والعزم في الفعل وعلى الحنق والغضب وجميع هذه المعاني صالحة في وصف أصحاب الجنة وذكرها مقصود ولذا لم يرد ما يعيّن أحدها[١]، فتأمّل كيف أُودعت هذه المعاني في كلمة واحدة.

ثالثًا: إطلاق اللفظ مجملًا دون تعيين لتذهب النفس في تحديد المراد به كل مذهب يصلح له:

وإطلاق هذا اللفظ مجملًا دون تعيين أوضح في البيان، ولو كان معيّنًا لحصر البيان على معنىً أو نوع دون الآخر، وهذه خاصية بديعة في أسلوب القرآن واتساع خطابه، ولا أدلّ على ذلك من آية سورة المائدة: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فقد أجْملت الآية الدفع دون تحديد أو تعيين، فلم تذكر ماهيّته، ولم تعيّن وقته، فالدفع قد يكون بالجهاد وهو أعظمها وقد يكون بالعلم والبيان، وقد يكون كذلك بتأهيل الناس لتحقيق أسباب النصر، بتدريبهم عليه وغرس اليقين والتعلق بالله، كما كان من طالوت ومن معه، وكل ذلك داخل ضمن مقتضى الدفع، كما أشار إلى ذلك رشيد رضا حيث يقول: «وأنت ترى أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ليس نصًّا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذي يقتضي المدافعة والمغالبة»[٢].

فهل رأيت مثل هذا البيان متضمنًا في بلاغة الإجمال.

---

(١) انظر: جامع البيان (٢٣/ ١٧٦)، التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٤).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٣٩٤).

وقد ثنّى الله تعالى هذا اللفظ فذكره في موضع آخر مجملًا دون تعيين، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] لتقرير رحابة المعنى واتساع بيانه، ولعلّ من أعظم حِكَم الإجمال وأغراضه في هذه الآية أنه يستحث الأمة أفرادًا ومجتمعات على بذل تحصيل أسباب الدفع دون الركون إلى سبب دون سبب؛ فمتى تحقق عملوا به ومتى تأخر انتظروه! كصنيع بني إسرائيل الذين تمنّوا الجهاد ولـمّا يبذلوا سببه، أو يطلبونه دون بذل جهد أو سعي لأسباب أخرى من الدفع، ولا شك أن هذا الأسلوب حينئذٍ ليس أسلوب بلاغة فحسب بل هو أسلوب هداية وفلاح.

رابعًا: إطلاق اللفظ مجملًا مع ذكر ما يبيّنه أو يعيّنه:

وذلك أنه يرد في أسلوب القرآن من النصوص ما يحتمل أكثر من معنى كما سبق ولكن قد يراد به معنى محددًا دون غيره، فلا تجده في الأسلوب القرآني دون بيان بل يبيّنه بيانًا وافيًا كافيًا، مع تفنن الأساليب وتنوعها، بل إن أسلوب القرآن يرشد إلى معنى أشمل وأعمق في البيان، وهو أنه وجَّه في بيان ما أُجْمِل بالإحالة إلى النبي ﷺ كمقصد من مقاصد الأسلوب القرآني في البيان، وقد جاء التصريح بذلك في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] قال القرطبي: «ثم جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان منه مجملًا، وتفسير ما كان منه مشكلًا، وتحقيق ما كان منه محتملًا، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض إليه»(١)، ودلائل اختصاص الأسلوب القرآني ببيان النبي ﷺ غير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، قال الواحدي:

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢).

«يعني: لكل شيء من أمور الدين، إما بالنص عليه، أو الإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي ﷺ، أو إجماع المسلمين»(١).

وتأمل ارتباط بيان القرآن بالنبي ﷺ في هذه الآيات، دون سائر الأنبياء في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلم يرتبط بيانهم بالمنزل عليهم، وقد جاء في الحديث: (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(٢)، وقد أفاد التعقيب بالتفكّر في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]؛ أي: لعلهم يتفكّرون في اختصاصك بهذا الكتاب وبيانك له(٣).

وقد تنوعت أشكال البيان في أسلوب القرآن، فتارة يكون متصلًا؛ كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ بعد قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وتارة يكون منفصلًا في نفس السورة كما في قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فقد جاء بيانها منفصلًا في قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقد يكون في سورة أخرى حسب ما يقتضيه سياق الآية ومقصد السورة، وخذ مثلًا قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]،

(١) التفسير الوسيط (٣/ ٧٩).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، برقم (٤٩٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان بنبينا محمد ﷺ (١٥٢).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٦٤).

وكيف ناسب الإجمال في ذكر الصفات دون ذكر من اندرج تحت هذه الصفات في هذه السورة التي هي السبع المثاني، ثم تأمل كيف كان البيان مفصّلًا في سائر القرآن حسب ما يقتضيه السياق؛ كقوله تعالى: ﴿يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] كيف ذكر الله مواعدة موسى دون ذكر كيفيتها، ثم بيّنها وذكر تفاصيلها في قوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ومن أساليب الإجمال: المزاوجة بين الإجمال والبيان في موضعين فيذكر في آية أمرًا مجملًا وآخر مبيّنًا، ثم يذكره في موضع آخر فيجمل المبيّن ويبيّن المجمل، كما أخبر الله عن يونس حين نادى ربه في بطن الحوت في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وفي قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٢ ـ ١٤٤]، ففي سورة الأنبياء أجمل ذكر الظلمات وبيّن تسبيحه، وفي الصافات بيّن الظلمات وأجمل التسبيح.

وصور الإجمال والبيان في هذا النوع كثير، وفيه من تناسب القرآن وتعانق سوره وترابط آياته ما يستحق التأمّل، ويدلّك على استيفاء البيان في أسلوب القرآن الكريم(١).

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٢٠) وقد أطال رَحِمَهُ اللهُ في مقدمة كتابه في بيان صور وأنواع البيان القرآني الذي جاء كتابه تطبيقًا لما قرره في هذه المقدمة.

ٱلْفَصْلُ ٱلْخَامِسُ

ثراء معاني القرآن

ويتضمن تمهيد وثمانية مباحث:

- المبحث الأول: احتمال اللفظ لأكثر من معنى.
- المبحث الثاني: احتمال السياق لأكثر من معنى.
- المبحث الثالث: تعدد المعنى بتعدد القراءات.
- المبحث الرابع: تعدد المعنى بحسب الوقوف.
- المبحث الخامس: التكرار.
- المبحث السادس: الترادف.
- المبحث السابع: الإيجاز والإطناب.
- المبحث الثامن: تجدد المعاني.

تمهيد

الثراء: النماء والزيادة والكثرة، وثرا القوم ثراءً إذا كثروا ونموا، وثريَ بماله: كثُر به وغنِيَ عن الناس كما قيل: «هم أثرياء بما لديهم من كرامة»(١).

هكذا نجد أسلوب القرآن الكريم في ثراء معانيه كثرةً ووفرةً وغناءً وكمالًا، حتى إنك لترى اللفظ القرآني يجود بالمعاني، فإذا ضممته لسباقه ولحاقه زاد ثراؤه واتسع معناه كل هذا مع إحكام وتفصيل دلّ عليه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، قال ابن كثير: «محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى»(٢)، ويقول البقاعي عن هذا الإحكام والتفصيل وما يورثه من الثراء: «تفصيلٌ يفهم منه علوم جمة ومعارف مهمة وإشارات إلى أحوال عالية، وموارد عذبة صافية، ومقامات من كل علة شافية، كما تفصل القلائد بالفرائد، وهذا التفصيل لم يشاركه في شيء منه شيء من الكتب السالفة»(٣).

ويقول الزرقاني: «ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن، بل كل مِنطيقٍ بليغ مهما تفوّق في البلاغة والبيان، تجده بين هاتين الغايتين كالزوج بين ضرتين، بمقدار ما يرضي

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٨٣)، معجم اللغة العربية المعاصرة، مجموعة باحثين (١/ ٣١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٠٣).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٢٥).

إحداهما يغضب الأخرى، فإن ألقى البليغ بالَه إلى القصد في الّلفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه حمله ذلك في الغالب على أن يغض من شأن المعنى، فتجيء صورته ناقصة خفية ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية، وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء بالمعنى وتجليةِ صورته كاملة حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد في اللفظ راكبًا متن الإسهاب والإكثار حرصًا على أن يفوته شيء من المعنى الذي يقصده»[1].

وثراء بهذا الغَناء والوفاء، والكثرة والنّماء، كجواهر مكنونة ولآلئ منثورة، تحتاج إلى من يثيرها ويستثيرها، ويغوص إلى أعماق المعاني ليلتقطها فإذا حصّل الطالب بغيته قلّب هذه الجواهر بين يديه، وفي كلّ مرة يقلّبها يجد فيها لونًا أخّاذًا، وضوءًا برّاقًا من معاني هذا الكتاب العزيز يستغني به ويطمئن إليه، هذا هو التثوير الذي عناه ابن مسعودٍ ﷺ بقوله: «من أراد العلم فَلْيُثَوِّرِ[2] القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين»[3]، وذلك أنك كلما قلبت المعنى ووجدت فيه بغيتك، رجعت إليه مرة أخرى فإذا بك أمام معنىً آخر، ودلالةٍ أخرى وفهم جديد لم يسبق إليك، هكذا تتكاثر المعاني ويبنَى بعضها على بعض؛ لأنَّ اللفظ يتّسع لكل هذا. وهكذا نستطيع استثمار المعاني السابقة واللاحقة في بيان عظمة هذا الكتاب، أما حين يضيق فهمنا ونظن أن اللفظ لا يحتمل إلا معنىً واحدًا دون اعتبار لفهم السلف فما ذاك إلا لعدم إدراكنا هذا الثراء.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٤).

(٢) قال في لسان العرب: «ثورت الأمر: بحثته، وثور القرآن: بحث عن معانيه وعن علمه، قال شمر: تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه» (٤/ ١١٠).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٨٦٦٦) من طريق محمد بن كثير، ثنا شعبة، فذكره وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص١٥٧) عن يحيى بن سعيد القطان، وسنده صحيح.

ولنتأمل ما ذكره الشنقيطي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] حتى يتضح هذا المعنى، حيث فهم فهمًا جديدًا للآية مع اعتبار قول من سبقه؛ لأنه أدرك سر ثراء القرآن في معانيه فيقول في الآية: «يفهم منها أنه لو تنطع جند من الأحزاب للارتقاء في أسباب السماء، أنه يرجع مهزومًا صاغرًا داخرًا ذليلًا، فالآية الكريمة يُفهَم منها ما ذكَرْنا، ومعلوم أنها لم يفسرها بذلك أحد من العلماء بل عبارات المفسرين تدور على أن الجند المذكور، الكفار الذين كذبوه ﷺ، وأنه ﷺ سوف يهزمهم، وأن ذلك تحقق يوم بدر أو يوم فتح مكة، ولكن كتاب الله لا تزال تظهر غرائبه وعجائبه متجددة على مر الليالي والأيام، ففي كل حين تفهم منه أشياء لم تكن مفهومة من قبل، وهذا يدل على أن فهم كتاب الله تتجدد به العلوم والمعارف التي لم تكن عند عامة الناس، ولا مانع من حمل الآية على ما حملها عليه المفسرون لما تقرر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتمل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع»(١).

ولما كان الأسلوب القرآني بهذا الثراء فقد اشتمل على مصالح العباد في الدارين مع بقاء الحجة ولزوم المحجة، وكما استغنى به أسلافنا فسادوا وأدّوا ما عليهم، ها هو بين أيدينا ونحن من يحتاج إلى استثارة معانيه واستخراج كنوزه ولآلئه، حتى نستغني به كما استغنى من سبقنا.

والقعود عن تحصيل هذا الثراء نكوص وهجرٌ للقرآن كما قال معاذ بن جبل ﷺ: «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصَّروا، قالوا:

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٢٥٨).

سَنُبلِّغ، وإن أساءوا، قالوا: سيُغْفَر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئًا»[١]، فكيف يبلى وهم يقرؤونه إلا إن كانت قراءة عابرة دون استخراج كنوز المعاني ومهمات المعارف من هذا الكتاب العزيز!

ومن خلال المباحث الآتية يمكننا الوقوف على جملة من مواطن الثراء في أسلوب القرآن الكريم:

المبحث الأول: احتمال اللفظ لأكثر من معنى.

المبحث الثاني: احتمال السياق لأكثر من معنى.

المبحث الثالث: تعدد المعنى بتعدد القراءات.

المبحث الرابع: تعدد المعنى بحسب الوقوف.

المبحث الخامس: التكرار.

المبحث السادس: الترادف.

المبحث السابع: الإيجاز والإطناب.

المبحث الثامن: تجدد المعاني.

* * *

(١) أخرجه الدارمي في السنن، باب في تعاهد القرآن (٤/٢١٠٧) قال المحقق: حسين سليم أسد: إسناده صحيح إلى معاذ وهو موقوف عليه.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

احتمال اللفظ لأكثر من معنى

من مظاهر ثراء المعاني في أسلوب القرآن الكريم: تميزه باختيار الألفاظ التي تحتمل معانيَ متعددة، وإذا كانت العرب تعرف للَّفظ أكثر من معنى، فقد جاء القرآن الكريم بما هو فوق طاقتهم، وتوجيه ذلك ما قاله الخطابي: «أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ»[(١)]، ولله.. ما أجمل تعبيره حين جعل الألفاظ كالحوامل التي تحمل المعاني، فتتسع لها ولا تنوء بثقلها ثم تتولد عنها المعاني حسب الغرض من الكلام.

وقد جرت ألفاظ القرآن الكريم في احتمالها للمعاني على وجه جعلت التعبير بها من خصائص أسلوبه، فتارة يأتي اللفظ من جهة الاشتراك يحتمل أوجهًا كثيرة، وتارة يأتي اللفظ يحتمل وجهين، وتارة يطّرد اللفظ بمعنى واحد إلا في موضع أو موضعين.

ومن جهة أخرى قد يحتمل اللفظ أوجهًا كلها مراد، وتارة يحتمل معنيين يمنع كل معنى المعنى الآخر، وغير ذلك من أنواع التفنن التي جعلت أوجه الثراء فيه متعددة المسالك.

وبيان أوجه الثراء وأغراضه في اللفظ المتعدد المعاني لا يطيقه بشر والأمر في ذلك كما يقول ابن القيِّم: «وأسرار مفردات القرآن ومركباته

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٧).

فوق عقول العالمين»[١].

ويمكن إبراز أوجه احتمال اللفظ لأكثر من معنى من خلال ما يلي:

أولًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى بسبب رجوعه إلى أصل واحد:

فترى اللفظ تتعدد معانيه وتتشعب، ومرجعها إلى أصل واحد تدور كل هذه المعاني في فلكه، فيكون أصل اللفظ إذ ذاك كنبع الماء الذي يُغذِّي الجداول والأنهار وهكذا ندرك كيف تتولد المعاني وتتكاثر كما نفهم وجه تنوع ورود اللفظ في كل موضع ومناسبة وروده.

وقد بنى الحكيم الترمذي كتابه «تحصيل نظائر القرآن» على هذا الوجه فقال: «فإنا نظرنا إلى هذا الكتاب المؤلف في نظائر القرآن فوجدنا الكلمة الواحدة مفسَّرة على وجوه، فتدبرنا ذلك فإذا التفسير الذي فسّره إنما اختلفت الألفاظ في تفسيره، ومرجع ذلك إلى كلمة واحدة، وإنما انشعبت حتى اختلفت ألفاظها الظاهرة الأحوال التي إنما نطق الكتاب بتلك الألفاظ من أجل الحادث في ذلك الوقت»[٢].

ومما يبيّن أهمية هذا الوجه في بيان المعنى وأثره في إعجاز القرآن، احتفال ابن قتيبة به في باب مستقل من أبواب كتابه «تأويل مشكل القرآن»[٣].

ثانيًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى بسبب التعبير بلفظ جامع[٤]:

وهذا الوجه من أخص ما يميز أسلوب القرآن، فهو كما يدل على

---

(١) جلاء الأفهام، لابن القيم (ص٢٣٣). (٢) تحصيل نظائر القرآن (ص١٩).

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص٢٥٨)، وانظر كلام المحقق: السيد أحمد صقر عن هذا النوع في (ص٨٣)، وقد ذكرت أمثلة وأحوال احتمال اللفظ لأكثر من معنى في المبحث الأول من الفصل الثاني، (ص١٢٧).

(٤) انظر: مفردات القرآن، للفراهي (ص١٠٥).

الوضوح في البيان، فإنه يبرز جانب ثراء المعاني وغزارتها بدلالته على المعاني الكثيرة بألفاظ يسيرة كما قال الزرقاني: «ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلَّى لك المعنى في صورة كاملة لا تُنقِص شيئًا يُعتبر عنصرًا أصليًا فيها، أو حلية مكملة لها كما أنها لا تزيد شيئًا يعتبر دخيلًا فيها وغريبًا عنها بل هو كما قال الله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن»(١).

وإذا نظرت إلى معاني هذا اللفظ الجامع لا تروعك كثرة المعاني أكثر من روعة تنوّعها وتفاوتها وترى أن العلاقة بين هذه المعاني علاقة تكامل واتفاق، فقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فقد ورد عن السلف في بيان المراد من المسارعة إلى المغفرة عدة أقوال: فعن ابن عباس رضي الله عنهما: إلى الإسلام، وروي عنه: إلى التوبة، وبه قال عكرمة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إلى أداء الفرائض، وقيل: إلى الهجرة وإلى الجهاد، وإلى الأعمال الصالحة، وروي عن أنس بن مالك أنها التكبيرة الأولى.

وكل هذه الأقوال داخلة تحت هذا المعنى ولذا قال البغوي جامعًا لهذه المعاني: «بادروا وسابقوا إلى الأعمال التي توجب المغفرة»(٢).

والتعبير بالألفاظ الجامعة مما يميّز أسلوب القرآن الكريم، وقد عدّه السعدي ضمن قواعده فقال: «وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيرًا منها من الألفاظ الجوامع وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا»(٣).

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٣٢٤). (٢) معالم التنزيل (٢/ ١٠٣).
(٣) القواعد الحسان لتفسير القرآن، لابن سعدي (ص١٦٨)، وانظر: عادات القرآن الأسلوبية، د. راشد الثنيان (١/ ١٢٨).

وعند التأمل في المثال السابق ومعرفة طريقة القرآن في التعبير بالألفاظ الجامعة ندرك شيئًا من العلاقة بين هذه الألفاظ وبين المعاني الدالة عليها.

ففي المثال السابق نرى أن العلاقة بين المعاني وبين اللفظ علاقة سببية، والمراد المبادرة إلى تلك الأعمال التي تكون سببًا في حصول المغفرة.

وتارة تكون العلاقة علاقة وصفية كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فعبارات المفسرين متنوعة في الدلالة على هذه الألفاظ، وهي راجعة إلى وصف هؤلاء بما يدل على صفة الظلم والاقتصاد والمسابقة إلى الخيرات، فمنهم من فسّر الظالم: بالجاهل، والمقتصد: بالمتعلم، والسابق: بالعالم، ومنهم من فسر الظالم: بمن انشغل بمعاشه عن معاده والمقتصد: بمن اشتغل بمعاشه ومعاده، والسابق بمن اشتغل بمعاده إلى غير تلك العبارات التي هي أحوال تدل على من اتصف بهذه الصفات[1].

وتارة تكون العلاقة بين اللفظ والمعاني علاقة إضافية بأن يحتمل الضمير المعاني الدالة عليه كما في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤] فالذكر هنا لفظ جامع؛ لأنه مصدر فيصح أن يضاف إلى الفاعل ويصح أن يضاف إلى المفعول، فجمع بين ما يصلح أن يذكرَ العبدُ به ربه؛ كقول: سبحان الله، والحمد لله، ونحوهما، ويصلح أن يكون ما يذكره هو وهو كلامه جلّ شأنه[2].

وقد تكون العلاقة ضمنية جزئية والمراد أن المعنى يكون جزءًا أو

(١) انظر: الكشف والبيان (٨/ ١٠٩). (٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٥).

ضمنًا من اللفظ القرآني كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فالعدل والإحسان يتضمنان معاني عديدة كل معنى يعتبر جزءًا من اللفظ.

ثالثًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى بسبب الاشتراك:

فاللفظ المشترك في أسلوب القرآن هو ما تعدد معناه واتحد لفظه، وهو مما يزيد المعنى القرآني ثراءً، سواء صلح أن يراد به كلا المعنيين في الآية أو لزم ترجيح معنىً على معنى، وقد أشار ابن عاشور إلى وجه وقوع ذلك في أسلوب القرآن فقال: «ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز، وهو مُتنَافَسُهم وغايةٌ تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان ـ مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني ـ فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته؛ **لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه، وبعضها إن كان فَرْضُ واحدٍ منه يمنعُ من فَرْضِ آخر، فتحريك الأذهان إليه وإخطاره بها يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء**»(١). وهو هنا في الجملة الأخيرة يشير إلى جانب مهم في اللفظ المشترك حين يمتنع أن يحتمل اللفظ هذه المعاني مجتمعة في سياق واحد، ويبيّن وجه الثراء ومقصده.

فمن الأمثلة التي يمكن اجتماع المعنيين فيهما لفظ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١].

قال أبو حيان: «قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وقتادة(٢)

---

(١) التحرير والتنوير (١/١٢١).

(٢) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي، أبو الخطاب، ولد سنة (٦٠هـ)، وهو حجة بالإجماع إذا بيّن السماع فإنه مدلس معروف بذلك، وكان يرى القدر، =

وعكرمة(١): القسورة: الرماة، وقال ابن عباس أيضًا وأبو هريرة وجمهور من اللغويين: الأسد، وقال ابن جبير: رجال القنص، وهو قريب من القول الأول، وقاله ابن عباس أيضًا، وقال ابن الأعرابي: القسورة أول الليل، **والمعنى**: فرت من ظلمة الليل، ولا شيء أشد نفارًا من حمر الوحش، ولذلك شبهت بها العرب الإبل في سرعة سيرها وخفتها»(٢)، فإيثار لفظ القسورة هنا لصلاحيته لهذه التشبيهات، ولا شك أن تشبيه فرار الحمُر في كل حالة له من التفاصيل والأحوال ما يختلف عن الآخر مما يزيد المعنى جلاء وثراءً.

ومن الألفاظ المشتركة التي يلزم من اختيار معنى امتناع المعنى الآخر: لفظ ﴿قُرُوٓءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فالقرء لفظ مشترك بين الطهر والحيض، فتحديد أحد المعنيين يمنع المعنى الآخر، وثراء المعنى في مثل هذا النوع إضافة إلى ما أشار إليه ابن عاشور، أن تحديد المعنى يلزم منه حشد كل قوم ما يرجح قولهم إما بآية أو حديث أو سياق، ولا شك أن هذا مما يزيد اللفظ ثراء وغَناءً.

رابعًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى حسب تنوّع وروده:

فتارة يحتمل اللفظ أكثر من معنى لا بإرجاعه إلى أصله وليس

= نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقف أحد في صدقه، وعدالته، قال محمد بن سيرين: «قتادة أحفظ الناس، أو من أحفظ الناس»، وقد كان رأسًا في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها، توفي سنة (١١٨هـ). (سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩ ـ ٢٨٣).

(١) هو: أبو عبد الله القرشي مولاهم المدني، البربري الأصل مولى ابن عباس، العلامة الحافظ المفسر، حدث عنه إبراهيم النخعي والشعبي، كان يقول: طلبت العلم أربعين سنة وكنت أفتي بالباب وابن عباس في الدار، وقال: كان ابن عباس يضع في رجلي الكبل على تعليم القرآن والسنن. توفي سنة (١٠٥هـ). (سير أعلام النبلاء ٥/ ١٢ ـ ١٤، طبقات المفسرين للأدنه وي ص١٢).

(٢) البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٣٣٩).

بسبب الاشتراك إنما بسبب ما يطرأ على اللفظ من معانٍ في موضع دون موضع فيفسّر اللفظ حينئذ بأصله اللغوي، كما يفسّر بمعناه في نفس الآية، وهو بذلك يضيف إلى اللفظ في هذا السياق معنى آخر يضاف إلى معناه اللغوي فيصبح بذلك لكل لفظ في كل موضع معنى خاصًا، وقد جرى كثير من المفسرين على بيان المعنى في سياقه دون رده إلى معناه اللغوي.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فمعلوم أن الإفك هو الكذب وبه فسره مجاهد(١).

كما ورد تفسير ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ في هذا الموضع بما يلزمه من معنى، ولا يجوز حمله على نفس اللفظ في موطن آخر، فعن قتادة: ما يسحرون، وعن ابن عباس قال: هي حبالهم وعصيّهم، ومن المعلوم أن الحبال والعصيّ ليست بمعنى الإفك ولكنهم حين استخدموها في السحر وكان السحر جزءًا من الكذب عبّر عنه بلفظ الإفك، ولذا لا يجوز أن يفسّر الإفك بهذا المعنى في غير هذا الموضع؛ لأنه تفسير(٢).

* * *

---

(١) هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي مولى عبد الله بن السائب القارئ، مفسر ثقة، سمع من ابن عباس وابن عمر وعلي وروى عنه الحكم ومنصور وابن أبي نجيح وعطاء وطاووس، قال مجاهد: قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت. مات مجاهد سنة ثلاث ومائة، وقيل: سنة ثنتين ومائة. (التاريخ الكبير ٧/ ٤١١، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٠).

(٢) انظر: جامع البيان (١٠/ ٣٥٩)، وانظر: المفردة القرآنية، مقال لـ د. مساعد الطيار في ملتقى أهل التفسير http://t.co/0M4g5Av4n8.

المَبْحَثُ الثَّانِي

احتمال السياق لأكثر من معنى

مما تميّز به القرآن الكريم: سياقُه للألفاظ والمعاني، وذلك أن السياق يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، ومن حال المخاطِب والمخاطَب والغرض الذي سيق له، والسياق القرآني بعيدٌ كل البعد عن تلك الانفعالات والمؤثرات التي تكتنف الكاتب أو الشاعر فتؤثر في سياق الخطبة أو القصيدة، فتقوى أحيانًا وتضعف أحيانًا، ولك أن تنظر في قصة الوليد بن عتبة حين رجع إلى قومه بوجه غير الذي ذهب به لما سمع من النبي ﷺ أوائل سورة حم السجدة(١).

والسؤال الذي يتردد، ما الذي أفزع الوليد ولمّاً يكمل رسول الله ﷺ تلاوة الآيات التي فيها تفاصيل العقوبة، بل وأقسم عليه ألا يكمل؟ ما الذي سمعه الوليد في هذا الحوار فجعله بهذه الحالة وليست هي المرّة الأولى التي ينذرهم فيها الرسول ﷺ بالعذاب؟!

ولا شك أن سياق الآيات من بداية السورة يحمل من معاني

---

(١) انظر: سيرة ابن اسحاق (ص٢٠٨)، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ١٦٢) قال الألباني: هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي (١/ ١٨٥)، من سيرة ابن هشام، بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ووصله عبد بن حميد، وأبو يعلي، والبغوي من طريق أخرى من حديث جابر ﷺ، كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٩٠ ـ ٩١)، وسنده حسن إن شاء الله. (انظر: فقه السيرة، للغزالي بتخريج الشيخ الألباني ص١١٦).

عظمة الله وقدرته ما يكفي للفزع بعد الإنذار في قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] الذي تيقّن الوليد تحقُّقه بعد أن تيقَّن أن هذا الكلام لا يقوله بشر.

وقبل ذكر أوجه تعدد المعنى بحسب السياق، يحسن ذكر أقوال العلماء حوله وأثره في ثراء المعنى، فمن ذلك: قول العز بن عبد السلام: «السياق مرشد إلى تبين المجملات وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات وكل ذلك بعرف الاستعمال»[(١)].

وقريب من هذا قول الزركشي: «السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته»[(٢)].

ويقول ابن تيمية: «وتختلف دلالة الكلام تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وكثير من وجوه اختلافه قد لا يبين بنفس اللفظ بل يرجع فيه إلى قصد المتكلم، وقد يظهر قصده بدلالة الحال»[(٣)]، وهذه الأقوال تطلعنا على أثر السياق في تنوّع الدلالة وتعددها، وما ينتج عنه من ثراء المعاني.

كما أن من أعظم ما تميز به القرآن، تضمنه لأغراض متعددة في الآية الواحدة ولا شك أن هذا من كمال القرآن، فإنه محتمل للوجوه بحسب اختلاف الأغراض التي تضمنتها الآية، وهذا سر تعدد المعاني في الآية واختلافها، ولهذا فلا بد من اعتبار هذه الخاصية كمظهر من مظاهر الثراء في السياق القرآني[(٤)].

---

(١) الإلمام في بيان أدلة الأحكام (ص١٥٩).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٠٠).
(٣) إقامة الدليل على إبطال التحليل، ابن تيمية (ص٢٠٨).
(٤) انظر: علم السياق القرآني (مفهوم السياق القرآني ومكوناته)، د. محمد الربيعة مقال =

وثراء السياق واحتماله للمعاني ينتظم مظاهر عدة من أبرزها:

أولًا: ارتباط السياق القرآني بعدة روابط كالسباق واللحاق ومقصد الكلام:

وتطلب فهم هذه الروابط وإدراكها من أعظم ما يعين المفسّر على فهم كلام الله ومراده، كما تجعل السياق يتسع للمعاني ويحتملها دون تضاد أو اختلاف، وكل ذلك داخل ضمن دائرة القواعد والضوابط في فهم النص القرآني.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، فقد ذكر المفسرون في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قولين، وكل قول له وجهه، ويشهد له السياق ولذا تنوّعت عبارات السلف في بيان معناها فمنهم من قال: خلق الله: هي الفطرة، فلا تبديل لها من جهة الخالق ويشهد لهذا سياق الآية وهو قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وعليه فتكون الجملة على بابها من جهة الإخبار في بيان ما قبلها وأن دين الله لا تبديل فيه، ومنهم من فسّر خلق الله: بأنه دين الله ويشهد له قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ وعليه تكون الجملة خبرية تتضمن النهي، وكلاهما له وجهه(١).

ومنهم من فسّرها بأنها في النهي عن تبديل ما خلقه الله من تقطيع آذان البهائم أو الخصاء وما شابه ذلك، وكل هذه المعاني يحتملها السياق ولا منافاة بينها، وقد وجّه ابن القيّم بعد أن ذكر هذه الأوجه

= منشور في ملتقى أهل التفسير، http://vb.tafsir.net/tafsir7223 .

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣١)، تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٤)، التحرير والتنوير (٢١/ ٩٣).

فقال: «ولا منافاة بينها، كما قال تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩]، فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصا وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقه أيضًا، ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر فأولئك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلقة، فذلك يغير ما خُلِقَتْ عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خُلِق عليه بدنه»[1].

وإذا نظرنا إلى تعدد المعنى في هذا المثال وسببه لرأينا أن ذلك راجع إلى ارتباط جملة: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ بسباقها ولحاقها بوجه من الأوجه التي لا تضاد بينهما.

ثانيًا: أن يحتمل السياق المعنى على وجه المشابهة:

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فمن المعلوم أن الخطاب في قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ مقصود به اليهود الذين آذوا نبيّ الله موسى عليه السلام وقد ساق ابن جرير قولًا آخر، فأخرج بسنده عن أبي أمامة أنه قال في هذه الآية: (هم الخوارج)[2]، ومع أن هذه الآية واضحة جلية في اليهود، وكون الخوارج وقت نزول هذه الآية لم يخرجوا إلا أن هذا القول دليل على ثراء المعاني في أسلوب القرآن والفضل في ذلك راجع إلى السياق، فقد أُطلِق الزيغ دون تقييد ليشمل أي زيغ عن أمر الله ومراده مما حصل من اليهود، ومما يمكن أن يحصل من غيرهم، فجاء سياق الآية دالًا على حال بني إسرائيل بالنص، وعلى كل من شابههم بالتبع وعبارة ابن عطية في تفسيره دالة على هذا المعنى، حيث قال: «ذلك ضرْبُ مثلٍ للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، ذكّرهم الله تعالى

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٨٧).
(٢) جامع البيان (٢٢/ ٦١٢).

بقوم آذوا نبيّهم على علم منهم بنبوته، وزاغُوا فأزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ؛ أي: فاحذروا أيها المؤمنون أن يصيرّكم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم، وقال أبو أمامة: هم الخوارج، وقال سعد بن أبي وقاص: هم الحرورية، المعنى: **أنهم أشباههم في أنهم لما زاغُوا أزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**»(١).

وقريبٌ من هذا الوجه ما روي عن السلف في الاستشهاد بآيات الوعيد التي نزلت في الكفار، فيما يتعلق بتزكية النفوس ووعظ الناس وتذكيرهم، كما قال ابن كثير: «وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ﷺ، عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال أبو مجلز(٢): ليتفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾»(٣).

وقال البيهقي: «قال الحليمي(٤) رحمه الله: وهذا الوعيد من الله تعالى وإن كان للكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة، ولذلك قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف: ٢٠] فقد يحسن مثله، على المنهمكين

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٠٢).
(٢) هو: لاحق بْن حميد أَبُو مجلز السدوسي الْبَصْرِيّ مات في خلافة عمر بن عبد العزيز، قبل الحسن بقليل، ومات الحسن سنة (١١٠هـ)، سمع ابن عمر وابن عَبَّاس وأنس بْن مالك، روى عَنْهُ قتادة وسُلَيْمَان التيمي. (التاريخ الكبير، للبخاري بحواشي المطبوع ٨/ ٢٥٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٤).
(٤) هو: أَبُو عَبْد اللهِ الْحُسَيْن بْن الْحَسَن بْن مُحَمَّد الفقيه الشافعي الحليمي الْجُرْجَانِيّ، ولد بِجُرْجَانَ فِي سنة (٣٣٨هـ)، وحمل إلى بخارى وهو صغير وكتب الحديث بها وتفقه وصار رئيس أصحاب الحديث ببخارى، وتولى القضاء ببلدان شتى، وتوفي فِي جمادى الأولى سنة (٤٠٣هـ). (تاريخ جرجان ص١٩٨).

في الطيبات المباحة؛ لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يؤمن أن يرتكب في الشهوات والملاذ، وكلما أجاب نفسه إلى واحدة منها دعته إلى غيرها، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه في هوى قط وينسد باب العبادة دونه، فإذا آل الأمر به إلى هذا لم يبعد أن يقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]»[١].

فمثل هذا الاستشهاد من صنيع السلف ﷺ وأرضاهم من جهة خشية المشابهة لحال هؤلاء، أو للتحذير من مشابهتهم، وهذا معنىً حسن في تزكية النفس وتهذيبها، ولو كان الاستشهاد بهذه الآية وما شابهها على هذه المعاني يفسِد المعنى لما أقدموا عليه.

ثالثًا: أن يحتمل السياق أكثر من معنى بحسب الجهة المتعلقة به:

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣]، والمراد بالألواح والدسر هي السفينة، ولكن في هذه الآية استغنى بذكر الموصوف عن الصفة لما في ذكر الموصوف من تعدد الدلالة التي يدل عليها السياق ولو جاء التصريح بالصفة عن الموصوف لما أدى إلى هذا المعنى، فالسياق الذي انتظم هذه الآية يحتمل معنيين:

الأول: أن قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ تدل على تعظيم هذه السفينة وبيان متانتها ودقة إحكامها فهي ذات ألواح عريضة تواجه انهمار ماء السماء، وتصارع انفجار عيون الأرض، ومقدّمتها تشق موج البحر شقًّا، ولا شك أن هذا الأمر يتطلب عناية الصنع ودقة الإحكام، ثم هو بأمر من الله وبحفظ منه كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وفي تنكير الألواح والدسر دلالة على هذا التعظيم والتفخيم[٢].

(١) شعب الإيمان، للبيهقي (٧/ ٤٦٢).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٣).

الثاني: أن وصف السفينة بِـ: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] إنما هو تهوين لها فمهما بلغ شدّها وإتقانها، فما هي في الحقيقة إلا ألواح وأخشاب ومسامير، سهلة التحطم والانكسار عند اصطدامها بما يعيقها، كما قال الرازي: «وأقام الصفة مقامه، إشارة إلى أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدثر، وكان انفكاكها في غاية السهولة، ولم يقع فهو بفضل الله»[1].

فهذا المعنى وإن كان مبايِنًا للمعنى الأول إلا أن السياق دال عليهما ولا يتضمن القول بأحدهما فسادًا أو إبطالًا للمعنى الآخر، وذلك لاختلاف متعلق كل منهما.

وما كان لغير هذا الوصف أن يدلّ على المعنيين مجتمعين في هذا السياق فإحكام السفينة وإتقان صنعها مرتبط بما تتعلّق به النفس البشرية من بذل أسباب النجاة بإتقان صنع تلك السفينة التي ستواجه هذا البحر المتلاطم، أما المعنى الآخر فهو مرتبط بالسفينة من حيث الواقع، فهي وإن بلغت ما بلغت من القوة والمتانة لا تعدو أن تكون أخشابًا ومسامير طافية فوق الماء لا تغني شيئًا بدون حفظ الله ورعايته[2].

وهذا المثال وجه من أوجه تنوع احتمال السياق للمعنى من جهة ما يتعلق به فهذه السفينة في نظر البشر من العجائب، ومن جهة كونها سارت في هذا الموج المتلاطم فما كان لها ذلك إلا بحفظ الله وعنايته.

رابعًا: أن يكون المراد من الآية معنى من المعاني، ويأتي السياق ليوسّع دلالة هذا المعنى وغرضه:

ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٩٧).

(٢) انظر: التصوير البياني، د. محمد أبو موسى (ص٤٦٤).

﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقد اختلف المفسرون في المراد بالخلق والتصوير: فمنهم من جعل الخلق لآدم، والتصوير لذريته، ومنهم من جعل الخلق والتصوير للذرية، بمعنى خلقناكم في أصلاب الآباء وصورناكم في بطون الأمهات، ومنهم من جعل الخلق والتصوير جميعًا في بطون الأمهات، وقد رجّح كثير من المفسرين أن المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ هو آدم عليه السلام، **بمعنى**: ولقد خلقنا آدم ثم صورناكم بتصويرنا آدم واستندوا في ذلك إلى السياق، وذلك لأن الله تبارك وتعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم في قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ قبل خلق ذريته وتصويرهم[1].

فإذا كان سياق الآية دلّ على هذا المعنى، فالمجيء بكاف الخطاب في السياق في: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ له دلالة في نظم الكلام ومعناه، وذلك حتى يتصل الكلام بسابقه في التذكير والاعتبار، فكما أنعم عليكم بالتمكين في الأرض في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فقد خصكم بنعمة الخلق على هذه الصورة، وبهذا اشتمل السياق في الخلق والتصوير على آدم عليه السلام في الدلالة على المعنى، كما اشتمل على بَنِيهِ في الخطاب بهذه حال كونها نعمة يجب التذكير بها، وهذا من تلوين الخطاب بأن يكون الخطاب لبني آدم والمراد به آدم عليه السلام[2].

خامسًا: أن يجيء في سياق الكلام التعقيب بحكم عام على حادثة أو حكم خاص يجعل معنى السياق محتملًا لأكثر من معنى:

وقد عدّ السعدي رحمه الله هذا الوجه من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر

---

(١) انظر: جامع البيان (١٠/ ٧٥ ـ ٧٩)، الكشاف (٢/ ٨٩)، المحرر الوجيز (٢/ ٣٧٧)، البحر المحيط (٥/ ١٦).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٢/ ٣٧٧)، البحر المحيط (٥/ ١٦).

دليل على إحكامه وانتظامه العجيب[١].

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، ففي هذه الآية بيان من تاب وصحّت توبته من المنافقين وأنه يكون في زمرة أهل الإيمان ومعلوم ما أعد الله تعالى لأهل الإيمان في آيات كثيرة غير أن التعقيب بالحكم العام في هذه الآية والمجيء بالاسم الظاهر دون الضمير وهو لفظ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعل سياق الآية يحتمل عدة معانٍ إضافة إلى معنى حصول الأجر العظيم لمن تاب وصحت توبته من المنافقين.

ومن هذه المعاني: أن يشمل هذا الحكم جميع أهل الإيمان دون حصره في هذه الطائفة من المؤمنين، وكذلك مما يضيفه هذا السياق من المعاني: بيان سبب هذا الأجر وهو الإيمان، فهو سبب تحصّلهم على هذا الأجر العظيم وكل من حقّق السبب حصل له الجزاء[٢].

وفي هذا السياق معنى ثالث: وهو دخول من ذكرهم الله في هذه الآية في كون الأجر لهم ليس في الآخرة فحسب، بل في الدنيا والآخرة كعامة أهل الإيمان الذين وعدهم الله بالعاقبة في الدارين، كما أوضح ذلك ابن عاشور بقوله: «وقد علم الناس ما أعد الله للمؤمنين بما تكرر في القرآن، ولكن زاده هنا تأكيدًا بقوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وحرف التنفيس هنا دل على أن المراد من الأجر أجر الدنيا وهو النصر وحسن العاقبة وأجر الآخرة، إذ الكل مستقبل، وأن ليس المراد منه الثواب؛ لأنه حصل من قبل»[٣].

---

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص١٢٢).

(٢) انظر: شرح القواعد الحسان، لابن عثيمين (ص١٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٤).

سادسًا: أن يدمج في سياق الآية معنى غير المعنى الظاهر من الآية يحتمله النظم والسياق وهو ما يعبّر عنه بالإدماج(١):

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] حيث قال: «والقائلون هم اليهود، بدليل قراءة من قرأ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ بالتاء، وكذلك: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾، وإنما قالوا ذلك: مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فألزموا ما لا بدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى ﵇» ثم قال: «وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأنْ نَعَى عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم، وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل: جاءَ بِهِ مُوسى، وهو نور وهدى للناس، حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء»(٢).

فجاءت الآية ملزمةً اليهودَ بالإقرار بما جاء به موسى ﵇ في التوراة من بعثة الرسل وأدمج في هذا توبيخهم لما حصل منهم من التحريف اتباعًا لهوائهم.

هذه المظاهر ومثلها كثير شاهدة على اختصاص أسلوب القرآن بهذا الثراء والوفاء في معانيه، بيد أن من لازم القول التنبيه على أن هذا الثراء مضبوط بما ذكره السلف والمفسرون من قواعد وضوابط في فهم النص القرآني، فكل معنىً من المعاني التي تحمل على السياق لها من الدلالات ما يضبطها، ومن الشواهد ما يعضدها.

---

(١) انظر: تحرير التحبير (ص٤٤٩)، بغية الإيضاح (٤/ ٦٢٥)، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (ص٥٠٠).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٤٤).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

تعدد المعنى بتعدد القراءات

خصَّ الله تعالى نبيه ﷺ بنزول القرآن على سبعة أحرف، وقد جاء التعقيب صريحًا واضحًا في حديث الأحرف السبعة باشتمالها على الكفاية والشفاء، فعن أُبيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: (**أَتَانِي جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَزِدْهُ، قَالَ: اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ**)[1]، وما الإخبار عن كفايتها وشفائها إلا دليل على الثراء والوفرة في المعاني الناتجة عن تنوع القراءات، كما قال البغوي: «كل حرف من هذه الأحرف السبعة شاف لصدور المؤمنين، لاتفاقها في المعنى، وكونها من عند الله وتنزيله ووحيه كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وهو كاف في الحجة على صدق رسول الله ﷺ، لإعجاز نظمه وعجز الخلق عن الإتيان بمثله»[2].

وقال المناوي[3]: «كل حرف من تلك الأحرف شاف للغليل كاف

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (٢١١٧٠)، وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب على كم نزّل القرآن، برقم (٧٩٣٢).

(٢) شرح السُّنَّة، للبغوي (٤/ ٥١٢).

(٣) هو: محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين: من كبار العلماء، اشتهر بالتأليف، ومن كتبه هو: فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير عاش في القاهرة، وتوفي بها سنة (١٠٢٩هـ). (البدر الطالع ١/ ٣٥٧، الأعلام ٦/ ٢٠٣).

في أداء المقصود من فهم المعنى وإظهار البلاغة والفصاحة»[١].

فهذا التغاير والتنوع في الأداء القرآني من زيادة ونقص، أو تقديم وتأخير، أو إبدال، أو تخفيف وتشديد، ونحو ذلك، مما اختصَّ به أسلوب القرآن.

ولك أن تتأمل في صنعة الخطيب في خطبته، أو الشاعر في قصيدته وهو يعالج في تنقيحها وتهذيبها من زيادة حرف هنا أو نقص حرف هناك، ليكون أقوم للفظ وأليق بالنظم ثم يعود عليها أخرى ليرى أنّ وضع هذه الكلمة مكان أختها أصح في أداء المعنى وحصول المراد، ثم بعد ذلك ترى النقاد يستدركون عليهم في هذا الباب.

فإذا تأملت هذا فارجع وتدبر في أوجه التغاير في ألفاظ القرآن الكريم وكيف أنك تقرأ مثلًا قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] فترى ما تدل عليه لفظة ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾[٢] من حرص الشيطان وسعيه في وقوعهما في الزلل والخطأ الناتج عن عدم الامتثال ومخالفة الأمر الذي أدى إلى خروجهما من الجنة، ولا شك أن نظم الآية في غاية الائتلاف والتناسب.

ثم ارجع مرة أخرى للآية لتقرأها بوجه آخر وهي: [فأزالهما] وكيف دلت على تنحيتهما وإزالتهما مما كانا فيه وكيف أن حرص الشيطان على وقوعهما في الزلل كان سببًا في إزالتهما، وليت أن هذه الإزالة كانت من مكان إلى مكان في الجنة، بل هي إزالة وخروج من ذلك النعيم والعيش الهادئ الهنيء، ولذا جاء العطف عليها بقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ للدلالة على أن الإزالة غير الإخراج.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٣/ ٧٠).

(٢) (أزلهما) قراءة جمهور القراء، وقراء حمزة (فأزالهما) بألف بعد الزاي وتخفيف اللام. (النشر في القراءات العشر، لابن الجزري ٢/ ٢١١).

ويذلك يكون العطف في قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ متناسب مع اللفظين على اختلافهما وتنوعهما.

إذا تأملت ذلك، ظهر لك وجه اختصاص الأسلوب القرآني بهذا الثراء الناتج عن التنوع في الأداء، ومع ذلك فكل لفظ متناسب مع سياق الآية وأسلوبها دون الحاجة لتفضيل وجه على وجه، بل اللفظان مع بعضهما في غاية التناسب والانسجام في دلالة أحدهما على الآخر فأين ترى مثل هذا في غير أسلوب القرآن؟!

والثراء كما يكون بتنوّع المعنى الناتج عن اختلاف القراءة، يكون بجمع حاصل المعنى من القراءتين أو القراءات المختلفة في اللفظ، وهذا لون حسن ومظهر بديع من مظاهر الثراء في اختلاف القراءات الأمر الذي يتطلب معه الكشف عن الروابط والتناسب بين هذه الألفاظ، فإذا كان التناسب بين آيتين أو بين أوّل السورة وخاتمتهما من بديع أسلوب القرآن، فما ظنّك بالتناسب في اللفظ الواحد الذي اختلف فيه نوع من أنواع التغاير، لا شك أنه آكد وأقوى.

خذ مثالًا على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] فقد ورد فيها قراءتان: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ و[يقضِ] الحق[1] ومعناها: أنه جل وعلا يقضي القضاء الحق، ولما كان القضاء هو الفصل في الحكم والقطع به ذيّل الآية بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أما القراءة الأخرى ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ فهي من قصّ الحديث وتتبّع الأثر، وهذا القص متناسب مع تذييل الآية بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأن الله تعالى قال في سورة الطارق: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ وهكذا تَنوّعَ المعنيان وتغايرا في دلالتهما على فعل الله جل وعلا دون تعارض بينهما.

---

(١) (يقصّ الحق) قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وعاصم، و(يقضِ الحق) لباقي القراء. (النشر في القراءات العشر ٢/٢٥٨).

فإذا ما تطلبنا المناسبة بين القراءتين، ظهر لنا معنى آخر وهو أن الله تعالى يبيّن لنا منهجًا ربانيًا في قضائه جل وعلا وكيف أنه قص لنا حال الشاكرين والمجرمين وفصّله وهو في غنى عن ذلك جل وعلا فهو أحكم الحاكمين، ولكن حتى يستبين الطريق وتتضح الحجة ثم يكون قضاؤه تبارك وتعالى بتعجيل العذاب أو إمهاله ولا معقِّب لحكمه تبارك وتعالى.

وهكذا القاضي لا يستطيع أن يفصل في القضية حتى يقص الأثر ويتتبعه ويستفصل منه، فإذا استبان له فصَل في القضية وحكم بما ظهر له، فهذا التناسب بين القراءتين بيّن لنا وجهًا من أوجه الثراء في المعنى.

ومن مظاهر الثراء في تنوع القراءات:

أولًا: تعدد الأساليب في الدلالة على أمر واحد:

وهذا مع ما فيه من التفنن وظهور وجه الإعجاز في تنوّع الأساليب دون تباين أو اختلاف؛ فهو يشتمل كذلك على الثراء والوفاء بالمعنى، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] حيث قُرئ: [ولا يَسمَعُ الصمُّ الدعاءَ][(١)] فقد شبّه الله تعالى الكافرين في عدم انتفاعهم بالآيات بحال الأصم الذي لا يسمع من يناديه حال توليه مدبرًا، ولو حاول المنادي إسماعهم.

ووجه الثراء في هذه القراءة يستفاد من تنوع جهة الخطاب، فالقراءتان وإن دلتا على معنى واحد إلا أن القراءة الأولى لما جاءت بأسلوب الخطاب للنبي ﷺ، كان فيها تسلية له وألا يضيق صدره بإعراض المكذبين الذين لا يرجى منهم انتفاع كما لا ترجى حياة الميت أو إسماع الأصم، كما أن فيها توجيهًا للرسول ﷺ بتفويض الأمر إلى الله في عدم قدرته على إسماع هؤلاء، وفي هذا التسليم التام

---

(١) وهي قراءة ابن كثير المكي، (النشر ٢/ ٣٣٩).

لأمر الله والانقياد له كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

أما القراءة الأخرى التي انتقل الخطاب فيها من الخطاب إلى الغَيْبة، دلت على التعريض بالمشركين والإزراء بهم وتحذيرهم أن يشابه حالهم حال الصم الذين لا يسمعون من يناديهم، ثم إن المعنى في هذه القراءة يفضي بك إلى معنى آخر وهو: عدم رغبتهم في السماع أصلًا، وإعراضهم عن ذلك وتوليهم، وهذا هو معنى المعنى الذي عناه الجرجاني بقوله: «أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»[(١)].

ومن الأمثلة على تنوّع الأسلوب بين الخبر والإنشاء في الدلالة على أمر واحد ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فقد أخبر الله تعالى المصرِّينَ على أكل الربا إن لم ينتهوا بأن يقرروا ويترقبوا حربًا منه جلّ وعلا عليهم، وفي هذا تهديدٌ لهم وتخويف، ولما كان المخاطبون بترك الربا سينقسمون إلى فريقين وكان قد حذّر المصرين بالحرب، جاءت القراءة الأخرى بأسلوب الأمر لتبيّن ما الذي ينبغي على الممتثلين لأمر الله وهل يكتفون بالكف والانتهاء، فأرشدهم بما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلام متعاطيي الربا بهذا التهديد فقال: (فآذِنوا) المقتضية للإعلام والإخبار، ولا شك أن في إعلامهم بهذه الحرب علمهم بذلك وانتهاؤهم عن الربا[(٢)]، فالمعنى وإن كان واحدًا وهو حصول الحرب، إلا أن تنوّع الأسلوب أدى إلى تنوّع جهة الخطاب الذي فتح لنا بابًا من أبواب الثراء في المعاني.

---

(١) دلائل الإعجاز (ص٢٦٣)، وانظر: الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية، د. أحمد الخراط (ص٧٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢/ ٧١٥).

ثانيًا: إفادة تعدد الأحداث وتنوعها بتعدد القراءة:

وهذا من الطرق البديعة في أسلوب القرآن، كيف لا وأنت ترى كيف جمعت كلمة واحدة أحداثًا متعددة ومواقف متنوعة.

ومن ذلك ما أخبر الله تعالى عنه مما يكون في عرصات القيامة، من عرض الأعمال ومعاينتها، وتطاير الصحف، لتأخذ كل نفس صحيفتها، فقد جاء التعبير بجميع ذلك مستوفى بمفردة واحدة تعددت قراءاتها وذلك في قوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠] فكلمة: ﴿تَبْلُوا۟﴾ قرئت: (تَتْلوا)[١] وقد اجتمع في القراءتين عدة معانٍ كلّها متحققة في هذا الموقف العظيم، فقوله: ﴿تَبْلُوا۟﴾ دل على معنيين: الإخبار والاختبار، كما قال ابن كثير: «تختبر كل نفس، وتعلم ما أسلفت من عملها من خير أو شر»[٢]، وأما قوله: (تَتْلوا) فهي على معنيين كذلك: من التلاوة، أو من التَّبع؛ أي: تتبع كل نفس[٣]، فتأمل كيف اجتمعت هذه المعاني في هذا اللفظ لتدل على الأحوال والمواقف في يوم القيامة وكيف تُختَبر كل نفس فتعاين عملها وتخبَر به إن كان حسنًا أم سيئًا، كما تقرأ ما كُتب في صحيفة أعمالها مما أسلفته واقترفته، ثم تتبعه إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهذا فيه من إقامة الحجة على الخلق ما لا يستطيعون معه الجحود ولا التكذيب، فهم يعاينون ما اقترفوه من عمل، ويتلون بألسنتهم، ومن ثم يتبعونه، فهل فوق هذا الثراء من ثراء، وهل في مقدور أي أسلوب من أساليب البيان أن يبلغ عشر معشار أسلوب القرآن.

---

(١) (تتلو) قرأها حمزة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون (تبلو) (النشر ٢/ ٢٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٦)، وكذا قال أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ١٥٥)، وابن عاشور في التحرير والتنوير (١١/ ١٥٣).

(٣) انظر: جامع البيان (١٢/ ١٧٣)، البحر المحيط (٥/ ١٥٥)، الدر المنثور (٧/ ٦٦٢).

ثالثًا: تبيين القراءات بعضها لبعض، وهذا باب ثري لمَا يتضمّنه من دلالات تزيد المعنى غناء ووفاءً:

والكشف عن صنوف هذا الباب وضروبه في تعدد القراءات متنوع المشارب ومتسع الأرجاء وحسبي في ذلك الإشارة لبعض هذه الطرق والتمثيل عليها، ومنها:

١ - **بيان كيفية وقوع الأمر وتفصيله:** ففي قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فقد ورد في هذه الآية قراءتان:

الأولى: [نُنْشِرِها] من النشر وهو الإحياء؛ **أي:** إحياء العظام بعد أن صارت رفاتًا.

أما القراءة الثانية: فهي قوله: ﴿نُنشِزُهَا﴾[١] من النَّشز وهو الارتفاع من الأرض ولكنه ارتفاع على هيئة مخصوصة، فيكون **المعنى:** «وانظر إلى العظام كيف نرفعها من أماكنها من الأرض إلى جسم صاحبها للإحياء»[٢]، وهكذا كان في هذه القراءة تفصيل لهذا الإحياء الذي دلت عليه قراءة (ننشرها) وأن فيه ارتفاع وتركيب كل عظم في مكانه حتى يستوي كل عظم مكانه ثم يكسوها اللحم بعد ذلك[٣].

٢ - **أن يأمر الله تعالى بأمر ثم تأتي القراءة الأخرى تبين حصول الامتثال لهذا الأمر:** فقد أمر الله ﷻ باتخاذ مقام إبراهيم مصلى فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] على هذه القراءة، وجاءت قراءة: واتَّخذوا[٤] على صيغة الخبر باتخاذهم مقام إبراهيم مصلى، وهذه

---

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون بالزاي، وقرأ الباقون بالراء (النشر ٢/ ٢٣١).
(٢) الكشف عن وجوه القراءات (١/ ٣١٠).
(٣) **انظر:** الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية (ص٤٩).
(٤) وهي قراءة نافع وابن عامر، وقرأ الجمهور بالكسر (النشر ٢/ ٢٢٢).

القراءة تدل على أن الناس امتثلوا الأمر واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، **فيتحصّل من ذلك معنيان:**

الأول: أن الله أمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وهذا الأمر جرى على لسان إبراهيم عليه السلام فامتثل الناس في عهده.

الثاني: أن الله أمر أتباع النبي ﷺ باتخاذ مقام إبراهيم مصلى كما اتخذه من كان قبلهم، ولا شك أن أمة محمد هم أولى الناس بإبراهيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٦٨][١].

٣ ـ بيان عدة صفات لموصوف واحد أو نفيها: فكثيرًا ما تتعدد القراءات وتتنوع دلالاتها ومعانيها، وتكون من باب الأوصاف التي تعود على موصوفٍ واحد فيكون في هذا التنوع مزيد بيان لهذا الموصوف، ومما يبيّن هذا النوع ما نفاه الله عن رسوله ﷺ من الصفات بقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] فقد تواترت في هذه الآية قراءتان: الأولى بالضاد في ﴿بِضَنِينٍ﴾، والثانية بالظاء (بظنين)[٢] ففي القراءتين مزيد بيان لما كان النبي ﷺ يتحلى به من صفات الكمال التي هي من لوازم النبوة التي تتضمن تأدية رسالة الله دون الإمساك عن ذلك أو البخل في تأديتها بل كان عليه الصلاة والسلام باذلًا وقته وجهده لتعليم ما أمره الله به، وهذا الوصف هو ما دلت عليه قراءة ﴿بِضَنِينٍ﴾ كما وصفه الباري جل ثناؤه بالأمانة على الوحي وأنه ليس بمتهم في تحمله وفي أدائه، بل أداه كما نزل به جبريل عليه السلام، وهذا ما دلت عليه قراءة (بظنين)؛ أي: بمتّهم[٣].

---

(١) ينظر: البحر المحيط (١/ ٦٠٩)، التحرير والتنوير (١/ ٧١٠).
(٢) انظر: النشر (٢/ ٣٩٩).
(٣) انظر: حجة القراءات، لابن زنجلة (ص٧٥٢).

وهذان الوصفان ـ **أعني**: البخل وعدم أداء الأمانة ـ ينتج عنهما التقصير وانتقاص الحقوق، وقد نزه الله تعالى عنهما نبيه ﷺ، فكان في نفي اتصاف النبي بهاتين الصفتين مزيد بيان لما يتحلى به عليه الصلاة والسلام من صفات النبوة، وفيهما أعظم ردٍّ على من يدّعي خلاف ذلك.

وفي مقابل هذا المظهر: **ما يكون من اشتراك أكثر من موصوف في وصف واحد**: ووجه الثراء هو دلالة هذا اللفظ على وصف واحد مع تغاير الذات الموصوفة الأمر الذي يستلزم منه اختصاص كل صفة بمتعلّقها.

ففي قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] قرئ قوله: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرفع وبالخفض(١)، فإذا ما تأملنا في ذات معنى المجيد في اللغة فهي الكثرة والكرم والشرف(٢) لكنه حين أضيف وصف المجد إلى الله ﷻ على قراءة الرفع اكتسب المجد معنىً خاصًا يليق بجلال الله وعظمته، ولذا قال السعدي: «المجيد الكبير العظيم الجليل: وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه»(٣)، أما حين أضيف وصف المجد إلى العرش على قراءة الخفض فلا شك أن وصف العرش بالمجد له معنى آخر من حيث إن العرش المجيد؛ **أي**: الذي صار شريفًا ورفيعًا بعلوه على المخلوقات، وكونه هو الذي اختصَّ باستواء الرحمٰن عليه من بين المخلوقات(٤)، ووجه الثراء أنه لما تغاير ذات الموصوف تغاير معنى

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخفض والباقون برفعها (النشر ٢/ ٣٩٩).

(٢) **انظر**: المفردات في غريب القرآن (ص٧٦٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٩٤٦).

(٤) **انظر**: تفسير جزء عم، د. مساعد الطيار، (ص١١١).

الوصف، ولذا اعتبر العلماء مثل هذا النوع بمنزلة الآيتين لما اشتمل على تنوّع المعاني(١).

وثمّة أمر يزيد في ثراء المعنى في هذا النوع ألا وهو تطلُّب وجه المناسبة بين القراءتين فإن ذلك ولا شك سيضفي لنا وجهًا ثالثًا في المعنى، فلما وصف الله تعالى نفسه بالمجد وكان هذا الوصف من صفات الكمال والجلال، اقتضى ذلك أن يكون عرشه مجيدًا ولذا عظّم الله نفسه بتمجيد عرشه، ليكون في ذلك أوضح الدلالة أن بطشه بالكافرين ومغفرته وتودده للمؤمنين عن غنى وكمال ورفعة مطلقة دون حاجته جل وعلا إلى شيء من ذلك، كما ثبت في الحديث القدسي: **(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شيئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)**(٢)، وهكذا فإن دلالة المعنيين مع بعضهما يضفيان دلالة أخرى تثري المعنى وتُجلِّيه.

ففي قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] ثبتت القراءتان في: ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح والضم(٣)، فقراءة الفتح تثبت العجب إلى رسول الله ﷺ من كفر قومه وجحدهم وسخريتهم، بعد أن أتاهم بالآيات العجيبة والبراهين الصادقة التي تنزّلت عليه، أما قراءة الضم فتثبت العجب لله كما يليق بجلاله وعظمته، وهو بلا شك له معنى آخر غير سابقه وهو: بل عظم عندي وكبر اتخاذهم لي شريكًا وتكذيبهم

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٢٦)، قواعد التفسير (١/ ٨٨).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث أبي ذر ﷺ، كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).
(٣) انظر: النشر (٢/ ٣٥٦).

تنزيلي وهم يسخرون(١)، وهكذا تبيّن أنّ لكل قراءة معنى مغايرًا للقراءة الأخرى، فإذا ما تطلبنا العلاقة بين القراءتين، تبيّن لنا كيف تتعاضد القراءتان لتكشفان معنى يزيد غناءً وثراءً في اجتماع عجب الله وعجب رسوله ﷺ من صنيع هؤلاء القوم، وإن أمرًا يعجب منه الله ورسوله لأمرٌ فادح، وخطب جلل يستحق هذه العناية(٢)، كما تفيد القراءتان ما وهبه الله لرسوله ﷺ من التأييد والنصرة وإن أمرًا يعجب منه الرسول ويعجب منه الله لدليل على أنه رسول الله حقًا.

ومظاهر ثراء أسلوب القرآن في تعدد القراءات باب رحب، ومورد عذب يفيض على متطلبه من جميل المعاني وجليلها ما يروي ظمأه ويشبع نهمته، وقد تبيّن من خلال ما سبق من الأمثلة أن تعدد المعاني الناتج عن تعدد القراءات يمكن كشف أستاره وسبر أغواره **من خلال ثلاثة أمور**:

أولًا: معرفة معنى كل قراءة على حدة، وما يدل عليه هذا المعنى.

ثانيًا: ربط كل قراءة بما قبلها وما بعدها من السياق ومعرفة دلالة كل قراءة من خلال السياق.

ثالثًا: تطلُّب وجه المناسبة بين القراءتين أو القراءات الواردة في الكلمة أو في الآية.

❊ ❊ ❊

(١) **انظر**: جامع البيان (١٩/ ٥١٣).

(٢) **انظر**: الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة (ص٢٩٢).

المَبحَثُ الرَّابِعُ

تعدد المعنى بحسب الوقوف

نزل القرآن بلسان عربي مبين، ومع نزوله على فصحاء العرب، كان أخذُ القرآن بالتلقي منهجًا ربانيًا ومسلكًا نبويًا يعين على الفهم وبيان المعنى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩] فدلّت الآية على أن بيان اللفظ مقدّمٌ، وأن بيان المعاني ملازم لورود الألفاظ[١]، ولقد أقرأ النبي ﷺ أصحابه، ونقِل إلينا تعدد المواطن التي كان يقف فيها ﷺ وكيف كان يعلمهم، كما في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمَّد، فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم القرآن اليوم، ولقد رأينا اليوم رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه»[٢]، وقد كان العرب يعُدُّون حسن الوقوف من مفاخر القوم وحسن بلاغتهم، وذلك لما في تخيّر الوقوف من إظهار المعاني وإبرازها.

ومن ذلك قول الأحنف بن قيس[٣]: «ما رأيت رجلًا تكلّم فأحسن

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه ابن منده في كتاب الإيمان (١/ ٣٦٩)، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في المستدرك (١/ ٩١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه.

(٣) هو: الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي اسمه: ضحاك، وقيل: صخر، =

الوقوف عند مقاطع الكلام، ولا عرف حدوده، إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حقّ المقام، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج»[1] وهكذا يظهر بجلاء كيف تتكشّف المعاني وتبدو محاسنها عن طريق تخيّر مواطن الوقف والوصل.

وهذا يوقفنا على أن تعدد الوقف وتنوّعه من دلائل الثراء في أسلوب القرآن الكريم، وكيف تتنوّع المعاني باختلاف مواطن الوقف مع اتحاد النظم وقوة السبك؛ كسائرٍ في حديقة غنّاء أعجبه حسنها فوقف، ثم سار أخرى فهاله نسقها وجمال ترتيبها فوقف متأملًا مستحسنًا، ثم مضى فاستوقفه طيب الرائحة وعبق الأزهار وهكذا تراه يقف كل حين على ما لم يقف على حسنه ولم يدرك جماله.

وينبغي أن يكون الوقف لإفهام المعنى لا لإعجامه، وهذا هو سر اهتمام العلماء بهذا الباب وتعظيمهم لأمره، كما قال النكزاوي[2]: «باب الوقف عظيم القدر جليل الخطر؛ لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل»[3]، وقال النحاس[4]:

= أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل، وشهر بالأحنف لحنف رجليه، وكان سيد تميم، أسلم في حياة النبي ﷺ ووفد على عمر، كان ثقة، مأمونًا، قليل الحديث، توفي سنة (٦٧هـ)، وقيل: (٧١هـ).

(١) الصناعتين، للعسكري (ص٤٣٨).

(٢) هو: عبد الله بن محمد بن عبد الله القاضي، معين الدين أبو بكر النكزاوي، الإسكندراني المقرئ النحوي، ولد بالإسكندرية، سنة (٦١٤هـ)، وقرأ بها القراءات، على أبي القاسم الصفراوي وغيره، وصنف كتابًا في القراءات، وتصدر وأفاد وتخرج به جماعة، توفي سنة (٦٨٣هـ). (معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للذهبي ص٣٦٦).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٨٣).

(٤) هو: أحمد بن محمد بن إسماعيل، إمام العربية، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري النحوي، ارتحل إلى بغداد، وأخذ عن الزجاج، ومن كتبه إعراب القرآن واشتقاق الأسماء الحسنى وكتاب المعاني والناسخ والمنسوخ، وكان من أذكياء =

«فينبغي لقارئ القرآن إذا قرأ أن يتفهّم ما يقرؤه ويُشغِل قلبه، ويتفقد القطع والائتناف، ويحرص على أن يُفهِم المستمعين في الصلاة وغيرها وأن يكون وقفه عند كلام مستغن أو شبيه به، وأن يكون ابتداؤه حسنًا»(١).

وبهذا صار الوقف معْلمًا من معالم الأسلوب القرآني يكشف عن ثراء في المعنى وجمالٍ في القراءة، وذلك أن القارئ يقف على لفظ فيدله على معنى، ثم يقف على لفظ آخر فيدله على معنى آخرٍ لا تضاد بينهما ولا اختلاف، وهذا لا يتأتى إلا لأهل الحذق والفهم في كتاب الله، وقد كان أهل المعاني واللسان وأئمة القراءة بعد صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم هم أعلم الناس بالوقف.

ويمكن أن نستجلي هذا الثراء في تنوع المعنى بتعدد الوقوف من **خلال ما يلي:**

أولًا: تعدد معنى الجملة أو المفردة القرآنية بحسب الوقوف:

فإن من ألفاظ القرآن الكريم ما يتنوّع معناه باختلاف الوقف في الآية، وذلك أن اللفظ في ذاته يحتمل عدة معانٍ، وتحديد معنى دون معنى إنما يرجع إلى ما يتعلق به دلالات، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فقد تنوّع الوقف في هذه الآية، فمن السلف من وقف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ لما فهِمه من الآية من اختصاص التأويل بالله ﷻ، ومنهم من وقف على: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ لما فهمه من دلالة الآية على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله كذلك.

= العالم، توفي سنة (٣٣٨هـ). (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٢).

(١) القطع والائتناف، لابن النحاس (١/ ٢٠).

والمعنيان مع تغايرهما إلا أنهما لا تضاد بينهما، وذلك راجع إلى ما يدل عليه لفظ التأويل حسب كل وقف، فالتأويل يطلق ويراد به: حقيقة ما يؤول إليه الكلام كما يراد به التفسير والبيان، فمن وقف على لفظ الجلالة فقد رأى أن اللفظ دالٌ على حقيقة ما يؤول إليه الكلام، وهذا مما اختصَّ به الله جلا وعلا من حقيقة ما أخبر به من أمور المعاد ونحوها، ولا يصح حينئذ أن يكون الراسخون في العلم ممن يعلمون تأويله.

أما من وقف على ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] فقد فهموا تعلّق التأويل بالراسخين في العلم من حيث دلالة التأويل على معنى التفسير والبيان، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء وكنهها(١).

فتأمل كيف تغاير المعنى في لفظ التأويل حسب الوقف، وكلاهما دال على المراد موافق للنظم دون تضاد بين المعنيين، ولذا فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يفيد الوقف على الوجهين، فكان من قراءته: [وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون: آمنا به] وهذا على الوقف على لفظ الجلالة، وعن مجاهد أنه قال رضي الله عنه: «أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله»(٢).

فانظر كيف تغاير معنى اللفظ ودلالته بحسب كل وقف، وهذا من أعظم ما يلفت الانتباه لأسلوب القرآن وما يميزه من الغَنَاءِ في الأداء والسخاءِ في إفادة المعاني.

ثانيًا: تعدد أغراض الكلام ومقاصده بحسب الوقوف:

فمن الوقوف ما يكون للتنبيه على أغراض الكلام ومقاصده، وذلك

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٢).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (٥/ ٢٢٠).

كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] فالآية بيّنتْ خلق الله تعالى للأنعام وما فيها من الفوائد للإنسان، فإذا ما جئنا للمَواطن التي يجوز فيها الوقف، رأينا جواز الوقف عند قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ وهذا من قبيل عطف المفرد على المفرد، وعلى هذا يكون العطف مُرادًا به اشتراك الإنسان والأنعام في أنهما خُلِقا من نطفة، فيحصل الاعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان[1]، كما يحصل بذلك الامتنان من جهة تكريم الله للإنسان وكيف أنهما خلقا من نطفة، ولكنه كرّم الإنسان عن الحيوان بما خصه من العقل فكيف يشرك به، وهذا فيه توبيخ وتعريض بالمشركين به كذلك.

ويكون البدء بـ: ﴿خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ لبيان ما لأجله خلقت الأنعام، وأنها خلقت لمصالحكم يا جنس الإنسان لا أن تتخذوها طريقًا إلى الشرك وتتقربون بها إلى شركائكم.

كما يجوز الوقف عند قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ﴾ وهذا من عطف الجملة على الجملة، وعلى هذا الوقف يكون مقصد الكلام الامتنان على المخاطبين بفوائد الأنعام. ويكون البدء بقوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب في خلقها، وبهذا التنوع يكون الخطاب صالحًا لشمول المشركين، وهم المقصودون ابتداءً من الاستدلال، كما يشمل جميع الناس ولا سيما فيما تضمنه الكلام من الامتنان[2].

ثالثًا: تعدد المعنى من جهة تعلق الضمير عند الوقف:

وذلك في مثل قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٠٣). (٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١٠٤).

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، فمن العلماء من يقف على قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وهذا الوقف يفيد أن يعود الضمير في التعزير والتوقير إلى الرسول ﷺ، ومنهم من يصل الآية دون وقف، مما يقتضي عوْد الضمائر كلها لذات الله جل وعلا[١].

والقوْل بعوْد الضمير في التعزير والتوقير إلى الرسول ﷺ، لا يتم إلا بالوقف[٢]. وعلى هذا القول يحمل قول عكرمة في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال: «تقاتلون معه بالسيف»، وعلى القول بالوصل يحمل قول قتادة في قوله: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: «أمر الله بتسويده وتفخيمه»[٣]، وبهذا تكون الأفعال الواردة في هذه الآية حقوقًا مختصة بالله تعالى، أما بالوقف على ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تنوّعت إلى ثلاثة حقوق، وقد بيّنها السعدي فقال: «ذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما والمختص بالرسول ﷺ وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها»[٤].

رابعًا: تعدد المعنى بين الاتصال والانفصال حسب كل وقف:

فقد وردت آيات كثيرة يتردد اللفظ فيها بين كونه من قبيل الموصول لفظًا ومعنى أو أنه من قبيل الموصول لفظًا المفصول معنى، وهذا لا شك من ثراء الأسلوب القرآني. وكان هذا النوع ميدانًا رحبًا للمفسرين في اختياراتهم أو في جمعهم بين الأقوال أو الترجيح بينها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩]، فقد جاءت هذه الآية في سياقِ ما يجده الظالم من الندم على اتخاذه خليلًا أضلّه عن ذكر الله، وقد تنوّع الوقف على قوله:

---

(١) انظر: القطع والائتناف (٢/ ٢٥٤).

(٢) انظر: منار الهدى، للأشموني (ص١٠).

(٣) انظر: جامع البيان (٢١/ ٢٥١).

(٤) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٧٩٢).

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٩] بين الكفاية والتمام نظرًا لتعلق معنى ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩] بما قبله، أم هو تام لا يتعلّق بما قبله؟

حيث إن اللفظ محتمل لمعنييْن:

الأول: أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ من كلام الظالم، وقد ورد في بعض الروايات أنه عقبة ابن أبي معيط حين دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فأسلم، ثم لم يزل به أمية بن خلف حتى ارتد وآذى رسول الله ﷺ(١)، وعلى هذا المعنى فيكون المراد بالشيطان هو من سعى في ضلاله وخذلانه، وهو أبي بن خلف على هذه الرواية، أو إبليس.

الثاني: أن يكون هذا القول استئنافًا، من كلام الله جلّ شأنه تقريرًا وتأكيدًا لندامة الظالم يوم القيامة، ويكون المراد بالشيطان: إبليس الذي زيّن له رفقة السوء.

وقد حكى الزمخشري القولين فقال: «والشيطان: إشارة إلى خليله، سماه شيطانًا؛ لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة، أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مخالّة المضل ومخالفة الرسول، ثم خذله، أو أراد الجنس، وكل من تشيطن من الجنّ والإنس، ويحتمل أن يكون: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حكاية كلام الظالم، وأن يكون كلام الله»(٢).

وهكذا فإن كثيرًا من وقوف القرآن إنما يوقف عليها، أو يرجح وقف على وقف لما يظهر من المعاني، ومن ذلك ما أخرجه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في الوقف على قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً

---

(١) انظر: جامع البيان (١٧/ ٤٤٠).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٧٧).

﴿أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] حيث قال: يقول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1].

وكذلك ما ورد عنه عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] حيث قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ قال: هذه مفصولة، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[2].

وبهذا يَظهَر الثراء في أسلوب القرآن الكريم، وإنّ كثرة المؤلفات في الوقف والابتداء من المتقدمين، دليل على هذا الثراء الناتج عن دقة فهمهم لكلام الله ومعرفتهم مواطن الفصل والوصل ومتعلقات الكلام.

بقيت الإشارة إلى أنه ليس كل تنوّع في الوقف يلزم منه تعدد المعنى، بل قد يكون الوقف مما يعين في إظهار المعنى والكشف عنه؛ كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، فالوقف هنا وإن كان لا يؤدي إلى تعدد المعنى، إلا أنه يؤثر في إظهار معنى الختم ومعنى الغشاوة إذ إن الختم يكون على القلوب والأسماع، والغشاوة تكون على الأبصار.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤] فالوقف على ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ لا يؤثر في تعدد المعنى، وإنما هو لتأكيد نفي وصف الجنون عنه ﷺ[3]، وكأن في الوقف على هذه الكلمة دعوة للتأمل وإعمال الفكر قبل إطلاق هذا الحكم الجائر الكاذب.

كما أن من المواضع ما يتعدد فيها الوقف وينتج عنه تعدد المعنى، ولكنّ تعدد المعنى من اختلاف التضاد فهنا يرجّح أحد الوقفيْن على

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٥٢).
(٢) المصدر نفسه (٢٢/ ٤١٣).
(٣) منار الهدى (ص١٥٤).

الآخر كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، فإن الوقف على قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يقتضي تأبيد تحريم دخول بيت المقدس على من كان في التيه الأمر الذي يلزم منه موتهم في التيه خلال الأربعين سنة.

أما الوقف على قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يدل على أن التيه كان أربعين عامًا، مات منهم من مات، ومن عاش منهم دخل بيت المقدس حين أذن الله لهم بذلك[1]، وهكذا فإن هذين الوقفين من الوقف المتغاير الذي يلزم القول بأحدهما رد الثاني، وفي مثل هذا النوع يرجّح بينهما بما احتف به من دلائل الترجيح.

* * *

(١) انظر: جامع البيان (١٠/ ١٩٤ ـ ١٩٧).

المبحث الخامس

التكرار

التكرار في القرآن الكريم من مظاهر ثراء المعاني في أسلوب القرآن الكريم وتفننه في الخطاب، وقد كان العرب يعدّونه من محاسن الكلام، والفصاحة في البيان، فكيف إذا ورد في كتاب الله وفي ذلك يقول صاحب «الطراز»: «والتكرير في كتاب الله تعالى ظنّ بعض من ضاقت حوْصلته، وضعُفَت بصيرته عن إدراك الحقائق والتطلّع إلى مآخذ الدقائق، أنه خال عن الفائدة، وأنه لا معنى تحته إلا مجرد التكرير لا غير وهذا خطأ وزلل، فإن كتاب الله تعالى لم يبلغ حد الإعجاز في البلاغة والفصاحة سواه من بين سائر الكلمات، ولو كان فيه ما هو خال عن الفائدة بالتكرير لم يكن بالغًا هذه الدرجة، ولا كان مختصًا بهذه المزية، وأيضًا فإن سائر الكلمات التي هي دونه في الرتبة قد يوجد فيه التكرير مع اشتمالها على الفائدة فكيف هو؟!»[1].

وقد اجتهد العلماء في بيان محاسن التكرار وفوائده، وعلو مرتبته وشأنه، ومن ذلك قول الرازي: «إنّ كل من قال شعرًا فصيحًا في وصف شيء، فإنه إذا كرّره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول، وفي القرآن التكرار الكثير، ومع ذلك كل واحد منها في

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٩٤)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٩).

نهاية الفصاحة ولم يظهر فيه التفاوت أصلًا»[١] ويشير الآلوسي[٢] إلى ما في التكرار من اتساع المعنى مع ما فيه من البلاغة فيقول: «وأما التكرار اللفظي والمعنوي فلا يخلو عن فائدة لا تحصل من غير تكرار، كبيان اتساع العبارة وإظهار البلاغة وزيادة التأكيد والمبالغة إلى غير ذلك مما قد أمعن المفسرون في تحقيقه وبيانه»[٣].

والتكرار في أسلوب القرآن تتعدد صوره وأشكاله، وكل صورة من هذه الصور جاء في موضع يجعل المعنى أكمل وأبهى، ولا تكاد تقف على موطن من مواطنه إلا وترى المعنى الذي سيق من أجله أوضح وأكمل، **وسيتبيّن ذلك من خلال الأمثلة التالية:**

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

يُلْحظ في هذه الآية تكرار لفظِ ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ أكثر من مرة، فقد رُتِّب رفع الجناح فيما طعمه أهل الإيمان على اتصافهم بالتقوى، وقد تكلّم المفسرون في وجه هذا التكرار وما يتضمنه من المعاني، ومن ذلك ما قاله الثعالبي[٤]: «والتَّكرار في قوله: ﴿ٱتَّقَوا۟﴾ يقتضي في كلٍّ واحدة زيادةً على التي قبلها، وفي ذلك مبالغةٌ في هذه الصِّفَات لهم، وليسَتِ الآيةُ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٤٧).

(٢) هو: محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدًا، توفي سنة (١٢٧٠هـ). (الأعلام ٧/ ١٧٦).

(٣) روح المعاني (١/ ٣١).

(٤) هو: عبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد: مفسرٌ من أعيان الجزائر، زار تونس والمشرق، من كتبه: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، و«الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز»، و«الإرشاد في مصالح العباد» وغيرها، توفي سنة (٨٧٥هـ). (الأعلام للزركلي ٣/ ٣٣١).

وقفًا على مَنْ عمل الصالحاتِ كلِّها، واتقى كلَّ التقوى بل هي لكلِّ مؤمن، وإن كان عاصيًا أحيانًا إذا كان قد عَمِلَ من هذه الخصالِ المَمْدُوحة ما استحق به أنْ يوصف بأنه مؤمنٌ عامل للصالحات متَّقٍ في غالبِ أمره محسنٌ، فليس على هذا الصِّنْف جُنَاحٌ فيما طعم ممَّا لم يُحَرَّم عليه»[(١)]، ويقول ابن عاشور مبيِّنًا وجه التكرار وجمال الترتيب: «وجملة: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ تأكيد لفظي لجملة ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقرن بحرف [ثم] الدال على التراخي الرتبي ليكون إيماءًا إلى الازدياد في التقوى وآثار الإيمان، ولذلك لم يكرر قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأن عمل الصالحات مشمول للتقوى، وأما جملة: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ فتفيد تأكيدًا لفظِيًّا لجملة ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ وتفيد الارتقاء في التقوى بدلالة حرف [ثم] على التراخي الرتبي مع زيادة صفة الإحسان، وهذا يتضمن الإيمان لا محالة فلذلك استغني عن إعادة ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ هنا، ويشمل فعل ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ الإحسان إلى المسلمين، وهو زائد على التقوى؛ لأن منه إحسانًا غير واجب وهو مما يجلب مرضاة الله، ولذلك ذيّله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٣﴾»[(٢)].

فتأمل التكرار في لفظ ﴿ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ نتج عنه إبراز أوجهٍ من المعاني وتقريرها إضافة إلى ما فيه من التأكيد وهي:

- أن التقوى ليست درجة واحدة بل هي منزلة يرتقي فيها العبد فتترقى به في درجات الإيمان، بل ترَقّيه ليصل بعد ذلك إلى منزلة الإحسان فهي حينئذ مصاحبة له في كل منزلة من هذه المنازل ولذلك تكررت ولم يكتف بواحدة عن الأخرى.

- أن التكرار جاء ليجعل الآية شاملة وعامة لكل مؤمنٍ عمل خصلة

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (٢/ ٤٢٠).
(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٦).

من الخصال المذكورة في الآية، وإن لم يحصل له الإيمان الكامل أو يتق كل التقوى.

وقد أشار ابن جرير إلى شمول هذه الآية وعمومها موجهًا إلى أن ذلك من مقاصد التكرار في هذه الآية فقال: «**فالاتقاء الأول**: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، **والاتقاء الثاني**: الاتقاء بالثبات على التصديق وترك التبديل والتغيير، **والاتقاء الثالث**: هو الاتقاء بالإحسان والتقرب بنوافل الأعمال، فإن قال قائل: ما الدليل على أن الاتقاء الثالث هو الاتقاء بالنوافل دون أن يكون ذلك بالفرائض؟ قيل: إنه تعالى ذِكْرُه قد أخبر عن وضعه الجناح عن شاربي الخمر التي شربوها قبل تحريمه إياها إذا هم اتقوا الله في شربها بعد تحريمها وصدقوا الله ورسوله في تحريمها وعملوا الصالحات من الفرائض، **ولا وجه لتكرير ذلك وقد مضى ذكره في آية واحدة**»[1].

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨] فهاتان آيتان متجاورتان، جاء في الأولى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وفي الثانية: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ويظهر ثراء المعنى من خلال ما يلي:

- أن قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ متعلق بما قبله وهو إرادة المسلمين غير ذات الشوكة، فبيّن الله ما بين الإرادتين من التفاوت، أما قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ فهي لبيان الداعي لاختيار النبي ﷺ لذات الشوكة وقتال الكفار.

- كما أن قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وارد على جهة الإنشاء في إرادة الله هذا الأمر، وقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وارد على جهة

---

(١) جامع البيان (٨/ ٦٦٥).

الخبر المقتضي تحققه باختيار النبي ﷺ لذات الشوكة، وفي هذا معنى زائد بتحقق هذه الإرادة[١].

ـ أن تذييل الآية الأولى بقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ بيّن أن الغرض من إرادة إحقاق الحق هنا هو نصرة الرسول ﷺ على من عاداه ووقف في دعوته بقطع دابرهم وهذه عاقبة عاجلة.

أما الآية الثانية فقد ذُيّلت بقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ والغرض من ذلك تمييز ما يدعو إليه الرسول ﷺ من التوحيد وأن العاقبة لهذا الدين في الآجل ولذا فقد كان من دعاء النبي ﷺ في غزوة بدر: (**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ ـ يَعْنِي**: الـمُؤْمِنِينَ ـ **لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**)[٢] فكان في غزوة بدر واختيار ذات الشوكة غرضين: إحقاق الحق العاجل بنصرة النبي ﷺ على من حاربه وعاداه، وإحقاق الحق الآجل بالنصرة والتمكين لهذا الدين وكانت غزوة بدر أولى هذه المبشرات.

وبهذا يتبيّن أن كل ما كان تكريره مرتين أو أكثر فذلك دليل على فائدة ظاهرة لا تكون إلا بذلك[٣].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، وقد فسّرها النبي ﷺ أن اليسر الأول مغاير لليسر الثاني حين قال: (**لَا يَغْلِبُ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**)[٤]، فتبيّن أن اليسرين متغايران في

---

(١) **انظر**: أضواء البيان (١/ ١٩) حيث ذكر من أنواع بيان القرآن بالقرآن: أن يذكر أمر دون ذكر تحقق وقوعه، ثم يذكر تحققه.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٧).

(٣) **انظر في ذلك**: الكشاف (٢/ ٢٠٠)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٣/ ٥١)، السراج المنير، للشربيني (١/ ٥٥٨)، الطراز لأسرار البلاغة (٢/ ٩٥).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير (٢/ ٥٢٨).

كل موضع[(١)].

المثال الثالث: ما يرد من تكرارٍ لبعض الآيات في مواطن متعددة من السورة؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٣] ويعلق صاحب الطراز على هذه المواطن مبينًا ما في هذا التكرار من بلاغةٍ وبيانٍ فيقول في هذه الآية: «فهذا تكريرٌ من جهة اللفظ والمعنى، ووجه ذلك أن الله تعالى إنما أوردها في خطاب الثقلين الجن والإنس، فكل نعمة يذكرها أو ما يؤول إلى النعمة فإنه يردفها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ تقريرًا للآلاء وإعظامًا لحالها، ومن ذلك في سورة القمر قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٦، ١٧] وإنما كرره لما يحصل فيه من إيقاظ النفوس بذكر قصص الأولين، والاتّعاظ بما أصابهم من المثلات وحلّ بهم من أنواع العقوبات، فيكون بمنزلة قرع العصا؛ لئلا تستولي عليهم الغفلة، ويغلب عليهم الذهول والنسيان، وهكذا القول فيما ورد من الآيات المكررة، فإنها لم تتكرر إلا لمقصد عظيم في الرمز إلى ذلك المعنى الذي سيقت من أجله، فليحرّك الناظر قلبه في إدراك تلك اللطائف، ولْيجعلها منه على بال وخاطر، ولا يتساهل في إحرازها فيلمحها بمؤخر عينه، فإنها مشتملة على أسرار ورموز، ومن أحاط بها فقد أوتي من البلاغة مفاتيح الكنوز»[(٢)].

هذه بعض الأمثلة التي جاء فيها التكرار في أسلوب القرآن الكريم، والحقيقة أن كل مثال وكل آية يوقَف فيها على التكرار فإنك تجد فيها من المعاني ما لا تجده في أختها.

«ومثل هذه الأمثلة تدعو المتدبر في كلام الله أن يبحث في كل نص يبدو له أنه من النصوص المكررة في القرآن ليكتشف غرض التكرير إذا

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٥٢).

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٩٥).

كان النص مكررًا حرفيًا وليكتشف فوارق المعاني إذا كان النص المكرر مختلفًا ولو بعض الشيء، ولو بكلمة أو حرف في كلمة، فكثير من النصوص التي يتوهم فيها التكرار هي ليست في الحقيقة مكررة، ولكنها متكاملة يؤدي بعضها من المعاني المرادة ما لا يؤديه البعض الآخر»[(١)].

وتأكيدًا لهذا المعنى يقول ابن تيمية: «إذا تبين هذا فنقول: القرآن تنزيل من حكيم حميد وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، **ولو أن رجلًا من بني آدم له علم أو حكمة أو خطبة أو قصيدة أو مصنف فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى، فكيف بكلام رب العالمين وأحكم الحاكمين؟!**، لا سيما وقد قال فيه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] »[(٢)].

بقي الإشارة إلى أن هذا الثراء الحاصل من التكرار هو إحد ثماره وفوائده، وحسبي في هذا المقام الإشارة إلى بعض الفوائد الأخرى من خلال ما ذكره الباقلاني حين قال: «ووجه آخرُ في حُسنِ التكرارِ من اللهِ ﷻ، وهو أنّ في تكرار ذلكَ مرة بعد مرةٍ من التثبيتِ لرسوله ﷺ والمؤمنين، والموعظةِ والتخويفِ لهم والرغبةِ في طاعةِ اللهِ والانزجارِ عن معصيتهِ عند تكرارِ الكلام وإعادةِ القَصصِ وضَربِ الأمثالِ ما ليسَ في المرةِ الواحدةِ، ولا شبهةَ على أحدٍ في تعاظُمِ النفعِ بتكريرِ الزجرِ والوعظِ وعظيمِ موقعهِ من النفسِ وتوفيقِه للقلبِ والتثبيتِ على طاعةِ الله، والإذْكارِ لجنتهِ ونارِه»[(٣)].

---

(١) قواعد التدبر الأمثل، عبد الرحمٰن حبنكة الميداني (ص٦٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٥١).
(٣) الانتصار للقرآن للباقلاني (٢/ ٨٠١)، وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل السادس بإذن الله.

المَبۡحَثُ ٱلسَّادِسُ

الترادف

الترادف من ألوان ثراء أسلوب القرآن، ومع ذلك فإن لفظ الترادف من الألفاظ المحتمِلة التي شغلت كثيرًا من الباحثين في أسلوب القرآن في القديم والحديث، بين من ينكر وجوده في القرآن وبين من يثبته.

والترادف المقصود الحديث عنه في هذا المبحث: هو تعدد الألفاظ القرآنية في الدلالة على معنىً واحد باعتبار أصله مع إثبات خصوصية كل لفظ على ما يحفُّه من المعاني التكميلية والدلالات الخاصة[١].

والاختلاف الذي جرى في إثبات الترادف من عدمه كان سببًا بارزًا في بيان وجه الثراء المتعلق بهذا المبحث، فالمثبتون درسوه من جانب أثره في التفسير وتقريب المعاني لما بين اللفظين من اتحاد، كما درَسوه من ناحية ما يكون في تنوع اللفظ من مقاصد وأغراض لا تدل عليها اللفظة المفردة بحال، والمنكرون للترادف إنما أنكروه من جهة استحالة أن تنوب مفردة عن أختها، ولما بين كل مفردة من المعاني والدلالات الخاصة التي تميّز المفردات عن بعضها، فكلا الفريقين ينزع من منزع واحد وهو إثبات إعجاز القرآن وتميّز أسلوبه.

ولو اتّحد منهج الفريقين ومحل نظرهم ودراسة هذه الظاهرة في

---

(١) انظر: المزهر (١/٤٠٣).

أسلوب القرآن لتقاربت آراؤهم في هذه المسألة، ولَخرجوا بنتائج متقاربة(١).

فابن الأثير مثلًا وهو ممن يرى بوقوع الترادف في القرآن يقول عند قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] «فإن البث والحزن بمعنى واحد، وإنما كرره ههنا لشدة الخطب النازل به، وتكاثر سهامه النافذة في قلبه»(٢) فأثبت أن لاجتماع اللفظين معنى لا يحصل بتفرد لفظ عن الآخر.

وبهذا يتبيّن أن الثراء المقصود في هذا المبحث اختصاص كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم بدلالاته الخاصة التي لا يشركه فيه غيره وإن تقاربت المعاني، وهذا هو جوهر الإعجاز، ولذا رتّب الخطابي على إبدال كلمة بأخرى في القرآن فساد النظم وسقوط البلاغة، فقال: «ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة ـ يعني: بلاغة القرآن ـ التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام الموضع الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكان غيره جاء منه: إما تبديل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة»(٣).

وعدّ ابن تيمية هذه الظاهرة من أسباب إعجاز القرآن فقال: «ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافًا، أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم وقلّ أن يعبّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب

---

(١) وقد أشار إلى ذلك د. محمد الشايع في كتابه: الفروق اللغوية وأثرها في التفسير (ص٣٠٢).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٣/ ٣٠).

(٣) القول في بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل (ص٢٩).

إعجاز القرآن»[١].

وتلمّس السيوطي وجه الإعجاز فقال: «ولا بد من استحضار معاني الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال، وذلك عتيد[٢] حاصل في علم الله تعالى فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه وإن كان مشتملًا على الفصيح والأفصح والمليح والأملح»[٣] فجعل وجه الإعجاز من جهتين: **الأولى**: ثراء المعاني وغزارتها، **الثانية**: وهي مبنية على الأولى، أن غزارة هذه المعاني ومراعاة ما فيها من الفروق الدقيقة متعذرٌ على البشر.

فإذا استحضر القارئ لكتاب الله هذا المعنى يجد الأسلوب القرآني زاخرًا بهذا الثراء في معاني القرآن، مع البلاغة في النظم والتفنن في الكلام، وهذا الذي عناه الزركشي بقوله: «مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافات المقامات وذكر في كل موضع ما يلائمه ووضع الألفاظ في كل موضع ما يليق به وإن كانت مترادفة حتى لو أبدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطلاوة وفاتت تلك الحلاوة»[٤].

وفيما يلي من الأمثلة بيان لبعض مظاهر الثراء في هذه الألفاظ:

أولًا: أن يحصل باجتماع المترادفيْن في الآية معنىً لا يحصل بانفراد أحدهما:

فحين يقرن القرآن الكريم بين لفظيْن مترادفيْن ينتج عن اجتماعهما

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤١).
(٢) عتيد هنا بمعنى: حاضر. (مقاييس اللغة ٤/ ٢١٦).
(٣) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٢٥)، وقد نقل هذا الكلام عن البارزي من كتاب أنوار التحصيل في أسرار التنزيل.
(٤) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١١٨).

ثلاثة أمورٍ وإن عبّر عنها بعض المفسرين بأن معناهما واحد؛ **الأول**: التوكيد، **الثاني**: المعاني الدقيقة الزائدة التي يدل عليها أحد اللفظين عن الآخر، **الثالث**: المعنى الحاصل بمجموع اللفظين مجتمعَيْن في سياق واحد(١).

ومن الأمثلة على ذلك اجتماع لفظي ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ و﴿سُودٌ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] ففي هذا المثال يبيّن الله الاختلاف والتنوّع في سائر الخلق فذكر اختلاف الثمرات، ثم ثنى بذكر اختلاف ألوان الجبال، ومنها: (غرابيب سود) فالوصفان دالّان على السواد لكن الغِربيب هو الأسود شديد السواد(٢)، ففيه معنى أدقّ عن الوصف بالسواد فحسب وقد حصل باجتماعهما في وصف الجبال معنى آخر وهو ما أشار إليه الفخر الرازي عند قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ فقال: «الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون؛ **أي**: بيض مختلف ألوانها، وحمر مختلف ألوانها؛ لأن الأبيض قد يكون على لون الجص، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص، وكذلك الأحمر، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى، وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب؛ **لأن الأسْود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغًا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف**»(٣)، فهذا المعنى حاصل باجتماع اللفظين ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٧٧)، وانظر: قواعد التفسير (١/ ٤٧٠).

(٢) انظر: غريب القرآن، لابن قتيبة (ص٣٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٣٦)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٩/ ٢٩)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/ ٢٥٨).

ثانيًا: تعدد الألفاظ المترادفة، في الإخبار عن الشيء الواحد:

فكثيرًا ما يعبرّ عن الأمر الواحد في القرآن بألفاظٍ مترادفة في مواضع مختلفة، ومن شأن هذه الألفاظ أن تزيد الأمر المخبَر عنه جلاءً ووضوحًا، بل إن تنوع الألفاظ يوقفك على تصوير دقيق لتنوُّع المخبَر عنه إما في كيفيات وقوعه أو أوقاته وأحواله.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] ذكر هنا [انفجار الحجر] وفي سورة الأعراف ذكر [انبجاس الحجر]، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فالانفجار والانبجاس بمعنى واحد باعتبار الأصل، ويعبّر بأحدهما عن الآخر قال الراغب[١]: «يقال: بَجَسَ الماء وانْبَجَسَ: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع»[٢]، ففي التعبير باللفظيْن عن الشيء الواحد حينئذٍ رصدٌ لكيفية خروج الماء من الحجَر لبني إسرائيل، وكيف خرج أوّل الأمر من مخرج ضيّق ثم ما زال شيئًا فشيئًا حتى تفجر الماء وكثر واتسع مخرجه، وبين الانبجاس والانفجار وإيثار كل لفظ في موضعه من المعاني ما يبيّن علو أسلوب القرآن الكريم وتميّزه، فالانبجاس جاء مع طلب قوم موسى السقيا منه، أما انفجار الماء فجاء حين طلب موسى من ربه جل وعلا، ومع ما في ذلك من كرامة نبي الله موسى ففيه بيان الفرق

---

(١) هو: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب أديب من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد واشتهر، من كتبه: «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، و«جامع التفاسير»، و«المفردات في غريب القرآن»، توفي سنة (٥٠٢هـ). (الأعلام للزركلي ٢/ ٢٥٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص١٠٨).

بين سؤال الخالق وسؤال المخلوق(١).

ومما ذكره المفسرون من هذه الفروق يمكن القول بأن قوم موسى حين استسقَوْه أوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجَر فكان مخرج الماء ضيّقًا فكان خروج الماء يسيرًا ثم دعا موسى ربه وطلبه السقيا فانفجر الماء من الحجر واتسع مخرجه، والله أعلم.

ثالثًا: ثراء المعاني الدلالية التي يختص بها كل لفظ:

فقد تبيّن أن اللفظين أو الألفاظ وإن تقاربت معانيها فإن لكل لفظة من الدلالات والمعاني المختصة بها ما يميّزها عن غيرها، وفي التعبير القرآني بهذه الألفاظ مجال رحب لاستنباط هذه الدلالات المؤثرة في المعنى والتي بغيرها يفسد النظم، وبهذه الدلالات كشف الخطابي في رسالته عن الفروق بين المترادفات، وردَّ المزاعم التي ادُّعِي فيها وجود ألفاظ أفصح مما ذكر في القرآن فقال: «إن في الكلام ألفاظًا متقاربة المعنى، يحسب أكثر الناس أنـها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة، وقولك: اقعد واجلس، وبلى، ونعم، ومن، وعن، ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف والصفات والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك؛ **لأن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا يشتركان في بعضها**»(٢).

وهذه الدلالات التي تميّز كل لفظة عن أختها من شأنها أن تجلّيَ كل المعاني والإشارات التي تحيط بالآية، بل تستطيع استنطاق دقائق المعاني وتجسيد التصويرات الدقيقة في الأسلوب القرآني.

---

(١) **انظر في ذلك**: البرهان في توجيه متشابه القرآن، للكرماني (ص٧٤)، الإتقان (٣/ ٣٩٣)، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياس الدوري (ص٢٣٧).

(٢) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٩).

ففي قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦] ورد في هذه الآية لفظتي (انطلق) و﴿امْشُوا﴾ ونقل الخطابي عن بعض المشككين أن لو قيل: [أن امضوا] أو [انطلقوا] مكان (أن امشوا) لكان أبلغ ثم ردّ عليهم بقوله: «المشي في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى، وذلك لأنه إنما قصد الاستمرار على العادة الجارية، ولزوم السجية المعهودة في غير انزعاج منهم، ولا انتقال عن الأمر الأول، وذلك أشبه بالثبات والصبر على الأمر المأمور به في قوله: ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، والمعنى: كأنهم قالوا: امشوا على هيأتكم ولا تبالوا بقوله، ولو قيل: امضوا وانطلقوا لكان فيه زيادة انزعاج ليس في قوله: (امشوا) والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه»(١).

فهذه الخصائص التي ميّزت (امشوا) عن [انطلقوا] كانت من شأنها بعد بيان المعنى العام، تصوير الحالة الواقعية في مواجهتهم لبعثة النبي محمّد ﷺ التي تتضمّن الاستمرار والثبات وليست هي هبّة سريعة أو نتيجة ردود أفعال إنما هي لزوم طريقة مستمرة في مواجهة الدعوة، وهذا يستلزم الصبر، فناسب حينئذ العطف بالأمر بالصبر على الأمر بالمشي، وهذا لا يتناسب مع اللفظيْن الآخريْن، فكل هذه الدلالات لا تؤديها لفظة [انطلقوا أو امضوا].

فإذا تبيّن هذا كان لفظ [وانطلق] وما يحمله من دلالات مناسب حيث ورد في بداية الآية: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾؛ لأنه يدل على الانزعاج والتعجب الحاصل منهم في دعوته إلى التوحيد فانطلقوا بالكلام والتحريض على الاستمرار في لزوم عادتهم الأولى وهي عبادة الأصنام، وهذا الفرق يظهر من قول الزركشي: «الانطلاق متضمن لمعنى القول، وقال الخليل: يريدون أنهم انطلقوا في الكلام بهذا وهو امشوا»(٢)، وقال

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٤٣). (٢) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٢٢٦).

السيوطي: «إذ ليس المراد بالانطلاق المشي بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام كما أنه ليس المراد المشي المتعارف بل الاستمرار على المشي»[١].

ومثل هذه الدلالات اللفظية في أسلوب القرآن الكريم تدل على الثراء في أسلوب القرآن، بحيث لو بُدِّل لفظ مكان آخر لما أدى هذا المعنى وهذا الأثر هو ما أشار إليه الزركشي بقوله: «ولهذا وزعت بحسب المقامات فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد»[٢].

رابعًا: الثراء الحاصل فيما بين اللفظين من عموم وخصوص[٣]:

حين يكون بين اللفظين المترادفين اختلاف من جهة العموم والخصوص فيكون هذا اللفظ أعم من جهة وهذا أخص من جهة، وقد يكون معنى أحد اللفظيْن جزءًا من عموم معنى اللفظ الأول فالتعبير بهذه الألفاظ يجعل المعاني أكثر ثراء وأوْضح بيانًا.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] استعمل بعض المفسرين لفظ الرحمة في بيان معنى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال الواحدي: «لا تأخذكم الرأفة بهما فتعطلوا الحدود، ولا تقيموها رحمة عليهما وشفقة بهما»[٤] وقال

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٠٣).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٨).
(٣) انظر: الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد (ص٢٢٥).
(٤) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٣٠٣).

البغوي: «رحمة ورقة»(١) ولا شك أن هذا التفسير من باب تقريب المعنى، وإلا فإنَّ الرأفة غير الرحمة من جميع الوجوه، ولذا نهى الله من يقيم الحد أن تأخذه الرأفة فتمنعه من إقامة الحد دون أن تنتفيَ عنه الرحمة، وما إقامة الحد إلا رحمة بالمحدود، ولذا لم يجز نفي الرحمة في إقامة الحد الذي هو شعيرة من شعائر الدين فالدين كله رحمة، وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة، ثم قرأ هذه الآية»(٢)، قال القرطبي: الرأفة أرق الرحمة(٣) وقال السعدي: «ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما في دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهم سواء رأفة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقةً إقامةُ حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب»(٤) وقد نقل ابن عاشور: «الرأفة أخص من الرحمة ولا تكاد تقع في الكراهية، والرحمة تقع في الكراهية للمصلحة فاستخلص من ذلك أن الفرق بين الرأفة والرحمة: أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه وإزالة الضر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وأما الرحمة فاسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام»(٥) فتأمل كيف كان للعموم والخصوص بين اللفظين واستعمال اللفظ المناسب في موضعه أثر في بيان المعنى دون لبس، وكم في هذا المعنى من بيان عظمة الإسلام،

---

(١) معالم التنزيل (٦/ ٨).

(٢) أخرجه النسائي مرفوعًا، كتاب قطع السارق، باب الترغيب في إقامة الحد برقم (٤٩٠٤) ثم أعقبه بالموقوف برقم (٤٩٠٥) وقال: هذا هو الصواب. قال الألباني في تعليقه على السنن: «حسن موقوف له حكم الرفع»، وأخرجه ابن حبان مرفوعًا في صحيحه (١٠/ ٢٣٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٦٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٥٦١).

(٥) التحرير والتنوير (٢/ ٢٥).

وكم في هذا اللفظ من إسكات وردّ لمن يتهم الشريعة بالقسوة والغلظة.

وقل مثل ذلك فيما بيْن الضوء والنور من العموم والخصوص وأثر ذلك في ثراء المعنى عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل ذهب اللّه بضوئهم؟ لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾؟ قلتُ: ذكر النور أبلغ لأنّ الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: «ذهب الله بضوئهم» لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورًا، والغرض إزالة النور عنهم رأسًا وطمسه أصلًا، ألا ترى كيف ذكر عقِيبه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها وكيف نكرها وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾»[1]، ويتفنّن ابن القيّم في استجلاء المعاني من خلال التعبير بلفظ [نورهم] دون غيرها فيقول: «وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم، مع قوله: فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قال: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط، دون الأصل فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته، وأيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضًا فإن الله تعالى سمّى كتابه نورًا ورسوله نورًا، ودينه نورًا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم: ذهاب بهذا كله»[2].

هذه بعض مظاهر الثراء التي نلمحها في كل مثال من هذه الأمثلة الزاخرة بالمعاني والدلالات.

ثمّة أمر آخر من مظاهر الثراء في ظاهرة الترادف وهي أن الأسلوب القرآني في تمييزه بين الألفاظ المترادفة التي كان العرب يساوون بينها في

(١) الكشاف (١/ ٧٤).
(٢) التفسير القيم، لابن القيم (ص١١٨).

التعبير عن المعنى الواحد أثرى اللغة العربية بأسلوبه في استخدام كل لفظ في مقامه الخاص، فأصبح بذلك مقياسًا للبلاغة والفصاحة بطريقة لم يكن العرب يعهدونها أو يحيطون بها، وهذا وجهٌ من أوجه عزة هذا الكتاب في استيعابه وكونه يغلِب ولا يُغلب[١].

* * *

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠٩).

المَبْحَثُ السَّابِعُ

الإيجاز والإطناب

الإيجاز والإطناب من الأساليب القرآنية التي يظهر بهما ثراء المعاني، وذلك أن قلة الألفاظ وكثرتها لا توصف بالبلاغة إلا بقدر ما تدل عليه من الأغراض والمعاني ولولا المعنى لصار الإيجاز تقصيرًا والإطناب تطويلًا، كما أن لكل من الإيجاز والإطناب في أسلوب القرآن موضعه اللائق به، كما قال الرماني: «إنَّ لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعًا يكون به أولى من الآخر؛ لأن الحاجة إليه أشد والاهتمام به أعظم فأما التطويل فعيب وعيّ؛ لأن صاحبه تكلف فيه الكثير فيما يكفي منه القليل، فكان كالسالك طريقًا بعيدًا جهلًا منه بالطريق القريب، وأمَّا الإطناب فليس كذلك لأنه كمن سلك طريقًا بعيدًا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحصل في الطريق على غرضه من الفائدة، على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب»[(١)].

وإذا نظرنا إلى كثرة معاني القرآن وثرائها في الإطناب والإيجاز؛ خلصنا إلى أن أسلوب القرآن ينزع إلى سلوك طريق الإيجاز فيهما على السواء، وهذا معنى دقيق ينبغي العناية به في فهم أسلوب القرآن وقد لفت إليه د. دراز فقال: «إن القرآن الكريم يستثمر دائمًا برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز

(١) النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (ص٧٨).

ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، **ولذلك نسميه إيجازًا كله؛** لأننا نراه في كلا المقامين لا يجوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلًا ما، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى»(١).

فالألفاظ غير مقصودة في ذاتها وإنما المقصود المعاني التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام، فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعاني التي هي مقصودة، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء في السهولة، إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر، فلا بد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما سلوكًا إلى المقصد(٢).

إذا نظرنا إلى الإيجاز والإطناب بالملامح السابقة وهي: توليد المعاني الكثيرة من الألفاظ القليلة، ومراعاة مواضع الإيجاز والإطناب في السياق، وسلوكهما طريق الإيجاز على السواء لتفتقت لنا من المعاني ما يستحق وصفه بالثراء، ويمكن أن نتدارس هذا المبحث **من خلال المطالب التالية:**

المطلب الأول: الإيجاز.

المطلب الثاني: الإطناب.

المطلب الثالث: الجمع بين الإيجاز والإطناب في سياق واحد.

---

(١) النبأ العظيم (ص١٦٢).

(٢) سر الفصاحة (ص٢١٤).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الإيجاز

ومن مظاهره:

أولًا: الإيجاز بطي جزء من الكلام اكتفاء بما يدلّ عليه:

«فكثيرًا ما يسلك القرآن في إيجازه بعد حذف فضول الكلام وزوائده إلى حذف شيء من أصوله وأركانه التي لا يتم الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم المعنى إلا بها ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعذوبة، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظه أن لفظه أوسع منه قليلًا، فإذا ما طلبتَ سر ذلك رأيته قد أودع معنى الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة فإذا هو نير مشرق لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطي، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء، إلا بعد تأمل وفحص دقيق»(١).

ويقول ابن عاشور: «إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفًا ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق، زيادة على جمعه المعاني الكثيرة في الكلام القليل»(٢).

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾

---

(١) النبأ العظيم (ص١٧٠).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٢).

[يوسف: ٤٩، ٥٠]، فإنَّ بين الآيتين جملة مفيدة محذوفة تقديرها: فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا لها أو فصدقوه عليها، وقال الملك ائتوني به، ولك أن ترى كيف طويت هذه الجملة بين الآيتين بحيث لا يرد على النفس إلا هذا المعنى دون الحاجة إلى ذكرها(١).

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١]، فلما كان كفار قريش يستعجلون عذاب الله ويستبطئونه أراد الله أن يبيّن لهم أن لو كانت سنته قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه، كما يعجل لهم الخير إذا استعجلوه لهلكوا، ولكن قد جرت سُنَّته التي لا تتبدل بأن يمهل الظالمين ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى.

فتأمل كيف اكتفى الأسلوب القرآني بذكر تعجيل واحد من الله واستعجال واحد من الناس فحُذف ما حذفَ تعويلًا على دلالة الباقي عليه، وتتابع الكلام وانتظم بقدر من التفنن، بحيث لا تحس بحذف في الكلام أو تعثر فيه الفهم(٢).

ومثل هذا الطّي من شأنه أن يعطي فرصة للقارئ والسامع أن يُعمل فكره ويسبح بخياله في شأن ما طوي من الكلام(٣).

وأحيانًا يكون الحذف وطي جزء من الكلام، للتنبيه على أن الزمان متقاصر عن الإتيان بالمحذوف وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم(٤)، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

---

(١) انظر: الطراز لأسرار البلاغة (٢/ ٥٤).
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم (٤/ ١٢٥)، النبأ العظيم (ص١٧٢).
(٣) انظر: الإيجاز دراسة بلاغية ورؤية نقدية، محمود شاكر القطان (ص٣٢).
(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٠٥).

[الشمس: ١٣] فحُسْن الحذف هنا ليس له نهاية، وكان صالح صلوات الله وسلامه عليه مرجوًّا فيهم رحيمًا بهم، يخاف أن يمسهم من ربهم عذاب، فصاح بهم محذرًا ملهوفًا: ناقة الله وسقياها، ولو قال: ذروا ناقة الله، لذهب بكل ما يدل عليه الحذف هنا من لهفة نفسه، وشدة حرصه على نجاة قومه، واندفاعه السريع نحو دفع الخطيئة الموبقة لهم وهذا معنى لم يكن ليفهم دون حذف(١).

ثانيًا: الإيجاز بالتقديم والتأخير وترتيب الكلام:

وهذا من التفنن البديع في أسلوب القرآن أن يقدّم الكلام ويؤخر، أو يرتب في الآية ترتيبًا يضفي على المعنى بيانًا أوْفى وأشمل لم يكن يحصل بدون هذا الترتيب ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] «ففي هذه الآية قدم لفظ ﴿شُرَكَاءَ﴾ على لفظ ﴿الْجِنَّ﴾ وكان أصل الكلام: [وجعلوا الجن شركاء لله] فمعنى الآية الإخبار بصنيع الكفار الذين جعلوا الجن شركاء وعبدوهم من دون الله وهذا المعنى حاصل بهذا اللفظ سواء بالتقديم والتأخير لكن لما كان المراد من الآية الإنكار على أنه لا ينبغي أن يكون لله تعالى شريك لا من الجن ولا من غيره اقتضى السياق أن يكون بهذا الترتيب، وبدونه لا يفيد هذا المعنى غير أن تقول: [وجعلوا الجن شركاء الله، وما يَنْبغي أن يكونَ للهِ شريكٌ لا مِنَ الجنِّ ولا مِنْ غَيْره]، فتأمّل أين شرف الأسلوب القرآني من هذا الكلام وبه تعلم كيف يزداد المعنى بيانًا دون الحاجة إلى زيادة اللفظ»(٢).

فكان في ترتيب الكلام إيجاز بليغ لم يكن ليحصل دون تقديم وتأخير، إلا على قدر من الإطالة.

---

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني (ص٢٨٦).
(٢) دلائل الإعجاز (١/ ٢٨٨)، وانظر في هذا المعنى: معترك الأقران (١/ ٣١١).

هكذا جرى الإيجاز في أسلوب القرآن بهذا القدر من الثراء في المعاني والدلالات حتى إن القارئ ليلحظ زيادة الكلام فيه بطريق الإيحاء، ذلك أنه يُنزِل على أطراف المعاني ظلالًا خفيفة لا تلبث أن تبرز وتتلون وتتسع ثم تتشعب إلى معانٍ أخرى يتحمّلها اللفظ(١).

(١) دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات (ص٩٩).

المطلب الثاني

الإطناب

البسط والإطناب باب آخر من أبواب اتساع المعاني، ومن مظاهر الإطناب ودلالته على المعنى:

أولًا: الإطناب بقصد تفصيل الأخبار وبسط المعاني:

وهذا في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩﴾ إلى قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]، فهذه الآيات جاءت ردًا على إصرار الكفار في اتخاذ الأنداد من دون الله حين قالوا: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، وهذا الرد يحصل بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] وما شابهها من الآيات، لكن هذه الآيات احتملت من المعاني في بسطها وإطنابها ما لم تدل عليه الآيات الأخرى، **ومن هذه الجوانب:**

ـ التفصيل في مظاهر الاستدلال على استحقاقه جل وعلا للعبودية بذكر خلق الأرض وإرسائها بالجبال، وتقدير أقوات المخلوقات فيها، وخلق السماوات وما فيها من عوالم، ولا شك أن هذا التفصيل في الاستدلال تفصيل لما قرب من نظرهم وما يعالجونه في حياتهم وهذا ألزم في الحجة وأوضح.

ـ أن الآيات بسطت القول في إذعان السماء والأرض لله تعالى، وكيف أن الله أمرهما بالإذعان فأذعنتا بالطاعة وذلك في قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا الإطناب فيه ردٌ وتعجيب بحال هؤلاء المعرضين الذين يرون ضعفهم أمام هذه المخلوقات العظيمة، ثم يظهرون من أنفسهم الإصرار الشديد على كفرهم وعدم إذعانهم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ ويقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

ـ أن الآيات أعقبت ذلك بذكر الوعد والوعيد، وذلك أن كلامهم لما دلّ على التحدي والاستكبار والطغيان لِمَا أُنذروا به، أطنبت فيما جرى من المعاندين الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وهذا غاية الإنذار ومنتهى التحذير والإعذار حيث بيّن لهم عاقبة من هم أعتى وأشد سطوة منهم، وقارن البسط والإطناب في هذا الموضع بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٩]، فكان العدول عن الإيجاز إلى الإطناب في هذا الموضع أدل على المعنى(١).

وقبل الانتقال عن هذا المثال يحسن التنبيه إلى ما احتواه هذا البسط من الإيجاز الذي عناه د. محمد عبد الله دراز من أن أسلوب القرآن قصد إلى الإيجاز في مواضع التفصيل.

ففي قوله: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠] البركة تشمل إنبات النبات، ومعيشة الكائنات وتنوع الجمادات، وحصول سائر المنافع التي بها قوام الحياة، مع ما فيها من الامتنان على العباد.

وفي قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] فهي أقوات شتى

---

(١) انظر: تحرير التحبير (ص٥٤٦).

كأقوات الجن والإنس وأقوات ما يصلح لكل بلد من الأمطار والأرزاق والتجارات والمعايش، وأقوات الحيوان البري والبحري، وتخصيص كل صنف بقوت مألوف يميل إليه بطبعه.

ثانيًا: الإطناب بذكر الشيء، والتصريح بذكر مفهومه، لما فيه من زيادة في المعنى:

كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥] فهذا الموضع من مواضع الإطناب، وفي ذكر أحد الجملتين غنية عن الجملة الأخرى إذ يفهم من الجملة الأولى أن غير المؤمنين بالله واليوم الآخر هم من يستأذنون في التخلف عن الغزو، لولا ما تضمنه هذا البسط من دلالة في المعنى بحيث لا يكتفى بجملة عن الأخرى، **ومن هذه المعاني:**

- أن هذه الجملة جاءت بيانية لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، فكان ما بعدها بيان لحال الفريقين وبواعث كل منهما على الصدق والكذب.

- التعليل، ففي الآية الأولى تعليل ما صدر عنهم من الإيمان وعدم الاستئذان في التخلف إنما بسبب التقوى، ومجيئه بهذا الأسلوب شهادة للمؤمنين بالانتظام في فريق المتقين، أما الآية الثانية فعللت استئذان المنافقين بشكّهم وحيرتهم في هذا الدين، كما أن في التعبير بالماضي في قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ دلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه وليس ارتيابًا حادثًا في هذه الغزوة فقط، فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.

فهذه المعاني لم تكن لتدل عليها جملة دون أختها، هذا بالإضافة

إلى ما في اجتماع الجملتين من تأكيد المعنى[١].

والإطناب كما يكون في الجمل، فإنه يكون بالكلمة وبالحرف كذلك، وكل ما زيد في أسلوب القرآن من كلمة أو حرف فإنه راجع لدلالته على معنى لا يحصل بغير[٢]، **ومن الأمثلة على ذلك** ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] فقد كان يمكنهم أن يقولوا: [إما أن تلقيَ أو نُلقي] لكن مجيء الآية بذلك تضيف معنىً زائدًا على إرادة التخيير في الإلقاء، وهو أنه سبحانه أراد أن يخبر عن قوة أنفس السحرة واستطالتهم عند أنفسهم على موسى فجاء التعبير عنهم باللفظ أتم وأوفى منه في إسنادهم الفعل إليه[٣].

---

(١) **انظر**: إرشاد العقل السليم (٤/ ٧٠)، المثل السائر (٢/ ٢٨٧)، التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٢).

(٢) **انظر**: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص١٥٢) حيث عقد فصلًا عن زيادة الكلام وبيّن دلالة كل كلمة وحرف جاءت على سبيل الإطناب وأثرها في المعنى.

(٣) **انظر**: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤١٢).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

الجمع بين الإيجاز والإطناب في سياق واحد

ومن مظاهر الإيجاز والإطناب في الأسلوب القرآني كذلك: الجمع بين الإيجاز والإطناب في سياق واحد بقصد إبراز المعاني وتثبيتها، فمما سبق من أمثلة كالاستدلال على الألوهية أو ذكر قصص السابقين جاءت بعض الآيات على سبيل البسط والإطناب، وبعضها على سبيل الإيجاز في المعنى الواحد لكن في سياق مختلف والمقصود هنا أن يجتمع الإيجاز والإطناب في سياق واحد، **ومن أمثلة ذلك:**

أولًا: أن يذكر القرآن معنى من المعاني على سبيل الإطناب ثم يذكره موجزًا في ذات السياق:

ففي قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٨، ٣٩] إيجازٌ لما بُسِط بطريق الإطناب والتفصيل بداية من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٧] وقد أشار إلى هذا المعنى ابن باديس[(١)] بقوله: «إن الغاية التي يسعى إليها كل عاقل هي السعادة

---

(١) هو: عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، ولد في قسنطينة، وأتم دراسته في الزيتونة بتونس، وجاهد الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليته رياسة الأمور الدينية فامتنع واضطهد وأوذي، وهو مستمر في جهاده، له: «تفسير القرآن الكريم»، اشتغل به تدريسًا زهاء ١٤ عامًا، توفي سنة (١٣٥٩هـ). (الأعلام ٣/ ١٨٩).

الحقة، وإن التكاليف الإسلامية كلها شرعت لسوقه إليها ولما كانت أصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمرًا ونهيًا بطريق الإطناب والتفصيل أعيد الحديث عنها في هذه الآية بطريق الإيجاز والإجمال، قصدًا للتأكيد وتقرير هذه الأصول العظيمة في النفوس، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها، وهذا من بديع التأكيد، لاشتماله على السابق مع شيء جديد»(١).

ومن دلالات المعاني الجديدة في إيجاز هذه الآية لما بُسِط: تنبيه السامع إلى أولوية اجتناب الأخلاق المنهي عنها في هذه الآيات كما قال ابن عاشور: «فالذي وصف بالسيئة وبأنه مكروه لا يكون إلا منهيًا عنه أو مأمورًا بضده، إذ لا يكون المأمور به مكروهًا للآمر به، وبهذا يظهر للسامع معاني اسم الإشارة في قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ [الإسراء: ٣٨] وإنما اعتبر ما في المذكورات من معاني النهي؛ لأن الأهم هو الإقلاع عما يقتضيه جميعها من المفاسد بالصراحة أو بالالتزام؛ لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح في الاعتبار وإن كانا متلازمين في مثل هذا»(٢).

ومن المعاني كذلك: بيان مرجع الأمر والنهي وأنه من الله جل وعلا ووحيه وأن تلك الوصايا لولا الوحي من الله لما وصل إليها الناس.

كما في هذا الإيجاز البليغ ربط أول الكلام بآخره فكما ابتدأت أول هذه الوصايا بربطها بالله في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] ختمت بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: ٣٩](٣).

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص١٠٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٥).
(٣) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٢٨).

ثانيًا: أن يقرن أسلوب القرآن بين أمرين فيوجِز في أحدهما ويُطنِب في الآخر:

فعادة أسلوب القرآن الجمع بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ولا شك أن هذا مما يعين على اجتماع الخوف والرجاء في نفس القارئ، ولكن نجد أن أسلوب القرآن يبسط تارة في ذكر الترغيب ويوجز في ذكر الترهيب، وتارة يكون الأمر بخلاف ذلك، واجتماع الإيجاز والإطناب في كل موضع، يضفي من المعاني ما لا يدل عليه الموضع الآخر، فقد جاء الترهيب في سورة الملك مثلًا على سبيل البسط والإطناب في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦ ـ ١١]، ثم جاء الترغيب في آية واحدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، بينما في سورة الإنسان جاء الترهيب في آية واحدة وهي قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، ثم جاء الإطناب فيما أعد الله لأهل الجنة فيما بعدها من الآيات من قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٢٢].

والجمع بين الإيجاز والإطناب في مثل هذا الأسلوب فيه من المعاني ما يناسب مقصد السورة، كما فيه من المعاني النفسية ما تعالج النفس البشرية بتقلّب أحوالها، فقد يصلح لها تغليب الخوف على الرجاء، وقد يصلح لها تغليب الرجاء على الخوف، والتفنن بين الإيجاز والإطناب من خير ما يحقق هذا المعنى.

يقول الفخر الرازي في حديثه عن الإيجاز والإطناب في سورة الإنسان: «ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء، وهو إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، واعلم أن الاختصار في ذكر العقاب مع الإطناب في شرح الثواب يدل على أن جانب الرحمة أغلب وأقوى»[١].

هذه بعض الأمثلة في مظاهر الإيجاز والإطناب في أسلوب القرآن تبيّن منها أن الإطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط، بل بكثرتها مع كثرة المعنى، والإيجاز لا يكون بكثرة المعاني فقط، بل لا بُدَّ أن يكون في الألفاظ دلالة واضحة على المعاني الكثيرة أو أن تكون هذه المعاني ذكرت في مقام آخر من القرآن، فإن القرآن الكريم كلٌّ كامل لا تنقص معانيه، ولا تستغلق على قارئيه، وقد يحذف القول في مكان؛ لأنَّه يفهم بدلالة الأولى في مكان آخر[٢].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/٧٥٧).
(٢) المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة (ص٢٢٦).

المَبۡحَثُ ٱلثَّامِنُ

تجدد المعاني

تبيّن مما سبق أن أسلوب القرآن يحتمل في لفظه وسياقه وتراكيبه من المعاني ما لا يحتمله أسلوب آخر، وهذا هو ما عناه ابن عاشور بقوله: «وإنك لتمر بالآية الواحدة فتتأملها وتتدبرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي، وقد تتكاثر عليك فلا تملك من كثرتها في حصر، ولا تجعل الحمل على بعضها منافيًا للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سمحا بذلك»(١).

وتجدد المعاني وإن كان نتيجة لما سبق بحثه ومدارسته إلا أن إفراده بمبحث مستقل في غاية الأهمية خاصة عند النظر إلى اشتمال الأسلوب القرآني ودعوته إلى تجديد المعاني بطرق أخرى.

وتجدد معاني القرآن يقصد منه: ما يحتمله الأسلوب من معانٍ جديدة تفهم من النص القرآني، كما يقصد منه كذلك تطبيقه في واقع الناس وإحياء ما اندرس من العمل به، والجهاد به في تجديد الدين وإحياء السُّنن وإماتة البدع، والدليل على هذا المعنى ما رواه أبو الدرداء ﷺ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: (**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**)، قَالَ: فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يُخْتَلَسُ

---

(١) والتحرير والتنوير (١/ ٩٨).

مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: (**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنِّي كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذَا التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا يُغْنِي عَنْهُمْ؟**)»[(١)] فتأمل كيف أن قراءة القرآن وحفظه لا تغني دون تفهّم معانيه وتطبيقها في الحياة وهذا معنى من معاني تجديد الدين الوارد في حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**)[(٢)] وتجديده يكون بإحياء وتطبيق ما في الكتاب والسُّنَّة في واقع الناس وحياتهم[(٣)] ويبيّن ابن القيِّم بُعد الناس عن هذا المعنى وأنه أحد الأسباب في عدم فهم القرآن فيقول: «ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن»[(٤)].

وتجدد معاني القرآن من دلائل كونه موصوفًا بالبركة كما في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] ولـك أن تتأمل وصف القرآن بالبركة في هذا الموضع وارتباطه بالتدبر، وكأن بتدبر هذا الكتاب يظهر خيره ونفعه وبركته للأفراد والأمم، وقد أشار الشعراوي إلى ارتباط البركة بتجدد المعاني فقال: «فكل يوم يعطي القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديدًا، وهذا دليل على أن قائله حكيم وضع في

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن، باب ما جاء في ذهاب العلم برقم (٢٦٥٣)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٧٩)، وقال: إسناده صحيح، وتابعه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر من قرن المائة، برقم (٤٢٩١)، صححه الألباني.

(٣) انظر: عون المعبود (١١/ ٢٦٠).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٥١).

الشيء القليل الفائدة الكثيرة، وهذا هو معنى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩] فكل كتابٍ له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة تُسْتمدُّ منه الحلول، ويواجه كل المسائل التي تطمح لها البشرية في حضاراتها وارتقاءاتها في العقول مواجهة تجعل له السبق دائمًا ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة»(١).

ولقد أدرك السلف رضوان الله عليهم وهم يشاهدون التنزيل أن الأسلوب الذي نزل به القرآن أسلوب تتجدد معانيه، إيمانًا منهم بهيمنة هذا الكتاب الذي أصلح أحوالهم ومجتمعهم، ويقينًا منهم بأنه هو الذي سيصلح سائر الأزمان والأحوال، فبيّنوا للأمة ذلك تقريرًا وتطبيقًا وحثوا من بعدهم إلى مداومة النظر لاستخراج المعاني، فهذا ابن مسعودٍ ﷺ يقول: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن»، ويقول أبو الدرداء ﷺ: «لا يفقه كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهًا كثيرة».

ولقد فقه الصحابة رضوان الله عليهم كلّ الفقه حين اعتبروا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، مع كون الآيات كانت تنزل على أسباب يشاهدونها ويعايشونها فكانوا يسألون النبي ﷺ عن ذلك، فعن ابن مسعود ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] قال الرجل: ألي هذه؟ قال: (لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي)»(٢).

(١) تفسير الشعراوي (٧/٤٠٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، برقم (٤٦٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، برقم (٢٧٦٣).

وإعمال هذه القاعدة باب من أبواب تجدد المعاني فتحت للمفسرين آفاقًا واسعة في فهم معاني القرآن الكريم(١).

وتجدد المعاني بدأ مع نزول الوحي، وكان ﷺ يستشهد بآيات من القرآن على معانٍ غير تلك المعاني المباشرة التي تفهم من ظاهر الآية، فقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، جاءت في سياق الاستدلال بقدرة الله ﷻ على البعث بعد الموت وأنه جل وعلا يخرج الإنسان الحي من الماء الميت، ويخرج الماء الميت من الإنسان الحي؛ لأن تذييل الآية بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ راجع إلى ما يصلح له من المذكور قبله وهو ما فيه إنشاء حياة شيء بعد موته، ومع ذلك فقد استشهد النبي ﷺ بهذه الآية في معنى آخر غير المعنى المباشر الذي سيقت فيه الآية، فقد أخرج الطبري بسنده أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَإِذَا بِامْرَأَةٍ حَسَنَةِ النِّعْمَةِ، فَقَالَ: (مَنْ هَذِهِ؟) قَالَتْ: إِحْدَى خَالَاتِكَ، قَالَ: **(إِنَّ خَالَاتِي بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ لَغَرَائِبَ وَأَيُّ خَالَاتِي هَذِهِ؟)** قَالَتْ: خَلْدَةُ ابْنَةُ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، قَالَ: **(سُبْحَانَ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)** وَكَانَتِ امْرَأَةً صَالِحَةً، وَكَانَ أَبُوهَا كَافِرًا(٢).

كما استشهد عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، حين دعى أبا سعيد بن المعلّى ﷺ وكان يصلي فلم يجبه، فقال له: ألم يقل الله:

---

(١) وقد استقرأ الباحث عبد العزيز الضامر جملة من كتب المفسرين قديمًا وحديثًا في أطروحته للماجستير: (تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين) وخرج بهذه النتيجة.

(٢) جامع البيان (٥/ ٣١١)، والطبراني في المعجم، باب من يعرف من النساء بالكنى (٢٥/ ٩٦)، وبرقم (٢٤٨)، وقال الهيثمي: رواه كله الطبراني بإسنادين، وإسناد الثاني حسن. (مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] فالآية يفهم منها طاعة ما دعا إليه الرسول ﷺ في أمور الشرع من أحكام وأعمال، ولكن حين استشهد بها الرسول ﷺ في هذا الموضع بيّنت معنى جديدًا وهو الاستجابة لدعوة النبي ﷺ بطلب القدوم المباشر، ولو كان هذا المعنى يفهم من هذه الآية قبل تطبيق النبي ﷺ على هذه الواقعة لما تردد أبو سعيد ﵁ في إجابته، وفي أحاديث النبي ﷺ وتبيين بعض المعاني الجديدة التي لم تكن لتفهم من ظاهر النص مباشرة ما يدعو إلى إعمال النظر في ألفاظ القرآن وأسلوبه لكشف ما يستجد من المعاني والدلالات.

وهكذا فهم الصحابة ﵃ هذا المعنى في التعامل مع ألفاظ القرآن وأسلوبه، فما فتئوا يفهمون من القرآن معاني تفيدهم في شؤون حياتهم ليست الدينية فحسب بل الإدارية والسياسية والاجتماعية.

فلم يمنع الصحابة رضوان الله عليهم أن يأخذوا من قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] معنى جديدًا، حيث استفادوا من جملة واحدة وهي قوله: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ التأريخ بهجرة النبي ﷺ كبداية لتاريخ الإسلام، كما قال السُّهيلي(١): «وفي قوله سبحانه: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ **وقد علم أنه ليس أول الأيام كلها،** ولا أضافه إلى شيء في اللفظ الظاهر فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر، **فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر حين شاورهم في**

---

(١) **هو:** عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد الخثعميّ السهيليّ، حافظ، عالم باللغة والسير، كُفّ بصره وعمره ١٧ سنة. ونبغ، فاتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه إليها وأكرمه، فأقام يصنف كتبه إلى أن توفي بها. نسبته إلى سهيل من قرى مالقة، من كتبه الروض الأنف، وتفسير سورة يوسف والتعريف والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والإعلام والإيضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين، توفي سنة (٥٨١هـ). (الأعلام ٣/ ٣١٣).

التاريخ فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة؛ لأنه الوقت الذي عز فيه الإسلام والذي أمر فيه النبي ﷺ وأسس المساجد، وعبَدَ الله آمِنًا كما يحب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله سبحانه: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن **فإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية فهو الظن بأفهامهم فهم أعلم الناس بكتاب الله وتأويله وأفهمهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح** وإن كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد فقد علم ذلك منهم قبل أن يكونوا وأشار إلى صحته قبل أن يفعل، إذ لا يعقل قول القائل فعلته أول يوم إلا بإضافة إلى عام معلوم أو شهر معلوم أو تاريخ معلوم وليس هاهنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو قرينة حال فتدبره ففيه معتبر لمن اذكر وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر»[1].

فتأمل كيف استطاع الصحابة أن يستفيدوا من هذه الآية في تنظيم شؤون حياتهم مع كونها نزلت في سياق ومعنى معيّن.

مثال آخر:

ومن فهم الصحابة لما يستجد من المعاني في الأحوال الاجتماعية ما فهمه ابن عباس وعلي رضي الله عنهما من أن أقل الحمل ستة أشهر أخذًا بقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وقد كان هذا الفهم الذي فهمه الصحابة حجة قوية لعصمة الدماء وبراءة الأرحام، كما قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: «وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة

---

(١) الروض الأنف، للسهيلي (٤/ ١٥٦).

أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة ﷺ»[(١)].

هكذا كان تجدد المعاني في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، وفق ما يقتضيه نظم القرآن وأسلوبه، ودون أن يتعارض معنى مع معنى وإن اختلفت العصور والاجتهادات.

ومن أمثلة تجدد المعاني فيما تلا عصر الصحابة، استشهاد أئمة الدين بوجوه من المعاني استخرجوها من آيات القرآن الكريم، فلما انتشرت البدع المُحدثة التي لم تكن في الصدر الأول؛ انبرى لها العلماء بالرد والتفنيد من خلال فهمهم لكتاب الله، ومن ذلك ما استنبطه الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وهذه الآية في بيان من يستحق فقراؤهم الفيء ممن جاء بعد المهاجرين والأنصار وذكر وصفهم ففهم الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ فهمًا دقيقًا، جعلت الحافظ ابن كثير يُعجب به استحسانًا فقال: «**وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾**»[(٢)].

وبعد سرد هذه الأمثلة، يحسن الوقوف على جملة من أسباب تجدد المعاني:

أولًا: أنه نزل بلسان عربي:

فاجتمع في أسلوب القرآن أنه نزل بأوسع اللغات تأديةً للمعاني

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٠). (٢) المصدر نفسه (٨/ ٧٣).

واجتمع في القرآن من هذه المعاني أقصى ما يمكن أن تتحمله الألفاظ والتراكيب.

قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]: «وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض؛ وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان فكمل من كل الوجوه»[1] وقال ابن عاشور في بيان سبب وفرة معاني القرآن: «منها، أن تلك اللغة أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفًا، وأفصحها لهجة وأكثرها تصرفًا في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظًا، وجعله جامعًا لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة، فكان قوام أساليبه جاريًا على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب»[2].

فنزول القرآن بلسان العرب من شأنه أن تتسم ألفاظه بالمرونة والغناء اللذين يساعدان على تجدد المعنى بحيث ترى للكلمة الواحدة عدة معان لا تنكرها اللغة بحسب الوضع، ولا يرفضها الدين من حيث العمل والاعتقاد.

ثانيًا: أن القرآن الكريم نزل بقصص وأخبار وأمثال كثيرة فُصّلت وفُرّقت في شتى سور القرآن، وكثيرًا ما يأتي التعقيب بعد هذه القصص والأمثال في الأسلوب القرآني بتجديد التأمل وإعادة والنظر وإعمال الفكر:

ولا شك أن كثرة التأمل والنظر في هذه القصص ينتج عنه معانٍ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦٥).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٩٨).

جديدة تناسب كل عصر ومصر، وتكون مجالًا خصبًا ليكون هذا القرآن واقعًا معاشًا في حياة الناس.

والآيات الدالة على أن هذه الأخبار والقصص قصد منها تجدد النظر والتأمل كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال ابن عاشور: «اقصص هذه القصة وغيرها، وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ **لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس**»(١).

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] فمجيء هذه القصص في القرآن زادها حسنًا غدت به أحسن القصص، ألا ترى كيف طوى القرآن كثيرًا من الأنساب والأماكن والمواقع المقصوص عنهم، وطوى كثيرًا من الأحداث التي تكون لقصد التفكّه فتنزه عن ذكرها، وكان ما ذكره الله من هذه القصص مشتملًا على الحِكم ومواضع العبر فأصبحت قصصه برهانًا وتبيانًا في الاتعاظ والاعتبار، وهذا يقتضي تجدد معانيه والاستغناء به عما عداه، وقد أحسن ابن كثير حين ساق في تفسيره لهذه الآية أحاديث الاستغناء بالقرآن إشارة منه إلى أن هذه القصص كافية في الاهتداء لما يستنبط منها من المعاني التي تناسب الناس.

وإن في تنوع ذكر قصص وأخبار الأمم في القرآن فائدة عظيمة وهي: أن ينشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم كما ساده أمم

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٩).

من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كانوا عليه[١]، وهذا لا يكون إلا بتجديد معاني القرآن في الحياة ليسلكوا طريق النصر والتمكين.

وقد كان هذا المعنى ماثلًا لدى الصحابة رضوان الله عليهم حين استحضروا حادثة بني إسرائيل مع موسى عند دخول الأرض المقدسة حين استشارهم رسول الله ﷺ في غزوة بدر، فما كان من المقداد بن عمرو رضي الله عنه إلا أن قال: «امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه»[٢] حتى أشرق وجه رسول الله ﷺ ودعا له، ولا شك أن في ذلك إقرارًا من رسول الله ﷺ بهذا الاستشهاد.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا، فنشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجمل قصص الأنبياء، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١]؛ **أي**: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمَنزِلة ما يُفترَى من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة»[٣].

ولقد طبّق ذلك في زمنه، فاستحضر من المعاني التي ذكرها الله في خبره عن غزوة الأحزاب ما يطابق واقعهم حين نزل التتار بهم وقال:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٧).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٦١٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٥).

«فإذا قرأ الإنسان سورة الأحزاب وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن، ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك وجد مصداق ما ذكرنا».

ولقد فسّر رَحِمَهُ اللَّهُ آيات غزوة الأحزاب على أحوال الناس وأقوالهم في عصره ثم قال: «والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن وهكذا سُنَّة الله قديمًا وحديثًا»[(١)].

ثالثًا: ما اتسم به الأسلوب القرآني من العموم الذي جعله يتناول العموم في الأفراد والأزمان والأقطار، وما في جمله وألفاظه من قيود صالحة، كذلك لأن تكون متعلقة بأكثر من جهة، فينتج عن ذلك تعدد المعاني:

وهذا السبب أشار له ابن تيمية بقوله: «فإن نصوص الكتاب والسُّنَّة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي أو بالعموم المعنوي وعهود الله في كتابه وسُنَّة رسوله **تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها**»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان، إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، **وبذلك تكثر معاني الكلام**»[(٣)].

ومن عجيب فهم الصحابة لإعمال العموم في استنتاج معانٍ جديدة، ما فهمه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

(١) ذكر تفاصيل ذلك في: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٤٤ ـ ٤٦٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٥).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٢٣).

﴿لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣]، فقد فهم من هذه الآية معنى في الولايات والسياسات، وأن معاوية ﷺ ستؤول إليه الخلافة وقد كان ولم يمنعه ورود البيان النبوي أن يفهم من عموم اللفظ هذا المعنى، وقد بيّن ابن كثير كيف فهم ابن عباس ﷺ هذا المعنى وأنه لا يخالف المعنى المتبادر الظاهر فقال: «﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قودًا، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجانًا كما ثبتت السُّنَّة بذلك، وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي عثمان، وقد قُتل عثمان مظلومًا ﷺ، وكان معاوية يطالب عليًّا ﷺ أن يسلِّمه قتلته حتى يقتص منهم؛ لأنه أموي وكان علي ﷺ يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع عليًّا هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة، **وهذا من الأمر العجب**»[1].

ومما يدخل ضمن هذا السبب: ما يكون في القرآن من تعليق تحقق أمرٍ ما أو انتفائه بتحقق أوصاف أو أسباب أو مسببات، فكل من حقق هذا الوصف في أي زمن من الأزمان فهو داخل في عموم هذه الأوصاف، وقل مثل ذلك في تحقق الأسباب أو انتفائها، ولك أن تتأمل في أوصاف المنافقين الذين نزل القرآن فاضحًا لأفعالهم، كيف تتجدد معاني هذه الآيات وتنطبق على أي مجتمع يظهر فيه النفاق في القديم والحديث.

ومما يدخل في هذا العموم كذلك: السنن الإلهية التي ذكرها الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٣).

في كتابه وما كونها سنة وعادة إلا لأن لفظها يتناول عموم الزمان والأوقات، فعندما يكثر المدّعون للخير والإصلاح في الأوطان والمجتمعات ويختلط الحق بالباطل، يجري الله من الأحداث والوقائع التي تتميّز فيها الصفوف ما يصلح أن يكون تفسيرًا لقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

رابعًا: أن أسلوب القرآن نزل بأسلوب خاطب فيه العصور بما يفهمون مع احتوائه على فكر القرون المتطاولة حتى آخر الزمان:

يقول الزرقاني: «ولأنّ الله عز سلطانه هو القادر وحده على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحط ولن يحيط بها سواه، ومن الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق، وفيها الخفي الذي لا يعلمه إلا من يعلم السر وأخفى، ثم من ذا الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق وهم أجيال متعددة منهم من لم يخلقوا وقت نزول القرآن، ومنهم من لم يعرَفوا لنا إلى الآن بعد بضعة عشر قرنًا من نزول هذا القرآن، **وأنت خبير بأن القرآن هو كتاب الساعة الذي يخاطب الأجيال كافة حتى يرث الله الأرض ومن عليها فلا غرو أن يضمّنه منزله كل ما تحتاج إليه الأمم على اختلاف أجيالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم وليس ذلك في قدرة أحد إلا العليم بأسرار الخلق وخفيات السماوات والأرض** ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الفرقان: ٦]، ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٤ ـ ٦]»(١).

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٣٠٨).

فمنذ نزول القرآن والمخاطبون بالقرآن ينتقلون من حال إلى حال، وسخّر الله لهم من الآيات والدلائل والعلوم ما يكون معينًا لهم على فهم القرآن واستخراج كنوزه ومعانيه، مما لا ينافي المعنى الظاهر من الآية مما قرره سلف هذه الأمة، بل قد يكون بينه وبين المعنى الأصلي وجه مناسبة، إما على سبيل التفصيل والتقسيم مما يناسب أهل كل زمان، وإما على سبيل إدراك كيفيات بعض الحقائق، وإما على سبيل الاستدلال بالمعنى القرآني على ما يظهر من مسائل العلم الحديث(١).

فالتوسع في بيان معاني بعض الآيات بما يمكن بيانه من علوم الهيئة(٢) والفلك ونحوها قد يزيد في بيان المعنى واتضاحه، وهذا فيه مزيد اتعاظ واعتبار بالاطلاع على تفاصيل أخرى إضافة إلى الأمور المشاهدة وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] وقد ألّف الآلوسي(٣) في هذا كتابه: [ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة بالبرهان]، فتناولُ الأسلوب القرآني لما يناسب تنوّع أفهام الناس في مختلف العصور من أسباب هذا التجدد والثراء كما يقول الزرقاني شريطة أن يكون هذا المعنى ضمن ما تسمح به تراكيب الكلام ويحتمله المعنى ولا يمنع من ذلك مانع صريح أو غالب من دلالة شرعية أو لغوية أو توقيفية.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٤٣).

(٢) علم الهيئة: علم الفلك، وهو علم يبحث عن أحوال الأجرام السماوية وعلاقة بعضها ببعض وما لها من تأثير في الأرض. (المعجم الوسيط ٢/ ١٠٠٢).

(٣) محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الآلوسي الحسيني، أبو المعالي: مؤرخ عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح ومحاربة البدع، ثم اشتغل بالتدريس والتأليف، له ٥٢ مصنفًا بين كتاب ورسالة، توفي سنة (١٣٩١هـ). (الأعلام ٧/ ١٧٢).

خامسًا: أن أسلوب القرآن بما اختصَّ به من دقة وجودة في التناسب والسبك مع تفاوت أحوال وأوقات النزول، هو يسمح بجمع نصين أو أكثر من نصوصه التي ينتج عنها معنًى جديدًا، وذلك أعظم برهان في تصديق القرآن بعضه لبعض:

ولذا فإنه إن صحت طريقة استخراج المعاني فلا شك حينئذ أن المعنى المستنبط صحيحٌ ومُراد، والله تعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فهذه الآية دعوة لفتح باب التدبر على مصراعيه بجميع طرقه، وكل معنى صحيح مستنبط من القرآن سواء من دلالة آية مفردة أو من جمع نصيْن فأكثر، فستجده في تمام التناسب ولن تجد فيه أي اختلاف وهذه أحد وجوه تجدد المعاني، وقد عدّ ابن القيِّم هذه الطريقة في استخراج المعاني من ألطف طرق فهم النصوص وأدقها[١]، وقال في معرض حديثه عن طرق فهم النصوص وتفاوت الناس في ذلك: «وأخص من هذا وألطف، ضمّه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدرٌ زائدٌ على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به»[٢]، وبهذه الطريقة في جمع النصوص فهم ابن عباس وعلي ﭭ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر.

سادسًا: ما تضمنه الأسلوب القرآني من دلالات إضافية مما يفهم من إشارات الآية وفحوى الخطاب وعادات القرآن:

وهذا سبب آخر من أسباب تجدد المعاني فكما أن لدلالات

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٦٦). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٦٧).

الألفاظ أثر في تجدد المعاني فكذلك الدلالات الإضافية باب عظيم في استخراج المعاني يهبه الله من يشاء من عباده كما قال ابن القيِّم: «دلالة النصوص نوعان: حقيقة وإضافية، فالحقيقة تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف، والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه، ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافًا متباينًا بحسب تباين السامعين في ذلك»[1].

فما فهمه عمر بن الخطاب ﷺ من دنو أجل النبي ﷺ من قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] حين بكى فقيل له ما يبكيك؟ فقال: «أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص»[2]، ففهمه ﷺ، لم يكن في الآية ما يدل عليه دلالة لفظية إلا أنه فهم ذلك من عادة الله تعالى وقدرته في نظام الكون والحياة.

ومن ذلك ما رواه ابن عباس ﷺ، قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: (إنه ممن قد علمتم) قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة، فذاك علامة أجلك: فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا، قال عمر:

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٦٤).
(٢) جامع البيان (٨/ ٨١).

«ما أعلم منها إلا ما تعلم»[(١)]، فما ذكره الصحابة ﷺ موافق لما عليه ظاهر الآية، ولكن أراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يريهم دقة فهم ابن عباس وما وهبه الله من النظر في المعاني».

فهذه الطريقة من طرق تجدد المعاني هبة من الله تعالى يهبها من يشاء من عباده ومن ذلك ما ورد عن علي بن أبي طالب ﷺ حين سئل: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ قال: «لا، إلا كتاب الله، أو فهمًا أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»[(٢)]، وتأملُ هذا المعنى في أقوال المفسرين يعين على فهم مرامي كلامهم، وحمله على ما يمكن أن يحتمل في فهم مراد الله من ذلك، وقد طبق ذلك ابن القيِّم عند تعليقه على قول عكرمة ومجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ [العاديات: ١، ٢] حيث قال عكرمة: «هي الألسنة تورى نار العداوة بعظيم ما نتكلم به»، وقال مجاهد: «هي أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة في الحرب» حيث ضعّف القولين من جهة دلالتهما على المعنى الظاهر ثم عقّب وقال: «وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دلّ عليها وأنها هي المراد فغلط، وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب، وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس، وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، **وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:**

- أن لا يناقض معنى الآية.
- وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، برقم (٤٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، برقم (١١١).

- وأن يكون في اللفظ إشعار به.
- وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة؛ كان استنباطًا حسنًا»(١).

وممن دعا إلى إعمال هذه الطريقة في استنباط المعاني ابن سعدي وهو يشير إلى طريقة تدبر القرآن حيث قال: «ألا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه **نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ**، والذي يوجب له الجزم بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه.

والثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحًا، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له، وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآنات، وفي جميع اللحظات ونسأله من فضله، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنه الكريم الوهاب الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها»(٢).

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص٧٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٧٣٢).

هذه بعض الطرق الموصلة إلى تجدد معاني القرآن، وكتاب الله مليء بما نحتاجه وما يحتاجه العالم أجمع من معان ودلالات وإشارات، ولذلك دعا الخلق جميعًا إلى تدبره واستخراج معانيه، فدعا الخلق جميعًا مؤمنهم وكافرهم لتدبر كتابه فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] وفي قراءة: (لتَدَبّروا آياته)[١]، ودعا أولي العلم وأهل الفهم والنظر بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وما دام كتاب الله يتلى، فهو الحجة البالغة التي يجب أن ننهل منها المعاني والمعارف والعلوم التي تصلح الفرد والمجتمع في الدارين، فالله تعالى يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

* * *

(١) وهي قراءة أبي جعفر (النشر٢/ ٢٦١).

ٱلْفَصْلُ ٱلسَّادِسُ

تـأثـير الـقـرآن

ويتضمن تمهيد وستة مباحث:

- الـمـبـحـث الأول: جلال القرآن وروعته.
- المبحث الثاني: سموّ القرآن ورفعته.
- المبحث الثالث: جمال القرآن.
- المبحث الرابع: واقعية القرآن.
- المبحث الخامس: صدق القرآن.
- المبحث السادس: قوة حجة القرآن وإقناعه.

تَمْهِيدٌ

التأثير في اللغة: إبقاء الأثر في الشيء، وأثّر في الشيء تأثيرًا إذا ترك فيه أثرًا[١].

وتأثير أسلوب القرآن: هو ما يتركه القرآن من أثر أو آثار في الروح والجسد لمن يسمعه أو يتلوه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وكما أخبرنا الله تعالى بدَكِّ الجبل حين تجلَّى له، فقد أخبرنا بتصدّعه لو نزل القرآن عليه من شدة تأثيره عليه، هذا حاله مع الجماد، فكيف تأثيره في المخاطبين به؟

لقد نزل القرآن على قوم بلغوا من الجاهلية في العادات والموروثات والاعتقادات ما بلغوا، فنزل بلغتهم التي بها يتفاخرون، وعاب معبوداتهم وأصنامهم التي عليها يعكفون وجاءهم بأسلوب بلغ من التأثير والسلطان على النفوس ما طمس جاهليتهم وهدم موروثاتهم وأنار بصائرهم، فكان الداخل منهم للإسلام لا يجد غضاضة أن يخلع عباءة الشرك والجاهلية قبل دخوله فيه دون النظر إلى عادة مستحكمة أو سلَفٍ متّبع، فاقتلع جذور الشرك من قلوبهم قبل أوطانهم، أما من طمس الله بصيرته فقد حاول حَجْبَ هذا التأثير عمّن حوله بعد أن وجده في نفسه فما استطاع،

---

(١) لسان العرب (٤/ ٥)، القاموس المحيط (ص٣٤١).

فما كان منه إلا التخبط والتحيّر، وصدق الله إذ يقول في وصف من هذا حاله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٥].

وقد بلغ من تأثير القرآن في معارضيه ما جعلهم يعتقدون أن مقارعته بالسنان أهون عليهم من معارضته باللسان، فما كان حظهم من ذلك إلا الصغار والهوان.

ولما كان لأسلوب القرآن هذا الأثر العظيم الذي يصبغ نفس تالِيه وسامِعِيه فيحرك القلوب، عدّه العلماء من وجوه إعجازه، وقد كان الخطابي من أوائل من أشاروا إلى ذلك فقال: «وقد قلت في إعجاز القرآن وجهًا ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس»(١).

ومن عظيم تأثير القرآن بهذا الأسلوب أنه ما ترك مجالًا من المجالات إلا وكان له فيه أعظم الأثر، فكان له أثر في تزكية النفس وإصلاح القلب كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، فعاتبهم بأسلوب الاستفهام كالمستبطئ لهم والموقظ لقلوبهم، فألان القلوب وأحيا البصائر وقد بلغ من شدة تأثرهم بأسلوب القرآن، ما أورده ابن كثير في تفسيره أن عمر رضي الله عنه خرج يعسّ(٢) المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائمًا يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ١ ـ ٨] قال: (قسم ـ ورب الكعبة ـ حق)، فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث مليًّا ثم

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٧٠).
(٢) يعس: أي: يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة. (لسان العرب ٦/ ١٣٩).

رجع إلى منزله، فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه(١)، فانظر كيف أثّر هذا الأسلوب العظيم بما فيه من قسَم وتأكيد وغيرهما.

ومن آثاره العظيمة أنْ أَمَرَ اللهُ نبيّه ﷺ بجهاد الكفار به فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] فتضمن القرآن من الأساليب الدالة على الوعد والوعيد، والإنذار والاستنكار وغيرها ما أُمِر به ﷺ أن يجاهدهم به، وليس أيّ جهاد، بل هو جهاد كبير، ولا شك أنه حينئذٍ سلاحٌ عظيم الأثر بالغ النفوذ، ليكون الجهاد به كبيرًا ثم تأمّل العلاقة بين الأمر بالجهاد به، وبين التيسير باللسان الذي هو أمضى في التأثير ليكون نذيرًا لقوم بلغوا من اللدد والخصومة ما بلغوا، والأمر في ذلك كما قال سيد قطب: «وإن في هذا القرآن من القوة والسلطان، والتأثير العميق، ما كان يهز قلوبهم هزًّا، ويزلزل أرواحهم زلزالًا شديدًا فيغالبون أثره بكل وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلًا»(٢).

ومن آثاره العظيمة كذلك: أنه شفاء، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، والشفاء هنا يشمل شفاء الأرواح وشفاء الأبدان، ومن ذلك ما ورد في السُّنن من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قرأ سورة الفاتحة على لديغ فبرأ كأن لم يكن به شيء(٣).

وقد بيّن الزرقاني مبلغ تأثير أسلوب القرآن فقال: «بلغ القرآن في تأثيره مبلغًا خرق به العادة في كل ما عُرِف من كتب الله والناس، وخرج

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٠). (٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٧١).
(٣) الحديث أخرجه الترمذي، في باب الطب، باب ما جاء في أخذ الأجر على التعويذ، برقم (٢٠٦٤)، وصححه الألباني، وأخرجه الدارقطني في كتاب البيوع، برقم (٣٠٣٦).

عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام، وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن، والانقلاب العالمي الذي تركه هذا الكتاب، ما حدث ولم يكن ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه» ثم قال: «هذا الأساس الذي وضعه القرآن وَحْده هو سرُّ نهضته، ونور هدايته، والروح الساري لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هز النفوس والمشاعر، وملك القلوب والعقول وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم يخشون بأسه وصولته، ويخافون تأثيره وعمله أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحرب الجائحة؛ لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح بما لم يعهد له نظير»(١).

ويقول محمد الغزالي(٢): «ما أظن امرأً سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم لا يزعم أنه لم يتأثر به، قد نقول: فلِمَ يتأثر به؟ والجواب أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه، إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب إلى أولئك جميعًا، وكأنه يعرف ضائقة كل ذي ضيق، وزلة كل ذي زلل، ثم تكفل بإزاحتها كلها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها، حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٤٠٧).

(٢) هو: محمد الغزالي أحمد السقا ولد بمحافظة البحيرة بمصر سنة (١٣٣٥هـ)، ونشأ في أسرة «متدينة» فأتم حفظ القرآن بكتاب القرية في العاشرة، ترقى في التعليم الأزهري حتى تخرج فيه (١٩٤١م)، وتخصص بالدعوة والإرشاد، وقد تلقى العلم عن الشيخ عبد العظيم الزرقاني، والشيخ محمود شلتوت، وغيرهم، توفي سنة (١٤١٦هـ). (مجلة الأدب الإسلامي ١٨/ ٠٨/ ٢٠٠٣).

الاعتراف بأنه من عند الله إنهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل! قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية، أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون.. إنه قد يرجع مستهزئًا ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها»[١].

وسأعرض جملة من مظاهر تأثير أسلوب القرآن الكريم من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: جلال القرآن وروعته.

المبحث الثاني: سموّ القرآن ورفعته.

المبحث ثالث: جمال القرآن.

المبحث الرابع: واقعية القرآن.

المبحث الخامس: صدق القرآن.

المبحث السادس: قوة حجة القرآن وإقناعه.

---

(١) نظرات في القرآن، محمد الغزالي (ص١٢٧، ١٢٨).

المَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ

جلال القرآن وروعته

من أبرز سمات تأثير القرآن الكريم، ما يجده القارئ والمستمع للقرآن الكريم من الروعة والجلال، وهذه السمة هي التي عناها الخطابي حين ذكر تأثير أسلوب القرآن كوجه من وجوه الإعجاز حيث قال: «قلتُ في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النّفوس فإنّك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظورًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خَلَص له إلى القلب من اللّذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذَت حظّها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب[١] والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق، تقشعرّ منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة»[٢].

ولما كان الباري جل وعلا متصفًا بصفات الكمال ونعوت الجلال وكان القرآن الذي أنزله هو كلامه، فإن اختصاصه بالجلال المتضمن للعظمة والإجلال والمهابة من لوازم ذلك.

---

(١) الوجيب: تحرك القلب تحت أبهره. (لسان العرب ٤/ ٨٣).

(٢) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٧٠).

ومن أبرز صور الجلال:

أولًا: ما كان يعالجه ﷺ من أحوال التنزيل:

فعن الحارث بن هشام رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**) قالت عائشة رضي الله عنها: «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»[١]، فهذه الشدة التي كان يجدها ﷺ إيذانًا بتعظيم ما بعدها كما ذكر ابن حجر: «سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به»[٢]، وقد خص الله تبارك وتعالى الأسلوب الذي نزل به القرآن بالذكر تعظيمًا له وإجلالًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، قال ابن سعدي: «وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أُمّة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها وهو: اللسان العربي المبين»[٣].

ولما كان الأسلوب القرآني بهذا الجلال والروعة تضمّن من المهابة واللذة ما أخذ ألباب القوم، وصنع في نفوسهم ما صنع، كما قال

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، برقم (٣)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، برقم (٢٣٣٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١/ ٢٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٥٩٨).

تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] فهذا التأثر ليس تأثرًا ظاهريًا فحسب، بل هو الخرور سجودًا، إجلالًا لهذا القرآن وكيف لعبد أن يُسْلِم أشرف أعضاء جسده إلى الأرض، إلا تأثرًا وخضوعًا لكلام الله وإجلالًا له.

وهذه حال أهل الحق الذين أنارت روعة القرآن وجلاله قلوبهم فطارت شوقًا إلى تلاوته وتدبره، فعن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] كاد قلبي أن يطير»[(١)].

فانظر في تتابع الاستفهام وتلاحقه حول هذه المظاهر العظيمة في هذه الآيات وما تتضمنه من الاستنكار عليهم وتقرير النفي والتسفيه لعقولهم، لتدرك أي أثر تركه أسلوب القرآن في قلوبهم، كما قال الخطابي: «انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه حتى كاد قلبه يطير ومال إلى الإسلام»[(٢)].

هذه حال أهل الطاعة والانقياد، أما المعرضين المستكبرين، فإنهم لم يجدوا بدًّا من التأثر بروعة ما سمعوا، فكم عملت آيات سورة (حم السجدة) في نفس الوليد بن عتبة، حتى جعلته يهب فزِعًا ويمسك فيَّ رسول الله ﷺ ويقول مناشدًا له: «نشدتك الله والرحم إلا سكتّ»، لا شك أن تلك المهابة التي وجدها الوليد في نفسه أثرت فيه غاية التأثير مما

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: [وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب]، برقم (٤٨٥٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).

جعلته ينتفض فرقًا مما سمع ويرجع إلى قومه بوجه غير الذي ذهب به.

إن الجلال والروعة في أسلوب القرآن الكريم هي التي جعلت الوليد بن المغيرة يقول مقالته: «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر»(١).

وتلك الروعة هي التي جعلت صناديد قريش يسترقون السمع ويختفون عن الأنظار ويترقبون الليل تلهّفًا لسماعه فقد أخرج ابن إسحاق(٢): «أن أبا سفيان، وأبا جهل والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة عن حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة مرسلًا، ثم قال: «وهذا فيما رواه يوسف بن يعقوب القاضي عن سليمان بن حرب عن حماد هكذا مرسلًا، وكذلك رواه معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة مرسلًا، ورواه أيضًا معتمر بن سليمان عن أبيه فذكره أتم من ذلك مرسلًا، وكل ذلك يؤكد بعضه بعضًا». دلائل النبوة (٢/ ١٩٩).

(٢) هو: محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المطلبي مولاهم، المدني، صاحب (السيرة النبوية) ولد سنة (٨٠هـ)، ورأى: أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وحدث عن: أبيه، وعمه موسى، وكان ابن إسحاق أول من دوَّن العلم بالمدينة، وذلك قبل مالك وذويه، وكان في العلم بحرًا عجاجًا، ولكنه ليس بالمجود كما ينبغي. مات سنة (١٥٠هـ). (سير أعلام النبلاء ط الرسالة ٧/ ٣٣).

الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود: فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا»[١].

وهذا الجلال وتلك الروعة التي وجدها القوم ونزل بها القرآن، وهي نازلة في سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وهدم موروثاتهم ومعتقداتهم، ولا شك أن ذلك أشد سطوة على نفوسهم، وما أجمل قول الرافعي في ذلك: «سفّه القرآن الكريم أحلام العرب وخلع آلهتهم، وقمع طغيانهم، ثم ردد ذلك وكرره وعمّهم به، وأرسله في كل وجه وقرع أنوفهم؛ وهاج منهم حميَّة الجاهل، وجاراهم في مضمار المخاطرة، ثم لم يمنعهم ذلك وما إلى ذلك أن ينقادوا ثم ينقادوا!»[٢].

وقد كان أشد ما يخيفهم أن يذعن للحق نساؤهم وصبيانهم نتيجة تأثرهم بالقرآن فعن عائشة رضي الله عنها: «أنه كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه وكان رجلًا رقيقًا، إذا قرأ القرآن استبكى قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته، قالت: فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغِنّة، فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تُجِر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وكانت له هيئة فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم»[٣].

ثانيًا: أنه جمع العرب والعجم قاطبة على هذا اللسان:

وذلك مستفاد من قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، حيث بقي أسلوب القرآن حاكمًا لما يطرأ ويتبدل على اللسان العربي إثر تطاول الأزمان واختلاط اللسان العربي بغيره في الفتوحات والتجارات

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٥).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص٦٢). (٣) سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٣).

وغيرها وقد أشار الرافعي إلى ذلك فقال: «تلك سياسة هذا القرآن، جمع العرب لمذهب الأقدار وتصاريف التاريخ رأى ألسنتهم تقود أرواحهم، فقادهم من ألسنتهم وبذلك نزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي في كل أمة، فلما استقاموا له أقامهم على طريق التاريخ التي مرَّت فيها الأمم فجعلوا يخيطون جوانب العالم الممزق بإبر من الأسِنَّة وراءها خيوط من الأعنَّة؛ حتى أصبح تاريخ الأرض عربيًّا، وصار بعدَ الذلة والمسكنة أبيًّا»(١).

ثالثًا: احتفاء الملائكة واحتفالها بتلاوة القرآن إجلالًا وتعظيمًا:

فقد أخبر النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: (**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**)(٢) قال المناوي: «أي: أحاطت بهم ملائكة الرحمة والبركة إلى سماء الدنيا ورفرفت عليهم الملائكة بأجنحتهم يستمعون الذكر»(٣)، وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس فسكت فسكتت فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء، حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: (**اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ**)، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي (ص٦٠).
(٢) رواه أبو داود في سننه، باب في ثواب قراءة القرآن، برقم (١٤٥٥)، وصححه الألباني.
(٣) فيض القدير (٥/٤٠٨).

السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها، قال: (**وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**)، قال: لا، قال: (**تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ**)[١].

رابعًا: تأثر الجن الذين سمعوا القرآن:

وتُصوّر آية سورة الأحقاف هذا المشهد حين استماعهم للقرآن، مما جعلهم يوصي بعضهم بعضًا بالإنصات، ومعلوم أن الإنصات أقوى في التعبير من الاستماع فلمّا أنصتوا لهذا الكلام الذي لم يعرفوه من إنس وجن، ما كان لهم بد إلا أن يقولوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] وهذا الوصف منهم لما وجدوه من براعة الأسلوب وجلالة النظم[٢].

ويبيّن سيد قطب مظهر الجلال والروعة التي وجدها الجن حين استمعوا للقرآن فيقول: «إن هذه الآيات تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن، مفاجأة أطارت تماسكهم، وزلزلت قلوبهم، وهزت مشاعرهم، وأطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعًا، ولا تملك عليه صبرًا، قبل أن تفيضه على الآخرين في هذا الأسلوب المتدفق بالجد والاحتفال في نفس الأوان، وهي حالة من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه، وتدفعه دفعًا إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين في حماسة واندفاع، وفي جد كذلك واحتفال، فأول ما بدههم منه أنه عجب غير مألوف، وأنه يثير الدهش في القلوب، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، برقم (٥٠١٨)، ومسلم في صحيحه، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، برقم (٧٩٦).

(٢) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٤٩٣)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٦٤).

صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واعٍ وقلبٍ مفتوح، ومشاعرَ مرهفة وذوق ذواق، وهو عجب ذو سلطان متسلط، وذو جاذبية غلابة، يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب»[(١)].

خامسًا: ما بلغ من تأثر الأعاجم الذين لا يعرفون اللسان، ولا يفهمون القرآن:

إذ وجدوا روعة أسلوبه دون سائر الكلام، ومن الشواهد ما أورده سيد قطب في تعليقه على قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] حيث قال: «إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، إن له سلطانًا عجيبًا على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحيانًا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفًا، وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذي نقول ـ وإن لم تكن هي القاعدة ـ ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل.

ولن أذكر نماذج مما وقع لغيري ولكني أذكر حادثًا وقع لي وكان عليه معي شهود ستة، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عامًا، كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم وخطر لنا أن نقيم صلاة الجماعة في المحيط على ظهر السفينة وقد سمح ووافق قائد السفينة الكافر على إقامة الصلاة وسمح بَحَّارة السفينة وطهاتها وخدمها وكلهم مسلمون أن يصلوا معنا من لا يكون منهم في وقت العمل، قمت بخطبة الجمعة وإقامة الصلاة والركاب الأجانب معظمهم متحلقون يرقبون صلاتنا وبعد الصلاة جاءنا كثيرون

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٢٦).

منهم يهنئوننا على نجاح القداس فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا، قُدَّاس!! فشرحنا لهم الحال وأنه لا يسمى قدَّاسًا وإنما هي صلاة الجمعة. ولكن امرأة من بين ذلك الحشد عرفنا فيما بعد أنها أوروبية، كانت شديدة التأثر والانفعال تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها جاءت لتسألنا عن شيء معين وهي تبدي إعجابها بما فعلنا من نظام وخشوع وليس هذا موضع الشاهد جاءت لتسأل عن شيء معين وهي تقول أية لغة هذه التي كانت يتحدث بها قسِّيسكم؟ وهي لا تتصور أن يقيم مثل هذا إلا قسِيس فصححنا لها هذا الفهم وأجبناها، قالت إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع عجيب وإن كنت لم أَفهم منها شيئًا ثم كانت المفاجئة الحقيقة وهي تقول ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه إن الموضوع الذي لفت انتباهي أكثر في حسي وانطبع في قلبي هو أن الإمام، كانت ترد في أثناء كلامه فقرات من نوع آخر يختلف عن بقية كلامه نوعٌ أكثر عمقًا وأشد إيقاعًا في النفس إن هذه الفقرات التي كان يقرأها أثناء الخطبة أحدثت في نفسي قشعريرة ورعشة، إنها شيء آخر. وتفكرنا قليلًا ثم أدركنا ماذا تعني إنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة، وكانت مع ذلك مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة من امرأة أعجمية لا تفهم شيئًا من اللسان العربي»[١].

سادسًا: أن القارئ للقرآن لا يزال جلال القرآن وروعته يزيدان لديه ويشعر بهما في قلبه كلما تلا القرآن:

فلا يكاد قارئ القرآن يختمه ثم يعود إليه مرة أخرى، إلا وتفجؤه آيات، وتروعه أخرى، وكأنه يقرؤها لأول مرة، ويشعر بجلال القرآن يهز

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٦٨).

كيانه، فإذا عينه تفيض وتسري روح أخرى في نفسه غير التي كانت، وهو مع ذلك قد قرأ هذه الآيات مرات ومرات، ولكنها روعة القرآن التي تأخذ بالألباب.

وإن أي كتاب مهما بلغ جمال أسلوبه وروعة تأثيره لا تجد فيه هذه الروح التي تسري في القرآن كله من أوله إلى آخره، وإن أعاد القارئ قراءته، تجده يتجاوز مواضع إلى مواضع فإنْ قرأه ثالثة ورابعة لا يجد فيه لذة قراءته أول مرة، وقد كان من أبرز أوصاف القرآن الدالة على ذلك أنه: «لا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق على كثرة الرّدّ، ولا تنقضي عجائبه»(١).

❊ ❊ ❊

(١) هذه الأوصاف جزء من أثر علي ﷺ، قال ابن حجر في الكافي الشافي: «أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، من حديث الحارث الأعور عن علي ﷺ مطولًا. وفيه قصة وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات». وإسناده مجهول انتهى. وأخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والدارمي والبزار من طريق الحارث. قال البزار: لا نعلمه إلا من طريق علي. ولا نعلمه رواه عنه إلا الحارث. انتهى. وله شاهد عن معاذ بن جبل. أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة عن ابن إدريس بلفظ: «ذكر رسول الله ﷺ الفتن فشددها. قال علي بن أبي طالب ﷺ: ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله» فذكر الحديث بطوله. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود مرفوعًا أيضًا: (**إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين، والشافع، عصمة لمن تمسك به...**) الحديث. أخرجه من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم البحري عن أبي الأحوص عنه. وإبراهيم ضعيف.

المَبْحَثُ الثَّانِي

سمو القرآن ورفعته

نزل القرآن الكريم على قوم طوّعوا اللغة في التعبير عن واقعهم الذي يعيشون فيه وعاداتهم وموروثاتهم التي يوالون ويعادون عليها، وكان أدبهم خليطًا ممزوجًا بواقعهم الاجتماعي والفكري والثقافي، فترى في أساليبهم الحسن والقبيح، والكبر والخيلاء والشجاعة والفداء، فتقرأ فيه:

وَنشْرَبُ إنْ وَرَدْنا الماءَ صَفوًا ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنا كَدَرًا وطِينَا
إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ ... تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا[(١)]

كما تقرأ:

وفي الأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأذَى ... وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ
لَعَمْرُكَ مَا بِالأَرْضِ ضِيقٌ على امْرِئٍ ... سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهْوَ يَعْقِلُ[(٢)]

فنزل القرآن بأسلوبه السامي الرفيع ليصفي أكدار هذه اللغة، ويصبغ حياتهم وينقلهم إلى أرقى الحضارات وأسمى المعاني وأرفع الأخلاق.

وهذا المعنى في سمو أسلوب القرآن ورفعته فطن إليه الرافعي فقال: «نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معًا،

(١) وهي لعمرو بن كلثوم. (جمهرة أشعار العرب، لأبي الخطاب القرشي ص٢٩٥).
(٢) للشنفري، (ديوان الشنفري ص٥٨).

وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها، وأظهرها مظهرًا لا يُقضى العجب منه؛ لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود؛ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم[1]، ورِقَّة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة، وهذا معنى ليس أظهر منه في إعجاز القرآن، فإن اللغة لا تشب عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم، وإنما تكون على مقدارهم ضعفًا وقوة؛ لأنها صورتهم المتكلمة وهم صورتها المفكرة، فهي ألفاظ معانيهم وهم في الحقيقة معاني ألفاظها؛ لأن هذا الماء الصافي الذي يترقرق في عبارته، وهذا النظم الجيد الوثيق وما اشتمل عليه من بدائع الأوصاف، لا يكون البتة في لغة أمة قد أناخت بها أخلاق البداوة في ساقة الأمم حتى عبدت الأصنام، ولم تعرف من الشرائع غير شريعة الإلهام وما ملكها من ملوك الدهر غير سلطان الأوهام»[2].

ولما كان أسلوب القرآن مليئًا بدلائل السمو والرفعة، فإن القارئ له المتمسك به يظهر عليه أثر ذلك فعن عمر بن الخطاب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**)[3]. ولا شك أن المتلبس بأمر يتأثر به فكذا حامل القرآن المعظّم له يرفع الله درجته ويعلي شأنه.

---

(١) الشيح: نبات له رائحة طيبة ينبت في القيعان والرياض (تاج العروس ٦/ ٥١١)، والقيصوم كذلك: نبت طيّب الرائحة، قريب من الشِّيح ينبت في البادية، ويُتداوى به. (معجم اللغة العربية المعاصرة ٣/ ١٨٢٦).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي (ص٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، برقم (٨١٧).

ومن مظاهر رفعة وسمو أسلوب القرآن الكريم ما يلي:

أولًا: رفع ذكر القرآن وبيان علو منزلته:

فقد رفع الله ذكر كتابه وأعلى شأنه في آيات كثيرة، فقد وردت فواتح السور المبتدأة بالحروف المقطعة ببيان شرف القرآن وعلو طبقته بوجه عام، وورد منها ما نص على سموه ورفعته، فمنها قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، فهو ذو شرف عظيم ومنزلة رفيعة عالية، ومنها قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] بمعنى: «ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علمًا بمعانيه وعمل بما فيه، مَجُد عند الله وعند الناس»[(١)].

ومن رفعة الله لهذا الكتاب وإعلاء ذكره: تعدد أسمائه وأوصافه مع تباينها جميعًا عما سمّت به العرب حديثها وكلامها، وقد ورد كل اسم أو وصف منها في الأسلوب القرآني في سياقه الدال على معنى خاص به، وقد جمع الله عدة أوصاف له في آيات متتالية، كلها دالة على السمو والعلو، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٤]، وكثرة أسماء وأوصاف القرآن تدل على تنوع أغراضه ومقاصده، وإذا تعددت المقاصد وشرفت غاياتها كان ذلك من سمو هذا الكتاب ورفعته، وقد عقد الفيروزآبادي[(٢)] في كتابه «البصائر» فصلًا في ذكر أسماء القرآن ثم قال: «اعلم أنَّ كثرة الأسماء

---

(١) الكشاف (٤/ ٣٧٩).

(٢) هو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي، ولد بكارزون من أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، ورحل إلى زبيد (سنة ٧٩٦هـ) فأكرمه ملكها وولي قضاءها. وانتشر اسمه في الآفاق، وتوفي في زبيد، من أشهر كتبه القاموس المحيط، وتنوير المقباس في تفسير ابن عباس وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز توفي سنة (٨١٧هـ). (طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٢٧٥، الأعلام ٧/ ١٤٦).

تدلّ على شرف المسمَّى، أو كمالِه في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماءِ الأسد دلَّت على كمال قوُّته، وكثرةَ أسماء القيامة دلَّت على كمال شدته وصعوبته، وكذلك كثرة أَسماء الله تعالى دلَّت على كمال جلال عظمته؛ وكثرة أسماء النبي ﷺ دَلَّت على علّو رتبته، وسموِّ درجته، وكذلك كثرة أَسماء القرآن دلَّت على شرفه وفضيلته»[١].

فأسماء القرآن وصفاته دلت على السمو من ثلاث جهات:

الأول: من جهة سموِّه عن تسميات العرب لكلامها.

الثاني: من جهة ما يدل عليه كل وصف من رفعة القرآن الكريم وعظيم منزلته.

الثالث: كثرة أوصافه وأسمائه الدالة على الكمال والعلو.

ثانيًا: منة الله على رسوله ﷺ وأمته بهذا الشرف العظيم، وأن تأثرهم بهذا الكتاب يكسبهم السمو والرفعة:

فقد خاطب الله نبيه ﷺ وخصه بهذا السمو والشرف فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهذا السمو وهذا الشرف يتضمن سمو أسلوبه ولغته التي نزل بها كما قال ابن كثير: «معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم»[٢]، وقد امتن الله على عباده بهذا السمو وتلك الرفعة ودعاهم إلى أن يكونوا أول المتأثرين به ويظهر أثر السمو عليهم، فقال: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، فهذا الكتاب فيه الذكر

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٨٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٢٩).

والشرف والسمو والرفعة وفي تذييل الآية بـ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ حث لهم على التسامي لهذا الشرف والعلو لهذه المنزلة الرفيعة، فمن لم يرض بهذا الشرف فليس له إلا الدنوّ والضعة، أما من عرف قدر هذا الكتاب فقد ظهر أثر سموه عليهم، وحصل لهم من الرفعة والعلو الباهر والصيت العظيم والشرف ما هو أمر معلوم لكل أحد.

ثالثًا: كثرة ورود أسماء الله وصفاته وبيان كمال قدرته وعظمته في أسلوب القرآن:

فقد وردت أسماء الله تعالى وصفاته في مواطن متعددة من القرآن الكريم، فمنها ما جاء في بيان عظمة الله واتصافه بصفات الجمال والجلال والرفعة والعلو، ومنها ما ورد تعقيبًا على ما أجراه الله على عباده من نجاة أو هلاك، أو تعقيبًا على ما قضاه الله وقدره في خلقه، ومنها ما جاء تذييلًا لكثيرٍ من الأحكام والأوامر والنواهي، وتضمين أسماء الله تعالى على هذا النحو، من مظاهر السمو التي تؤثر في نفس القارئ والمستمع فآيات التعظيم وكمال القدرة، تصعد بالعبد إلى المراتب العالية التي يسمو بها عن التعلق بغير الله وتجعله يتعلق بالعليّ الأعلى تسبيحًا وتقديسًا وتنزيهًا، كيف وقد قال الله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، فهو العلي الأعلى الذي يرفع عباده ويقربهم إليه.

وارتباط الأحكام والأخبار اللذين هما أمر الله القدري والشرعي بأسمائه وصفاته دالٌّ على سمو حكمه وقدره الذي ارتضاه لعباده، وأن العبد حين يلحظ هذا السمو يورثه التسليم الذي ينقاد به للأحكام، ويورثه الرضا الذي يذعن به للقضاء والقدر وهذا المعنى هو ما تضمنته سورة التين في قوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا

يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٤ ـ ٨]، فأخبر جل وعلا أن الانتقال من السفول إلى العلو بالإيمان والعمل الصالح الذي يرضى به العبد ويسلم لدين الله، ثم ختم السورة ببيان حكمة الله العلي الأعلى الذي جعل في التسليم وعدم التكذيب بالدين الرفعة والعلو.

وفي إشارة لطيفة من محمد رشيد رضا إلى هذا المعنى يقول: «إن آيات الإيمان بالله تعالى تغذي التوحيد، وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله له ومعرفة محبته من التنزيه والتقديس والتسبيح، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة، حتى أحكام الطهارة والنساء والإرث والأموال، وبحكم الخلق والتدبير لأمور العالم وسننه في طباع البشر وفي شؤونهم الاجتماعية، ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من رحمة وعلم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة وحب ورضا، وما يقابل ذلك، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه والرجاء في فضله إلخ وناهيك بما سرد منها سردًا لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق التي استمد منها الأئمة الربانيون تلك الكتُب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه، بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولًا غير مملول طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية، وزكاها بالأخلاق العالية والفضائل السامية»(١).

رابعًا: سموّ ألفاظه:

فأسلوب القرآن الكريم مع تنوّع أساليبه في الخطاب وتنوّع المخاطبين به وتعدد مشاربهم، ومع ما فيه من جدل وحوار وإبطال للشبهات وردٍّ عليها، غير أنك ترى في كل نوع من أنواع الخطاب

---

(١) تفسير المنار (١١/ ١٧٢).

القرآني أن السمو والرفعة والعلو سمة ظاهرة في نظم القرآن وألفاظه ويمكن تقسيم هذا السمو إلى قسمين:

القسم الأول

سموٌّ عن الألفاظ المبتذلة وما لا يستحسن ذكره

فإن القرآن الكريم مع كثرة ما افترى عليه المفترون، من البهتان والسباب والدعاوى الباطلة، إلا أنه سما وترفّع في الرد عليهم، كيف وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ولك أن ترى هذا السموّ في رده على اليهود حين قالوا: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فقد سما عن مجاراتهم في هذه الفرية واكتفى بهذا الردّ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ فأخبر وأكّد إثباته لهذه الفرية العظيمة عليهم ومحاسبتهم عليها، ثم عقّب بقتلهم للأنبياء تسلية للمؤمنين، وتنبيههم أنهم أحفاد قتَلَةِ الأنبياء، وأن من يجترئ على قتل رسل الله لا يُستبعَد منه التجرّؤ على مقام الله ﷻ.

ولما قالوا مقالتهم الشنيعة الدالة على عدم تعظيم الله وتقديره حق قدره حين أنكروا الوحي وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، أمَر الله نبيّه بالرد عليهم مع الترفع والسمو عن سبابهم وافترائهم فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وفي قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ سمو وترفعٌ وتهديد كما قال سيد قطب: «ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم، ودعهم يخوضون لاهين لاعبين، وفي هذا من التهديد، قدر ما فيه من الاستهانة، قدر ما فيه من الحق والجد فحين

يبلغ العبث أن يقول الناس مثل ذلك الكلام يحسن احترام القول وحسم الجدل وتوفير الكلام»[١] .

ولك أن تتأمل عظمة وسمو أسلوب القرآن كذلك حين سما وتنزَّه عن مجاراة كفار قريش في افتراءاتهم وزعمهم الباطل، وإن شئت فقلّب النظر في سورة الأنعام، وما فيها من مقالات المشركين وافتراءاتهم السخيفة، وحتى تدرك مقدار سُخْفهم وعظيم فريتهم فإليك ما أخبر ابن عباس رضي الله عنهما بقوله عنهم: «من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»، قال ابن العربي تعقيبًا: «وهذا الذي قاله رضي الله عنه كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها القاصرة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل؛ والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ آلهة أعظم جهلًا وأكبر جرمًا؛ فإن الاعتداء على الله أعظم من الاعتداء على المخلوقين»[٢]، ومع عِظم الجرم كان سمو أسلوب القرآن عن مجاراتهم أعظم تأثيرًا، كمثل قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

بل بلغ من سمو الأسلوب القرآني أنه يجعل من هذه الافتراءات، ما يزيد في تعظيم الله في قلوب عباده الموحدين، فيرتفع بهم من دنَس الأقوال الشركية إلى رفعة ذاته وعظيم قدرته، فيمتلئ القلب سموًّا وتعظيمًا ومحبة وهذا واضح جلي في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] فنزّه ذاته العلية وعظمها تعظيمًا يملأ القلوب، ويهتز له خشية وجلالًا، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١١٤٧).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٢٧٦).

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠٣] وحين قالت النصارى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] جاء الرد عليهم بقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩ ـ ٩٢]، وكفى بمثل هذه الآيات سموًّا ورفعة وعلوًّا أن تقشعرّ لها الجلود، وتهتز لها القلوب، مع ما فيها من التهديد، والإنذار الشديد.

ويدخل في هذا القسم كذلك: التكنية بما لا يستحسن ذكره، ومن ذلك ما ذكره الزركشي في البرهان: «ومن عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث والدخول والنكاح ونحوهن قال تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين، وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، إذ لا يخلو الجماع عن الملامسة، وقوله في الكناية عنهن: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، واللباس من الملابسة وهي الاختلاط والجماع وكنّى عنهن في موضع آخر بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣] كناية عما تطلب المرأة من الرجل، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]»[1]، فكل هذه الألفاظ دالة على المعنى دون ذكر ما لا يحسن، بل إن هذه الألفاظ تضفي على الحياة الزوجية الحنان واللطف لتصطبغ الحياة الزوجية بهذه المعاني الذي دل عليها جمال اللفظ وسموه، ومما ورد عن ابن عباس في هذا: «الغشيان

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٠٣).

واللمس والإفضاء والمباشرة والرفث هو الجماع، ولكن الله حيي كريم يكني بما شاء»(١).

ويقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: ١٨٧] «والرفث مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها وكلاهما مقصود هنا ومباح، ولكن القرآن لا يمر على هذا المعنى دون لمسة حانية رفافة تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقًا ونداوة وتوقظ معنى الستر في تيسير هذه العلاقة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ واللباس ساتر وواق، وكذلك هذه الصلة بين الزوجين تسْتُر كلًّا منهما وتَقِيه، والإسلام الذي يأخذ هذا الكائن الإنساني بواقعه كله، ويأخذ بيده إلى معارج الارتفاع بكليته، يلبي دفعة اللحم والدم، وينسم عليها هذه النسمة اللطيفة، ويدثرها بهذا الدثار اللطيف»(٢).

وما أجمل قول الزركشي في بيان سمو ألفاظ القرآن في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] حيث قال: «أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها وهي كناية عن فرج القميص؛ أي: لم يعلق ثوبها ريبة فهي طاهرة الأثواب وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل وليس المراد غير هذا فإن القرآن أنزه معنى وألطف إشارة وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس فأضيف القدس إلى القدوس ونزهت القانتة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس»(٣).

---

(١) تفسير ابن المنذر (٢/ ٦٣٠).
(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٧٤).
(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٠٥)، وانظر في بيان معنى هذه الآية: تفسير الطبري (١١٦/٢٣).

القِسْمُ الثَّاني

السمو بالألفاظ إلى المراتب العالية والمقاصد الشريفة

فأسلوب القرآن الكريم كما سما عما لا يحسن ذكره، فقد ورد التعبير فيه بألفاظ تورث من يصطبغ به هذا السمو، فترى فيه سمو الفكر وسمو الكلام وسمو الأخلاق ولذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢] بل لتسعد وتسمو وترتفع بهذا القرآن وبما يدعو إليه.

هذا السمو نراه في التعبير بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وذلك حينما أصاب المسلمون ما أصابهم من القتل والجراح في غزوة أحد، بيّن الله لهم أن ما حصل ليس علامة ضعف فلا مجال للوهَن والحُزْن والحال حقيقة أنكم الأعلون وإن أصابكم ما أصابكم، وجاء التعبير بالأعلى دون العالي، لبيان بلوغ الكمال في العلو فأنتم الأعلون في كل شيء «عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه، ومنهجكم أعلى فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله، ودوركم أعلى فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالُّون عن الطريق، ومكانكم في الأرض أعلى فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون»(١).

وهذا السمو والرقي إلى المراتب العالية تراه في تصوير حال من قُتِل في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٨٠).

بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فالموت كأس يشربه كل مخلوق وقد أخبر الله نبيه ﷺ بوقوعه عليه فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، لكنه لما كان في سبيل الله تحوّل بشرف هذا المقصد النبيل ليكون حياة، فهم إن سُلِبُوا الحياة الدنيوية لم يُسلَبوا الحياة الطيبة، وكم طارت هذه الآية بأرواح المشتاقين وأجسادهم إلى ساحات العز ومواطن الشرف، وما ذاك إلا أنهم أيقنوا أنهم سينتقلون إلى ما هو أسمى وأعلى ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ فكم في التعبير بهذا اللفظ من سمو ورفعة.

وخذ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وتأمل التعبير بـ ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ ولم يأت التعبير مثلًا [لما هو قيّم]، وقد استدل ابن سعدي بهذه الآية على كمال القرآن الكريم وكمال أسلوبه وتأثيره(١)، والذي يتتبع سياق الآيات من بداية السورة يظهر له هذا السمو الذي دعت إليه الآية الكريمة، فإن الله تعالى أخبر أنه آتي بني إسرائيل الكتاب وجعله هدى، ثم أخبر عمّا حصل لهم من الذلّ والهوان وتسليط أهل البأس عليهم بسبب مخالفتهم للكتاب الذي جعله الله هدى لهم، ثم جاءت هذه الآية لتبيّن للمؤمنين أن التمسك بالقرآن هو الطريق الأقوم من أن يتسلط عليهم أحد، بل باتباعه يصبحون هم القائمون بأمر هذه الأمة.

وما في القرآن من آية تقرؤها وإلا وتضفي عليك هذا السمو، وكفى شاهدًا على سمو أسلوب القرآن، من ذلك القسم العظيم في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠]، فبيّن جل وعلا رفعة القرآن الكريم بالمقسَم به أولًا، حيث أقسم بمواقع النجوم، وهي ما هي في الرفعة والعلو والجمال،

---

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان، لابن سعدي (ص٣٠٤).

ورفع منزلته ثانيًا بذكر صفاته العظيمة والشريفة في جواب القسم فهو قرآن كريم، كريم بمصدره، وكريم بذاته كريم على الله وعلى الملائكة وعلى عباد الله المؤمنين، ورفع منزلته ثالثًا بذكر عظمة المُنْزِل وعلو شأنه وذاته جل وعلا، وكفى بهذا السموِّ سموًا ألّا تصل أنواره وبركاته وهداياته إلّا إلى القلوب الطاهرة.

* * *

المَبحَثُ الثَّالِثُ

جمال القرآن

الجمال في أسلوب القرآن من دلائل تأثيره، فقد استرعى سمع العرب أوّل ما نزل جمال نظمه ولذة وقعه، ولم يجد معارضوه سبيلًا أن يقولوا فيه شيئًا، فكلما قالوا فيه شيئًا رأوا مخالفة ما ذهبوا إليه لحقيقة هذا القرآن، وذلك أنهم وجدوا فيه من جمال النثر بسجعه وإرساله أكمل منه وأوفى، وتذوق سمعهم له من لذة الشعر أعذب منه وأحلى ثم هو مغاير لما برعوا فيه من أفانين النثر وضروب الشعر، وقد وصف القرآن حالهم في محاولة تصنيفه فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، ولو نطقت ضمائر هؤلاء المُتقوّلين لنطقت بما تذوقته من هذا الجمال قائلة إنه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣].

ولقد أخبر النبي ﷺ عن ربه ﷻ أنه: (**جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**)[١]، فلا ريب ولا شك أن يكون كلامه جل وعلا بلغ غاية الجمال ومنتهى الحسن.

وإن الناظر في أسلوب القرآن يلمس هذا، فقد جعله الله أحسن الحديث فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقصّ فيه من القصص أحسنها فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، برقم (٩١).

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، وأمر فيه عباده أن يقولوا من القول أحسنه فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وأخبر فيه أنه كرّم الإنسان فخلقه في أحسن خلقة فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فأي جمال وحسن بعد هذا، إذ جمّله فخلقه في أحسن تقويم وأجمل خِلْقة، وعدّله وسواه، وجمّل ما يستمع إليه من الكلام بأن أنزل له أحسن الحديث ليكون هو ما يلامس شغاف قلبه، وينير مدارك فهمه، ثم أمره بتجميل ما ينطِق به بأن يقول أحسن القول وأجمل الحديث، فلا يكون بعد ذلك إلا طيّبًا مطيّبًا.

والتعبير بالجمال في القرآن روح تسري في الأقوال والأفعال والصفات، ومن ذلك: أمره تعالى بالصفح الجميل في قوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

والصبر من الصفات الجميلة، لكنه حين اقترن بالجمال ازداد جمالًا، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]؛ أي: صبر الواثق بوعد الله، المحتسب للأجر والذي يعجز معه المعاندون أن يضجروك أو يُمِلّوك عما أنت مُقْدِمٌ عليه.

وفي مواجهة النبي لأذى المشركين، أرشد الله نبيه فقال: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وهو الهجر الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر دون أن يجاوزه إلى غيره(١).

وقل مثل ذلك في الطلاق وما فيه من المشاحة، فقد أمر الله الأزواج عند الطلاق أن يكون تسريحًا جميلًا فقال: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] فإضافة إلى ما في لفظ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ من الترفق واللين غير أنه وصفه بالسراح الجميل ليبقى خاليًا من أي أذى أو ضرر وبالتالي تبقى الذكرى في النفوس جميلة لا يكدرها ضرر أو أذى أو منع للحقوق.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٩).

وبلغ التعبير بالجمال في الأسلوب القرآني غايته في التعبير عن جمال الكون كله بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وجعل هذا الجمال مرتبطًا بجمال العمل؛ لأنه هو غاية الزينة وثمرة الجمال، فجعل الله ما على الأرض من زينة وجمال طريقًا ووسيلة إلى حسن العمل، وهذه حقيقة الشكر؛ أن تشعر بما حباك الله من الجمال، ويكون اعترافك له بحسن العمل.

ومظاهر الجمال في أسلوب القرآن يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: الجمال اللغوي.

القسم الثاني: الجمال الصوتي.

القِسْمُ الأَوَّلُ

الجمال اللغوي

وهو يتضمن:

أولًا: الجمال في طريقة تأليفه:

وجد العرب في القرآن ما يفوق النثر في جزالته، وما يفوق الشعر في نظمه ولقد كان تأليفه وترتيبه أحد أسباب الجمال كما قال الباقلاني: «فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل في وصفه»(١).

فطريقة تأليف القرآن وتقسيم آياته وسوره، طريقة لم يكن يعهدها العرب في طرائق التأليف ناهيك عما تضمنه من الجمال، حيث احتوت كل سورة على فنون من العلوم وأجناسٍ من الفوائد في القصص والأحكام والأمثال والوعد والوعيد، أحاطتها هذه السورة بحدودها كما

---

(١) إعجاز القرآن، (ص١٩٧).

تحيط البلدان أسوارها، ولا تسل عن حسن الترتيب وجمال التأليف الذي جعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب حتى أصبحت كل سورة على تنوع علومها وطول آياتها أو قصرها لها صبغة توحّدها وغاية تقصدها وجمالها الذي يميّزها(١)، هذا إذا قصرت نظرك على كل سورة بمفردها، فإذا ما ارتفعت قليلًا لتنظر إلى سور القرآن جملة واحدة رأيت أن القرآن في حسن تأليف سوره تلتقي عنده نهايات الحُسْن على تباعد ما بين أطرافه(٢).

ثانيًا: جمال اللفظ والمعنى:

اتسم أسلوب القرآن في ألفاظه ومفرداته بالجمال الذي لا يدانيه جمال.

ويبين الباقلاني جمال ألفاظ القرآن فيقول: «والعجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، أو وجه قصيدة أو فقرة، وهل تجد كل لفظة من ألفاظه، تستقل بالاشتمال على نهاية البديع، وتتضمن شرط القول البليغ!، فإذا كانت الآية تنتظم من البديع، وتتألف من البلاغات، فكيف لا تفوت حد المعهود، ولا تجوز شأو المألوف، وكيف لا تحوز قصب السبق، ولا تتعالى عن كلام الخلق»(٣).

وجمال اللفظ لا يكمل حتى تقف على جمال المعنى، وفي ذلك يقول الطبري: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته!»(٤).

ويقول أحمد بن أبي الحواري(٥): «إني لأقرأ القرآن وأنظر في آية

---

(١) انظر: الكشاف (١/ ٩٨)، التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).
(٢) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٦٢)، النبأ العظيم (ص١٤٣).
(٣) إعجاز القرآن (ص٢٠١). (٤) جامع البيان (٦/ ٢٤٥٣).
(٥) هو: أحمد بن عبد الله بن ميمون الثعلبي، الإمام الحافظ القدوة، شيخ أهل الشام، =

فيحير عقلي بها وأعجب من حفاظ القرآن؛ كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله! أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه فتلذذوا به، واستحلوا المناجاة؛ لذهب عنهم النوم فرحًا بما قد رزقوا»[١].

ويقول الزركشي: «من لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر، لم يدرك من لذة القرآن شيئًا»[٢].

ولنضرب بعض الأمثلة باختيار ألفاظ من القرآن لندرك من خلالها ما ذكره العلماء من إدراكهم لتلك المعاني الجمالية التي تؤديها هذه الألفاظ.

أ ـ كلمة [السائحون] في قوله: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، فالسائحون في هذه الآية هم الصائمون[٣]، وعند تلمس المعاني الجمالية في التعبير عن الصائمين بـ ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ ندرك أن هذا الوصف المترتب عليه هذا الأجر العظيم لا يتحقق بالصيام فحسب الذي هو حبس النفس عن الطعام والشراب ذلك أن أصل السائح الذاهب في الأرض وهو المسافر، ومن طبيعة المسافر أن يُرى عليه أثر السفر من الامتناع عن الشهوات وإظهار الذل والافتقار، فشبه الصائم به وعليه فالتعبير بـ ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ في الآية لما تضمنته من الصفة اللازمة التي يترتب عليها الأجر العظيم، وهو ألا يكون الصائم ممتنعًا عن الطعام والشراب

= أبو الحسن الغطفاني، الدمشقي، الزاهد، أحد الأعلام، أصله من الكوفة. وسمع من: سفيان بن عيينة وعبد الله بن إدريس، ووكيع ودخل دمشق، فصحب الشيخ أبا سليمان الداراني مدة. حدث عنه: سلمة بن شبيب وأبو زرعة الدمشقي وأبو زرعة الرازي، وأبو داود وابن ماجه في سننهما، توفي سنة (٢٤٦هـ). (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٨٥).

(١) لطائف المعارف (١/ ١٧٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥٥).

(٣) وهو قول جمهور المفسرين. انظر: جامع البيان للطبري (١٢/ ١٠).

فحسب، بل يكون ممتنعًا عن سائر الشهوات مُظهرًا الفاقة والانكسار لمولاه(١).

ومن المعاني الجمالية التي ذكرها الرازي: أن السائح في الأرض تتفتح له أبواب من المعرفة لما يرى ويشاهد أثناء سفره، وكذلك الصائم حين يمتنع عن الشهوات فينصرف فكره وجوارحه لطاعة الله والنظر في آياته فيفتح الله له من أبواب الحكمة والفهم ما يشاء(٢).

ب ـ كلمة [عنت] في قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] فـ [عنت]؛ أي: ذلّت، وعند الرجوع إلى أصلها تظهر كثير من المعاني الجمالية في التعبير بهذا اللفظ في هذا الموضع وذلك أن أصل عنت من عَنِيتُه؛ أي: حبسته. ومنه قيل للأسير: عانٍ(٣).

والحال التي يكون عليها الأسير ليس الذل وحده، إذًا فالتعبير بلفظ [عنت] في هذا الموضع جاء ليصوّر كل ما عليه الأسير من أحوال الذل والخضوع والانكسار، وما عليه من ترجِّي النجاة أو الخروج، وقد جاءت عبارات السلف بمجموعها لتدل على هذه المعاني، فعن ابن عباس قال: «ذلّت»، وقال: «استسلموا لي»، وعن مجاهد قال: «خشعت»، وقيل: «هو وضع الرجل رأسه ويديه وأطراف قدميه»(٤)، فكم من المعاني الجمالية التي دل عليها هذا اللفظ، فهذه الأقوال بمجموعها تتضمن من جمال المعاني ما تصوِّر به حالة الناس في ذلك الموقف وما هم فيه من عنت الوجوه أمام الحيّ القيوم.

فكل لفظ في القرآن له معنى جمالي لا يقوم به غيره، كما يقول الباقلاني: «وكيف لا يكون كذلك: وأنت تحسب أن وضع [الصبح] في

---

(١) **انظر**: غريب القرآن لابن قتيبة (ص١٩٣).

(٢) **انظر**: مفاتيح الغيب (١٦/ ١٥٤). (٣) غريب القرآن لابن قتيبة (ص٢٨٢).

(٤) **انظر هذه الأقوال في**: جامع البيان (١٦/ ١٧٣).

موضع [الفجر] يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعرًا أو سجعًا؟ وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى ـ لو وضعت موضعها ـ في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار»[١].

ثالثًا: الألفاظ القرآنية التي تحمل قيمًا جمالية في أصلها[٢]:

كاستخدام لفظ الجمال والحسن والبهجة والزينة والسّنا والنور وغيرها من الألفاظ المتكاثرة، والتي سبق التمثيل ببعضها في بداية هذا المبحث، وأكتفي هنا بقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦] ويعلق الباقلاني على هذه الألفاظ حيث يقول: «انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألَّف بينها، واحتج بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة؟ وبمفردها درة؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر من علو الأمر، ونفاذ القهر ويتجلى في بهجة القدرة، ويتحلى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضافي، ولست أقول: إنه شمل الإطباق المليح، والإيجاز اللطيف والتعديل والتمثيل، والتقريب والتشكيل وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه»[٣].

رابعًا: جمال التراكيب:

فإذا كانت ألفاظ القرآن بهذا القدر من الجمال، فكيف بها إذَا ضُمّت لأخواتها واقترنت بمثيلاتها، وليس الجمال في انتظام كل لفظ

---

(١) إعجاز القرآن (ص١٩٧).
(٢) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان (ص٢٣).
(٣) إعجاز القرآن (ص٢٠١).

جميل مع نظيره؛ لأن التراكيب في القرآن لها وقع آخر يفسّره ابن الأثير فيقول: «وأما إذا صارت - أي: الألفاظ - مركبة فإن لتركيبها حكما آخر؛ وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة، ومثال ذلك كمن أخذ لآلئ ليست من ذوات القِيَم الغالية فألّفها، وأحسن الوضع في تأليفها؛ فخُيِّل للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبدّدة، وفي عكس ذلك من يأخذ لآلئ من ذوات القيم الغالية فيفسد تأليفها؛ فإنه يضع من حسنها، وكذلك يجري حكم الألفاظ العالية مع فساد التأليف، وهذا موضع شريف ينبغي الالتفات إليه، والعناية به»(١).

تأمل مثلًا إلى جمال تركيب الجملة القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]، فالمراودة أدلّ في التعبير عن شدة رغبتها لما فيه من الملاطفة والترفق وتردد هذا الأمر منها وتكراره، إذ المادة (ر و د) نفسها تدل على مجيء وذهاب(٢)، ثم جاءت بصيغة المفاعلة التي تبيّن شدة رغبتها، وشدة إصراره على الابتعاد، وكأنها تفعل ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، ويحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه(٣).

أما قوله: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ قال ابن عاشور: «والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية؛ أي: فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه»(٤)، فتأمل جمال هذا التركيب في تصوير رغبة امرأة العزيز ومحاولاتها المتكررة وتنوع أحوالها في أن تتملّك إرادته وعفافه(٥).

---

(١) المثل السائر (١/ ١٩٤).
(٢) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٥٧).
(٣) الكشاف (٢/ ٤٥٥).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٠).
(٥) **انظر كذلك:** جماليات النظم القرآني في سورة يوسف، د. عويض العطوي (ص٢٤).

خامسًا: جمال التخلص من معنى إلى معنى:

فالخروج من معنى إلى معنى آخر من دلائل الجمال في الخطاب، لتكون المعاني آخذة رقابها برقاب بعض، وهو ميدان من ميادين التفاضل بين العرب وكان شبيب بن شيبة[١] يقول: «الناس موكلون بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه»[٢]، وجودة القطع هي حسن التخلص.

وهذا المعنى من مظاهر الجمال في أسلوب القرآن حتى عدَّه الباقلاني من المعاني التي يظهر إعجاز القرآن فقال: «إن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بيِّنًا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع.

ألا ترى أن كثيرًا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه، أما القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب.

وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف»[٣].

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا

---

(١) هو: أبو معمر شبيب بن شيبة الخطيب المنقري البصري؛ حدث عن الحسن ومعاوية بن قرة وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، وروى عنه عيسى بن يونس وأبو بدر شجاع بن الوليد وغيرهما، وكان له لسان وفصاحة. وقدم بغداد في أيام المنصور فاتصل به وبالمهدي من بعده، وكان كريمًا عليهما أثيرًا عندهما. (وفيات الأعيان ٢/٤٥٨).

(٢) البديع، لابن المعتز (ص٣٦).

(٣) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٦٢).

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إلخ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

يقول ابن الأثير: «هذا تخلص من التخلصات الحسان؛ فإن الله تعالى ذكر الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى ﷺ؛ فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذكره بتخلّص انتظم به بعض الكلام ببعض؛ ألا ترى أنه قال موسى ﷺ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فأجيب بقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. من حالهم كذا وكذا، ومن صفتهم كيت وكيت، وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته إلى آخر الكلام»(١).

هذه جملة يسيرة من مظاهر الجمال اللغوي في أسلوب القرآن الكريم وجِماع الأمر في ذلك قول الباقلاني: «إن المعاني التى تضمنها القرآن، في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع، **وذلك أنه قد عُلم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والأمر المتقرر المتصور،** ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ٢٥٣).

فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم»[١].

وإذا أدرك القارئ قيمة الجمال في أسلوب القرآن أغناه ذلك عما دونه، بل وشغله في تتبع ألوان الجمال في كل آية من آياته، وما أجمل قول صاحب الطراز بعد أن ساق جملة من الآيات: «فلينظر إلى هذا الكلام الذى يسكر العقول رحيقه ويسحر الألباب تحقيقه، وهو غاية منية الراغب، ونهاية مقصد الطالب»[٢].

القِسْمُ الثَّاني

الجمال الصوتي

الحديث عن الجمال الصوتي في أسلوب القرآن هو حديث عما عهدته العرب في كلامها وأشعارها وخطبها، وطريقة العرب في اختيار الألفاظ في دلالتها على المعاني.

وهو حديث عن ارتباط الصوت ببنية الكلمة، وأن التآلف الحاصل في الحروف هو تآلف في مقاطع أصواتها كذلك، كما قال ابن جني: «اعلم أن الصوت عَرَض يخرج من النفس مستطيلًا متصلًا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفًا، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها»[٣]، وهذا يُفَسِّر لماذا كانت العرب تجتهد في انتقاء الكلمات التي يكون لها وقع على السمع ليتوصلوا به إلى جمال المعنى، كما قال الجاحظ: «والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا

(١) إعجاز القرآن (ص٦٦).
(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ١٧٤).
(٣) سر صناعة الإعراب، لابن جني (١/ ١٩).

إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف»[(١)].

فارتباط الجمال الصوتي بالدلالة على المعاني من أهم شروطه؛ إذ المقصود من ذلك إيصال المعنى بأبهى حلة وأجمل صورة، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يعتد بجِرس الكلام ووقعه إذا لم يوصل إلى المعنى المراد، كما قال ابن الأثير: «كل عارفٍ بأسرار الكلام من أيَّةِ لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة يلذّها السمع ولا ينبو عنها الطبع، خيرٌ من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع»[(٢)].

ولما كان أسلوب القرآن الكريم في أكمل صور الفصاحة والبلاغة والتلاؤم بين اللفظ والمعنى، كانت ألفاظه وآياته أوقع في نفس السامع وأشد تأثيرًا، وقد جعل الله مجرد سماع القرآن غاية في إدراك أن هذا الكلام لا يقوله بشر فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

وهذا ما حدا بالرماني أن يجعل الجمال الذي يجده من يستمع للقرآن هو نتيجة حتمية لما تميّز به أسلوب القرآن من التلاؤم في اختيار الحروف التي توصل للمعنى[(٣)]. وهذا معنى مهم ملازم لما سيُذكر من أوجه الجمال الصوتي في أسلوب القرآن.

ومن أبرز مظاهر الجمال الصوتي:

أولًا: تناسب التراكيب الصوتية:

فقد ركّبت الحروف والكلمات في أسلوب القرآن تركيبًا عجيبًا واختير من الألفاظ والكلمات ما تجده قد وقع في نفس السامع موقع

(١) البيان والتبيين (١/ ٨٤).
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٩٥).
(٣) انظر: النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل (ص٩٦).

التأثير والإعجاز، وهذا التركيب الصوتي العجيب قد خرج من رَحِم المعنى ليدل عليه، فلا تجد دلالةً أو تصويرًا أو ثراءً ووفرة في المعاني أجمل وأبلغ من هذه الألفاظ مع ما فيها من الجمال الصوتي، فكلا الدلالتين ـ الصوت والمعنى ـ دائرتان في فلك واحد دالة كل واحدة على أختها، وهذا الوجه لا تجده مطردًا في غير القرآن، ولذا كان من أوجه خصوصيته، وبهذا يتبيّن أن من احتج من العلماء بمراعاة الفواصل في اختيار الألفاظ أو التقديم والتأخير وغير ذلك من وجوه النظم دون النظر إلى المعنى فإنه لم يتبيّن له وجه اجتماع الدلالتين في سائر ألفاظ القرآن الكريم وأن ذلك مما يتعذر على البشر القيام به.

وقد اجتهد الرافعي في تحليل التناسب والتلاؤم في التراكيب الصوتية فقال: «ولو تدبرتَ ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض ويساند بعضًا، ولن تجدها إلا مؤتلفةً مع أصوات الحروف، مُساوقةً لها في النظم الصوتي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان فلا تعذُب ولا تُساغ، وربما كانت أوكس(١) النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقًا في اللسان، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذبَ شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة»(٢).

وهذا الجمال التركيبي يمكن الوقوف عليه بالتأمل في طريقة نظم

---

(١) أصلها من الوَكْس، وهو النقصان والتنقيص (القاموس المحيط ص٥٨٠).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي (ص١٥٦).

الكلمات، وفي تخيّر اللفظ المناسب في الخطاب، والنظر في فواصل الآيات.

فمن أمثلة نظم حروف الكلام: أن الألفاظ التي تكثر عدد حروفها وتتألف من مقاطع مركبة تكون مستثقلة بطبيعة التركيب عادة، فإذا ما تأمّلت في أطول كلمات القرآن في حروفها وما تضمّه من مقاطع وضمائر ترى كيف تميزت في نطقها وسهلت في مخارجها، وتلذذت الأذن بسماعها، وكيف كانت مع ذلك هي الأقرب إلى المعنى فمن ذلك مثلًا: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فإذا ما فككنا هذه الكلمة نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل [نلزم] ثم كاف المخاطبة، وهنا نكون أمام استفهام، وفعل، وفاعل مطمور في الفعل، ومفعول، أو هو كاف المخاطبة ومفعول ثان هو الرحمة، وكل هذه التراكيب والضمائر في هذه الكلمة الواحدة وإدماجها مع بعضها يوحي بشدة إلزام الناس بما يكرهون، ومع هذا فقد جاء اللفظ على ما فيه من الإيحاء بشدة الإلزام عذبًا متناسبًا، لا تشعر فيه بصعوبة النطق واستثقاله، وتأمل أيهما أعذب في السمع؟ أن يقال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ كما في الآية أم يقال: [أنلزمكم إيَّاها]، وذلك جائز في اللغة أنه إذا اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعًا وقُدم الأعرف منهما جاز في الثاني الوصل كما في الآية، كما يجوز الفصل. هذا مع ما في اللفظ من تنوع المخارج وتغاير الحركات والاستطالة بالمد، وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأرفع من الفصاحة اللفظية[1].

ومن أمثلة اختيار اللفظ المناسب في الخطاب: أنك ترى في

(١) انظر: خصائص التراكيب (ص٦٤)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٥٣).

أسلوب القرآن ألفاظًا لم ترد إلا مفردة، وألفاظًا لم ترد إلا بصيغة الجمع، كما تلحظ إيثار لفظ على لفظ في موضع، وقد سبق بيان دقة أسلوب القرآن في انتقاء الألفاظ ودلالتها على المعاني، وهذا المبحث يضيف إلى هذه الدقة المعنوية جمال صوت اللفظ وعذوبة سمعه الذي يؤكد المعاني ويزيدها حسنًا وجمالًا، وقد رصد الرافعي جملة من هذه الألفاظ فقال: «ومما لا يسعه طوق إنسان في نظم الكلام البليغ، ومما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر، وكأنها صُبَّت على الجملة صبًّا أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعًا ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها: كلفظة [اللب] فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] ونحوهما، ولم تجئ فيه مفردة، بل جاء في مكانها [القلب]، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة؛ تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصبًا أو رفعًا، أو جرًّا فأسقطها من نظمه بتة، على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أن فيه لفظة: (الجبّ)، وهي في وزنها ونطقها، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة»(١).

كما مثّل لاستخدام معنى اللفظ وإيثاره على اللفظ فقال: «ومن الألفاظ لفظة [الآجرّ] وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي (ص١٦٠).

القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو [القرْمد] وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها، وساقها في بيان مكشوف يفضَح الصبحَ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، فانظر: هل تجد في سر الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا؛ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسُّه ولا يسوغه حقيقة نفسه ولا يجن به جنونًا ولا يقول آمنت بالله ربًا وبمحمد نبيًا وبالقرآن معجزة؛ وتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ وانظر موقع هذه القلقلة التي هي في الدال من قوله: ﴿فَأَوْقِدْ﴾ وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه، وكأنما تنتزع النفس انتزاعًا»(١).

ولم يكن اختيار هذا اللفظ لأجل سهولته على السمع فقط بل فيه من الدلالات على المعاني ما ذكره المفسرون أنه أراد بذلك عنايته واهتمامه بالشروع في بناء هذا الصرح بالاهتمام بمقدماته فإن أول ما يكون من ذلك هو الإيقاد على الطين ثم ذكر الطين دون الحجر وغيره قصدًا في التعجيل ببنائه إذ هو من أسرع ما يمكن الإيقاد عليه لبناء هذا الصرح إذ ليس مطلوبًا طول بقائه بإحكام بنائه على مر العصور بل المراد سرعة الوصول إلى ارتفاعه كي يشهده الناس ويحصل اليأس ثم ينقض من الأساس(٢) كما في ذكر الطين إشارة معنوية أخرى لتحقير شأن فرعون الذي بلغ من التعاظم والتكبر وادّعاء الربوبية ما بلغ ثم هو لا يجد وسيلة للوصول إلى ما يريده إلا شيئًا يصنعه هامان من الطين(٣).

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٦٩). (٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٢).
(٣) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٦١)

أما فواصل الآيات: فإن القارئ يلاحظ تنوع الفواصل القرآنية في الجملة، كما أنه يلحظ تشابهًا في المقاطع واختلافًا في أخرى، بيْد أن السمة العامة التي تسري على جميع هذه الفواصل، ذلك التناسب والتناسق وجمال الصوت وسهولة النطق، والله سبحانه قادر على أن تكون الفواصل كلها متشابهة؛ ولكن من رحمته بالعباد نوّع تراكيب هذه الفواصل الذي نتج عنه التنوع والجمال الصوتي، وأنت ترى كيف تتلون الفاصلة وتتنوع بتنوع المواضيع، ثم تأتي لتُوافق بنيتها وتركيبها للمعنى المقصود تمامًا دون تغليب جانب على جانب، فإذا كانت لكل فاصلة دلالتها المعنوية، فإن لها كذلك دلالتها الصوتية التي تؤثر في النفوس لتأخذها منقادة إلى المعاني بكل سهولة ويسر(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

سورة مريم تراها بدأت بـ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢]، واستمر نظام الفاصلة على طريقة واحدة حتى قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، ثم تغيّر نظام الفاصلة في مقطع يسير منها على هذا النسق: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٤٠] ثم بعد ذلك عاد سياق الفاصلة في ذكر قصة نبي الله إبراهيم مثلما بدأ قبل ذلك: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾

---

(١) انظر: الفاصلة في القرآن، للحسناوي (ص٢٢٢)، جماليات المفردة القرآنية، لأحمد ياسوف (ص٨٩).

[مريم: ٤١]، والملاحظ أن الآيات التي تغيرّ فيها نظام الفاصلة منفصلة عن السياق القصصي، وهذا يوحي بدلالة ما تحمل الآيات من أحكام وأخبار وإنذار ونحو ذلك(١).

ثانيًا: الترتيل ومناسبته لأسلوب القرآن:

فنظرًا لما في أسلوب القرآن من التميّز الصوتي فقد جاء نزوله على النبي ﷺ بطريقة يقصد بها هذا الاعتبار، فنزل به جبريل ﷺ مشافهة للنبي ﷺ ولم يكن مكتوبًا كألواح موسى ﷺ فقال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وكذلك جاء الأمر فيه أول نزوله بتخصيصه بطريقة ينفرد بها في النطق والتلاوة، ليكون ذلك أبلغ في التأثير فقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] والترتيل هو الترسل في النطق بالقرآن لبيان المعنى(٢).

وقد بيّن النبي ﷺ أثر الجمال الصوتي على الأسماع والنفوس فيما رواه جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ، الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ، حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللهَ)(٣)، وعن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)(٤)، فالتزيين هنا تزيين للفظ والمعنى ولذا كان معيار حسن الصوت في الحديث هو مدى ظهور أثره وفهم معناه، وقد وصف المناوي الحُسْن في القراءة بأنها: «حالة تقتضي مطالعة جلال الله وعرفان صفاته ولذلك

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٠٠). (٢) انظر: معالم التنزيل (٦/ ٨٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن، باب حسن الصوت بالقرآن، برقم (١٣٣٩)، والدارمي في سننه، باب التغني بالقرآن، برقم (٣٥٣٢)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في السنن، باب استحباب الترتيل في القراءة، برقم (١٤٦٨)، وابن ماجه في السنن، باب حسن الصوت بالقرآن، برقم (١٣٤٢)، وابن حبان في صحيحه، ذكر إباحة تحسين المرء صوته بالقرآن، برقم (٧٤٩)، وصححه الألباني.

الحال آثار تنشأ عنها الخشية من وعيد الله وزواجر تذكيره وقوارع تخويفه، فمن تلبس بهذا الحال وظهرت عليه هيبة الجلال فهو أحسن الناس قراءة»(١).

وهذا الجمال الصوتي المؤثر في أسلوب القرآن ليس عائدًا فحسب إلى ما فيه من الدلائل الصوتية المتوافرة في أصل اللغة من مدود وإمالات وإدغام وتخفيف وتسهيل وإبدال ونحو ذلك، بل يعود أيضًا إلى ما تميز به أسلوب القرآن من الكمال التام في التوافق الصوتي بين الكلمات والحروف الذي نشأ منه التجانس الكلي في سوره وآياته على ما فيه من التنوع في الطول والقصر والمقاطع والمبادئ التي تلامس الأسماع وتؤثر في النفس والوجدان، وهذا الذي جعل للقرآن طريقته الخاصة في الأداء وأثره المهيمن على النفوس فإذا أردت أن تحاكي هذه الطريقة المتميزة في الأداء على غير القرآن لما ظفرت بشيء من هذا الجمال(٢).

* * *

(١) فيض القدير (١/ ١٩٠).
(٢) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي (ص١٤٨).

المَبحَثُ الرَّابِعُ

واقعية القرآن

أرسل الله تعالى رسوله محمَّدًا ﷺ، وأنزل عليه هذا القرآن تبيانًا وهدى، وقد كانت عالمية هذه الرسالة إلى الخلق كافة مرتبطة بالقرآن الكريم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] قال ابن كثير: «إنما خصه به ـ أي: بالقرآن ـ ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: (**بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**)(١)»(٢)، فأصبحت الرسالة بهذا القرآن عالمية، ومنذ نزل القرآن على النبي ﷺ في أول آية منه نزل عالميًا، وأصبح بلوغ القرآن لمجموع الخلق أو آحادهم حجةً عليهم وداعيًا لهم ومبشرًا ونذيرًا، وقد سئل الليث بن سعد(٣): هل بقي أحد لم تبلغه الدعوة؟ قال: كان مجاهد يقول: «حيثما يأتي القرآن فهو داع وهو نذير، ثم قرأ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله وغيره ﷺ، برقم (١٤٢٦٣) (٢٢/ ١٦٥)، وابن حبان في صحيحه عن أبي ذر ﷺ، باب ذكر البيان بأن شفاعته لأمته، برقم (٦٤٦٢) (١٤/ ٣٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٢).

(٣) هو: الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن، عالم الديار المصرية ثقة ثبت، أبو الحارث الفهمي سمع عطاء بن أبي رباح، وابن أبي مليكة، ونافعًا العمري، وسعيد ابن أبي سعيد المقبري، وابن شهاب الزهري، وروى عنه ابن عجلان شيخه، وابن المبارك والقعنبي وآدم بن أبي إياس، مات الليث للنصف من شعبان سنة (١٧٥هـ). (سير أعلام النبلاء ٨/ ١٣٦، تاريخ بغداد ١٣/ ٣).

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]»[١]، وهذه العالمية لا يكون لها هذا التأثير الممتد امتداد الزمان إلا لما تضمنه ذلكم الخطاب من الواقعية، وهي التي لا يشعر معها المتلقي للوحي المعجز بمثاليات أو تصورات ذهنية لا حقيقة لها على الواقع ولا إدراك لها في الحقيقة، هذا الأسلوب القرآني العظيم كان ولا يزال يكشف عما أكنّته النفوس الشاردة من تناقضات وصراعات تموج موج البحار، فبمجرد أن قرَأت القرآن سكَنَتْ واطمأنت، وهدأتْ واستقرتْ، ورأت كيف يصوّر القرآن الحياة في أعدل أحوالها، ويعالج النفس البشرية على اختلاف طبائعها وأصنافها بعيدًا عن نظريات يتشدق الناس بها ولا يحققونها، ويتصورونها ولا يتعاملون بها.

ومن هذه الواقعية أن الله أنزل كتابه على رسول من البشر يخاطبهم بهذا القرآن ويدعوهم به؛ لأن البشر لا يطيقون مواجهة الملك أو الأخذ عنه، فأرسل الله لهم بشرًا مراعاة لبشريتهم حتى يتمكنوا من مخاطبته ومحادثته، ولذا قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

ويبقى السؤال الذي يبين هذه الخاصية العظيمة، ما المراد بهذه الواقعية؟ أهي واقعيته وقت نزوله؟! أم هي واقعيته في هذا الزمن؟! أم هي واقعيته على امتداد الزمن؟!

ولا تحتاج الإجابة عن هذا السؤال إلا أن نرى كيف تحقق القرآن في واقع كان أبعد ما يكون عن القرآن فأثّر فيه، وكيف نزل القرآن على هذا المجتمع بما فيه من إيمانٍ وكفرٍ ونفاقٍ فتعامل مع كل هذه الأحوال بما يناسبها، بل نرى كيف نزل القرآن على مجتمع بشري بما فيه من اختلاف الطبائع والأحوال فخاطب هذه الأنفس بحاجاتها وما يدور في

(١) جامع البيان (٩/ ١٨٣).

ضمائرها، ثم بعد ذلك نقيس هذه الصور والأحداث والمواقف على كل واقع وأي عصر فلن نجد إلا صورًا وأحداثًا ومواقف ممتدة لما تحدث عنه القرآن، ولذلك فإن من الدلائل على واقعية أسلوب القرآن: قابلية نصوصه للقياس حسب ما شابهها من العصور والأزمان كما قال ابن تيمية: «وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا، فنشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين»[1]، وهكذا ندرك كيف يتحقق القرآن في عالم الواقع أيًّا كان هذا الواقع.

هذا المعنى في الواقعية يمكن أن نفهمه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**[2]. فمعجزات الأنبياء مرتبطة بمن شاهدها حسب زمانه ومكانه وتنتهي بانتهاء تلك الحقبة أما القرآن فهو وحي يتلى ويبقى إعجازه وهدايته وتأثيره في واقع الناس ما بقي.

وسأجتهد بإذن الله من خلال النقاط التالية في عرض بعض مظاهر وصور الواقعية التي هي أحد مظاهر التأثير في أسلوب القرآن الكريم:

أولًا: التدرج في النزول وطريقة الخطاب:

من خصائص القرآن الكريم نزوله منجمًا حسب المراحل والأحداث والوقائع فالقرآن وإن نزل على وقائع وأحداث متفرقة، إلا أنه نزل كذلك

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، برقم (٤٩٨١)، ومسلم في صحيحه، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد، برقم (١٥٢).

على مرحلتين: المرحلة المكية والمرحلة المدنية، فالحديث عن الواقعية في تدرج النزول، يتضمن مراحل النزول، ويتضمن كذلك نزوله مفرقًا حسب الأحداث والوقائع.

أما تنوع نزوله بين مكي ومدني: فقد تناول العلماء ما تختص به كل مرحلة وأن لكل مرحلة أسلوبها المناسب لها في الخطاب، وهذه صورة من صور الواقعية تتجلى في الخطاب المكي والخطاب المدني، وكيف أن الأسلوب القرآني بُنِي بعضه على بعض لما يقتضيه ذلك من بناء النفس الإنسانية بهذا القرآن شيئًا فشيئًا، وفي ذلك يقول محمد قطب(١): «نستطيع أن نقول إن العقيدة هي الموضوع الرئيسي في القرآن كله، مكيّه ومدنيّه على السواء، ولكنها في السور المكية تستغرق المساحة كلها وتستوعب الحديث كله، بينما هي في السور المدنية أشبه بالتيار الجاري تستنبت على شاطئيه الحياة من كل جانب، لتترعرع وتزدهر بعد أن تشبعت بها النفس، فتجيء التنظيمات التي تنظم حياة المجتمع المسلم فتشغل معظم المساحة، ولكنها تجيئ مرتبطة بالعقيدة ومستمدة منها، نابتة في ظلها آوية في النهاية لها»(٢)، وقد سبق الشاطبي إلى هذا المعنى من أن القرآن مبني بعضه على بعض وأن ما نزل في المدينة مكمّل لما نزل بمكة ومبنيٌّ عليه، بل جعل إدراك ذلك أصلًا في فهم القرآن لارتباطه بطبيعة إصلاح النفوس وتهذيبها(٣).

أما تدرج نزوله منجّمًا حسب الأحداث والوقائع: فتتجلى الواقعية

---

(١) هو: محمد قطب إبراهيم حسين شاذلي، ولد سنة (١٩١٩م)، كاتب إسلامي مصري، له عدة مؤلفات، وهو شقيق سيد قطب، وهو صاحب مؤلفات في الفكر الإسلامي المعاصر من منطلق معرفي إسلامي مخالف لنظرية المعرفة الغربية، وهو يربط بين الفكر والواقع عبر العديد من مؤلفاته التي حاولت تفسير الواقع أيضًا من منظور إسلامي، وهو مقيم حاليًا بمكة المكرمة. (علماء ومفكرون عرفتهم ٢/ ٢٧٧).

(٢) دراسات قرآنية، محمد قطب (ص٢٢).

(٣) انظر: الموافقات (٤/ ٢٥٦).

فيه كما بينها القرآن في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وأي واقعية يمكن الحديث عنها إذا لم يجد النبي ﷺ وصحابته من بعده في هذا الكتاب من الآيات البينات والهدى والنور ما يثبّت به أفئدتهم، أمام عتوّ الكافرين ومكرهم الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فيتنزل على النبي ﷺ وقد غلبه الحزن على إعراض قومه بقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وتتنزل عليه الآيات في مناسبة أخرى بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ومثل ذلك قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٣ ـ ٦]، والملاحظ أنه في كل آية من هذه الآيات مع ما تضمنته جميعها من التثبيت، إلا أن كل آية تعالج ما أهمّ النبي ﷺ وقت نزولها، فتارة يكون حُزنه بسبب رميهم له بالكذب، وأخرى حزنًا على إعراضهم، والثالثة في بيان هوانهم على الله، وكلها دلالات على الواقعية.

ومن الواقعية في نزوله منجّمًا: تمهيد النفوس لحمل الإسلام بنقائه وصفائه وذلك بتخليتها من العقائد والعبادات والعادات الفاسدة واستئصالها، وتحليتها بالعقائد والأخلاق والعبادات التي تزكي النفس، ولو جاءت الأوامر مباشرة دون أن تستعد النفوس لتلقيها لما استجابت.

ومن الواقعية ما يكون في نزول القرآن منجّمًا من مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها، فكلما جد منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه وفصّل فيه من أحكامه ما يوافقه، فيرون إجابات لما يسألون عنه؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، حين سألوا النبي ﷺ: «أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟»[(١)].

ومن المسايرة كذلك تصحيح ما فُهم من بعض الصحابة على غير المراد أو لإزالة اللبس والإشكال، وتأمل أثر ذلك وما فيه من الواقعية في حادثة ثابت بن قيس رضي الله عنه، حيث أخرج الطبري بسنده قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢] قال: قعد ثابت في الطريق يبكي، قال: فمرّ به عاصم بن عديّ من بني العَجلان، فقال: ما يُبكيك يا ثابت؟ قال: لهذه الآية أتخوّف أن تكون نزلت فيّ، وأنا صيِّت رفيع الصوت، قال: فمضى عاصم بن عديّ إلى رسول الله ﷺ، قال: وغلبه البكاء، قال: فأتى امرأته فقال لها: إذا دخلتُ بيت فرسي فشدّي على الضبة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله، أو يرضى عني رسول الله ﷺ، قال: وأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: اذْهَبْ فادْعُهُ لي، فجاء عاصم إلى المكان، فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك فقال: اكسر الضَّبة قال: فخرجا فأتيا نبيّ الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: (**ما يُبكِيكَ يا ثابِتُ؟**) فقال: أنا صيِّت، وأتخوّف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال له رسول الله ﷺ: (**أما تَرْضَى أنْ تَعيش حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟**) فقال: رضيت ببُشرى الله ورسوله، لا أرفع صوتي أبدًا على رسول الله، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣][(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٢٢)، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٣١٤).

(٢) جامع البيان (٢١/ ٣٣٩).

ثانيًا: الواقعية في عرض الشرائع وتقريرها:

فقد عُرضت الشرائع والأحكام في أسلوب القرآن عرضًا واقعيًا، **وأبرز ما يظهر لك في ذلك أن القرآن في تقريره حلّل النفس البشرية وما يدور في خلدها إزاء هذه الأحكام ثم عرضها وأجاب عليها، فإذا أقبلت النفوس أقبلت على بيّنة** وأنت ترى هذا الفرق في الدعوات إلى المناهج والمذاهب والأفكار كيف يزيّنها أصحابها ويبالغون في تفخيم شأنها، بل ويخفون عوارها وسوآتها، فإذا ما أبصرت الأمر على حقيقته رأيت خلاف ذلك، أما أسلوب القرآن فإنه يعرض القضايا عرضًا واقعيًا وهذا ظاهرٌ في آيات كثيرة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فقد تعامل القرآن الكريمُ هنا مع ما هو خفيٌّ في نفوس الآدميين، وذلك أن شهوة النفس إذا حصلت في باب النكاح لا يكاد يخلو ذلك المشتهي من العزم والتمني، فلما كان دفع هذا الخاطر كالشيء الشاق أسقط تعالى عنه هذا الحرج وأباح له ذلك(١).

كما تلحظ ذلك أيضًا فيما شرعه الله على العباد مما فيه مشقّة على النفوس فإن القرآن قد جاء مبيّنًا موضحًا كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهذه الآية تبيّن ما فرضه الله تعالى من الجهاد على العباد، وهذا كافٍ في التشريع وامتثال الأمر، ولكن لم تقتصر الآية على الإيجاب حتى تحدّث عما يختلج في صدور القوم وتوقفهم عليه إقرارًا به، بل لا تطلب منهم

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٧١).

أن يخالفوا جبلّتهم وفطرتهم، ولكنها تعالج الأمر بمفهوم آخر وطريقة أخرى ليست في حسبانهم وهي: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ وكفى بعلم الله ورحمته، في اطّراح هذه الجبلّة أمام ما سيفتح لهم من الخير مما هو في علم الله.

وهذا الأسلوب من شأنه أن يزيل أي حرج أو إشكال أو تقاعس، بل إنه يشفي الصدر ويقوي العزيمة في الامتثال.

ثالثًا: الواقعية في طريقة الاستدلال وعرض الأدلة:

فكثيرًا ما ترد في آيات القرآن الاستدلال بالمخلوقات والآيات الكونية كالسماء والجبال والشمس والقمر والأنفس، وكل هذه الدلائل لا تحتاج من الخلق إلا إلى النظر في واقعها، وكيف جعلت السماء سقفًا محفوظًا، وكيف لا تبغي المياه على اليابسة وكيف ثُبتت الأرض بالجبال الراسيات، ولذلك كثر في مثل هذه الآيات الأسلوب الاستنكاري على من يغفل عن هذه الآيات، أو أسلوب الحث على النظر والتفكر والدعوة إليهما، خاصة في التعرف على الله ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

وكل ما كان الاستدلال بما تدركه العقول والحواس كان إلى الواقعية أقرب والتأثر به أسرع، وبهذا ندرك أسلوب القرآن في عرض الأدلة الواقعية المعقولة والتي لا تحتاج إلا للفت الأنظار دون الجنوح إلى التعقيد في اختراع أدلة منتزعة من تصورات لا حقيقة لها كما يفعل الفلاسفة والمتكلمون.

رابعًا: مراعاة التناسب في الخطاب بما يناسب تنوع المكلفين وطاقاتهم:

ومن الواقعية في ذلك: أن نوّع الله في كتابه وسائل الطاعات وطرقها ولم تكن طريقًا واحدًا أو بابًا واحدًا، وجعل المسارعة إلى مرضاته سبلًا متنوعة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦]، فجعل الإنفاق في سبيل الله طريقًا من طرق المسارعة، وجعل بذل الندى وكف الأذى طريقًا من طرق المسارعة، بل جعل الإقلاع عن المعصية بعد فعلها تعظيمًا لله وخشية له مع الاستغفار والتوبة طريقًا من طرق المسارعة، ثم بعد ذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فأي طريق سلك العبد من هذه الطاعات فالمغفرة والجنات هي طريق العاملين، كما فيها إشعار بالترغيب لبذل المزيد من هذه الأعمال إما للاستكثار من الطاعات أو للبعد عن المحرمات(١).

وهذا التنويع مناسب لطبيعة الناس وواقعهم فمن الناس من فتح له في باب الصدقة، ومنهم من فتح له في باب التطوع والعبادة، ومنهم من فتح له في حسن الخلق، والجميع داخل في قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم (٢/ ٨٧).

وكما جاء التنويع والتعداد لأبواب الخيرات في هذه الآية، فقد جاء قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] فتحًا لباب المسابقة والمسارعة لكل من آمن بالله ورسوله، وهذا شامل لجميع أبواب الخير وشعب الإيمان ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

هذه الواقعية فهمها الإمام مالك حين كتب إليه أحد أصحابه يحثه على التفرغ للعبادة فقال له: «إن الله ﷻ قسم الأعمال كما قسم الأرزاق فربّ رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه وأرجو أن يكون كلانا على خير ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قسم له»(١).

ومن الواقعية التي تدخل تحت هذا النوع أن الله تعالى نهى عباده أن يتكلفوا فوق طاقتهم، بل رفع عنهم هذه الكلفة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولذلك لما نزلت هذه الآية استبشروا وفرحوا لما فيها من الرحمة بهم.

وكل ما يكون من التخفيف ورفع الحرج والرخصة في القرآن فهي من الواقعية التي تراعي طبائع الخلق وقدراتهم.

ولقد بيّن القرآن حال أقوام خالفوا طبائعهم وتكلفوا من الأعمال ما لا قدرة لهم بها فكانت سببًا في ضلالهم وهلاكهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ

(١) التمهيد، لابن عبد البر (٧/ ١٨٥).

ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

هذه بعض صور ومظاهر الواقعية في أسلوب القرآن وما هي إلا صور يسيرة أمام كل آية من آياته ذلك أن القرآن نزل واقعيًا في كل المجالات: واقعيًا من حيث عرضهِ للعقيدةِ التي يتسلحُ بها المؤمنُ في مواجهةِ واقعِهِ، واقعيًا في كل ما جاء به من تشريعات، تناسبُ الواقعَ وتعالجُ النوازلَ والوقائعَ، واقعيًا في قصصه وأمثاله التي نستلهمُ منها العبرَ، ونستمدُّ المواعظَ ونستخلصُ الفوائدَ، واقعيًا في حِكَمِهِ ووصاياهُ التي تَشْحَذُ الهِمَمَ وتسمُو بالأرواحِ وتُقِيمُ الحياةَ وتنهضُ بالمجتمعاتِ، واقعيًا في حديثه عن حقيقةِ الإنسانِ وما يتعلقُ به من حيثُ المبدأُ والمعاشُ والمعادُ، وما أَوْدَعَ اللهُ فيه من غرائزَ وعواطفَ(١).

* * *

(١) الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام، أ. د. أحمد الشرقاوي (ص٥٦).

المَبْحَثُ الْخَامِسُ

صدق القرآن

الصدق من أعظم الصفات التي تؤثر في النفوس، لما يتضمنه من الأمانة والعلم والتحلي بمكارم الأخلاق، وهذا يؤدي إلى اطمئنان الناس إلى الصادقين والأخذ عنهم والتحاكم إليهم، وقد كان هذا هو الوصف الذي أُطلق على النبي ﷺ، ولما نزل القرآن عليه ﷺ كان الأَوْلى بالكفار وقتها أن يتبعوه ويؤمنوا به، فما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله جل وعلا، لكنهم لفرط عنادهم وشدة كفرهم جعلوا شغلهم الشاغل هو تكذيب هذا القرآن وتكذيب ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يكادون ينتهون من وصف الرسول ﷺ بالساحر والشاعر والكاهن - حاشاه - حتى يطلقوا أباطيلهم الكاذبة في وصف القرآن بأنه أساطير الأولين، وقد ذكر الله أقاويلهم في القرآن في مثل قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]، وما ذِكْر مثل هذه الأباطيل إلا إزراء بعقولهم وتسفيهًا لهم، كيف لا يصدقون هذا القرآن؟!.

ولو لم يوقن النبي ﷺ بصدق ما جاء به، لم يكن أوّل الممتثلين به، وكفى بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] حجة على ذلك، «فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذي احتوى ذلك الضمان ليس بحق أو يكون من كلامه ﷺ وهو الذي كان يتخذ الحُرَّاس

قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت كانت ثقته بها أعظم من ثقته بمن كانوا يحرسونه، وسرعان ما صرف حراسه عند نزول الآية قائلًا: (**أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ**)[١] ومثل هذا لا يمكن القيام به لو لم يُعلم صدقه»[٢].

والحق أن كل آية تدل على صدق هذا القرآن، وحسبي هنا الإشارة إلى جملة من مظاهر صدق القرآن وأثره في النفوس.

وقبل الحديث عن مظاهر الصدق في أسلوب القرآن نلاحظ أن هذه المظاهر قد تميّزت أساليبها بالعلو والعزة، وقد كان لتقرير هذا المبدأ بهذا الأسلوب أثره في النفوس؛ لأن الصدق التام خاصية من خصائص هذا الكتاب العزيز، فجاء الأسلوب القرآني لا ليثبت خلاف ما افتراه المفترون، بل ليؤكد أن الصدق من كماله وقوته وتأثيره ثم يتحدى أن يَسْلَمَ أمام هذه الأدلة أي طعن أو افتراء.

وفرق أن تأتي بالآيات والبراهين لتؤكد صدق أمر أو تنفي الكذب عنه، وبين أن تقرر صدق أمر وتعتز به ثم تتحدى أي طعن فيه، لا شك أن الثاني أشد أثرًا وأوْقع تأثيرًا.

أولًا: تقرير صدق القرآن وأنه حق لا ريب فيه:

تنوعت الآيات في تقرير صدق القرآن الكريم وتكاثرت، وحسبي الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وكفى بها تأثيرًا أن يكون أول ما يُستفتَح به القرآن بعد الفاتحة هو هذه الآية، فنفْي الريب عن الكتاب إثبات لكمال صحته

(١) أخرجه الترمذي في جامعه في أبواب التفسير، باب ومن سورة المائدة، برقم (٣٠٤٦) وحسنه الألباني.

(٢) مناهل العرفان، بتصرف يسير فيه (٢/ ٣٧٠).

وصدقه، كما في حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الْخَيْرَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ**)(١) فإذا حصلت الطمأنينة حصل التأثر والاهتداء.

وفي قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إثبات لما سبق من تقرير صدقه ببيان عظمته وقوته كما قال أبو السعود: «ومعنى نفيه عن الكتاب أنه في علو الشأن وسطوعِ البرهانِ بحيث ليس فيه مظنةُ أنْ يُرتابَ في حقيقته وكونِه وحيًا منزَّلًا من عند الله تعالى، لا أنه لا يرتاب فيه أحدٌ أصلًا ألا يرى كيف جُوِّز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]... إلخ، فإنه في قوَّةِ أنْ يقالَ وإن كان لكم ريبٌ فيما نزلنا أو إنِ ارتبتم فيما نزلنا... إلخ، إلا أنه خُولِفَ في الأسلوب حيث فُرِض كونُهم في الريب لا كونُ الريبِ فيه لزيادة تنزيهِ ساحةِ التنزيلِ عنه مع نوع إشعارٍ بأن ذلك من جهتِهم لا من جهته العالية»(٢).

وفي استفتاح القرآن الكريم بهذا الأسلوب البالغ الغاية في الوضوح والصدق والقوة أثر عظيم في فتح القلوب المغلقة إلى رحاب الهدى التام، ومن ذلك ما حصل للقس السابق (علي قواتيمالا) حيث يقول في حديثه عن القرآن: «قبل تخرجي في المرحلة الأخيرة من المدرسة المسيحية، يتطلب منا الإطلاع على الكتب السماوية، ليكون القسيس ملمًا بجميع الديانات السماوية، ومن بين تلك الكتب القرآن الكريم الذي كان نقطة تحولي إلى الإسلام حيث فتحتُ أولى صفحاته، ليسقط نظري على أول سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه وصححه، في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم (٢٥١٨)، وأخرجه النسائي في السنن، باب ترك الشبهات، برقم (٥٧١١)، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الزجر عما يريب المرء من أسباب هذه الدنيا الفانية الزائلة، برقم (٧٢٢)، وصححه الألباني في تخريجه لسنن الترمذي.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ٢٥).

تنبهت إلى تلك الآية التي لم تكن تقبل التفاوض أو المزايدة لأن المتعارف عليه عند بداية أي كتاب يبدأ مؤلفه بالاعتذار في حصول التقصير أو محاولة أن تتقبل ما كتب من عبارات، إلا أن ما شدني في تلك الآية هو أنني أمام حقيقة لا تقبل الشك أو الريبة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢][(١)] وصدق إسماعيل المزني[(٢)] حين قال: «لو عورض كتابٌ سبعين مرة لوُجِد فيه خطأ، أبى الله أن يكون صحيحًا غير كتابه»[(٣)].

ثانيًا: إخبار القرآن عن الكفار بأحوال وأقوال ستقع منهم، لا يستطيعون دفعها ومخالفتها:

من أعظم دلائل صدق القرآن تأثيرًا، أن الكفار الذين ما فتئوا يطعنون في صدقه كان يتنزل بالإخبار عن أقوالٍ وأفعالٍ ستقع منهم، وقد كان يكفيهم في تكذيبه أن يخالفوا ما ذكره القرآن عنهم، لكنهم ما استطاعوا وأنّى لهم ذلك وقد أنزله العليم الخبير.

تأمل هذا المعنى في مثل قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١ ـ ٣]، ولو كان أبو لهب يستطيع تكذيب القرآن لخالف ذلك باتباعه النبي ﷺ، وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، العدد (١٠٦١٥)، وهو أحد القساوسة الأمريكيين قبل أن يسلم من مدينة كوين جنوب الولايات المتحدة الأميركية، وكان اسمه (سيفريدوو رويس).

(٢) هو: أبو إبراهيم، إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن مسلم، المزني المصري، تلميذ الشافعي، ولد سنة (١٧٥هـ)، وهو قليل الرواية ولكنه كان رأسًا في الفقه، وامتلأت البلاد بـ: (مختصره) في الفقه توفي سنة (٢٦٤هـ). (سير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٢).

(٣) موضح أوهام الجمع والتفريق، للبغدادي (١/١٤).

وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]، فقد جاءت هذه الأفعال بالفعل الدال على المستقبل وقد سبقهم الله بأنهم سيقولون هذا القول، والقرآن يتلى على مسامعهم ومع ذلك لم يستطيعوا أن يخالفوا ما أخبر الله عنهم، ولو كانوا يستطيعون لكانت هذه أكبر فرصة لهم للطعن في صدق القرآن، ولكن شيئًا من ذلك لم يحصل، وبذلك تمَّتْ إرادة الله وأمره أن تكون دلالة صدق القرآن في عدم مخالفته فيما حكاه عنهم، وكفى بذلك دليلًا(١)، فهذه أحوال وأقوال أخبر الله أنهم سيفعلونها دلّت على صدق القرآن.

وأعظم من ذلك في الدلالة: إخبار الله تعالى لنبيّه عما تكنه النفوس أو تبيّته كما قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

فهب أنّ إنسانًا أخبرك بما يجول في نفسك لما رأى من بعض الأمارات الظاهرة عليك، لا شك أنك ستتأثر به إذا كنت تتوسم صدقه وعلمه.

فإخبار الله تعالى بما تسرّه النفوس وتضمره، وذكر ذلك في القرآن برهان ساطع ودليل قاطع على صدقه، ومجيئ الحث على التدبر بعد قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي (٨/٥١٤٦) (١٣/٧٩٠٧).

دعوة إلى التفكر في مثل هذه الآيات وأن ذكر مثل هذه الأخبار في القرآن دليل صدقه، وفي ذلك يقول البقاعي: «ولما كان التقدير: فلو كان من عند غير الله لم يخبر بأسرارهم، عطف عليه قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨٢]؛ أي: الذي له الإحاطة الكاملة ـ كما زعم الكفار ـ ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ أي: في المعنى بالتناقض والتخلف عن الصدق في الإخبار بالمغيبات أو بعضها»(١).

وكذلك ما أخبر الله تعالى مما سيقع لهم من حوادث مستقبلية، تبيّن لكل ذي لب أن القرآن حقٌ وصدق، لذا كان قول الله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] من أجمع الآيات الدالة على صدق القرآن، فأسلوبها يدل على التجدد والحدوث فيما يريه الله تعالى للعباد من الآيات العينية والنفسية من أخبار الواقع والمستقبل مما يبيّن لهم صدق القرآن.

ثالثًا: تنوع أسلوب العرض في القصة الواحدة، دون تناقض أو اختلاف:

فمجيء القصة الواحدة في القرآن بأساليب متنوعة دون تناقض أو اختلاف بين كل موضع وآخر من دلائل صدق القرآن، ومن أعظم ما يرد على شبهة المشركين الذين قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤، ٥]، فتنوع أساليب هذه القصص مع بلوغها الغاية في الكمال والبلاغة دونما تناقض بينها أو تفاوت في أسلوبها دليل على صدق القرآن.

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٤٠).

رابعًا: عدم تطرق التناقض والاختلاف إليه على اتساع أسلوبه وتفرق نزوله:

وفي ذلك يقول القرطبي: «ليس من متكلم يتكلم كلامًا كثيرًا إلا وُجد في كلامه اختلاف كثير، إما في الوصف واللفظ، وإما في جودة المعنى، وإما في التناقض، وإما في الكذب، فأنزل الله ﷻ القرآن وأمرهم بتدبره؛ لأنهم لا يجدون فيه اختلافًا في وصف ولا ردًا له في معنى، ولا تناقضًا ولا كذبًا فيما يخبرون به من الغيوب وما يسرون»(١).

وفي دعوة الله لتدبره بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] دعوة إلى النظر في هذه الخاصية العجيبة التي تكفي لإثبات صدق القرآن، وهي أن يظل هذا الكتاب يتفرق نزوله على نحو عشرين سنة في أماكن متفرقة وأحوال متنوعة وأزمان متباعدة، ثم لا تجده يكذِّب بعضه بعضًا أو يخالف بعضه بعضًا، وقد كان لهذا المظهر من مظاهر صدق القرآن أثره على النفوس(٢).

وقد ذكر الطاهر ابن عاشور سببًا من أسباب اختصاص أسلوبه بالصدق التام فقال: «وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معانٍ مفيدة محررة، شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة، كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة، مثاله قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٩٠).

(٢) ومن ذلك ما ذكره جفري لانج في قصة إسلامه حيث استدل على صدق القرآن بخلوه من التناقضات. انظر: دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم (ص١٦٤).

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، فبين أن الهوى قد يكون محمودًا إذا كان هوى المرء عن هدى، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢، ٣]»(١).

خامسًا: التعقيب بعد ذكر الأخبار والقصص بنفي علم النبي ﷺ بها قبل نزول القرآن:

ففي إخبار الله تعالى لنبيه عن أخبار الأمم السابقة ثم تعقيبه بنفي العلم عنه قبل نزول القرآن بذلك، دليل على صدق القرآن، ثم إن تكرر هذا التعقيب في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] له دلالته في أن هذه القصص قصد منها التنويه بصدق القرآن، بل هو مصدر الصدق في تلقي هذه القصص كما قال أبو السعود حول هذه الآيات: «المرادُ إلزامُ المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، إذ لا سبيلَ إلى معرفتك إياه سوى ذلك، إذ عدمُ سماعِك ذلك من الغير وعدمُ مطالعتِك للكتب أمرٌ لا يشك فيه المكذِّبون أيضًا، ولم تكن بين ظَهرانِيهم عند وقوعِ الأمر حتى تعرِفه كما هو فتبلّغَه إليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم، وفيه أيضًا إيذانٌ بأنَّ ما ذُكر من النبأ هو

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).

الحقُّ المطابق للواقع، وما ينقُله أهلُ الكتاب ليس على ما هو عليه؛ يعني: أن مثلَ هذا التحقيقِ بلا وحي لا يُتصوّر إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي»[١].

❊ ❊ ❊

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ٣٠٩).

المَبْحَثُ السَّادِسُ

قوة حجة القرآن وإقناعه

من مظاهر تأثير الأسلوب القرآني ما تضمنه من قوة الحجة والإقناع، سيّما مع أهل الكبر والعناد، وقد وصف الله أصنافًا من المخاطبين بالجدل والخصومة والخوض بالباطل واللّدد فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، لأجل ذلك جعل الله تبارك وتعالى إنذار هؤلاء من حِكَم تنزيله فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم: ٩٧]، وهذا الإنذار يتضمن قوة الحجة التي تزلزل أركان الباطل فتدكّه، كما قال ابن عطية: «وهذا عندي - أي: اللدّ - فجور الخصومة ولا يلدُّ إلا المبطل، ولما وصفهم الله تعالى بأنهم لدّ وهي صفة سوء بحكم الشرع والحق، وجب أن يُفسِدَ عليهم بالوعيد والتمثيل بإهلاك من كان أشد منهم وألدّ وأعظم قدرًا ما كان يسرهم في أنفسهم من الوصف بـ [اللدّ] فإن العرب لجهالتها وعتوها وكفرها كانت تتمدح باللد وتراه إدراكا وشهامة»(١).

ويقول ابن سعدي: «﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾؛ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٥).

في كفرهم فتنذرهم فتقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة»(١).

فمهما بلغت خصومة المعاندين ومجادلة المبطلين فلن تقف أمام قواطع الحجج والأدلة التي أنزلها الله في كتابه تزهق الباطل وتدمغه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال في موضع آخر: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وهذا الأسلوب فيه من القوة في مواجهة الحجج الباطلة ما لا يخفى، قال أبو السعود: «وقد استُعير لإيراد الحقِّ على الباطل القذفُ الذي هو الرمْيُ الشديدُ بالجِرْم الصُّلْب كالصخرة، وَلِمَحْقه للباطل الدمغُ، الذي هو كسرُ الشيء الرِّخْوِ الأجوفِ وهو الدِّماغ، بحيث يشق غشاءه المؤدّيَ إلى زُهوق الروحِ تصويرًا له بذلك ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾؛ أي: ذاهب بالكلية، وفي إذا الفجائية والجملة الاسميةِ من الدِلالة عَلى كمالِ المسارعةِ في الذهاب والبطلان ما لا يخفى»(٢).

وقد أوصى ابن العربي بالتعويل على أدلة القرآن وأساليبه في سوق الأدلة والبراهين فقال: «وخذوا مني في ذلك نصيحة مشحونة بنكت من الأدلة، وهي أن الله سبحانه رد على الكفار على اختلاف أصنافهم بكلامه، وساق أفضل سياق أدلته، وجاء بها في أحكم نظام وأبدع ترتيب فعلى ذلك فعولوا»(٣)، وقال: «إن الله تعالى وله الحمد أنزل كتابه على نبيه نورًا محكمًا، هدىً تبيانًا، يجادل بالحجة جميع الكفرة، فما بقي نوع من الأدلة، ولا وجهٌ من وجوه الحجج، إلا وجاء بها على أوضح منهج، وتناولت كل حجة طائفة من الملحدة وأصحاب الطبائع الصابئة

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٥٠١).
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٦٠).
(٣) العواصم من القواصم (ص٨٠).

بقدرها، واليهود والنصارى والزائغين بقسطها، على نحو ما قالت كل طائفة من الشرك، ولو شاء ربنا لكفهم عن هذه المقالات وإذ أطلقها على ألسنتهم، فقد نص كيف تنقض أقوالهم حسبما تقرر من الأدلة ومن كيفية استعمالها في كتابه وعلى لسان رسوله»(١).

وعند التأمل في عرض حجج القرآن ومجادلة أصناف المكذبين، **يمكن استخلاص أبرز مظاهر قوة الحجة في أسلوب القرآن:**

أولًا: إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة(٢):

تميز أسلوب القرآن الكريم في عرضه لجميع أنواع الحجج والبراهين وأنواع الأدلة بأسلوبه الخاص الذي تميز بالبلاغة والقوة والإحكام دون التطرق إلى مسالك المتكلمين وطرائق المنطقيين، وهذه الطريقة تتوافق مع مقاصد القرآن في الهداية والبيان كما بيّن ذلك ابن القيِّم فقال: «فالطريقة البرهانية هي الواردة بالوحي الناظمة للرشد الداعية إلى الخير، الواعدة لحسن المآب المبينة لحقائق الأنباء، المعرِّفة بصفات رب الأرض والسماء، وأن الطريقة التقليدية التخمينية هي المأخوذة من المقدمتين والنتيجة والدعوى التي ليس مع أصحابها إلا الرجوع إلى رجل من يونان وضع بعقله قانونًا يصحح بزعمه علوم الخلائق وعقولهم، فلم يستفد به عاقل تصحيح مسألة واحدة في شيء من علوم بني آدم، بل ما وزن به علم إلا أفسده، وما برع فيه أحد إلا انسلخ من حقائق الإيمان كانسلاخ القميص عن الإنسان»(٣).

وهذه الطريقة بلغت من القوة أن أخرجت تلك الحجج في أجلّ الصور مشتملة على أدق المفاهيم لتشمل الحجة بها جميع المخاطبين،

---

(١) العواصم من القواصم (ص١١٠).
(٢) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٨٤).
(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم (ص١١٥).

وهذا وجه من أوجه التميز في أسلوب المحاجة، وهذا ما وجّه به الزركشي تنزُّل القرآن بتلك الطريقة فقال: «المائل إلى دقيق المحاجّة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخطّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزًا، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلقه في أجلّ صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء، ولذلك إذا ذكر تعالى حجةً على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقل، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهًا أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقته منها، وذلك نحو قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] وغيرها من الآيات»(١).

ثانيًا: تضمن الأدلة والحجج القرآنية لصور متعددة من صور الإقناع:

فقد تضمنت حجج القرآن والأدلة التي جاء بها من صور الإقناع وأنواعه ما لو قلبت آياته وتدبرت في معانيها لظهرت لك قوتها وصحتها.

ففي قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] احتج الله تعالى على اليهود في تكذيبهم للنبوة بأنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يستنصرون على العرب بظهوره، فلما ظهر كفروا به، وجحدوا نبوته، والاستفتاح على العرب به نقيضان لا يجتمعان، وأحدهما يستلزم بطلان الآخر فإن كان

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤).

الاستفتاح به حقًا كانت نبوته حقًا، وإن كان إنكار نبوته كما يزعمون حقًا كان الاستفتاح به باطلًا، وهذه الحجة مما لا جواب عليها البتة، ومع ذلك فقد تعددت وتنوعت فيها صور الإقناع تنوعًا عجيبًا، وقد ذكر ابن القيِّم فيها عشر صور من صور الإقناع، أذكرها بإجمال وإدماج:

١ ـ أن يقال: قد أقررتم قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

٢ ـ أن يكون الإيمان به من باب الأولى؛ لأن استفتاحهم به دليل على إيمانهم به بطريق العلم الغيبي فلما صار مشاهدًا مرئيًا كان الإيمان به أبلغ.

٣ ـ أن يكون الإيمان به بطريق اللزوم؛ لأن إيمانهم به لازم لاستفتاحهم به، ووجود الملزوم بدون لازمه محال.

٤ ـ أن يكون الإيمان به من باب اطّراد القول بموجب الدليل، وذلك أن استفتاحهم به عن دليل، ويجب الأخذ بموجب الدليل حيث وجد، فأما أن يقال بموجبه في موضع ويجحد موجبه في موضع أقوى منه فمن أبطل الباطل.

٥ ـ أن تكذيبهم للنبي بعد ظهوره تكذيب للنبي الذي أخبر به قبل ظهوره بل من أشد التكذيب، فيكونوا بذلك مكذبين للنبي الأول والثاني.

٦ ـ أن يكون الإيمان أوجب من باب تضافر الأدلة وقوتها، وذلك أنهم استفتحوا به ولو كان استفتاحهم باطلًا لما ظهرت على يديه من المعجزات ما يوجب اتباعه فكيف وقد انضمت المعجزات بعضها لبعض.

٧ ـ استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف فيقال لهم ألستم كنتم تستفتحون به؟ فيقولون بلى، فيقال أليس الاستفتاح به إيمان به فلا بد من الاعتراف بذلك؟ فيقال: أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبل وجوده

موجبًا عليكم الإيمان به فلا بد من الاعتراف أو العناد الصريح(١).

ثم قال ابن القيِّم بعد أن ساق هذه الأوجه: «وليس لأعداء الله على هذا الوجوه اعتراض البتة سوى أن قالوا: هذا كله حق، ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به، وهذا من أعظم البهت والعناد، فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] **والمادة الحق يمكن إبرازها في الصورة المتعددة وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحة** وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان والحمد لله المان بالهدى على عباده المؤمنين»(٢).

ثالثًا: الإعراض عن الحجج التي بُنيت بغير علم أو المجادلة بعد ظهور الحق:

من قوة أسلوب القرآن في عرضه للحجج، إعراضه عن مناقشة أي حجة بنيت بغير علم، بل وذمه لمن كانت هذه طريقته، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، وذلك أن الجاهل لا يميّز بين الحق والباطل، فلا حاجة حينئذٍ لتكثير الحجج، وقد قطع الحق جل وعلا على أهل الكتاب المحاجة فيما ليس لهم به علم حين زعموا أن إبراهيم عليه السلام كان على ملتهم فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا

(١) انظر: بدائع الفوائد (٤/ ١٤٤ ـ ١٤٧).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٤٧).

لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥، ٦٦] فإذا كان الله تعالى ذمهم وعاب عليهم المحاجة بغير علم ولا منهج بيّن، فلا حاجة إذًا للرد عليهم أو الاشتغال بهذه الحجة؛ لأنها ما سيقت إلا لأجل المماحلة واتباع الهوى وحينئذٍ إهمالها أولى من الرد عليها؛ لأنها حجة ساقطة داحضة، ولذا فقد جاءت الآية بعدها بأسلوب التقرير الذي لا يقبل النقاش والجدال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ولما كان هذا الأسلوب فيه من القوة في إسقاط الحجج ما فيه، أمر الله نبيّه بالإعراض عن مجادلة الجاهلين فقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقد بيّن الله أن غاية هذه الحجج هي التكذيب، فلا حاجة حينئذ للاكتراث بها فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، فالاشتغال بِتطَلُّب الردود لكل حجة مما يشغل ولا يفيد كما قال ابن تيمية: «ومما ينبغي أن يُعلم أن الله إذا أرسل نبيًا وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة، وظهرت بها المحجة، فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابته إلى ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك؛ لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة، وطلب المتعنتين لا أمد له»(١).

وكذلك نجد أسلوب القرآن يقطع المحاجة بعد ظهور الحق وينعى على من يفعل ذلك كما في قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، وذلك أن المعارض محجوج بالحق الظاهر

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٦/ ٤٢٩).

البيّن ملزَم به، فتطلب المعارضة بعد ظهور الحق نوع من العبث لا حاجة للنظر فيه فضلًا من الرد عليه، كما قال القرطبي: «لا خصومة بيننا وبينكم؛ لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدال»(١).

وقد كان توجيه الله تعالى لأهل الإيمان يوم بدر أن مجادلتهم في الخروج للعير بعد ما وعدهم الله بالنصر إنما هو جدال بعد ظهور الحق، كافٍ في الرجوع للحق دون الحاجة إلى التطويل والمناقشة فقال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥، ٦]، يقول السعدي: «والحال أن هذا لا ينبغي منهم خصوصًا بعد ما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به ورضيه، فبهذه الحال ليس للجدال محل فيها؛ لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان»(٢).

وبهذا يتبيّن أن الإعراض عن حجج الجاهلين وإغفالها، من قوة القرآن في المحاجة ومظهر من مظاهر تأثيره وأنه يُؤَثِّر ولا يتأثَّر، وكم طلب المعاندون من آية وحجة فيكون حظهم من طلبهم تنزّل الآيات بكل قوة لتحسم وتقطع كل ما يزعمون: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

رابعًا: مطالبة المعارض بالدليل دون الانشغال باعتراضه:

من عادة القرآن بعد عرضه للأدلة والحجج الصحيحة أن يطلب الاستدلال من المجادِل والمعارض على صحة دعواه، دون النظر لما

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٣١٦).

يحصل من المعارض من رد الدليل الصحيح أو نقضه، فالدليل القرآني حجة قاطعة ومن رام نقضه فليأت بدليل مثله وذلك أن الرد والتشغيب طريقة الضعفاء وأصحاب الهوى، وفي ذلك يقول ابن العربي: «فإن المبتدع إذا استدللت عليه شغب عليك وإذا دعوته إلى الاستدلال لم يجد إليه سبيلًا، فإن الله تعالى لم يجعل له على الباطل دليلًا»(١).

ويقول الراغب: «واعلم أن سبيل إنكار الحجة والسعي في إفسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها، ولهذا يتحرى الجدِل الخصيم أبدًا بالدفاع لا المعارضة بمثلها، وذلك أن الإفساد هدم وهو سهل، والإتيان بمثله بناء وهو صعب، فإن الإنسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات وإحراق النبات، ولا يقدر على إيجاد شيء منها، يمكنه إفساد حجة قوية بضربٍ من الشبه المزخرفة ولا يمكنه الإتيان بمثلها، ولأجل ما قلنا دعا الله ﷻ الناس في الحجج إلى الإتيان بمثلها لا إلى السعي في إفسادها، فقال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]»(٢).

وهذا ظاهر كذلك في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩]، فألزمهم الله في إبطالهم للتوراة والقرآن بأن يأتوا بما هو أهدى منهما، أما التشغيب ورمي التهم فليس له أن يصيّر الحق باطلًا ولذا قال أبو السعود: «ومثل هذا الشرط مما يأتي به من يدِلُّ بوضوح حجته وسنوح محجته؛ لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيّن الاستحالة، فيوسع دائرة الكلام

(١) العواصم من القواصم (ص٢٥١).
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني (ص١٨٨).

للتبكيت والإفحام ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]؛ أي: في أنهما سحران مختلقان وفي إيراد كلمة إن مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم»[(١)].

وقد عقّب الله بعد هذه الآية ببيان ضلالهم واتباع أهوائهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] وفي هذا بيان لقوة القرآن في عرضه للحجج والبراهين وقطعها لدابر المعاندين.

وحين حكى الله ما جرى بين إبراهيم والنمرود في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ترى أثر هذه الطريقة في قوة الحجة وتأثيرها من وجهين:

الأول: أن إبراهيم عليه السلام كان قادرًا على رد اعتراض النمرود ومخاصمته في حجته فيطلب منه أن يُحْيِيَ من أمات، ولكن لما كان هذا من قبيل المشاغبة والمعاندة ترفّع عليه السلام عن مجاراته ولو بالرد عليه، وهذا هو معنى قول الزمخشري: «وكان الاعتراض عتيدًا ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجّه فيه»[(٢)].

الثاني: أنه طالبه في الاستدلال على ادعاء ألوهيته بحجة تبطل ادّعاءه في كلا الحجتين فقول إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ تتضمّن معنى: فإن كنت إلهًا كما ادّعيت تحيي وتميت ـ وهذا يلزم منه قدرته على التصرف في الوجود ـ فَأْتِ بالشمس من المغرب، فلما أتاه بهذه الحجة أبطل دعواه في كلا الحجتين

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/١٨).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/٣٠٦).

فبهت وانقطع[١]، فانتقال إبراهيم عليه السلام إلى الدليل الثاني إعراض عن مجاراة المعارض والمجادل في الاعتراض والتشغيب، وإلزامٌ له بصدق دعواه لا كما ارتآه بعض المفسرين من أنه انتقال من دليل خفي إلى دليل ظاهر، لكن هذا من القوة في عرضه الحجج دون الدخول في سفسطة المجادِل وجهالته، وهذا ما ذهب إليه أبو حيان، حيث قال: «وأردفه إبراهيم بحجة ثانية، فحاجّه من وجهين، وكان ذلك قصدًا لقطع المحاجة، لا عجزًا عن نصرة الحجة الأولى»[٢]. وهو ما يرجحه ابن كثير فيقول: «وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية. وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويبين بطلان ما ادَّعاه نمرود في الأول والثاني»[٣].

خامسًا: الاحتجاج على المعارض وإلزامه بحجته التي ساقها:

فمن أعظم صور أسلوب القرآن في عرض الحجج، إلزام الخصم بحجته ودليله الذي احتج به، وذلك أن الله ﷻ أنزل كتابه مشتملًا على البراهين الواضحة والحقائق الساطعة، فأي دليل أو اعتراض على هذا الحق فهو ناقص الاستدلال ويقضي بفساده وبطلانه بوجه من الوجوه يخفى على صاحبه، فالله سبحانه له الحجة البالغة كما قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فهي غالبة في الاحتجاج بها، مظهرة لفساد من احتج عليها، لبلوغها الغاية فيما جُعلت حجة فيه[٤].

وقد بيّن ابن العربي أن هذه الطريقة من طرق القرآن في عرض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٨٦). (٢) البحر المحيط (٢/ ٦٢٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٨٦). (٤) انظر: جامع البيان (٩/ ٦٥٣).

الحجج فقال: «وافهموا أنكم إذا أردتم تُيَقِّنوا مشككًا أو تَدُلُّوا حائرًا لم يكن فيه شيء أنجع من أخذه من بابه وهذه سيرة الله في أدلته لأوليائه مع أعدائه وسُنَّة أنبيائه في أنبائه»(١).

فحين ادعى المشركون لله الولد ردّ عليهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وهذا فيه إلزامهم بنقيض ما ذهبوا إليه من اعترافهم بأنه هو الخالق سبحانه وليس له صاحبة، كما قال ابن تيمية: «فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد وأن التولد إنما يكون بين اثنين، وهو سبحانه لا صاحبة له، وأيضًا فإنه خلق كل شيء وخلْقُه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلًا بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع، فيمتنع مع كونه عالمًا أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور كالحار والبارد فلا يجوز إضافة الولد إليه بوجه سبحانه»(٢)، فقولهم هذا يلزم منه نقيض ما هم معترفون به، وهذه الطريقة من روائع الاستدلال(٣).

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] فقد عدّ ابن القيِّم هذه الآية من أحسن ما يستدل به على إلزام الخصم بالحجة بإظهار فساد قوله فقال: «وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه. فإنهم خوّفوه بآلهتهم

(١) العواصم من القواصم (ص٤١).
(٢) الرد على المنطقيين، لابن تيمية (ص٢١٩).
(٣) مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص٣١٥).

التي لم يُنزِل الله عليهم سلطانًا بعبادتها. وقد تبيّن بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها، ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى؟ فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟»(١).

هذه بعض الصور والمظاهر في قوة أسلوب القرآن في عرض الحجج، وهي صور عامة يدخل فيها ما اشتمل القرآن من أنواع الأدلة والحجج والبراهين فإن كتاب الله قد أحاط بجميع هذه الحجج وأكملها كما قال الزركشي: «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به»(٢).

كما أن المظهر العام في عرض الحجج هي معاملة كل مخاطب بما يتناسب مع حالته العلمية والاعتقادية، فخطاب الله للملائكة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٢]، يختلف عن خطاب المشركين في الأمثلة السابقة، وقد ألزم الله الملائكة بالحجة كما ألزم المشركين لكن الخطاب مختلف، وهكذا الحال حين خاطب الله أهل الإيمان في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥، ٦] ومعاتبة من حصل منهم جدال بعد ظهور الحق، ليس كخطاب الله للمخالفين المعاندين الذين يردون الحق معاندة وجحودًا، ومع ذلك فقوّة

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٤).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤).

الحجة لا تخفى في آية سورة الأنفال كما هي ظاهرة في غيرها من الآيات السابقة، وقل مثل ذلك في تنوع طريقة الخطاب بين المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وهذا هو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

❊ ❊ ❊

الفَصْلُ السَّابِعُ

شمول خطاب القرآن

ويتضمن تمهيد وثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: خطاب القرآن العقل والعاطفة.
- المبحث الثاني: خطاب القرآن العامة والخاصة.
- المبحث الثالث: خطاب القرآن الحس والوجدان.

تَمْهِيدٌ

القرآن الكريم هو الحجة البالغة، والمعجزة الباقية التي تدل على صدق الرسالة ولذا قال ﷺ: (**مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)(١).

وإن النبي ﷺ ليرجو أن يكون أكثر الأنبياء تابعًا، بسبب هذا الوحي الذي أوحاه الله إليه، ذلك أن المعجزة المادية تنحصر في زمان النبي، بل قد لا يشهدها إلا من حضرها، كما قال ابن حجر(٢): «المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتّبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا»(٣)، فالقرآن حينئذٍ شاملٌ في خطابه كل من يشمله الخطاب، ولذلك خاطب الله الخلق

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، برقم (٤٩٨١)، ومسلم في صحيحه، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد، برقم (١٥٢).

(٢) هو: أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين، ابن حَجَر، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان، ومولده ووفاته بالقاهرة، ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره، توفي سنة (٨٥٢هـ). (الأعلام ١/ ١٧٨).

(٣) فتح الباري (٨/ ٦٨٥).

قاطبة، إنسهم وجنّهم مؤمنهم وكافرهم، كما خاطب النفس البشرية بكل تركيباتها، فخاطب في النفس البشرية العقل والعاطفة والفطرة والحس، وبهذا كان القرآن العظيم أشمل وأعظم خطاب خاطب الله جلَّ شأنه به الإنسانية، لما أنزله على النبي محمد ﷺ. وبهذا الخطاب الإلهي كان ﷺ أكثرهم تابعًا يوم القيامة.

وسيكون الحديث حول شمول خطاب القرآن من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: خطاب القرآن العقل والعاطفة.

المبحث الثاني: خطاب القرآن العامة والخاصة.

المبحث الثالث: خطاب القرآن الحس والوجدان.

* * *

المَبْحَثُ الْأَوَّلُ

خطاب القرآن العقل والعاطفة

شمل القرآن في خطابه العقل والعاطفة وذلك أن القرآن حين يخاطب المكلفين لا يخاطبهم خطابًا أغلبيًا يمكن أن يخرج منه بعض الأفراد فلا يشملهم الخطاب، بل يخاطب كل فرد منهم خطابًا مباشرًا، يأمره وينهاه، ويقص عليه القصص ويضرب له الأمثال، كما في قول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»، وكما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ...**) الحديث[(١)].

ولما كان الخطاب في القرآن خاصًا بكل فرد من هذه الناحية فقد شمل الخطاب القرآني كل قوى الإنسان وملكاته ومداركه التي تؤثر فيه، فشمل خطابه العقل والعاطفة كما شمل خطابه الحواس والوجدان[(٢)].

وقبل بيان ما تميز به أسلوب القرآن في خطابه للعقل والعاطفة، يحسن بيان المراد بهما في هذا المبحث: فالعقل هو الآلة أو الملكة التي يستطيع بها العبد التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ، واكتساب المعارف، ومعرفة النسبة بين الأشياء، واستنباط

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم (٣٩٥).

(٢) سيأتي الحديث على خطاب الحس والوجدان في المبحث الثالث بإذن الله، والفرق بين الوجدان والعاطفة.

النتائج من المقدمات ونحوها[١].

قال البغوي في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]: «والعقل مأخوذ من عقال الدابة، وهو ما يشد به ركبة البعير فيمنعه من الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود»[٢].

أما العاطفة: فهي قوة وملكة الميل إلى المحبوب والميل عن المكروه سواء أكان حقًا أم باطلًا صوابًا أم خطأً، خيرًا أم شرًا[٣].

قال في المعجم الوسيط: «(عطف) الشَّيْء حناه وأماله، و(تعاطف) الْقَوْم عطف بَعضهم على بعض، و(العاطفة) الْقَرَابَة وَأَسْبَاب الْقَرَابَة والصلة من جِهَة الْوَلَاء والشفقة و(فِي علم النَّفس) استعداد نَفسِي ينْزع بِصَاحِبِهِ إِلَى الشُّعُور بانفعالات مُعينَة وَالْقِيَام بسلوك خَاص حِيَال فكرة أَو شَيْء»[٤].

فأسلوب القرآن خاطب العقل الذي يميّز بين الحق والباطل وخاطب العاطفة التي تميل إلى ما تحب وعما تكره.

ولا شك أن كُلًا من العقل والعاطفة له من المؤثرات ما يختلف عن صاحبه، **وقد تميز أسلوب القرآن في خطابه للعقل والعاطفة بما يلي:**

أولًا: إقناع العقل وإمتاع العاطفة[٥]:

فالعقل والعاطفة في الإنسان كقوتين، تؤثران على السلوك والأفعال، هذه تفكر وتدقق وتميّز، وتلك تميل وتحب وتكره، وهما كذلك تتنازعان وتتجاذبان في النفس فمتى ما خاطبت إحداهما؛ ابتعدت عن الأخرى، وذلك أن حاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، وقد

(١) منهج القرآن في مخاطبة الإنسان بالعقل والعاطفة، إبراهيم آل جار الله (ص٥٧).
(٢) معالم التنزيل (١/ ٨٨).
(٣) منهج القرآن في مخاطبة الإنسان بالعقل والعاطفة (ص٥٩).
(٤) المعجم الوسيط (٢/ ٦٠٨).
(٥) انظر: النبأ العظيم (ص١٤٨).

تميز كلام الناس بين الخطاب العقلي الذي يجتهد في التمييز بين الأشياء والبحث عن الحقائق، وبين الخطاب الذي يستهوي النفوس ويلامس العواطف. أما أن يُجمع بينهما فهذا إن أدركه الحاذق في يسير الكلام فيستحيل أن يتّسم به على الدوام، ويبيّن الزرقاني وجه ذلك فيقول: «ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة في بني الإنسان غير متكافئة، وعلى فرض تكافئهما في شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة بل على سبيل المناوبة، فكلام الشخص إما وليد فكرة، وإما وليد عاطفة، وإما ثوب مرقع يتألف من جمل نظرية تكون ثمرة للتفكير ومن جمل عاطفية تكون ثمرة للشعور، أما أن تأتي كل جملة من جمله جامعة للغايتين معًا فدون ذلك صعود السماء وكيف يتسنى ذلك للإنسان وهو لم يوهب القوتين متكافئتين ولو تكافأتا لديه فإنه لا يستطيع أن يوجههما اتجاهًا واحدًا في آن واحد متقارنتين»(١).

أما أسلوب القرآن فقد جمع بين الغايتين ولبى مطلب هاتين القوتين، ولقد كان كفار قريش أول المقرين بذلك والمذعنين له من حيث لا يشعرون، فكلما سمعوا من الآيات ما يمتع عواطفهم ويستميل أهواءهم قالوا عن النبي ﷺ شاعر، فإذا ما سمعوا ما يخاطب عقولهم، ويبطل حججهم قالوا عنه ﷺ: ساحر وكاهن، وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩ ـ ٣٤]، وأنّى لهم أن يأتوا بمثل القرآن في شموله وبيانه؟! وأنّى لهم أن يجمعوا بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة؟!

ويتبيّن لك الجمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة في مثل قوله:

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣١٥).

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] فقد جمع الله في كتابه بين حججه التي احتج بها على عباده وبين آلائه ونعمه التي ذكّرهم بها(١).

قال ابن القيِّم: «جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه: يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر: يدعى بالموعظة الحسنة: وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب والمعاند الجاحد: يجادل بالتي هي أحسن، هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية»(٢).

وقال السعدي: «فالحكمة وضع الدعوة في موضعها، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه، ويكون أقرب لحصول المقصود منه، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: البالغة في الحسن مبلغًا، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال؛ فالموعظة بيان الأحكام مع ذكر ما يقترن بها من الترغيب في ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها، وذكر ما يقترن بها من الترهيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والحسرات وحرمان الخير العاجل والآجل، [والمجادلة بالتي هي أحسن] بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة»(٣).

فجمع أسلوب القرآن بين الحجج والحِكَم التي تقنع العقول، وبين المواعظ والمرغبات والمرهبات التي تلامس العواطف والقلوب.

وإذا كان الكُتَّاب والأدباء جعلوا القصص والأمثال من الأساليب

---

(١) انظر: جامع البيان (١٤/ ٤٠٠).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٣).
(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (٢/ ٣٥٣).

الأدبية التي تتفوق فيها العاطفة، وجعلوا المناظرة والمجادلة من الحجج البرهانية التي تتميز بالجدال العقلي فإنك ترى أن القرآن حين يسوق الأدلة البرهانية والحجج العقلية لا ينسى خطاب العاطفة، كذلك ترى في قصصه وأمثاله التي تتسم بإمتاع العاطفة، حشدًا لجملة من الحجج والدلالات التي تقنع العقل كذلك.

تأمل ما قَصَّه ﷻ عن حوار إبراهيم مع أبيه في سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] الآيات.

إن أول ما يلحظه القارئ ويمتعه وهو يقرأ هذه الآيات، ذلك السياق الذي تنبع منه عاطفة البنوة ممزوجة بالحب والخوف في آن واحد، وكيف أن العاطفة تهز كيانك كلما تُردد ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وكيف تختلط مشاعر الرغبة والرهبة والخوف والشفقة حينما تقرأ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥].

فإذا أعدت قراءة الآيات مرة أخرى تبيّن لك كيف حُشدت فيها الأدلة العقلية والحجج والبراهين وكيف يستنكف العبد أن يعبد من هو محتاج لغيره ولو كان سميعًا بصيرًا فكيف وهذا المعبود لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئًا، إلى غير تلك الحجج التي لا تقف بالعقل الصحيح إلا عند عتبة العبودية.

هذا الأسلوب القرآني الفريد قال عنه ابن الأثير: «هذا كلام يهز أعطاف السامعين وفيه من الفوائد ما أذكره، وهو لما أراد إبراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه، وينقذه مما كان متورطًا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل، رتب الكلام معه في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللطف، والأدب الحميد والخلق الحسن»(١)، ويقول

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ٢٠٧).

البيضاوي: «دعاه إلى الهدى وبيّن ضلاله واحتج عليه أبلغ احتجاج وأرشقه برفق وحسن أدب»(١).

وقبل أن تنتقل من روعة الإقناع والإمتاع الذي وجدته في هذا المثال تأمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فهذه آية من آيات التشريع، بل وفي الجنايات والدماء، وهي قضية تحتاج إلى لغة صارمة في إطار العقوبات المتخذة، ولكن أسلوب الآية جاء متسمًا بما تقرر من الجمع بين خطاب العقل والعاطفة حتى في تحديد العقوبات والجنايات، فتجد الخطاب العقلي في قوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ فلا بد لصاحب الحق أن يأخذ حقه، ثم انظر كيف تخللت العاطفة في هذا التشريع الجنائي العظيم بما يرقق الأفئدة ويلينها للأخذ بالعفو والصلح بمثل التعبير بلفظ الأخوة في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾، وقوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وبما يرهب ويهدد من التمادي والاستمراء والاعتداء بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي ذلك يقول د. عبد العظيم المطعني: «ثم وازِنْ بين الاستدراج إلى الطاعة في مطلع الآية، والتهديد في خاتمتها، وأَنزِل ذلك من نفسك وانظر حالها كيف تكون؟! ثم انظر في أي شيء يتكلم القرآن ـ هنا ـ أليس في فريضة مفصلة، وفي مسألة دموية وجناية من أخطر جنايات النفس؟

وسبيل هذا أن يُصاغ في قوانين تحدد الجريمة، وتضع أساس العاقبة عليها في كلمات جافة لا تعرف الليونة ولا تميل إلى المهادنة،

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١١).

لكن منهج التربية والتوجيه الخُلقي في القرآن الحكيم هو سر ذلك البيان الرفيع الذي يتيح لصاحب الحق الأخذ بحقه. وفي نفس الوقت يهديه للتي هي أقوم»(١).

ثانيًا: إعمال العقل وتوجيه العاطفة:

فالعقل والعاطفة إن كانا بحاجة إلى الإقناع والإمتاع، فهما من حيث كونهما قوتين أو ملكتين تؤثران في الإنسان فهما بحاجة إلى إصلاحهما وترويضهما، وكما شمل أسلوب القرآن إقناع العقل وإمتاع العاطفة، فقد شمل كذلك ما يبيّن وظيفتهما ويصحح مسارهما دون أن يبغي أحد على أحد.

ولما كان العقل من شأنه الإدراك والتمييز والتفريق كان حقه الإعمال، ولما كانت العاطفة شأنها الميل لما ترغب إليه أو عنه، كان حقها التوجيه والتهذيب، وهذا ما تميز به أسلوب القرآن في خطابه للعقل والعاطفة.

أما خطاب العقل: فقد بسط الله في آياته من آياته ما يوقظه ويبصره ويهديه وفتح له في كتابه كتبًا تدله وترشده، فجمع الخطاب القرآني بين الآيات الشرعية والآيات الكونية والآيات التاريخية، وإن شئت فقل: الكتاب المسطور [القرآن] والكتاب المنظور [وهو الكون]، والكتاب المأثور [وهو أخبار الأمم وآثارها](٢).

فقال عن القرآن: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال عن آيات الكون: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٤٢١).
(٢) انظر: الأشاعرة عرض ونقد، د. سفر الحوالي (ص٤٨).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال عن آيات التاريخ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

وجاء الحث على النظر في هذه الآيات مجتمعة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٦] فجمعت الآيات بين خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وبين خلق الإنسان وبثه وتنوعه في المجتمعات وما تتم به أمور معاشه، وبين آيات الله المتلوّة(١).

كما جاء في أسلوب القرآن التنوع في التعبير الدال على تنوع مجالات العقل، فمع كثرة ورود ذكر العقل في القرآن، فقد وردت صيغ الفهم، والتذكر، والتفكر، والأمر بالنظر، والثناء على أولي الألباب والنهى، وكلها مجالات بسطها القرآن لتمنح هذا العقل آفاقًا واسعة للاجتهاد والعمل؛ لأن هذا هو مجاله الذي يدرك به الحقائق ويأخذ بأسباب العز والتمكين.

كما أن عامة مجيء هذه الكلمات بصيغة الفعل المضارع الدال على الحدوث والتجدد والتكرار والاستمرار؛ لها دلالتها كذلك ليظلّ الإنسان يُعمل فكره وعقله حتى يلقى ربه بهذه العبادة العظيمة(٢).

---

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٠٥).

(٢) انظر: منهج القرآن في مخاطبة الإنسان بالعقل والعاطفة (ص٥٠).

يقول محمد الغزالي: «والقرآن الكريم ذَكَر الحضارات الماضية وذكر الأمم الأولى وذكر أسباب الازدهار وعوامل الانهيار، ثم أمر القرآنُ بالسير في الأرض؛ لأنه يريد عقلًا عمليًا يستفيد من العصر الذي يعيش فيه ما يوسع آفاقه ولذلك أمر بالسير في الأرض بكثرة»(١).

أما خطاب العاطفة في القرآن، فبالقدر الذي اشتمل فيه أسلوب القرآن على إمتاعها كغريزة في النفس، فقد جاء الخطاب لها - كمؤثر في السلوك - متنوّعًا وشاملًا في توجيهها وتهذيبها، ذلك أن العاطفة إذا لم تُزمّ بزمام، طغت وأفسدت، وكذلك إذا مالت لطرف دون طرف.

وقبل بيان ملامح الخطاب القرآني في توجيه العاطفة، يحسن التنبيه إلى أن [العاطفة] بهذا اللفظ لم ترد في القرآن، ولكن من خلال التعريف فإنها تتضمن ما يتعلق بميل النفس من جانب إلى جانب أو ما يؤثر فيه من حب أو خوف أو تزيين أو هوى ونحو ذلك.

ويمكن بيان ملامح هذا التوجيه: في أن القرآن وجّه العاطفة؛ لأن تكون عاطفة متزنة تحب ولا تبغي، وتبغض ولا تطغى، تتمتع ولا تسرف، وهذا واضح جليٌّ في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد جاء أسلوب الآية بميزان دقيق يخاطب هذه العاطفة بإقرار ما جُبلت عليها من ميل ومحبة، ويحذرها من الاسترسال أو مجاوزة الحد الذي قد يلهيها عن الآخرة وينسيها.

فإضافةً إلى ما ختمت به الآية من التذكير بمتاع الآخرة ونعيمها، فقد افتتحت ببناء الفعل لما لم يسمّ فاعله، وذلك أن هذا التزيين تزيين محتمل فإن كان في مساحة المأمور به والمندوب إليه فهو مما يحبه الله،

(١) كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي (ص٢١٧).

وإن تجاوز التزيين حده إلى إضاعة الحقوق فهو من تزيين الشيطان، فجاء بناء الفعل بما لم يسمّ فاعله جريًا على طريقة الأسلوب القرآني في عدم إضافة الشر إليه جلّ وعلا، وهذا ما جعل بعض المفسرين يحمل الآية على ذم هذه الشهوات، ومنهم من حملها على إقرار تزيينها ابتلاء من الله لتكون سببًا في الإيجاد والتهيئة والانتفاع وإنشاء الجبلة بالميل لهذه الشهوات.

ولله در ابن كثير حين فسّر هذه الآية حملًا على المعنيين، ومراعاة لمقصد الآية في توجيه العاطفة لما جبلت عليه وتحذيرًا لها من الميل عن القصد السَّويّ فقال: «يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: (**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**)[١]، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، (**وإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً**)[٢]، وقوله ﷺ: (**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**)[٣]، وقوله في الحديث الآخر: (**حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**)[٤]، وحبُّ البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له فهذا محمود ممدوح كما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، وبيان فتنة النساء، برقم (٢٧٤٠)، (٤/٢٠٩٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٦٩) موقوفًا على ابن عباس.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٦٧)، والنسائي في السنن (٦/٦٩)، وابن ماجه في السنن برقم (١٨٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) رواه أحمد في المسند (٣/١٢٨)، والنسائي في السنن (٧/٦١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثبت في الحديث: (تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُم الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(١) وحب المال ـ كذلك ـ تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعًا»(٢).

وفي هذا المعنى يقول ابن الجوزي: «اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه فالهوى مستجلب له ما يفيد كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار»(٣).

فإذا ما بغت العاطفة وطغت وتجاوزت حد الاعتدال، يحصل بها من الفساد والشرور ما لا يُحمد، وتأمل كيف بيّن الله عاقبة اتباع الهوى التي تؤثر في العاطفة بقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فالعاطفة إذا تجاوزت حدها والغاية التي فُطرت لها، وجُعلت ميزانًا للحق والباطل فإنها تُخرج صاحبها من دائرة العقل إلى دائرة الجنون.

ولا تتسلّط العاطفة على بابٍ إلا أفسدته، فإذا دخلت في العلم دخل الهوى فأخرج صاحبه إلى ضد ما يأمر به العلم، فتجعل الباطل حقًا

---

(١) رواه أبو داود في السنن، برقم (٢٠٥٠)، والنسائي في السنن (٦/ ٦٥)، وابن حبان في صحيحه، برقم (١٢٢٩) «موارد»، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٢)، وصححه وأقره الذهبي من حديث معقل بن يسار، ورواه أحمد في المسند (٣/ ١٥٨)، وابن حبان في صحيحه، برقم (١٢٢٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٨١، ٨٢) من حديث أنس بن مالك.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٩).

(٣) ذم الهوى، لابن الجوزي (ص١٢).

والحلال حرامًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

ولا يزال الخطاب القرآني يبين ويؤكد أن العاطفة مجالها التوجيه لما ينفعها من المحبوبات، وأن تدور هذه العاطفة في فلك الامتثال والاتباع وأنها لا يمكن أن تتعدى ذلك، بل حتى ولو كان مع أفضل الخلق ﷺ، تأمل ذلك في أسلوب القرآن في خبر تحويل القبلة عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فقد دلّت الآية أن النبي ﷺ كان يتجه إلى بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة بدلالة قوله: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ الدالة على كثرة رفع البصر وتقليبه وقوله: ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ التي تتضمن المحبة والميل لها، والنبي ﷺ كان يتطلع إلى هذا التغيير ويقلب بصره إلى السماء ومع ذلك فليس في الآية ما يدل على أنه كان يطلب ذلك باللفظ(١)، وفي هذا دلالة على غاية الطاعة والامتثال منه ﷺ، وأن العاطفة لا يمكن أن تتجاوز حدها.

وبعد ما بيّنت الآية الكريمة حال رسول الله ﷺ وهو يترقب تحويل القبلة، تأمل في خطاب القرآن للعاطفة بالتوجيه والإمتاع بقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، قال أبو حيان: «وجاء الوعد قبل الأمر لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعد، فيتوالى السرور مرتين، ولأن بلوغ المطلوب

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢/ ٢٣).

بعد الوعد به آنس في التوصل من مفاجأة وقوع المطلوب»[1].

وهكذا خاطب الله المؤمنين أن تكون محبتهم لله في فَلَك الاتباع ذاته فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وبيّن أن المحبوبات والشهوات التي تميل لها النفس خارج هذه الدائرة عاقبتها الضرر والفساد وحصول الشرور، كما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧] قال الطبري: «يريد الذين يطلبون لذات الدنيا وشهوات أنفسهم فيها، أن تميلوا عن أمر الله تبارك وتعالى، فتجوروا عنه بإتيانكم ما حُرِّم عليكم وركوبكم معاصيه جورًا وعدولًا عنه شديدًا»[2].

فالعاطفة والعقل إذًا شريكان، ولكن لكلٍّ مجاله الذي خاطبه الله به، فالعقل يميّز ويصنف ويحصي وينشي العلاقات السببية، أما العاطفة فهي تميل إلى محبوباتها من الجمال في كل شيء، وإلى شهواتها وغرائزها، وتنفر من تكرهه وتبغضه، في الإطار الذي بيّنه القرآن وقرره في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فإذا توافق العقل والعاطفة في الحكم على الشيء والميل إليه أو عنه فثمت الفطرة، كما قال ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ)[3].

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٢٣).

(٢) جامع البيان (٦/ ٦٢١).

(٣) أخرجه البيهقي، في المدخل إلى السنن الكبرى، باب ما ذكر من ذم الرأي (١/ ١٨٨) قال ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٨٩): «رجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين».

المَبْحَثُ ٱلثَّانِي

خطاب القرآن العامة والخاصة

من شمول الخطاب في أسلوب القرآن أنه خاطب العامة والخاصة على السواء وهذه ميزة من ميزات الأسلوب لا تظفر بها في غيره.

فقد نزل القرآن على حين فترة من الرسل، والناس على مِلَل متفرقة ونِحل مختلفة وأجناس متنوعة وأفهام متباينة، فنزل مخاطبًا لهم على السواء، ليمتد شموله في الخطاب لأقوام سيأتون من بعدهم على امتداد الأزمان وتفرق الأقطار والأوطان، فناسبهم خطاب القرآن كما ناسب من قبلهم، والأنفس ليست واحدة، بل بينها تفاوت وكل نفس لها ما يميزها عن الأخرى بعلومها وقدراتها ومواهبها، وبهذا تتجلّى عظمة الله وكمال علمه وعدله في إنزال هذا الكتاب بهذا الأسلوب الفريد.

ولفظ: (العامة) و(الخاصة) لفظ نسبي يستعمل في إطلاقات عدة، وعند التأمل في أسلوب القرآن نجد أن خطاب العامة والخاصة فيه، شمل كل هذه الإطلاقات فنرى فيه خطاب العامة والخاصة الذي يتمثل في مستوى الفهم والتلقي على تنوع الفهوم واختلافها، ونرى العموم والخصوص في خطاب أمة الدعوة وأمة الإجابة على اختلاف مللهم ونحلهم، بل خاطب من عاصروا التنزيل وعاينوه خطابًا خاصًّا يصلح؛ لأن يتعدى لفظه لخطاب عموم من بلغه القرآن بعد ذلك.

ومن أبرز مظاهر الشمول في خطاب العامة والخاصة:

أولًا: أنه لا يعلو على أفهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة[١]:

فقد تميز الأسلوب القرآني بالجمع بين هذين المطلبين على تباعدهما، بل مُزِجا فيه مزجًا بحيث يمر القارئ على الآية فتظهر له من المعاني الجليلة ما يقنعه ويكفيه، ويمر عليها آخر فتظهر له من المعاني ما يرضيه ويُغنيه، وهذا المعنى في خطاب العامة والخاصة يُفهم من قول ابن عباس: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[٢]، فالآية الواحدة، أسلوبها واحد، كلٌ يفهم منها حسبما حباه الله وأفاض عليه من الفهم والعلم.

وإذا كان هذا الأسلوب شامل لأصناف المخاطبين في هذا الجانب، فهو شامل كذلك لتطور فهم الإنسان واتساع علومه ومعارفه، وعادة الإنسان أن ما كان يقرؤه في مرحلة ما، ينتقل عنه إلى ما هو أعلى في الأسلوب، فهل رأيت أسلوبًا يجمع بين خطابك على ما أنت عليه ثم هو يستحث همتك ونشاطك لتكون من الخاصة الذين يتميزون باستنباط الدلائل والمعاني.

لذلك جمع أسلوب القرآن بين الدلائل والمعاني الجلية، واللطائف والإشارات الدقيقة، وهذا لا تجده في غير القرآن، وقد قرر الزركشي ذلك بقوله: «فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلِّ صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم، ويلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء»[٣].

---

(١) انظر: النبأ العظيم (ص١٤٧).

(٢) رواه ابن جرير بسنده في تفسيره جامع البيان (١/ ٧٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤).

وإذا كان العرب يرون أن البلاغة مراعاة المقام لمقتضى الحال وأن لكل مقام مقالًا فإن القرآن الكريم قد جاء بأسلوب واحد وكلام واحد، فخاطب به المكلفين على تنوع الأحوال واختلاف الأجيال وكل قارئ له يرى فيه كفايته وغنيته، دون تعارض للمعاني في الآية الواحدة بل هي على قدر من التعاضد في الدلالة، ولكن كل يفهم منها على قدر وسعه وطاقته وعلمه، فلا يحتمل منها ما لا يطيقه، ولا ينتقل عنها حتى يجد ما يقنعه ويكفيه.

خذ مثالًا على ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرٗا﴾ [الطلاق: ١] فهذه الآية وما بعدها من الآيات تضمنت من الشمول في الخطاب ما يستفيد منه العامة والخاصة على السواء كما تضمنت من الأحكام التشريعية، والتوجيهات الأسرية، والإرشادات في الأخلاق والسلوك ما يجعله خطابًا شاملًا للكيان الإنساني على السواء، وكل مختص بقضية يأخذ منها ما يفيده ويكفيه، وتجد منهم من يربط بين لفظ وآخر فيخرج بمعنى آخر ولا تجد بعد كل هذا معنيين متعارضين أو قولين متضادين.

ومن الأمثلة كذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٞ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٢، ١٠٣]، ومع أن هذه الآية وما بعدها جاء فيها الخطاب مفصّلًا عن صلاة الخوف وما يتضمنه من دلالات فقهية، وهل هي مختصة بزمن النبي ﷺ أو بعده بدلالة قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ وكيفية صلاة الخوف وغيرها من التفصيلات التي يمكن أن تكون مجالًا رحبًا لأهل الفقه، غير أنها تضمنت من التوجيهات العامة في الحذر من الغفلة وأخذ الحيطة لما يخطط له أعداء الدين، كما اشتملت على التوجيه والحث على ذكر الله وتعظيم قدر الصلاة، كل ذلك بأسلوب وخطاب واحد خوطب به العامة والخاصة من لدن نزول هذه الآية إلى وقتنا هذا.

والجميع يسمع آيات الله تتلى فتزيده إيمانًا كلٌ على قدر فهمه وعلمه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

يقول د. محمد بكر إسماعيل(١): «ومعنى ذلك أنه إذا تُلِيَت آياته على العامة والخاصة وجدوا جميعًا في سماعه حلاوة تتذوقها القلوب قبل أن تصل إلى الأسماع، ولا تعجب من هذا القول، فإنك لو تهيَّأْت لتلاوته أو سماعه بقلب مفتوح مجرَّد عن الشهوات والشبهات لسبق قلبك إلى تلاوته لسانك، وسبق إلى سماعه أذنيك، ومن ذاق عرف، والعامة والخاصة من الناس ليسوا سواء ـ بالطبع ـ في تذوّق حلاوة القرآن بل إن الخاصة متفاوتون أيضًا بحسب استعدادهم الوهبي والكسبي، وبحسب تفاوتهم في درجات الإيمان والإخلاص والصفاء الروحي والذهني، ومن

(١) هو: محمد بكر إسماعيل ولد عام (١٩٣٦م)، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، حصل على الماجستير والدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن الكريم بكلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر، تدرج في سلك هيئه التدريس بجامعه الأزهر حتى وصل إلى درجة أستاذ بكلية الدراسات الإسلامية، كان له باع كبير في مجال الدعوة وعمل أستاذًا بعدد من الجامعات العربية، توفي سنة (١٤٢٦هـ). (http://q9r.me/x9h3).

هنا كانت لدعوة القرآن الكريم إلى التدبُّر في آياته صدى في نفوس العلماء حملتهم على اتخاذ كل الوسائل التي تعينهم على ذلك، فأفنَوْا في طلب العلم أعمارهم، وأفرغوا في تفهُّم آيات القرآن جهدهم، فكانوا بين شغوف ببيان أحكامه، ومولَع ببيان الجمال الفني في تعبيره وتصويره، ومهتَمٍّ ببيان وجوه إعرابه، ومشتقات ألفاظه، وغير ذلك مما يسترعي انتباههم، ويستميل أنظارهم.

وصار لكل مفسِّر طريقته ومنهجه، واتجاهه في التفسير والتأويل، وسيظل هذا الكتاب المعجِزُ بحرًا زخارًا لمن يجيد السباحة فيه، والاغتراف من سلسبيله، حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها»[1].

ثانيًا: أن نداءاته شملت جميع المخاطبين به:

لما كان لفظ العامة والخاصة لفظًا نسبيًا فإن العموم والخصوص كما يكون في تفاوت الناس في إدراك المعاني، فإنه يكون في تنوع أجناس الناس، فإن القرآن شملت نداءاته جميع المخاطبين، ولم يكن النداء لفئةٍ دُون فئةٍ، أو جنسٍ دُون جنس، أو أهلِ دينٍ دُون غيرهم وهذا من الشمول البيّن في أسلوب القرآن: فقد خاطب الله عامة خلقه بالأمر بعبوديته في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وهو خطاب عام يتنزل على كل فئة حسب ما يحتمله لفظ ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ كما قال السمرقندي[2]: «فهاهنا يا أَيُّهَا النَّاسُ لجميع الخلق. يقول للكفار: وحِّدوا ربكم ويقول للعصاة: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا بالتوحيد معرفة ربكم، ويقول

(١) دراسات في علوم القرآن (ص٣٣٩).

(٢) هو: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، الإمام، الفقيه، المحدث، الزاهد، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي، توفي سنة (٣٧٥هـ). (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٢).

للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم»(١).

وكما خاطبهم جلَّ وعلا بالعبودية على العموم فقد خاطبهم بالانتفاع بهذا القرآن وأنه نور وموعظةٌ لعامة الخلق على السواء دون تفريق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، لكنه خص المؤمنين بمزيد رحمة وهداية وفضل فقال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وهكذا يكون النداء للمؤمنين وخطابهم فيه مزيد عناية واهتمام حتى يكونوا الكمّل الخلّص من عباد الله.

وكما خص الله المؤمنين بهذا الخطاب، فقد خص كذلك كل فئة بما يناسبها من ألوان الخطاب وأنت تلاحظ بجلاء تنوع التعبير في أسلوب القرآن في خطاب كل فئة بما يخصها في الموضوع الواحد ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨] فمضمون الآيتين في وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ لكن لما كان الخطاب في الآية الأولى موجهًا لأهل

(١) بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٣٣).

الكتاب اختلف عن خطاب عامة الخلق بوجوب الإيمان به، ولكونهم أهل كتابٍ سابق جاء فيها الإشارة إلى كتبهم والإشارة إلى التحليل والتحريم، ورفع الحرج الذي لحق بهم بسبب ظلمهم مما بينه الله لنا في القرآن.

أما الآية التي تليها كان الخطاب موجهًا فيها لعامة الخلق، ومع كون القضية واحدة وهي الإيمان بالرسالة والنبوة، ولكن الخطاب جاء مناسبًا لهذا العموم، عرّج على الإيمان بالله والتصديق بوحدانيته، وذلك أن الخطاب حين شمل من يؤمن بالله ومن لا يؤمن به، جمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجهًا للفرق كلهم، ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان بالله وإيمانهم بالنبي ﷺ مع قضاء حق التأدب مع الله بجعل الإيمان به مقدمًا على طلب الإيمان بالرسول ﷺ للإشارة إلى أن الإيمان بالرسول إنما هو لأجل الإيمان بالله[١].

ولما تمحض الخطاب للمؤمنين في هذه القضية اكتسى الخطاب خصوصية أخرى ومزية عظمى لا تكون إلا للمؤمنين، كما في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهكذا نرى أن أسلوب القرآن تنوعت خطاباته ونداءاته بين ما يكون شاملًا لعموم الخلق وما تختص به فئة دون أخرى، مما يجعل كل ملة ونحلة تنظر في هذا الكتاب لتعرف ما خوطبت به من الهداية والدعوة إلى الحق، وترى أن القرآن كما شملها بعموم الخطاب فقد عالج قضايا تتعلق بها على الخصوص.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٤٠).

فإذا كان الخطاب عامًّا جاء النداء بمثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وإذا كان الخطاب لفئة خاصة ناداها بما يناسبها فيخاطب أهل الإيمان بما يناسبهم إما بالنداء باسم الإيمان مَدحًا وتشريفًا، وتارة يزيدهم اصطفاء فيضيفهم إلى ذاته جل وعلا كما في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أو: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ وأمثال ذلك.

وخاطب اليهود والنصارى بما يخصهم، فتارة يُقْصَدون جميعًا في الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تذكيرًا لهم بهذه الخصوصية فيما أنزل الله عليهم وفي ذلك يقول الطبري: «ولم يخصص جل ثناؤه بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بعضًا دون بعض، فليس بأن يكون موجهًا ذلك إلى أنه مقصود به أهل التوراة بأولى منه بأن يكون موجهًا إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة، وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر؛ لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح فالواجب أن يكون كل كتابيٍّ معنيًّا به»[1]، وتارة يخص اليهود بالخطاب بنسبتهم إلى إسرائيل، تذكيرًا لهم بنعمة النبوة وأنهم أبناء يعقوب ﷺ، وتذكيرًا لهم بأنباء أسلافهم وأخبار أوائلهم، وقصص الأمور التي هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم[2]، كما خاطب كل صِنف باسمهم الخاص كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

ويقول ابن تيمية: «لهذا كان الخطاب في السور المكية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) جامع البيان (٥/٤٧٦).
(٢) انظر: جامع البيان (١/٥٩٣).

﴿ٱلنَّاسُ﴾ لعموم الدعوة إلى الأصول؛ إذ لا يدعى إلى الفرع من لا يقر بالأصل فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان وكان بها أهل الكتاب خوطب هؤلاء وهؤلاء؛ فهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهؤلاء ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أو ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[1].

والمقصود من ذلك أن أسلوب القرآن شمل خطابه العامة والخاصة من أهل الأديان فجمع بين الخطاب العام والخطاب الخاص لهم، وفي هذا الشمول من بيان عدل الله ورحمته بجميع الخلائق ودعوة كل فريق بما يناسبهم ما يبهر ويعجز، وكفى بها آية على هيمنة هذا الكتاب على سائر الكتب.

❋ ❋ ❋

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٠).

المَبحَثُ ٱلثَّالِثُ

خطاب القرآن الحس والوجدان

حَفِل أسلوب القرآن الكريم بمخاطبة الحس والوجدان شأنه في ذلك شأن العقل والعاطفة، والعامة والخاصة في الخطاب، وهذا بلا شك من دلائل شموله.

والمقصود بالحس والوجدان في هذا المبحث: **أن الحِس**: هو ما يدرَك بإحدى الحواس الخمس[(١)].

وأما الوجدان: فهو إحساس الباطن بما هو فيه، أو ما يصادف القلب، ويرد عليه بلا تكلف وتصنع[(٢)].

وفي المعجم الوسيط: «الوجدان يُطلق أَوّلًا على كل إحساس أولي باللذة أَو الْأَلَم وَثَانِيًا على ضرب من الْحَالَات النفسية من حَيْثُ تأثرها باللذة أَو الْأَلَم فِي مُقَابل حالات أُخْرَى تمتاز بالإدراك والمعرفة»[(٣)].

ومن خلال التعريف يتبيّن أنه إذا كان الحس يطلق على ما يدرك بالحواس فالوجدان يأتي في مقابله، وهو ما يتعلق بالقلب والعوارض التي تعرض عليه، وفي نحو هذا ذكر ابن القيِّم أنه ما يصادف القلب، ويرد عليه من واردات المحبة والشوق والإجلال والتعظيم، وتوابع ذلك[(٤)].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط (١/ ١٧٣)، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص١٣٩).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص٣٣٤).

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ١٠١٣).

(٤) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٦٨).

إذا تبيّن هذا عُلم أن جلَّ العبادات القلبية أو كلها يمكن أن تدخل ضمن هذا المسمى في خطاب الوجدان.

وقد جمع الأسلوب القرآني بين خطاب الحس والوجدان بما يشبع حاجتهما وهذه الحاجة تشمل الحاجة إلى عبودية الجوارح والأعضاء وخضوعها وتذللها لله ﷻ كما تشمل الحاجة التي جعلها الله لكل حاسة على حدة؛ كالنظر للعين والسمع للأذن ونحوهما مما امتن الله به على عباده في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقد ورد خطاب القرآن للحس والوجدان بالعبودية في مواطن كثيرة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولقد تكلم المفسرون في هذه الآية وما تضمنته من الأساليب من تقديم والتفات وعطف للخاص على العام، حتى قال بعض السلف: «الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة»[١].

وعند التأمل فيها وفيما ذكره المفسرون يظهر تضمّن هذه الآية لخطاب الحس والوجدان، فإذا كانت العبادة لفظ جامع لما يقوم به العبد ومنها عبادات الجوارح جميعها فإن الاستعانة عمل قلبي يستدعي القلب ويستحثه لأن يكون الاعتماد التام في جلب المنافع ودفع المضار، بل وتحصيل العبادات والقيام بها لله وحده، فيشعر العبد بارتباط وثيق بين عمل الجوارح وعمل القلب فيكون في عبادته كأنه «واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلًا: يا من هذه شؤون ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والإستعانة فإن كل ما سواك كائنًا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود فضلًا عن استحقاق أن يعبد أو يستعان»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٣٤).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ١٦).

وهكذا نرى أسلوب القرآن في عرضه ودعوته لكثير من العبادات، يخاطب الوجدان بالتعظيم والإجلال أثناء القيام بها فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ذلك أن التعظيم إذا اقترن بالشعيرة من الأعمال التي أمر الله بها، فتثمر في قلبه التقوى لله، فضلًا عما تبعثه في العبد من إتقان العمل وتحسينه، إضافة إلى أن العبد قد يعرض له أثناء العبادة من رؤية الناس له ما يؤثر في العمل، فإذا استشعر التعظيم لله جلَّ وعلا زال عنه ذلك العارض واستصغر عمله في ذات الله[١].

وقد خاطب الأسلوب القرآني الحس والوجدان كذلك بما يشبع غريزتها من النظر والسمع والتأثر القلبي الذي يورث الاتعاظ والانتفاع، ونوّع في ذلك بين ما يدرك بالحواس، وبين ما يؤثر في القلب والوجدان، فدعا الله إلى السير والنظر في غير آية فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]، فالسير في الأرض بين البلدان والنظر في حضارات الأمم وآثارها خطاب يحث على الانتفاع بالحواس فيما يقرب إلى الله فيسير العبد بقدميه فيرى بلادًا عامرة، ثم يسير أخرى فيرى بلادًا خربة قاحلة، وينظر بعينه لآثار تلك البلدان فيما اتخذوه من المصانع وما نحتوه من الجبال، وما اتخذوه من المعايش فما أغنت عنهم شيئًا، قال الطبري: «أفلم يسر يا محمد هؤلاء المجادلون في آيات الله من مشركي قومك في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا وجحودهم آياتنا، كيف كان عقبى تكذيبهم»[٢].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٥٦).

(٢) جامع البيان (٢٠/ ٣٧١).

وكما دعاهم الله إلى النظر في المَثُلات وقدرته جل وعلا فيما وقع للأمم، دعا إلى النظر إلى قدرته وعظيم صنعه في الأرض وزخرفها وزينتها فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] فالنظر إلى أفانين هذه النباتات واختلاف طعومها وألوانها وأقدارها يحث على الانتفاع والشكر وعظيم القدرة للخالق جل وعلا، قال الزمخشري: «انظروا إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلًا ضعيفًا لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئًا جامعًا لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّره ومدبره وناقله من حال إلى حال»(١).

ومثل هذا الخطاب الحسي هو خطاب للوجدان بما تنقله الحواس من مشاعر واستبصِرْ ذلك في حالك وأنت تقلب نظرك بين الفيافي والقفار، وبين الحدائق والأشجار، كيف تشعر في كل مرة، ولذا وصف الله الحدائق بالبهجة، لما تورثه في النفس فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

وقد جاء خطاب الوجدان مباشرًا في مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وذلك أن القلوب عليها مدار الصلاح والفساد، كما يقول ابن القيِّم: «فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية ـ من الفرح، والألم، والحب، والخوف ـ أنه من عند الله، تكلم به حقًا، وبلغه رسوله

(١) الكشاف (٢/ ٥٢).

جبريل عليه السلام عنه إلى رسوله محمد ﷺ، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا، فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد»[(١)].

ولما استبطأ الله قلوب المؤمنين خاطب وجدانهم خطابًا مباشرًا بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] كما قال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم»[(٢)]، وذلك لأن في انتفاع القلب ما يورث سرعة الامتثال فإن القلب إذا خشع اطمئن وسارع إلى الطاعة والامتثال من غير توانٍ أو فتور[(٣)].

وقد جمع الله بين خطاب الحس والوجدان في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد كثر في أسلوب القرآن ضرب الأمثال، وذكر التشبيهات التي من شأنها أن تشبع الحس والوجدان بما يرد عليها من صور وأحداث وشواهد متنوعة، وفي ذلك يقول الجرجاني: «إن أُنْس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيٍّ، وأن تردَّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقُلها عن العقل إلى الإحساس وعما يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفادَ من طرق الحواسِّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة، يفضلُ المستفاد من

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٣٨).
(٢) معالم التنزيل (٨/ ٣٧).
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٢٠٨).

جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخَبرُ كالمُعاينة، ولا الظنُّ كاليقين»[١].

ويقول في بيان ما يورثه من أثر في النفس والوجدان: «ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نَيله أحلَى وبالمزِيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضَنَّ وأشْغَف، ولذلك ضُرب المثل لكل ما لَطُف موقعه ببرد الماء على الظمأ»[٢].

تأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥] وكيف جمعت الآية بين خطاب الحس والوجدان، وكيف أن هذا التشبيه يمنح قدرًا من التخيل لما يشاهده الناس في واقع حياتهم ولكن بصورة أخرى ليست مرئية في حياة الناس مما يستدعي في إدراك هذه الصورة الجمع بين الحس والخيال، إضافة لما يبعثه هذا التشبيه من الشعور الوجداني بالنفرة والكراهية.

وفي هذا يقول د. محمد أبو موسى: «وقد جاء في القرآن ضرب آخر من التشبيه اعتمد في إبراز الحقيقة المراد إبرازها على ما ترسخ في النفوس من صور لأشياء ليست حقائقها مرئية في حياة الناس، ففي هذه الآية اعتمد في بيان حالتها على ما تخيلته النفوس للشيطان من رأس قبيحة جدًّا وبالغة في النفرة والكراهية، والشجرة شجرة غريبة لم توجد على أساس القانون الطبيعي لوجود الشجر من تربة فيها حياة وماء، وإنما هي شجرة تخرج في أصل الجحيم، فناسبتها هذه الرؤوس الغريبة، رؤوس الشياطين والجمع في كلمة (رؤوس) يمنح الصورة قدرًا من الغزارة، فليس عليها رأس شيطان، وإنما عليها رؤوس جميع الشياطين، جادين في إفساد الوجود، يغرسون الشر والأذى ويقتلعون الخير

(١) أسرار البلاغة، للجرجاني (ص١٢١). (٢) المصدر نفسه (ص١٣٩).

النافع»[١].

هذه بعض الأمثلة والشواهد التي تبين شمول أسلوب القرآن لخطاب الحس والوجدان، كما شمل غيره من أنواع الخطاب، وما أجمل ما استدل به ابن القيِّم على تنوع أسلوب القرآن وشموله للنوعين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] حيث قال: «وفي قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ الموضع موضع واو الجمع لا موضع [أو] التي هي لأحد الشيئين، ولكن خرج الكلام بـ [أو] **باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس** من يكون حيّ القلب واعيَه تامّ الفطرة، فإذا فكّر بقلبه وجال بفِكْره، دلّه قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق وشهِد قلبُه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة **ومن الناس** من لا يكون تام الاستعداد واعيَ القلب كامل الحياة فيحتاج إلى شاهدٍ يميّز له بين الحق والباطل فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكير فيه وتعقل معانيه فيعلم حينئذ أنه الحق، فالأول حال من رأى بعينه ما دعي إليه وأخبر به والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه، وقال: يكفيني خبره فهو في مقام الإيمان والأول في مقام الإحسان»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) التصوير البياني (ص١٥٠).
(٢) الفوائد (ص٣).

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّامِنُ

في الشبهات المثارة
حول خصائص أسلوب القرآن

ويتضمن تمهيد وأربعة مباحث:

- المبحث الأول: فيمن زعم أن أسلوب القرآن غير معجز.
- المبحث الثاني: فيمن زعم أن القرآن أسلوب محمَّد، وتميزه راجع إلى تفوقه في البلاغة.
- المبحث الثالث: فيمن زعم أن أسلوب القرآن قد حوى ألفاظًا مبتذلة.
- المبحث الرابع: في من ادَّعى سوء التأليف وعدم الترابط في أسلوب القرآن.

تَمْهِيدٌ

تبيّن من المباحث والفصول السابقة ما اشتمل عليه أسلوب القرآن من خصائص لا يمكن بحال أن توجد في غيره من الكلام، مما يبين عظمة هذا الكتاب وإعجازه، إلا أن بعض المرتابين والمتربصين بالإسلام حاولوا التشغيب حول أسلوب القرآن وأن يسلبوا عنه خصائصه التي ميّزته عن سائر الكتب، ليخْلوا لهم بعد ذلك إخضاعه لأي منهج إنساني في النقد والتحليل والمقارنة شأنه شأن سائر النصوص، وليتخلّصوا كذلك من القواعد والأصول التي يُفهم من خلالها، فيسهل عليهم رميه بأي شبهة وليتخلّصوا أيضًا من سلطان أهل اللسان الأول الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم ونصبوا له العداء، ومع ذلك لم يجرؤوا على الخوض في أسلوبه ونظمه وبيانه لما حباهم الله من الفطرة اللغوية التي جعلت البيان في أنفسهم أجلّ من أن يخونوا الأمانة فيه أو يجوروا عن الإنصاف في الحكم عليه، مع ما صاحب ذلك من التقريع لهم والتسفيه لأحلامهم، ولمّا أرادوا أن يطعنوا فيه لم يجرؤوا على الطعن فيه من هذه الجهة.

فأراد الطاعنون من بعدهم أن يتجاوزوا هذه العقبة الكؤود التي وقفت في طريقهم ولا تزال، في طعنهم على أسلوب القرآن الكريم كما يظنون.

ولذا فإن أي شبهة من هذه الشبهات التي يدّعيها الطاعنون، لا تقف أمام حقائق القرآن وأصول فهم اللسان الذي نزل به القرآن واستطاع أصحابه إدراك الفرق بين كلامهم وكلام الله ﷻ.

وقد أشار ابن قتيبة في مقدمة كتابه «تأويل مشكل القرآن» إلى جوابٍ عام أجاب به على الطاعنين في عصره، ولا نزال نجيب به نحن في عصرنا الحاضر، فقال: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدَلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتّناقض والاستحالة واللّحن وفساد النّظم والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضّعيف الغمر(١) والحدث الغرّ، واعترضت بالشُّبَه في القلوب، وقدَحت بالشكوك في الصدور، ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأوّلهم - لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ يحتجّ عليه بالقرآن ويجعله العلم لنبوّته والدليل على صدقه، ويتحداهم في موطن بعد موطن على أن يأتوا بسورة من مثله، وهم الفصحاء والبلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللّدد في الخصام مع اللّب والنّهى وأصالة الرّأي، وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، وكانوا مرّة يقولون: هو سحر، ومرة يقولون: هو قول الكهنة، ومرة: أساطير الأولين، ولم يحك الله تعالى عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات - أنهم جدبوه من الجهة التي جدبه منها الطاعنون»(٢).

وهذا الجواب الذي أجاب به ابن قتيبة هو جواب مُسكِت وحجة قاطعة على من يحاول الطعن في أسلوب القرآن الكريم، فلو ساغ لأحد أن يطعن في أسلوب القرآن لما تقاصر عن ذلك أشد أعدائه وألدّهم خصومة، وهم الكفار الذي نزل عليهم القرآن ولَمَا كان غاية طعنهم اتهام النبي ﷺ بالشعر والسحر والكهانة، أو أنه تعلم ما تعلم من بشر.

---

(١) الغَمْر والغُمر: هو الذي لم يجرِّب الأمور، ولم تحنّكه التجارب. (تاج العروس ١٣/ ٢٥٦).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص٢٣).

وما ذاك إلا لهروبهم ومراوغتهم وعدم القدرة على مواجهة الـمُـنزَل عليه ﷺ لِما يعلمون خصائصه ومباينته لسائر الكلام، ولذا فإن القرآن الكريم في ردوده عليهم يُرجعهم إلى ما هربوا منه، وهو النظر والتأمل فيما يتلى عليهم من الآيات وما تضمنتها من خصائص، وكأن هذه الآيات بمجموعها تقول لهم: هب أنه شاعر أو ساحر أو كاهن، فهل يستقيم ما تزعمون، مع ما يتلوه عليكم وما يقرأه لكم من الآيات بلسان عربي مبين؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وفي كلام ابن قتيبة بيان لحال هؤلاء الطاعنين، فلا تجد طاعنًا في القرآن الكريم وأسلوبه، إلا وهو مولع باتباع المتشابه ظنًا من أنه بذلك يضرب القرآن بعضه ببعض كما تراه كذلك ذا فهم سقيم ونظر مدخول وهوى متّبع، فمن تخلص من هذه الصفات وابتعد عنها فإنه يسلم بإذن الله من هذه الشبه.

وقريبًا مما ذكره ابن قتيبة، قاله السكاكي في معرض رده على هؤلاء فقال: «أضلُّ الخلق عن الاستقامة في الكلام، إذا اتفق أن يعاود كلامه مرة بعد أخرى، لا يُعدَم أن ينتبه لاختلاله فيتداركه، قدِّروا أنْ لم يكن نبيًا، وقدِّروا أنْ كان نازل الدرجة في الفصاحة والبلاغة، وقدِّروا أنْ كان لا يتكلم إلا خطأً. . أوَ قد بلغتم من العمى إلى حيث لم تقدروا أنْ يتبيّن لكم أنه عاش مدة مديدة بين أولياء وأعداء؟ ألم يكن له وليٌّ فينبهه ـ فعلَ الأولياء ـ إبقاءً عليه أن يُنسَب إلى نقيصة؟ ولا عدو فينقص عليه؟ سبحان الحكيم الذي يسع حكمته أن يخلق في صوَر الأناسي بهائم، أمثال الطامعين أن يطعنوا في القرآن، ثم الذي يقضي منه العجب، أنك إذا تأملت هؤلاء وجدت أكثرهم لا في العِير ولا في النفير، ولا يعرفون قُبيلًا من دُبير، أين هم عن تصحيح نقل اللغة؟ أين هم عن علم المعاني؟ أين هم عن علم البيان؟ أين هم عن باب النشر؟ أين هم عن باب

النظم؟.. أبعَدُ شيء عن نقد الكلام جماعتهم، لا يدرون ما خطأ الكلام وما صوابه، ما فصيحه وما أفصحه، وما بليغه وما أبلغه وأين هم عن سائر الأنواع إذا جئتهم من علم الاستدلال وجدت فضلاءهم غاغة[١] ما تعلك إلا ألفاظًا، وإذا جئتهم من علم الأصول وجدت علماءهم مقلدة ما حظوا إلا بشم روائح، وإذا جئتهم من نوع الحكمة وجدت أئمتهم حيوانات ما تلحس إلا فضلات الفلسفة، وهلم جرًا من آخر وآخر، لا إتقان لحجة، ولا تقرير لشبهة، ولا عثور على دقيقة، ولا اطلاع على شيء من أسرار»[٢].

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أربعة أصول في القرآن لا تصمد أمامها شبهة من الشبهات مهما كثرت وتفرعت، وتعد أصولًا في الرد على الشبهات المثارة حول القرآن وعامة الأجوبة والردود تتفرع عنها، وهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٢، ٨٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

---

(١) **الغاغة من الغوغاء**: أصل الغوغاء الجراد حين يخف للطيران ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر. (لسان العرب ٨/ ٤٤٤).

(٢) مفتاح العلوم (ص٥٨٤).

فهذه أربع آيات تنتظم أربعة أصول في الرد على الشبهات:

الأول: رد المتشابه إلى المحكم.

الثاني: تدبر القرآن الكريم.

الثالث: رد الشبهات إلى أهل العلم، أصحاب الفهم السليم الذين يضبطون أصول العلم وقواعده.

الرابع: التفكر في حال النبي ﷺ قبل نزول القرآن، ووقت نزوله، وبعد نزوله.

فإذا تأملت في هذه الأصول فإن عامة الأجوبة والردود على الشبهات المثارة حول القرآن الكريم وأسلوبه راجعة إليها، متفرعة عنها.

وسيتبيّن ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: فيمن زعم أن أسلوب القرآن غير معجز.

المبحث الثاني: فيمن زعم أن القرآن أسلوب محمَّد ﷺ، وتميزه راجع إلى تفوقه في البلاغة.

المبحث الثالث: فيمن زعم أن أسلوب القرآن قد حوى ألفاظًا مبتذلة.

المبحث الرابع: في من ادَّعى سوء التأليف وعدم الترابط في أسلوب القرآن.

* * *

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

فيمن زعم أن أسلوب القرآن غير معجز

كان نزول القرآن على نبينا محمد ﷺ وهو أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب أعظم آية على صدق رسالته، ولذا قال ﷻ في بيان عظمة هذه الآية ومنزلتها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقد تحدى الله تعالى الخلق قاطبة أن يعارضوا هذا القرآن أو يأتوا بمثله، لإثبات أن عدم قدرتهم دليل على أن القرآن كلام الله، ولما عجزوا عن معارضته كان لزامًا عليهم التسليم به والإقرار بنبوته عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤] ولما كان عجز العرب عن معارضة القرآن أقوى حجة وأوضح بينة على صدقه، حاول أعداء الإسلام، أن يجدوا سبيلًا للهروب من هذه الحقيقة، واتخذوا لذلك سبلًا وطرقًا ليصلوا إلى أن أسلوب القرآن ونظمه غير معجز.

وكان من أوائل من ادَّعى ذلك النظّام حين اختلق فرية (الصّرفة)، والتي يزعم من خلالها أن الله تعالى حين أنزل القرآن، أحدث في أنفسهم عجزًا يسلبهم القدرة على نظم الكلام وتأليفه عند أي محاولة منهم لمعارضة القرآن الكريم، وتكون هممهم مصروفة عن القدرة على ذلك، فيكون هذا العجز مستقرًا في أنفس الخلائق حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد حاول بجدليته وسفسطته أن يصرف وجه الإعجاز عن القرآن الكريم إلى جهة خارجة عنه، وبذلك يُسلب عن نظم القرآن وتأليفه كل مزية وفضيلة؛ لأن عجزهم لا من جهة عدم الاستطاعة وإنما من جهة سلب القدرة.

وقد صرّح النّظام بهذا اللازم فقال: «إن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة»[١]، بل قال: «إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام»[٢].

وبعيدًا عما ينبني عليه هذا الكلام من عبث وجهل وتناقض، يلزم منه أن تكون المعارضة ظاهرها التخيير، وحقيقتها أن العباد مجبورون على ترك المعارضة إجبارًا لا محيد لهم عنه!

فيكفي أن من ردّ هذه المقولة وهاله هذا القول هو رفيقه الجاحظ والذي تبنى هذا القول في بدايته، ثم فزع مما ادعاه النظام، فألّف كتابه: «الاحتجاج لنظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان» ووصفه بقوله: «كتبت لك كتابًا أجهدت فيه نفسي وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة»[٣].

ولعل فطرة الجاحظ وسلامة ذوقه في اللغة والبيان، هي التي خلّصته من تخليط صاحبه، حتى جعلته يكتب كتابًا في الرد عليه، وهو

(١) حجج النبوة (ص١٤٤).
(٢) انظر: نهاية الإيجاز، للرازي (ص٢٦).
(٣) وكان يخاطب بهذا الكلام ابن أبي دؤاد، حجج النبوة (ص١٤٣، ١٤٤).

وإن ظل متمسّكا بقوله في الصرفة إلا أنه أثبت ما في أسلوب القرآن من التحدي والإعجاز فقال: «ولو أراد أنطَقُ الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه، ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع (قحطان) و(معد بن عدنان)»[١].

والمراد هنا أن النظام اتخذ القول بالصرفة سلّمًا ليصل به إلى نفي الإعجاز في ألفاظ القرآن ومعانيه وأسلوبه، فلم يجرؤ على التصريح بذلك إلا بنوع من المماحكة والمجادلة والعبث الفكري، الذي ما إن تفطّن له الجاحظ حتى أنكره غاية الإنكار.

وما قاله النظّام وادّعاه على ما فيه من الافتراء والجهل، إلا أن الرجل كان يتحلى بقدر من الذكاء جعلته يهرب من التصريح بعدم الإعجاز في أسلوب القرآن إدراكًا منه بشناعة هذا القول وما سيجر عليه من نشره بين الناس في ذلك الوقت.

ومع سقوط هذا القول، فالعجب كل العجب ممن أتى بعده من المحدَثِين المعاصرين الذين هم أبعد عن لغة العرب، وأضعف فهمًا وأقل ذكاءً، فتجدهم يصرّحون بما لم يتجرّأ النظّام على قوله من ادعائهم بأن أسلوب القرآن غير معجز، بل تجدهم يحاكمون العرب الذين نزل عليهم القرآن إلى أفهامهم وأوهامهم السقيمة، ومن هذه الأقوال:

يقول نصر حامد أبو زيد[٢]: «وإذا كان المعجز هو القدرة الإلٰهية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو: نصر حامد أبو زيد، ولد سنة (١٩٤٣م)، ألّف عدة مؤلفات في الدراسات الإسلامية والقرآنية، والعلوم الإنسانية، دعى من خلالها إلى التحرر من سلطة النصوص وأولها القرآن الكريم، وامتلأت أبحاثه بالطعن في الثوابت، مما جعل اللجنة التي تكونت لتحكيم أبحاثه للحصول على الأستاذية إلى رفع قضية ضده يتهمونه فيها بالكفر من خلال أبحاثه، مما اضطره للهرب وترك البلاد سنة (١٩٩٥م)، عاد إلى =

الخارقة التي تدخلت لتمنع العرب من الإتيان بمثله فالنص في ذاته ـ أي: من حيث هو نص لغوي ـ كان مقدّرًا للبشر الإتيان بمثله لو خلى بينهم وبين قدراتهم العادية»[(١)].

وهذا الكلام هو حاصل قول النظّام إلا أنه صرح بدلالته الفاسدة التي توحي لك أن كل الآيات التي تحدى الله تعالى بها الثقلين وفتح لهم باب المعارضة، إنما هو نوع من العبث والتكليف بما لا يستطاع، حيث تحداهم بما سلبه عنهم من القدرة والإرادة التي صرفت هممهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، تعالى الله عما يقول علوًا كبيرًا.

ويقول المستشرق جولد تسيهر[(٢)] عند قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]: «إن إعجاز القرآن ليس إلا في تغلبه على الشعر وسجع الكهان وليس معجزًا في ذاته»[(٣)].

وقد ردّ الزرقاني على مثل هذا القول، فقال: «إن التحدي بالقرآن ليس معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بنفس صورته الكلامية ومنهاجه المعين الذي انفرد به أسلوبه حتى ترد هذه الشبهة بل معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بكلام من عندهم أيًا كانت صورته ومزاجه وأيًا كان نمطه ومنهاجه

= مصر قبل أسبوعين من وفاته بعد إصابته بفيروس غريب فشل الأطباء في تحديد طريقة علاجه، وتوفي سنة (٢٠١٠م). (انظر: موسوعة ويكيبيديا http://q9r.me/rg7h).

(١) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن (ص١٤٦).

(٢) مستشرق، مجري، يهودي، ولد في بلاد المجر في (١٨٥٠م) من أسرة يهودية، بدأ دراسته الاستشراقية في جامعة ليبتسك وحصل على الدكتوراه منها سنة (١٨٧٠م)، يلاحظ عدم التزامه بمنهجية البحث العلمي والاقتباس الصحيح للنصوص فقد كان يحورها أو يأخذها من سياقها ويبني عليها أحكامًا وآراء وتأويلات، توفي سنة (١٩٢١م). (انظر: موسوعة المستشرقين، ص١٩٧).

(٣) مذاهب التفسير الإسلامي للعالم المستشرق، جنتس جولد تسهير، (ص١٢٥)، دار إقرأ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

ولكن على شرط ألا يطيش في الميزان إذا قيس هو والقرآن بمقياس واحد من البيان بل يظهر أنه يماثله أو يقاربه في خصائصه وإن كان على صورة بيانية غير صورته هذا هو ما يتحداهم به الرسول ﷺ وهو الذي يتنافس فيه البلغاء عادة فيتماثلون أو يتفاضلون مع احتفاظ كل منهم بمنهاجه الخاص ونمطه المعين»[(١)].

ناهيك عما ورد من محاولات يائسة لمعارضة القرآن التي تبطل هذه الشبهة، مثل الذي ورد عن مسيلمة وغيره، كأبي يوسف الكندي حين قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج فقال: «والله ما أقدر عليه ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت، فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلًا عامًا ثم استثنى استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في أجلاد»[(٢)].

كما أن بعض المعاصرين وإن كان لا يصرح بأن أسلوب القرآن غير معجز إلا أن كلامه على القرآن ووصفه له، لا يمكن أن يتفوّه به أحد يرى أنه كتاب الله المعجز.

يقول محمد شحرور[(٣)] عن القرآن: «هو مجموع الآيات المتشابهات التي تتحدث عن القوانين الكونية التي تحكم النجوم

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٢٣٣).

(٣) هو: محمد شحرور، ولد في دمشق سنة (١٩٣٨م)، وهو أحد أساتذة الهندسة المدنية في جامعة دمشق ومؤلف لما أطلق عليه القراءة المعاصرة للقرآن، بدأ شحرور كتاباته عن القرآن والإسلام بعد عودته من موسكو، والتي تعتمد الدراسات الأدبية والإنسانية النقدية في الحديث عن القرآن ليُخرج النص القرآني عن كونه كتابًا منزلًا من عند الله وكانت الغاية منها هدم مفاهيم القرآن ومبادئ الإسلام وإحلال المبادئ الماركسية محلها (انظر: http://q9r.me/frnw, http://q9r.me/ty1n).

والكواكب والزلازل والرياح والمياه في الينابيع والأنهار والبحار، وعن قوانين التاريخ والمجتمعات التي تحكم نشوء الأمم وهلاكها، وعن غيب الماضي من خلق الكون وخلق الإنسان وأنباء الأمم البائدة (القصص القرآني) وعن غيب المستقبل كقيام الساعة والنفخ في الصور والحساب والجنة والنار»[(١)].

ويقول محمد أركون[(٢)]: «القرآن هو عبارة عن مجموعة من الدلالات والمعاني الاحتمالية المقترحة على كل البشر، وبالتالي فهي مؤهلة؛ لأن تثير أو تنتج خطوطًا واتجاهات عقائدية متنوعة بقدر تنوع الأوضاع والأحوال التاريخية التي تحصل فيها أو تتولد فيها»[(٣)].

وهذا الكلام مع ما فيه من الإسفاف وسوء الأدب، فله دلالته التي لا تخفى من أن هؤلاء الكتاب تغافلوا، بل وأعرضوا عما ذكره عامة من دوّن في علوم القرآن من أنه (كتاب الله المعجز المنزل على نبِّينا محمد ﷺ)، فعدم اعتبارهم لإعجاز القرآن جعلتهم يقعون في مغالطات كبيرة في النظر إلى أسلوب القرآن وتأليفه.

فالأول يصوّر القرآن أو يقتصر في وصفه على أنه جملة من المواضيع المجموعة!

ويا لله ما أعظم جحوده، كيف غفل عن كون هذه المواضيع تنتظم في آيات وسور، جاءت على أحسن نظم، ثم تأمل وصفه للقرآن

---

(١) الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور: http://q9r.me/j30n.

(٢) ولد محمد أركون عام (١٩٢٨م) بالجزائر، درس الثانوية في مدرسة الآباء البيض التبشيرية، ويعدُّ محمَّد أركون حلقةً في سِلسلة «مفكِّرين» عرب و«مسلمين» معاصرين، يجمعُهم مشروعٌ كبيرٌ يهدف إلى نقض عُرَى الإسلام مِن الداخل بزعم التَّجديد، وإعادة القراءة للوحي بطُرُق لا علاقة لها بأصولِ التفسير المعروفة في الثقَافة الإسلاميَّة، له عدد من المؤلفات تصب في هذا المشروع، توفي سنة (٢٠١٠م). (انظر: http://q9r.me/kxqf, http://q9r.me/spui).

(٣) تاريخية الفكر العربي الإسلامي (ص١٤٥).

«بالآيات المتشابهات» والتي تفهم من خلال سياق كلامه بأنها آيات متشابهة لا ميزة لآية عن الأخرى، ولذا تراه أعرض عن وصف الآيات بالمحكمات، وهو بذلك يحاول التهوين من أسلوب القرآن وإعجازه في اللفظ والمعنى وكأن هذا التشابه لا يضيف معنى وليس له مقصد.

وقد تبيّن مما سبق في فصول هذا البحث، كيف يأتي الخبر الواحد بأساليب متنوعة كلها غاية في الحسن مع ما يتضمنه من المعاني وأن ذلك وجه من وجوه الإعجاز.

أما ما ذكره محمد أركون، فمضمون كلامه: أيُّ إعجاز يمكن أن يكون في كلام دلالاته متضاربة تضارب الأفهام، ومختلفة اختلاف العقائد؟ والذي يلزم منه أن كل العقائد والأفكار الباطلة تحتملها هذه الدلالات، وهذا كما ترى ينم عن جهل بأسلوب القرآن الكريم، بل باللغة العربية وأصولها، ولو كان الأمر كذلك لما احتاج الكفار أن ينابذوا النبي ﷺ ويحاربوه، ولكان احتجاجهم بدلالة القرآن على أهوائهم وعقائدهم ـ كما يزعم أركون ـ أعظم حجة على النبي ﷺ، وخاصة أنهم أهل اللسان وأرباب البيان، ولولا فهمهم لدلالات الألفاظ ومعانيها لما قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ولما قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تبيّن أن العرب كانوا يفهمون دلالات القرآن ويدركون إحكام دلالاته ومعانيه، ولذا نابذوه العداء، وصدق الله إذ يقول: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

وحسبك في الرد على من ادَّعى أن أسلوب القرآن غير معجز ما قاله الرافعي: «ولم نرَ شيئًا كان أمره مع العلم ذلك الأمر إلا أن يكون إلٰهيًا، فقد فرغ الناس من كل ما وضع الناس، وعارض بعضهم بعضًا، وأبرّ بعضهم على بعض ولم يسلم للمتقدم من الفضل على المتأخر إلا فضيلة احترام الموت واستحياء التاريخ، وقد بدِّلت الأرض غير الأرض

وليس فيها من أثر واحد لم يتناوله ناموس النشوء بالنقض من إحدى جهاته على هرم الدهر وتقادمه غير القرآن، فإنه طبقة وحده في إعجاز تركيبه وسلامة معانيه، لم تنقض منه آية ولا كلمة ولا ما دون الكلمة، ولا ذُكر معه شيء من كلام البلغاء، ولا عورض به ولا أزيل عن موضعه، ولا وزنه عقل إلا كان مرجوحًا أبدًا، وما أراده أحد إلا أراده بغير طريقته، ولا بحث عن طريقته إلا عي بإدراكها وبَعل بها ولم يدر ما هي ولا كيف هي ولا من أين يأتي لها، وصار أمره نشرًا[1] لا نظام له وعاد علمه جهلًا لا بصيرة معه، ولعمري إنه لشيء في العجائب كلها شيء أعجب من إمكان أن يكون القرآن مع هذا الإعجاز كله غير معجز. !»[2].

* * *

(١) بعِل: دُهش. (مقاييس اللغة ١/ ٢٦٤)، ونشرًا: أي: منتشرًا متشعبًا (٥/ ٤٣٠).
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي (ص١٦٤).

المَبْحَثُ الثَّانِي

فيمن زعم أن القرآن أسلوب محمد ﷺ وتميزه راجع إلى تفوقه في البلاغة

هذه الشبهة من أقدم الشبه التي ادعاها المكذّبون للنبي ﷺ وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا الادعاء في القرآن وردّ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥] وما شابهها من الآيات، فطلبوا منه أن يأتي بقرآن مثله أو يبدّل بعض ما جاء فيه، زعمًا منهم بأن القرآن من عنده، وليس من عند الله.

وقد كانت مزاعم المشركين التي كانوا يتشبثون بها حينئذ متعلقة بأحوال بعيدة كل البعد عن أسلوب القرآن، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، فما تضارب ادعاءاتهم إلا دليل على تهافتها وبطلانها، ومقصودهم أن يُخرِجوا أسلوب القرآن عن كونه كلام الله المعجز، فكأنهم قالوا: «إن كانت فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر، قلنا: لم لا يجوز أن يكون ذلك سحرًا وإن لم يساعد عليه، فإن ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا: إنها أضغاث أحلام، وإن ادعينا أنه متوسط بين

الركاكة والفصاحة قلنا إنه افتراه وإن ادعينا أنه كلام فصيح قلنا: إنه من جنس فصاحة سائر الشعراء، وعلى جميع هذه التقديرات فإنه لا يثبت كونه معجزًا»[١].

ومع تهافت هذه الأقوال وتناقضها، فقد تلقفها فئام من الطاعنين في القرآن وأشاعوها وطاروا بها فرحًا، فادّعوا أن فصاحة الأسلوب نابعة من تميّز النبي ﷺ في إدراكه، وبلاغته في تأليف الكلام وتصويره[٢]، ومن ذلك ما قاله درمنجهام[٣]، وهو يصور النبي ﷺ بالفنان أو الشاعر الذي يتأمل الطبيعة، ثم يبدع في التأليف: «وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق، حتى ليحسب المرء أنه يسمع بصيص ضوئها، وكأنه نغم نار موقدة، حقًا إن في السماء لشارات للمدركين، وفي العالم غيب بل العالم غيب كله؛ لكن ألا يكفي أن يفتح الإنسان عينيه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع ويرى الحق، ويسمع الكَلِم الخالد، لكن للناس عيونًا لا ترى وآذانًا لا تسمع، أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى، وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب مخلص مُلِئَ إيمانًا...»[٤].

ويقول نولدكة[٥]: «إن أفضل ما في الإسلام نشأ على هذا

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٢/ ١٢١).

(٢) انظر: مناهل العرفان (١/ ٨٥).

(٣) مستشرق فرنسي عمل مديرًا لمكتبة الجزائر، من آثاره: حياة محمد، ومحمد والسُّنَّة الإسلامية، وعدد من الأبحاث في المجلات (ينظر: قالوا عن الإسلام ص٦٠).

(٤) القرآن والمستشرقون، د. التهامي نقرة، (١/ ٢٨).

(٥) هو: ثيودور نولدكه «نيلدكه»، يعد شيخ المستشرقين الألمان، ولد عام (١٨٣٦م) في هامبورغ أتقن العربية، العبرية، والسريانية، درس في غوتنغن وفيينا وبرلين وليدن، حصل على الدكتوراه عام (١٨٥٦م) وهو في سن العشرين عن تاريخ القرآن. عين مدرسًا للتاريخ الإسلامي في جامعة جوتنجن عام (١٨٦١م). وأستاذ التوراة واللغات السامية في كيل عام (١٨٦٤م)، توفي سنة (١٩٣١م). (ينظر: موسوعة المستشرقين، ص٩٥٩).

المنوال[١] لكن الطريقة التي اكتسب فيها محمَّد هذه التعاليم واعتبرها وحيًا أنزله الله عليه، ليبشر به الناس تجعل منه نبيًا حقًا، إذا اعتبر المقياس الوحيد للنبوة أن يأتي بأفكار جديدة لم يسمع بها قط من قبل» «إن محمَّدًا حمل في وحدته ما تسلمه من الغرباء، وجعلته يتفاعل وتفكيره، ثم أعاد صياغته بحسب فكره» «كانت نبوَّة محمَّد نابعة من الخيالات المتهيجة، والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج، فلولا ذكاؤه الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه، مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية قادمة من الله بدون مناقشة»[٢].

وهذه الأقوال تدور بمجملها على أن النبي محمدًا ﷺ ـ حسب زعمهم ـ استطاع بذكائه وحسّه المرهف، أن يستفيد مما تعلمه من تعاليم اليهودية والنصرانية وغيرها من الأفكار الجديدة، ليصوغ ذلك كله بأسلوبه الأدبي الذي كان يعتقد في داخله أنه وحي من الله.

وليت هؤلاء المستشرقين ومن انتهج نهجهم إذ أجهدوا أنفسهم في الوصول إلى هذه الأقوال، راجعوا ما ادعاه المشركون المعاندون حول هذه الشبهة والآيات التي نزلت في الرد عليهم فوقفوا عندها، ولا ينقضي عجبك في أنهم اعتبروا هذه الادعاءات التي لم يكن لها غرض عند المشركين آنذاك إلا التكذيب والتشغيب فحملوها محمل الجد فأخذوا يحللونها ويبنون عليها استنتاجاتهم وخلاصة أفكارهم فهذا نصر أبو زيد يحتفل بهذه الادعاءات التي رُمِي بها النبي ﷺ ويعلل سببها فيقول: «والحقيقة أن العرب المعاصرين لتشكيل النص لم يكونوا قادرين على استيعاب (التغاير) و(المخالفة) بين النص والنصوص لديهم، ولذلك كانوا حريصين أشد الحرص على جذب النص (الجديد) إلى أفق النصوص

---

(١) يقصد تعاليم اليهودية والنصرانية.

(٢) تاريخ القرآن (١/ ٤، ٥).

المعتادة، فقالوا على النبي: شاعرًا، وقالوا عنه: كاهنًا، ولا شك أن هذه الأوصاف قامت ـ عندهم ـ على أساس إدراك (المماثلة) بين نص القرآن ونصوص الشعراء والكهان، وإذا كان مفهوم (الوحي) ذاته قد ارتبط ـ كما سلفت الإشارة ـ بمفهوم الاتصال في ظاهرتي الشعر والكهانة فقد كان من الطبيعي أن تترابط النصوص الناتجة عن الاتصال/ الوحي في ذهن الجماعة»(١).

فتأمل كيف حاكمَ العربَ الخُلّص إلى فهمه، ثم وصفهم بأنهم غير قادرين على استيعاب التغاير بين نص القرآن وبين نصوصهم، وهي فرية تنادي على نفسها بالبطلان، يدركها من له أدنى نظر في تاريخ العرب وأدبهم، وما ألجأه إلى هذا الفهم إلا لما قرره قبل ذلك من أن القرآن ينتمي إلى ثقافة البشر(٢).

أما الجواب عن هذه الشبهة:

١ ـ فقد كان يكفي في الرد عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

قال الطبري: «هذا خبر من الله جل ثناؤه، أن هذا القرآن من عنده أنزله إلى محمد عبده، وتكذيبًا منه للمشركين الذين قالوا: هو شعر وكهانة، والذين قالوا: إنما يتعلمه محمد من يعيش الرومي، يقول لهم جل ثناؤه: ما كان هذا القرآن ليختلقه أحد من عند غير الله؛ لأن ذلك لا يقدر عليه أحد من الخلق»(٣).

ويقول الشوكاني: «وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة، والبراهين الواضحة يفترى من الخلق من

(١) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن (ص١٥٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص٢٧).

(٣) جامع البيان، ط هجر (١٢/ ١٨٢).

دون الله، وإنما هو من عند الله ﷻ، وكيف يصح أن يكون مفترى، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانًا وأدقهم أذهانًا»(١).

ويقول ابن عطية: «وعبر عن ذلك بهذه الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر»(٢).

٢ ـ كما أن الأسلوب الذي نزل به القرآن لا يمكن بحال أن يُدّعى بأنه أسلوب النبي ﷺ وإن بلغ ما بلغ فصاحة وبلاغة، فكيف له يبدأ وكيف يبدأ حياته الأدبية بهذا الأسلوب الفائق وبعد هذه السن، ثم يكون أول قول له ـ حسب زعمهم ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] إذ لم يكن معروفًا بذلك ﷺ، فهذا من التناقض البيّن، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] بل كيف لعاقل أن يزعم أن هذا أسلوبه ﷺ وهو يصدح أمامهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

٣ ـ لو كان الأمر كذلك لجاء أسلوبه ﷺ موافقًا لتصرفاته وأفعاله، فكيف له أن يعاتب نفسه بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ١ ـ ٤]، أم كيف له أن ينهى نفسه عن عمل عمله، ثم يعتريه الوجل والخوف كما في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسروا الأسارى؛ يعني: يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: (أَيْنَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ؟ قَالَ: مَا تَرَوْنَ فِي

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٠٦).
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ١١٩).

الْأُسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، وَأَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟** فَقَالَ: لَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِيَّ اللهِ، وَلَكِنْ أَرَى أَنَّ تُمَكِّنَنَا مِنْهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنَ حَمْزَةَ مِنَ الْعَبَّاسِ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنَنِي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبٍ لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ. قَالَ عُمَرُ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَانِ يَبْكِيَانِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَبْكِي لِلَّذِي عُرِضَ لِأَصْحَابِي مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، وَلَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)** لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧][(١)].

فلا يعقل أن يحصل هذا الفعل من رجل ثم يصرّح بما ينقض فعله ثم يعتريه ما يعتريه، إلا بضرب من الاستخفاف بالناس وحاشا رسول الله ﷺ ذلك.

يقول د. محمد عبد الله دراز: «وتأمل آية الأنفال المذكورة تجد فيها ظاهرة عجيبة فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطييب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها، فهل الحال النفسية التي يصدر

---

(١) جامع البيان (١١/ ٢٧٥).

عنها أول هذا الكلام ـ لو كان عن النفس مصدره ـ يمكن أن يصدر عنها آخره ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟ كلا، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، ولرجع آخر الفكر وفقًا لما جرى به العمل فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله، على ما فيه من تقريع علني بغير حق، وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالًا طيبة؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ـ ها هنا ـ البتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده: لقد أسأت، ولكني عفوت عنك وأذنت لك»[١].

٤ ـ إذا كان هذا الأسلوب كما يزعم المدّعون نتيجة لتفوق رسول الله ﷺ في البلاغة فكيف لأديب فاق قومه في الفصاحة والبلاغة بهذا الذي جاء به ـ كما زعموا ـ أن يُتّهم في عرضه بالباطل ثم يمكث شهرًا لا يقول ما يدفع عن نفسه وأهل بيته، ولو كان الأمر من تلقاء نفسه لما تأخر عن تبرئة نفسه بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

٥ ـ إن القرآن لو كان مصدره نفس محمد كما يزعم الزاعمون، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه، ولأمكن أن يدّعي به الألوهية فضلًا عن النبوة، ولكان مقدّسًا في نظر الناس وهو إله أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي، ولما كان في حاجة إذًا إلى أن يلتمس هذه القدسية الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره[٢].

٦ ـ إن القرآن جاء للناس من أوسع الأبواب ودخل عليهم من طريق العرب الخلصاء ذوي اللسن والبيان، وتحداهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام، فلو كان مصدره نفس محمد كما يقول

---

(١) النبأ العظيم (ص٥٥).
(٢) مناهل العرفان (ص٨٦).

أولئك الملاحدة لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه بما أوتوا من ملكة النقد، وما وهبوا من نباهة الحس والذوق ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطًا قريبًا إن لم يمكنهم مجاراته شوطًا بعيدًا، لا سيما أن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة؛ أي: بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز، ومعلوم أن النابغة الفذ في أي عصر من العصور يستطيع أقرانه بيسر وسهولة أن يحاكوه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشيء الكثير[1].

وأخيرًا.. كيف له أن يكون هذا النظم من عند محمد ﷺ، ثم هو يقول مخاطبًا نفسه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

* * *

(١) مناهل العرفان (ص٨٥، ٨٦).

المبحث الثالث

فيمن زعم أن أسلوب القرآن قد حوى ألفاظًا مبتذلة[1]

هذه الشبهة مبنية على ادعاء أن ما تضمنه أسلوب القرآن ونظمه من ألفاظ إنما جاء على مستوى لا يسلّم فيه بأنه معجز، وقد أشار إليها الخطابي بقوله: «فإن قيل: إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه وجدنا معظم كلامه مبنيًا ومؤلفًا من ألفاظ مبتذلة في مخاطبات العرب مستعملة في محاوراتهم، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل، وعدد الفقر[2] والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومراسيله يسير»[3].

وهذه الشبهة من الشبه التي تعرض لها الخطابي في رسالته بنوع من التفصيل ليصل من خلالها إلى بيان إعجاز القرآن من خلال الوجوه التي ادعوا معها فساد النظم واختلال الأسلوب، وبذلك انقلبت كل ادعاءاتهم إلى حجة لازمة عليهم.

ومن أبرز هذه الشبهات: التعبير بألفاظ لا تستقيم بها الفصاحة ولا يظهر بها وجه البلاغة، والحذف والاختصار في بعض المواطن، وكثرة التكرار في مواطن أخرى مما يعاب به الكلام.

---

(١) اللفظ المبتذل عند المتقدمين، يراد به: كثير الاستعمال مما هو أقل من غيره في الفصاحة، أما عند المتأخرين فيراد به: المستهجن المنتقص، وقد سلم أسلوب القرآن من الأمرين جميعًا كما سترى في هذا المبحث بإذن الله.

(٢) الفقر: الكلام الحسن من سائر الكلام. (تاج العروس ١٣/ ٣٤٢).

(٣) القول في بيان إعجاز القرآن، للخطابي (ص٣٥).

وقد فنّد الخطابي جميع ما ذكروه من اعتراضات تتعلق بهذه الشبهة.

ومن أمثلة ذلك ما ادّعوه في قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] حيث قالوا: «وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصًا الافتراس، يقال: افترسه السبع هذا هو المختار الفصيح في معناه، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع»، فأجاب بقوله: «الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرْس: دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلًا وأتى على جميع أعضائه وأجزائه، فلم يترك مفصلًا ولا عظمًا، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل، على أن لفظ الأكل شائع في الاستعمال في الذئب وغيره من السباع»[(١)].

هذا مثال يبيّن لك قصور فهم الطاعنين في القرآن مقارنة بفهم الخطابي في الرد عليهم، والخطابي ينطلق في ذلك من قاعدته التي قعّدها في بداية رسالته من اشتمال القرآن على أفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني[(٢)]، ولذلك فهو لا ينظر إلى مفردات التراكيب دون لواحقها، ولا إلى ظواهر المعاني دون بواطنها بل هو يبحث في المعاني الخاصة، ودقائق الترتيب، والنظر في أحوال الكلام ومناسباته، ولذا تراه يقول: «وذكرنا العلة في ذلك وبيَّنّا المعنى فيه، ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه، وملابسه التي هي نظوم تأليفه»[(٣)].

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن، للخطابي (ص٤١).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص٢٧).

(٣) المصدر السابق (٣٦).

وقد تبيّن في الفصول السابقة ما اشتمل عليه أسلوب القرآن من دقة التعبير، وما يتضمنه الإيجاز والإجمال أو التّكرار من الإعجاز البياني، وثراء المعاني، وما يشتمل عليه أسلوب القرآن من السموّ في التعبير مما ينفي ادّعاءهم بأن أسلوب القرآن قد احتوى ألفاظًا مبتذلة.

ومع قِدَم هذه الشبهة وبيان بطلانها، إلا أنك تجد من المعاصرين من يردد هذه الشبهة، وليتهم إذ تلقفوها، نقلوها كما وصلتهم، ولكنهم جمعوا مع محاكاة من سبقهم، قلة الفهم، فاحتكموا إلى أفهامهم السقيمة، مع أهوائهم الفاسدة في الافتراء على كتاب الله.

فمما قالوه ما نقله الزرقاني: «يقولون: إن الباحث الناقد يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثر ببيئات متباينة فنرى أن القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة كما نشاهد القسم المدني منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة، فالقسم المكي يتفرد بالعنف والشدة والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد»(١).

ويقول بلاشير(٢): «إن أسلوب القرآن يذكرنا بغرابة تنبؤات المنجمين وهذر الشعراء وقول السحرة»(٣).

ويقول: ف.بول(٤): «إن النبي ﷺ كان مغرمًا بالتّكرار الممل،

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٠٦).

(٢) بلاشير ريجيس، من علماء المستشرقين ومن أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق والمجمع الفرنسي الأعلى (الأنستيتو) بباريس، فرنسي، ولد في باريس سنة (١٩٠٠م)، تلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء (بالمغرب)، وتخرج بكلية الآداب في الجزائر، وسمي أستاذًا في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط، ثم انتقل الى باريس محاضرًا في السوربون، توفي سنة (١٩٧٣م). (الأعلام للزركلي ٢/ ٧٢).

(٣) آراء المستشرقين الفرنسيين من القرآن الكريم (ص١٣٩).

(٤) فرانتس بوهل (بول)، مستشرق دانمركي. من أعضاء المجمع العلمي العربيّ، ولد سنة =

والتعليلات النفسية الجامدة، أو المجادلات التافهة بالنسبة لأولئك الذين لا يشاركونه نفس الفكرة»[١].

ويقول جولد تسيهر: «لكن حمية النبوة وحدتها أخذت في عِظات المدينة والوحي الذي جاء بها تهدأ رويدًا رويدًا، حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة، كما أخذ الموحي نفسه ينزل إلى أقل بحكم ما كان يعالجه من موضوعات ومسائل، حتى لقد صار أحيانًا في مستوى النثر العادي»[٢].

وهذه الادعاءات المتضاربة يدور مجملها حول أمرين:

الأول: أن الأسلوب المكي وإن كان يتسم بالقوة البلاغية التي بلغت الذروة فقد امتاز بالعنف والقسوة التي تناسب الأوساط المنحطة.

الثاني: أن الأسلوب المدني وإن اتسم بالثقافة والاستنارة، فقد ظهرت فيه أمارات الضعف اللغوي.

وهذا الادّعاء مبني على قياس فاسد عندهم، وهم أنهم اعتبروا هذا القرآن مجهودًا بشريًا، ثم حاكموا التفاوت الزمني في النزول والحالة الاجتماعية إلى الطبيعة البشرية، فخرجوا بهذه النتيجة الفاسدة، دون أن يتأملوا في أسلوب القرآن ونظمه وإن استشهدوا بآيات، فإنهم كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال عنهم: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

= (١٨٥٠م)، في كبنهاغن، كان أستاذ اللغات الساميّة في جامعتها. كتب في دائرة المعارف الإسلامية فصولًا في تراجم بعض أعلام المسلمين، وله كتاب في «جغرافية فلسطين القديمة» باللغتين الدانمركية والألمانية، وكتاب «حياة محمد» كتبه باللغة الدانمركية، وترجم إلى الألمانية. وكان غزير العلم بأدب الجاهلية العربية وتاريخها، توفي سنة (١٩٣٢م). (الأعلام ٥/ ١٣٩).

(١) القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية، د. حميّد ناصر الحميّد (ص٢١).

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد تسيهر (ص٢١).

لو تأملوا في نظم القرآن وسبكه، لعلموا أن هذا الملمح الذي ولجوا فيه إلى هذه الشبهة هو حجة بالغة على إعجاز هذا القرآن، وذلك أنهم لو قارنوا بين أدب القوم وأشعارهم وما فيه من ترجمة لحالهم الاجتماعي والثقافي والفكري، كما في أشعار العرب كزهير وامرئ القيس وغيرهما، فلا يمكن أن يكون القرآن حينئذ أثرًا أدبيًا لهذه المرحلة.

فليس لمنكر أن القرآن من عند الله إلا أحد أمرين ذكرهما الرافعي فقال: «إن الذي لا يعتقد مستبصرًا أن هذا القرآن من عند الله إذا هو نظر فيه وأثبت حقيقته وقوي على تمييزها وكان ممن ينزلون على حكم النظر والمعرفة، فهو لا يجد مناصًا من رد التاريخ والتكذيب له، ثم الإقرار بأن هذا القرآن إنما هو أثر من لغة قوم جاوزوا في الحضارة حد أهلها من سائر الأجيال، وبلغوا من أحوال المدنية أرقى هذه الأحوال، وكانوا من العلوم في مقام معلوم»(١).

لقد جاء القرآن إلى هذه الأوساط التي ساد فيها قدر من الظلم والانحطاط والتفرق، فارتفع بهم إلى الحضارة والاجتماع والعدل، وانتقل بهم أسلوب القرآن من الفصاحة السائدة عندهم في وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة، إلى الأسلوب المتناهي في الفصاحة والبلاغة الذي ارتقى بهممهم إلى المقاصد العالية والمطالب الغالية(٢).

أما اتهامهم للأسلوب في المرحلة المكية بأنه تفرد بالعنف والقسوة، فاتهام باطل ذلك أنه اتّسم أسلوبه بالقوة في رد الباطل ودحضه، وهذه القوة مطلب في إحقاق الحق وإزهاق الباطل كما قال

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص٥٦).

(٢) انظر: إظهار الحق، محمد رحمت الله الهندي (٣/ ٧٧٥).

تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] قال البيضاوي: «وإنما استعار لذلك القذف وهو الرمي البعيد المستلزم لصلابة المرمى، والدمغ الذي هو كسر الدماغ بحيث يشق غشاؤه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرًا لإبطاله به ومبالغة فيه»(١).

ودعوى تفرد الآيات المكية بذلك باطل أيضًا، وذلك أن قوة أسلوب القرآن سمة عامة من سماته، ومظهر من مظاهر تأثيره في جميع القرآن مكيه ومدنيه؛ لأن ضرورة التربية الرشيدة في إصلاح الأفراد والشعوب وسياسة الأمم والدول تقضي الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والشدة واللين، فأين أصحاب هذه الدعوى عن قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٥ ـ ٥٨] وغيرها من الآيات كثير، شأنها شأن الآيات المكية التي احتجوا بها مثل قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وقوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣] وهي آيات جمعت بين القوة والبلاغة، دون ابتذال أو انحطاط كما يزعمون.

وأين هم عن الآيات المكية التي تفيض سماحة وعفوًا، بل تنادي أن تقابل السيئة بالحسنة كما في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٤٨).

وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٣، ٣٤]، وكما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٨ ـ ٤٠](١).

وهكذا يظهر لك أن هذه شُبهٌ لا تقوم بها حجة، وذكرها كافٍ في بيان بطلانها ولقد تكلفوا أمثلة ظنوا أنهم بها قد اقتحموا عقبةً عجز عنها غيرهم، والحقيقة أن عقولهم وأهواءهم قد زلّت بهم في وادٍ سحيق، وأين فصحاء الجاهلية عن إدراك هذه الادعاءات؟ فقد كانوا أوفر بها حظًا وأحوج ما يكونون إليها ليطعنوا في القرآن الذي نزل وعاب آلهتهم، وسفّه أحلامهم، ومع ذلك كانوا يدركون غاية الإدراك أنه لم يخرج عن جادة الأدب، ولم يعدل عن سنن الحق وهو الذي جاء فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وجاء فيه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

* * *

---

(١) انظر: مناهل العرفان (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

في من ادَّعى سوء التأليف وعدم الترابط في أسلوب القرآن

وصف الله تعالى آيات القرآن بالإحكام فقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وهذا الإحكام يتضمّن الترابط وجودة السبك فالقرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله، وآياته وسوره مبلغًا لا يدانيه فيه أي كلام آخر مع طوله، وتنوع مقاصده، بيد أن أعداء الإسلام لا يكلون عن إظهار سوآتهم، ولا يفتئون عن كشف سخافة عقولهم، بالطعن في القرآن الكريم ومن ذلك ادّعاؤهم سوء التأليف وعدم الترابط في أسلوب القرآن الكريم.

فمما قالوه: أن ترتيب الآيات والسور لا يدل على المراد ولا يوفي بالمقصد، ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب فتكون أخبار الأمم وأقاصيصهم في سورة والمواعظ والأمثال في سورة، والأحكام في أخرى لكان ذلك أحسن في الترتيب وأعون على الحفظ وأدل على المراد وأكثر فائدة وأعم نفعًا(١).

وكعادة الطاعنين، يلقي السابقون شبهاتهم هزالًا كُساحًا، فيتلقفها عنهم اللاحقون فيلقون عليها من سخافاتهم وجهالاتهم فلا يدعون فيها رمقًا.

ومن ذلك قولهم: إن أسلوب القرآن غير مرتب ولا منظم فلم يفرد كل غرض من أغراضه بفصل أو باب، شأن سائر الكتب المنظمة، بل

---

(١) انظر: القول في بيان إعجاز القرآن (ص٤٠).

مزجت أغراضه مزجًا غير مراعى فيه نظام التأليف فيبعد أن يكون من الله[(١)].

يقول نولدكة: «فمن صفات الأسلوب القرآني الثابتة: أن أفكاره لا تتطور بهدوء إلا نادرًا، بل هي تقفز من موضع إلى آخر، وحده نقصان الصلة الكامل بين المواضع لا يفوت الملاحظ بسهولة»[(٢)].

ويقول: «لكن محمدًا يبقى ملتزمًا بالنظم الذي يتألف في أحيان كثيرة من زيادات فائضة تجعله عنصرًا أسلوبيًا مشوشًا»[(٣)].

ويقول بلاشير: «إن إعادة ترتيب السور الذي اقترحه [نولدكه] ينال هنا كامل الأهمية؛ لأنه يلقي على المصحف أضواء مطمئنة ويرد وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك لكونها مقرونة إلى السياق التاريخي المعقول [يعني: وفق نزولها]»[(٤)].

ويقول محمد أركون واصفًا سورة الكهف وما ورد فيها من قصص: «إذا ما وصفنا كل ما سبق بأنه مجرد تجاور بين عبارات لغوية ومعنوية متبعثرة، فإن ذلك يعني: أننا نؤكد ضمنيًا على أولوية المعايير البلاغية والمنطقية، وهي معايير خاصة بتراث الكتابة المتفرع عن أرسطو، وقد هيمنت هذه المعايير على كل تأليف أو تركيبة نصوصية»[(٥)].

وهذه المزاعم تتلخص في أمور:

- سوء التأليف في أغراض ومواضيع القرآن.
- عدم الترابط بين أجزاء السورة.
- التباين وعدم التآلف بين السور المكية والسور المدنية من حيث الطول والقِصر.

---

(١) انظر: مناهل العرفان (١/ ٧٩).
(٢) تاريخ القرآن، نولدكة (ص٥٩).
(٣) المصدر السابق (ص١٥٤).
(٤) القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، لبلاشير ترجمة رضا سعادة (ص٢٣).
(٥) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب (ص١٤٩).

وكل هذه المزاعم وغيرها تتلاشى أمام الوقوف على أسلوب القرآن، ليتبيّن أن تلك الادعاءات التي ادعوها في سوء التأليف، هي حجة عليهم ودليل على باطل قولهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦].

ولا تزال محاكمة كتاب الله تبارك وتعالى إلى الأفهام البشرية وطرائقها في التأليف هي سبب الوقوع في هذه الشبهات، ولذا فإنك تجد هؤلاء الملاحدة تتباين آراؤهم في بيان الطريقة المثلى في تأليف القرآن فمنهم من يقترح ترتيب القرآن حسب الأغراض والمواضيع، ومنهم من يرى ترتيبها حسب النزول، وكل يزعم أن طريقته هي المثلى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ونحن نقول لهم كما قال الله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، فتنزيل القرآن بترتيبه وتصريفه كما جاء عن الله، هو ما ارتضاه لعباده كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] وكتاب الله يحتكم إليه لا عليه، وغير ذلك فهو اتباع للهوى كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

وعند النظر في أسلوب القرآن وما يشتمل عليه من حسن النظم والتأليف وجودة السبك، فإن المتأمل لا ينقضي عجبه حتى يشهد أنه من عند الله ومما رُوي في ذلك:

ما حُكي عن ابن المقفع[1] وكان فصيح أهل عصره أنه طلب أن

---

(١) عبد الله بن المقفع، أحد البلغاء والفصحاء، من نظراء عبد الحميد الكاتب، وكان ابن المقفع يتهم بالزندقة، وهو الذي عرب (كليلة ودمنة)، توفي سنة (١٤٥هـ). (سير أعلام النبلاء ٦/٢٠٨).

وكان من مجوس فارس، فأسلم على يد الأمير عيسى عم السفاح، وكتب له، واختصَّ به.

يعارض القرآن فنظم كلامًا، وجعله مفصلًا وسمَّاه سورًا، فاجتاز يومًا بصبي يقرأ في مكتب: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] فرجع ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبدًا، وما هو من كلام البشر[١].

وحكى الأصمعي قال: رأيت بالبادية جارية خماسية أو سداسية وهي تقول:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَنْبِي كُلِّهْ   قَتَلْتُ إِنْسَانًا لِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلَ غَزَالٍ نَاعِمٍ فِي دَلِّهِ   فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أتعد فصاحة بعد قول الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة، بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وإنشاءين[٢].

قال القرطبي في حديثه عن أوجه الإعجاز: «ومنها التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه»[٣].

ويقول محمد رحمت الله الهندي[٤]: «تأليفه العجيب وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان

---

(١) النكت والعيون (١/ ٣١). (٢) المصدر السابق (١/ ٣١).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٧٤).

(٤) هو: رحمة الله بن خليل الرحمٰن الهندي الحنفي، نزيل الحرمين: باحث، عالم بالدين والمناظرة. جاور بمكة وتوفي بها. له كتب منها: «التنبيهات»، في إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر والميقات وإظهار الحق، هو من أفضل الكتب في موضوعه، توفي سنة (١٣٠٦هـ).

وحقائق العرفان، وحسن العبارة ولطف الإشارة، وسلامة التركيب، وسلامة الترتيب، فتحيرت فيه عقول العرب العرباء وفهوم الفصحاء، والحكمة في هذه المخالفة أن لا يبقى لمتعسف عنيد مظنة السرقة ويمتاز هذا الكلام عن كلامهم ويظهر تفوقه؛ لأن البليغ ناظمًا كان أو ناثرًا يجتهد في هذه المواضع اجتهادًا كاملًا، ويمدح ويعاب عليه غالبًا في هذه المواضع كما عيب على مطلع امرئ القيس:

قِفَا نَبكِ من ذِكرَى حَبيبٍ ومَنزِلِ   بسِقطِ اللّوَى بينَ الدَّخولِ فحَومَلِ

بأن صدْر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعاني فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل، وأن الشطر الثاني لا يوجد فيه شيء من ذلك»[١].

وأما ما ادعوه من تداخل أغراضه ومواضيعه في السور، فهذه حجة عليهم بل هي آية من آيات الإعجاز اختصَّ بها أسلوب القرآن.

يقول ابن عاشور: «وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن لأنَّ من جملةِ وجوهِ الإعجاز أمورًا لا تَظْهَر خصائِصها إلا بالنَّظر إلى كلامٍ مستوفىً في غرضٍ من الأغراض، وإنما تنْزل سور القرآن في أغراضٍ مقصودةٍ فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا استوفى الغرض حقه، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسْن سبْكِه إعجازٌ يفوت قدرة البشر»[٢].

---

(١) إظهار الحق (٣/ ٧٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

أما دعواهم في التباين في الطول والقصر بين السور المكية والسور المدنية، فهذا باطل من وجوه:

أولًا: فكما أن السور المدنية يغلب عليها الطول فكذلك نرى سورة الأنعام وهي مكية من السور الطويلة، ونرى من السور المدنية سورة النصر وهي سورة قصيرة.

ثانيًا: إن هذا الطول والقصر بين السور لا يقطع الصلة بين قسمي القرآن: مكيه ومدنيه، ولا بين سور القرآن وآياته جميعًا، بل الصلة محكمة وشائعة بين كافة أجزائه وقد تفنن العلماء وأشبعوا الحديث عن هذه المناسبات في غضون تفسيرهم لكتاب الله.

ثالثًا: وردت آيات مكية بين آيات سور مدنية، وآيات مدنية بين آيات سور مكية، وبرغم ذلك لا يكاد أحد يحس التفاوت أو التفكك والانقطاع بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة وكمال الاتصال وجمال التناسق والانسجام مما يجعل القرآن كله على طوله سلسلة واحدة محكمة متصلة الحلقات أو عقدًا رائعًا أخاذًا منتظم الحبات أو قانونًا رصينًا مترابط المبادئ والغايات[1].

بقي وجه آخر أختم به هذا المبحث وهو ما ذكره الخطابي في رده لهذه الشبهة حيث قال: «وقد أحب الله ﷻ أن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم في جمع المتفرق منه، وفي تنزله وترتيبه، وليرفع الله الذين آمنوا منهم والذين أوتوا العلم درجات»[2].

فترتيب القرآن بهذه الطريقة ابتلاء يبتلي الله به عباده فمنهم المتهوّك[3] الساقط المتبع للفتنة ومنهم المؤمن المصدق الذي يرفعه الله بما علم.

---

(١) انظر: مناهل العرفان (١/ ٢١٦). (٢) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٤٠).

(٣) **المتهوك**: مضطرب القول وساقطه، يقال: فلان انهاك وسقط في هوة الردى (المعجم الوسيط ٢/ ١٠٠٠).

وذلك أن جمع المتفرق في موضوع واحد من مواضيع القرآن الكريم مظهر من مظاهر إعجازه، حيث أنك لا ترى بين هذه الآيات عند جمعها مع مثيلاتها إلا التآلف والتعاضد وتمام المعنى، وهيهات أن تجد هذا التآلف والتلاؤم لو أنك جمعت كلام أديب أو شاعر أو خطيب على تفاوت الأحوال وامتداد الزمان.

ولذلك كان اهتمام العلماء بجمع النظائر حول قضية ما، أو موضوع محدد، مما يفتح آفاقًا جديدة ويوقفك على أوجه من وجوه إعجاز القرآن، وهو ما اصطلح العلماء على تسميته بـ (التفسير الموضوعي)[1].

* * *

(١) انظر: إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٢٥٧).

الخاتمة

وبعد التطواف في خصائص أسلوب القرآن ومظاهره، أختم بذكر أهم النتائج، التي تتضمن خلالها بعض التوصيات.

١ ـ الحديث عن خصائص أسلوب القرآن في هذا البحث قصَد إلى إظهار السمات المشتركة لأساليب القرآن على تنوعها سواء أكان في أسلوب الآيات المكية أو المدنية، أو كان في أساليبه اللغوية، أو البيانة، فجميع هذه الأساليب تتسم بهذه الخصائص.

٢ ـ لاحظت من خلال البحث الارتباط الوثيق بين خصائص أسلوب القرآن وقواعد التفسير التي ذكرها العلماء، فكثير من القواعد مبنية على اعتبار النظم والتناسب، وقصد البيان والدقة، وغيرها من الخصائص.

٣ ـ استحضار خصائص الأسلوب القرآني للمفسِّر أو المتدبِّر، تُوقِفُه على كثير من المعاني والدلالات التي لم تكن لتظهر له دون استحضارها أثناء التفسير.

٤ ـ المتأمل لعبارات السلف ـ والتي ذكرْتُ جملة منها أثناء البحث ـ يستخرج من خلالها مادة في خصائص أسلوب القرآن، كما تدل على أنهم بنوا كلامهم في التفسير على اعتبارها.

٥ ـ تنوعت مسالك المفسرين والعلماء في الاستفادة من خصائص الأسلوب القرآني في كتبهم، ويمكن إجمال هذه المسالك في النقاط التالية:

ـ بيان وجه الإعجاز.

- توجيه الأقوال والجمع بينها بناء على اعتبارها.
- الترجيح بين الأقوال وخاصة فيما يتعلق بمسائل السياق والنظم وتقدير المحذوف والتقديم والتأخير.
- الاستشهاد بها في تقرير اطراد الأساليب البيانية وعادات الخطاب التي وردت في القرآن الكريم.

٦ - طوّف البحث حول جملة من أبواب علوم القرآن، ومسائل التفسير، وما يتعلق بطرق الاستدلال، وغيرها من الأبواب، وهذا يدل على تعلق خصائص أسلوب القرآن بهذه الأبواب، مما أثرى البحث بجملة من المسائل المتنوعة.

٧ - دراسة خصائص الأسلوب القرآني تضبط فهم المصطلحات وتضعها في إطارها الصحيح، فقد لاحظت بعض المصطلحات التي اختلفت فيها أقاويل العلماء، ما بين مثبت لها، ونافٍ لوجودها في القرآن؛ كالترادف والتكرار والإطناب وغيرها، ولو اتحد منهج الفريقين في النظر لهذه المسائل من خلال خصائص الأسلوب القرآني لخرجوا بنتائج متقاربة.

٨ - مسألة النظم من المسائل التي تعد ركيزة من ركائز الخصائص الأسلوبية وخلصت إلى اعتبارها منطلقًا يُنطلَق منه لسائر مسائل الإعجاز المعتبرة ولعل عبارة الخطابي: (الألفاظ حوامل المعاني) من أجمع وأخصر ما يفسرها.

٩ - دراسة باب المناسبات في ضوء خصائص الأسلوب القرآني تفتح آفاقًا في هذا الباب، وخصوصًا ما يتعلق بالتناسب بين القراءات القرآنية في الآية الواحدة وعلاقتها بما قبلها وما بعدها.

١٠ - تصريف القول في القرآن وما يدل عليه من التنوع والتعدد، يفيد في مجالات متعددة ومن ذلك:

- تصريف القول في الألفاظ والتراكيب المتعلقة بقصص الأنبياء ودلالاتها البلاغية والدعوية.

- تصريف القول في فواتح السور وخواتمها مع تمام التناسب بينهما في كل سورة من المظاهر الأسلوبية التي تدل على اختصاص القرآن بذلك؛ لأن كثرة التعدد والتنوع يصعب معها تمام التناسب.

- تصريف القول في خواتم السور، من المسائل التي لم تنل حظًا من الدراسة والتحليل، ومن المسائل التي يمكن أن تدرس فيها: جوانب عظمة الله ﷻ من خلال خواتم السور.

- تصريف القول في آيات الأحكام، من المسائل المهمة التي تطرّق إليها البحث ولم تُبحث في رسالة (تصريف القول في القرآن الكريم) للدكتور: عبد الله النقراط، ولو دُرست أبواب العموم والخصوص، والمطلق والمقيّد، والإجمال والبيان، دراسة أسلوبية في ضوء هذه الخصائص، لخرجنا بمسائل جديدة في التفسير وعلوم القرآن، وذلك أن عامة من تعرّض لهذه المسائل في علوم القرآن نحى المنحى الأصولي.

١١ - باب الدقة في أسلوب القرآن خصّيصة من خصائصه، وهو بحاجة إلى تأمل جيد وقوي قبل استخراج الدقائق والفروق، وقد لاحظت في دراسة جملة من هذه الألفاظ لدى بعض العلماء، نقصًا في الاستقراء، فسبحان من أحاط علمه بكل شيء.

١٢ - مظاهر ثراء المعاني في أسلوب القرآن باب رحب في باب التفسير، **ومن أبرز نتائجه:**

- التفسير بلازم المعنى، والتفسير بمعنى غير ظاهر في اللفظ على سبيل المقايسة من المسائل التي ظهرت لي أثناء دراسة احتمال السياق لأكثر من معنى وهي جديرة بالجمع والتحليل لدراسة طرقها وضوابطها.

- تعدد المعنى واحتمال اللفظ له من أبواب الثراء المهمة، ويضاف إليه من خلال ما وقفت عليه من الأمثلة في دراسة هذا الفصل، ما يمكن تسميته (اتساع المعنى) وهذه مسألة أخرى غير مسألة احتمال اللفظ لأكثر من معنى، تحتاج إلى دراسة أوجهها وطرقها في القرآن.
- تجدد المعاني احتوى جملة من الأسباب التي تُثري أبواب التفسير، والتدبر والاستنباط، وتنزيل الآيات على الواقع.

١٣ ـ التأثير في أسلوب القرآن، وجه من أوجه إعجاز القرآن وخصائص أسلوبه: وكثيرٌ من الناس يظهر أثره لديهم ويخفى سببه، فحاولت من خلال هذا الفصل الوقوف على هذه الأسباب والمظاهر التي تورث المهابة والسمو والعزة لدى تاليه ومستمعيه وتؤثر فيهم.

١٤ ـ دراسة خصائص أسلوب القرآن وإدراك شمول خطابه مهم للباحثين والمهتمين بالتدريس والوعظ والإرشاد في تنوع وشمول الخطاب الموجّه منهم حتى يقع الوعظ والإرشاد موقعًا صحيحًا ونافعًا بإذن الله.

١٥ ـ إدراك خصائص أسلوب القرآن يقطع الطريق أمام المشككين أو المتربصين أو من يَسعوْن إلى محاكمة نصوص القرآن للمناهج الإنسانية في النقد؛ لأن غالب شبهاتهم تحاول الالتفاف حول هذه الخصائص والهروب منها فعرض هذه الخصائص ومظاهرها يقطع الطريق أمامهم.

١٦ ـ كما تضمن أسلوب القرآن الرد على الشبهات التي أثيرت حوله والانطلاق منها من الأهمية بمكان في فهم الشبه والرد عليها.

١٧ ـ استشهدت كثيرًا بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] على مسائل متنوعة من

خصائص الأسلوب، الأمر الذي دعا الباحث أن يعتبرها: أجمع آية دلت على خصائص الأسلوب القرآني، والله أعلم.

وختامًا: أحمد الله الذي وفقني لإتمام هذا العمل، كما أسأله الله تعالى أن يجعل ما كتبته خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفعني به وينفع به الإسلام والمسلمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الفَهَارِسُ

ويتضمن:

- ثبت المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

ثبت المصادر والمراجع

- آراء المستشرقين الفرنسيين من القرآن الكريم، أحمد نصري، دار القلم للطباعة والنشر، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- آل حم الشورى والزخرف والدخان، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة، ت: رضا نعسان معطي، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- أساليب الدعوة إلى الله في القرآن الكريم، أبو المجد سيد نوفل، مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٠ ـ ٥١) ص (٢١٥).

- **الاستقامة**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت: محمد رشاد سالم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين علي بن محمد بن الأثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
- **أسرار البلاغة**، أبو بكر عبد القاهر بن محمد الجرجاني، ت: محمود شاكر، دار المدني، جدة.
- **الأسلوب**، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية عشرة، ٢٠٠٣م.
- **إشارة التعيين في ترجمة النحاة واللغويين**، عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، ت: عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **الأشاعرة عرض ونقد**، سفر بن عبد الرحمٰن الحوالي، مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان، ١٤٣٠هـ.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- **إظهار الحق**، محمد رحمت الله الهندي، ت: محمد ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- **الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم**، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة، ١٤٢٧هـ.
- **الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية**، أحمد محمد الخراط، مطبعة الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ.
- **الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق**، عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- **إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية**، محمد بن عبد العزيز العواجي، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥هـ.

- **إعجاز القرآن**، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ت: عماد الدين أحمد أحيد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.
- **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام**، عبد الحي بن فخر الدين الحسني الطالبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ت: محمد حامد الفقي، دار المعارف، الرياض.
- **أفراد كلمات القرآن العزيز**، أبو الحسين أحمد بن فارس، ت: حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **إقامة الدليل على إبطال التحليل**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، المكتب الإسلامي.
- **الإمام في بيان أدلة الأحكام**، العز بن عبد السلام، ت: رضوان مختار، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
- **الإمتاع والمؤانسة**، أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **الأمثال في القرآن**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **الأمثال من الكتاب والسُّنَّة**، محمد بن علي بن الحسن الملقب بالحكيم الترمذي، ت: السيد الجميلي، دار ابن زيدون ـ دار أسامة، بيروت ـ دمشق.
- **الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار**، أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي، ت: سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- **الانتصار للقرآن**، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ت: محمد عصام القضاة، دار الفتح ـ عمان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ت: محمد عبد الرحمٰن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **الإيجاز دراسة بلاغية ورؤية نقدية**، محمود شاكر القطان، دار إحياء التراث الإسلامي ١٩٨٩م.
- **الإيضاح في علوم البلاغة**، أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمٰن القزويني، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة.
- **بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي.
- **بدائع البدائه**، أبو الحسين، علي بن ظافر الأزدي الخزرجي، طبعة مصر، ١٨٦١م.
- **بدائع الفوائد**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
- **البديع في البديع**، أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله العباسي، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- **بديع القرآن**، عبد العظيم بن الواحد ابن أبي الإصبع المصري، ت: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر.
- **البرهان في ترتيب سور القرآن**، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ت: محمد شعباني، ١٤١٠هـ.
- **البرهان في توجيه متشابه القرآن**، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.
- **البرهان في علوم القرآن**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ.
- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتب العزيز**، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

- **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٦هـ.
- **بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم**، عبد الله محمد النقراط، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية**، د. محمد أبو موسى، دار الفكر العربي.
- **البيان والتبيين**، أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، دار الهداية.
- **تاريخ آداب العرب**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ت: عمرو عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- **تاريخ بغداد**، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ت: د. بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- **تاريخ جرجان**، أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي القرشي الجرجاني، ت: إشراف محمد عبد المعين خان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
- **تاريخ القرآن**، تيودور نولدكه، ترجمة: جورج تامر، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٤م.
- **التاريخ الكبير**، محمد بن إسماعيل البخاري، طبع بعناية: محمد عبد المعين خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.
- **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**، محمد أركون، مركز الإنماء القومي، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.
- **تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **التبيان في أقسام القرآن**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، عبد العظيم بن الواحد ابن أبي الإصبع المصري، ت: حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- **تحصيل نظائر القرآن**، محمد بن علي بن الحسن الملقب بالحكيم الترمذي، ت: حسني نصر زيدان، مكتبة عمار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.
- **الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق**، محمد نور الدين المنجد، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**، محمد بن إبراهيم الوزير الحسني اليمني الصنعاني، مطبعة المعاهد، القاهرة، ١٣٤٩هـ.
- **التسهيل لعلوم التنزيل**، أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **التصوير البياني**، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ١٤٣٠هـ.
- **التعريفات**، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **تعليق من أمالي بن دريد**، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت: السيد مصطفى لسنوسي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- **تفسير البحر المحيط**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- **تفسير جزء عم**، مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠هـ.
- **تفسير سورة البقرة**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

- **تفسير الشعراوي (الخواطر)**، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
- **تفسير القرآن الحكيم (المنار)**، محمد رشيد بن علي رضا القلموني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- **تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله**، عبد الرحمٰن بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم، ت: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- **تفسير القرآن**، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، ت: سعد بن محمد السعد، دار المآثر، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **التفسير القيم**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
- **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، نخبة من علماء التفسير بإشراف د. مصفى مسلم جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر القرطبي، ت: مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- **تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور**، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين**، عبد العزيز بن عبد الرحمٰن الضامر، جائزة دبي الدولية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

- **تهذيب التهذيب**، ابن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.
- **تهذيب اللغة**، أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- **التوقيف على مهمات التعاريف**، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي، دار عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ت: عبد الرحمٰن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الثقات**، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الجامع لأحكام القرآن**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهمي طفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة،الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ.
- **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- **جماليات المفردة القرآنية**، أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ.
- **جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف**، عويض بن حمود العطوي، مطبوعات مركز تدبر، ١٤٣١هـ.
- **جمهرة أشعار العرب**، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، ت: علي محمد البجادي، دار نهضة، مصر.

- **جمهرة أنساب العرب**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت: علي بن حسن ومجموعة، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، ت: محمد علي معوض وعادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **حاشية الطيبي على الكشاف**.
- **حجة القراءات**، أبو زرعة عبد الرحمٰن بن محمد بن زنجلة، ت: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة.
- **حجة الله البالغة**، شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، ت: سيد سابق، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- **الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام**، أحمد محمد الشرقاوي، بحث محكم لمؤتمر الحوار بجامعة الشارقة.
- **خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.
- **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- **خصائص القرآن الكريم**، فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، مكتبة العبيكان، الطبعة التاسعة، ١٤١٧هـ.
- **الخصائص**، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
- **الداء والدواء**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أبو العباس شهاب الدين، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ت: د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الفكر، بيروت.
- **دراسات في علوم القرآن**، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
- **دراسات قرآنية**، محمد قطب، دار الشروق، بيروت ـ القاهرة.
- **درة التنزيل وغرة التأويل**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، ت: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، أعلام علماء نجد، ت: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، الطبعة السادسة، ١٤١٧هـ.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، بو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- **دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها**، عبد المحسن زبن المطيري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **دفاع عن البلاغة**، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٤٥م.
- **دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني**، محمد ياس خضر الدوري، ١٤٢٦هـ.
- **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، أبو بكر عبد القاهر بن محمد الجرجاني، ت: محمود شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.
- **دلائل النبوة**، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **دلائل النظام**، عبد الحميد الفراهي الهندي، المطبعة الحميدية، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
- **ديوان امرؤ القيس**، اعتنى به عبد الرحمٰن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.

- **ديوان الشنفري عمرو بن مالك**، جمع وتحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- **ديوان علي بن الجهم**، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية.
- **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
- **ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري**، ت: مصطفى السقا وعدد من المحققين، دار المعرفة، بيروت.
- **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت: أبو اليزيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ.
- **ذم الهوى**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، ت: مصطفى عبد الواحد.
- **الرد على المنطقيين**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار المعرفة، بيروت.
- **الرسائل الشخصية**، ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ت: صالح بن فوزان الفوزان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
- **الرسالة**، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ت: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ.
- **الرسل والرسالات**، عمر بن سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، دار النفائس، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، ت: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **الروض الأنف**، أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، ت: عمر السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه**، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

• زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، ت: عبد الرزاق مهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

• زاد المهاجر إلى ربه أو (الرسالة التبوكية)، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ت: محمد جميل غازي، مكتبة المدني، جدة.

• الزهد، أبو السَّري هَنَّاد بن السَّرِي بن مصعب التميمي الدارمي، ت: عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

• سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

• سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

• السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، مطبعة بولاق، القاهرة.

• سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

• سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، أبو داود السجستاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

• سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

• سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني، ت: شعيب الأرناؤوط ومجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

• السنن الصغرى، أحمد بن شعيب النسائي، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

• السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين الخراساني، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.

• سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ت: بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

- السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ت: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، ت: مصطفى السقا وعدد من المحققين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ.
- شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- شرح السُّنَّة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت: شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- شرح مختصر الروضة، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الملقب نجم الدين الطوفي، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، دار الفيحاء، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، الحلبي، شمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي الدمشقي، المطبعة العامرة الشرفية، الطبعة الأولى، ١٣٠٨هـ.
- الصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد زهير الناصر، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ت: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.
- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- طبقات فحول الشعراء، أبو عبد الله محمد بن سلّام الجمحي، ت: محمود شاكر، دار المدني، جدة.
- الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد الهاشمي، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- طبقات اللغويين والنحويين، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، ت: سليمان صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
- طبقات المفسرين، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ت: علي محمد عمر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة الطالبي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- الظاهر الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية، راشد بن حمود الثنيان، دار التدمرية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

- العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف، الرياض، ١٩٩٢م.
- العواصم من القواصم، أبو بكر بن العربي، ت: عمار طالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، عبد الراضي محمد عبد المحسن، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ.
- الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار عمار، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.
- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، دار ابن كثير ـ دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ت: مجموعة من المحققين.
- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، محمد بن عبد الرحمٰن الشايع، مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ.
- فضائل القرآن، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- فقه السيرة للغزالي بتخريج الشيخ الألباني (ص١١٦).
- الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق المعروف بابن النديم، ت: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

- **الفوائد**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
- **الفواصل القرآنية دراسة بلاغية**، السيد خضر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **الفوز الكبير في أصول التفسير**، أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلي» عربه: سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة والعشرون، ١٤٢٥هـ.
- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- **القاموس المحيط**، مجد الدين الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ.
- **القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية**، د. حميّد ناصر الحميّد (ص٢١).
- **القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب**، محمد أركون، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.
- **القرآن والمستشرقون**، د. التهامي نقرة، مطبوع ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الجزء الأول، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م.
- **القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره**، بلاشير ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤م.
- **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
- **القطع والائتناف**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، ت: عبد الرحمٰن المطرودي، دار عالم الكتب، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- **قطف الأزهار في كشف الأسرار**، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ت: أحمد محمد الحمادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

• **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، العز بن عبد السلام، ت: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

• **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ**، عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ.

• **قواعد التفسير**، خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

• **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

• **القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**، محمد بن صالح بن عثيمين، مكتبة السُّنَّة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

• **القول في بيان إعجاز القرآن**، للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد أحمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

• **الكامل في اللغة والأدب**، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.

• **كتاب الإيمان**، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن مَنْدَه العبدي، ت: علي محمد ناصر فقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

• **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، أبو بكر بن أبي شيبة، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

• **الكتاب**، عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

• **الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

• **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها**، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة الرسالة.

• **كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس**، عبد الرحمٰن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب التميمي، ت: عبد العزيز بن عبد الله آل حمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية**، إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن الأجدابي أبو إسحاق الطرابلسي، ت: السائح علي حسين، دار اقرأ للطباعة والنشر، ليبيا.
- **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، نجم الدين محمد بن محمد الغزي، ت: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **كيف نتعامل مع القرآن**، محمد الغزالي، شركة نهضة مصر، الطبعة السابعة، ٢٠٠٥م.
- **اللباب في علوم الكتاب**، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، ت: عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- **لسان العرب**، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- **لطائف التذييل في القرآن الكريم**، أحمد بن محمد الشرقاوي، بحث محكم بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر.
- **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الدمشقي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **لمحات في الثقافة الإسلامية**، عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٥هـ.
- **مباحث في علوم القرآن**، مناع خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- **مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، عبد الحميد محمد بن باديس، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **مجلة الأدب الإسلامي**، ١٨/٠٨/٢٠٠٣م.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ.
- **مجمل اللغة**، أبو الحسين أحمد بن فارس، ت: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- **مجموع فتاوى ابن تيمية**، جمع عبد الرحمٰن ابن قاسم النجدي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ.
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **مختصر الصواعق المرسلة**، لابن القيم، شمس الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي ابن الموصلي، ت: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **مداخل إعجاز القرآن**، أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بمصر، دار المدني بجدة.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.
- **مدخلٌ إلى كتبَي عبد القاهر الجرجاني**، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ.
- **مذاهب التفسير الإسلامي**، جنتس جولد تسهير، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٣٧٤هـ.
- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ت: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، ت: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
- **مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل الدارمي، ت: حسين سليم أسد، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **مشاهير علماء نجد وغيرهم**، عبد الرحمٰن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دار اليمامة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ.
- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **المصنف**، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: حبيب الرحمٰن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند.
- **معالم التنزيل**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد النمر وعثمان ضميرية وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، الإصدار الثاني، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **معاني القرآن وإعرابه**، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **المعجزة الكبرى القرآن**، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي.
- **معجم الأدباء**، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **معجم الشعراء**، محمد بن عمران المرزباني، مكتبة القدسي ـ دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ت: بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، ت: حمد عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- المعمرون والوصايا، أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: صفوان داوودي، دار القلم ـ الدار الشامية، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- مفردات القرآن ـ نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، عبد الحميد الفراهي الهندي ت: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف أحمد محمد البدوي، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **ملامح أسلوبية في دلائل الإعجاز**، محمد الواسطي، بحث منشور ضمن مجلة جذور ج٦، مج ٣، رجب ١٤٢٢هـ.
- **منار الهدى في بيان الوقف والابتداء**، أحمد بن عبد الكريم بن محمد الأشموني، ت: شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة.
- **منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب**، لعبد العزيز بن حمد آل معمر، شركة فن الطباعة، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ.
- **المنهاج القرآني في التشريع**، عبد الستار فتح الله سعيد، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- **منهج القرآن في مخاطبة الإنسان بالعقل والعاطفة**، إبراهيم محمد آل جار الله، أطروحة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٤هـ.
- **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، ت: مشهور حسن سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور**، حكمت بن بشير ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **موسوعة المستشرقين**، عبد الرحمٰن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.
- **موضح أوهام الجمع والتفريق**، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ت: عبد المعطي قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات**، أحمد بن محمد الشرقاوي، بحث محكم بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، ١٤٢٥هـ.
- **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**، محمد عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ.
- **النبوات**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت: عبد العزيز ابن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- **النشر في القراءات العشر**، أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري، ت: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.
- **نظرات في القرآن الكريم**، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- **نقد الشعر**، أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.
- **النكت في إعجاز القرآن**، علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد أحمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الرابعة.
- **النكت والعيون**، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الشهير بالماوردي، ت: السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، ت: نصر الله أوغلي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعدد من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

❊ ❊ ❊

فِهرِسُ المَوْضُوعَات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
المقدمة	٩
أسباب اختيار الموضوع	١٤
أهداف البحث	١٤
الدراسات السابقة	١٥
خطة البحث	١٧
منهج البحث	٢٠
شكر وتقدير	٢٣
تمهيد	٢٥
المبحث الأول: تعريف خصائص الأسلوب القرآني	٢٧
المبحث الثاني: فوائد دراسة خصائص الأسلوب القرآني	٣٠
الفصل الأول: إعجاز القرآن	٣٩
المبحث الأول: عجز الخلائق عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه	٤١
المبحث الثاني: إعجاز القرآن في الحروف المقطعة	٥٥
الجهة الأولى: الدلالة على الإعجاز من حيث موقع الحروف المقطعة المذكورة من سائر حروف المعجم وأوجه تركيب الكلام منها	٥٧
الجهة الثانية: الدلالة على الإعجاز من حيث علاقة الحروف المقطعة بالسور التي وردت فيها	٥٩
الجهة الثالثة: الدلالة على الإعجاز من حيث دلالة الحروف المقطعة على تحدي المخاطبين	٦٣

الموضوع | الصفحة

المبحث الثالث: مباينة القرآن لأساليب العرب ٦٥
أولًا: الروع الذي أخذ النبي ﷺ وقت نزول القرآن عليه ٦٦
ثانيًا: خلو الأسلوب القرآني من الطبع الإنساني المقترن بأساليب العرب ٦٧
ثالثًا: البلاغة المختصة بالقرآن ٦٨
المبحث الرابع: علو فصاحة القرآن ٧٣
أولًا: التعبير باللفظ تعبيرًا خاصًا بأسلوب القرآن ٧٧
ثانيًا: التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من عبارة ٨٠
المبحث الخامس: حسن تأليف القرآن ٨٣
أولًا: الروابط والعلاقات بين الجمل ٨٤
ثانيًا: وفرة الإفادة وتعدد الدلالة ٨٨
الفصل الثاني: تناسب القرآن وائتلافه ٩٣
المبحث الأول: تناسب ألفاظ القرآن ومعانيه ٩٥
أولًا: تناسب الحروف في الكلمة ٩٩
ثانيًا: التناسب في تضعيف الكلمة أو الزيادة فيها ١٠١
ثالثًا: التناسب في التعبير بالاسم أو الفعل ١٠٣
رابعًا: التناسب في تعدية الفعل ١٠٦
المبحث الثاني: التناسب بين السورة والسورة ١٠٩
أولًا: التناسب العام في ترتيب سور القرآن ١٠٩
ثانيًا: تعدد المناسبات بين السور ١١٠
ثالثًا: حصول التناسب مع تباعد النزول بين السور واختلاف مكان النزول ١١٤
رابعًا: التناسب في مقاصد السور ١١٨
خامسًا: ترابط أوائل سور القرآن بأواخره ١٢١
المبحث الثالث: التناسب في السورة الواحدة ١٢٤
أولًا: قوة الروابط في السورة الواحدة وتعددها ١٢٥
ثانيًا: التناسب في الآية الواحدة ١٢٨

الموضوع — الصفحة

ثالثًا: التناسب في ترتيب الآيات مع تباعد وقت النزول ١٣٢
رابعًا: تميّز كل سورة بسمة خاصة ١٣٥
الفصل الثالث: **تصريف القول في القرآن** ١٣٩
تمهيد ١٤١
المبحث الأول: **تصريف القول في الألفاظ والمعاني** ١٤٥
أولًا: تصرف اللفظ في بنائه ١٤٦
التصرف في اللفظ بالتعريف والتنكير ١٤٦
التصرف في اللفظ بالزيادة والحذف ١٤٨
تصرف اللفظ بالإفراد والجمع ١٤٨
تصرف اللفظ على أكثر من وجه ١٤٩
ثانيًا: تصرف اللفظ في معناه ١٥١
المبحث الثاني: **تصريف القول في فواتح السور وخواتمها** ١٥٤
المطلب الأول: التصريف في فواتح السور ١٥٤
أولًا: التفنن في الأساليب ١٥٥
ثانيًا: اختصاص كل نوع بخصائص مشتركة ١٥٧
ثالثًا: تصرف مطلع كل سورة حسب الملابسات التي نزلت بها السورة ١٦٠
المطلب الثاني: التصريف في خواتم السور ١٦٢
أولًا: التفنن والتنوع ١٦٢
ثانيًا: موافقة خواتم السور لفواتحها ١٦٤
ثالثًا: اشتمال خواتم السور على الوصايا الجامعة والمقاصد العامة .. ١٦٥
المبحث الثالث: **تصريف القول في تذييل الآيات** ١٦٧
أولًا: تذييل الآيات جاء مصرفًا على أنواع ١٦٨
ثانيًا: التصريف في تذييل الآيات من جهة النظم والتركيب ١٧٠
ثالثًا: التصريف في تذييل الآيات من جهة المضمون ١٧٤
تقوية المعنى ١٧٤

الموضوع | الصفحة

حسن التعليل ١٧٥
الاستدلال على الأحكام ١٧٦
تضمنها لقواعد عامة وأصول راسخة ١٧٧
المبحث الرابع: تصريف القول في تقرير العقيدة ١٨٠
المطلب الأول: تصريف القول في طرق الاستدلال على توحيد الله ١٨٢
أولًا: التقرير ١٨٣
ثانيًا: الدعوة إلى النظر والاعتبار ١٨٤
ثالثًا: المجادلة بالحجج العقلية ١٨٦
المطلب الثاني: تصريف القول في بيان أثر التوحيد ومنزلته ١٨٩
أولًا: بيان أثر العقيدة على الأعمال والسلوك ١٨٩
ثانيًا: ربط الانحرافات العقدية بمسبباتها لمعالجتها والتخلص منها .. ١٩١
ثالثًا: تمكين الله لدينه ولأهل التوحيد وحفظه لهم ١٩١
المطلب الثالث: تصريف القول في تلازم مسائل التوحيد ١٩٣
أولًا: التلازم بين مسائل التوحيد ١٩٣
ثانيًا: التلازم بين حصول أثر التوحيد وثمرته ١٩٦
المبحث الخامس: تصريف القول في تقرير الأحكام ١٩٨
المطلب الأول: تصريف الآيات في عرض الأحكام وتقريرها ٢٠١
أولًا: تصرف الآيات بالتدرج في تقرير الأحكام ٢٠١
ثانيًا: التصريف بين النسخ والإحكام ٢٠٤
ثالثًا: تصريف الآيات بين العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ٢٠٦
المطلب الثاني: تصريف الآيات في أساليب عرض الأحكام ٢٠٩
أولًا: أسلوب القصة ٢١٠
ثانيًا: أسلوب المثل ٢١٢
ثالثًا: أسلوب السؤال والجواب ٢١٤
رابعًا: تعليل الأحكام ٢١٥

الموضوع	الصفحة
المطلب الثالث: تصريف الآيات في الصيغ الدالة على الحكم	٢١٨
أولًا: تصرفه في إيراد الحكم بصيغة الإنشاء وبصيغة الخبر	٢١٨
ثانيًا: تعدد الألفاظ الخبرية وتنوعها الدالة على الفعل أو الترك	٢١٩
ثالثًا: وصف الفعل بما يدل على حسنه أو وصفه بما يدل على قبحه	٢١٩
المبحث السادس: **تصريف القول في الترغيب والترهيب**	٢٢٠
أولًا: الترغيب بالحياة الطيّبة للمؤمنين، والترهيب بخلافها للمعرضين ...	٢٢١
ثانيًا: ترغيب المؤمنين في الآخرة بالنجاة والفوز وترهيب المشركين بالهلاك والعذاب	٢٢٤
ثالثًا: الوعد بالنجاة في يوم القيامة وعرصاتها للمؤمنين، وإيعاد الكافرين بالعذاب ومعاينته	٢٢٦
رابعًا: الوعد بدخول الجنة للمؤمنين، ودخول النار للكافرين	٢٢٨
المبحث السابع: **تصريف القول في إيراد القصص**	٢٣٦
المطلب الأول: التصريف في نظم القصص	٢٤٠
المطلب الثاني: تصريف القول في تنوع القصص	٢٤٤
المطلب الثالث: تصريف القول في الغرض من إيراد القصص	٢٤٨
أولًا: التفكّر	٢٤٨
ثانيًا: التذكير	٢٤٩
ثالثًا: الاهتداء والاقتداء	٢٥٠
رابعًا: تثبيت النبي ﷺ وتسليته	٢٥٠
المبحث الثامن: **تصريف القول في إيراد الأمثال**	٢٥٢
المطلب الأول: تصريف القول في أساليب ضرب الأمثال	٢٥٥
أولًا: دوَران المثل بين التصريح به وتضمينه	٢٥٥
ثانيًا: دوران المثل والممثل به بين الإفراد والتركيب	٢٥٦
ثالثًا: التنوع في الممثل به تنوعًا يوحي بالثراء والتفنن ودقة القياس وصحته	٢٥٧
المطلب الثاني: تصريف القول في الغرض من ضرب الأمثال	٢٥٩

الموضوع | الصفحة

أولًا: تصرف الأمثال ببيان أسباب الهداية والضلال ٢٦٠
ثانيًا: تصرف الأمثال في الغايات التي ضرب من أجلها ٢٦٢
الفصل الرابع: بيان القرآن ٢٦٥
تمهيد ٢٦٧
المبحث الأول: وضوح القرآن ٢٧٠
أولًا: وضوح الألفاظ والمعاني ٢٧١
ثانيًا: وضوح الحجج والدلالات ٢٧٢
ثالثًا: وضوح الأحكام ٢٧٥
المبحث الثاني: دقة تعبير القرآن ٢٧٨
أولًا: دقة الألفاظ ٢٧٨
ثانيًا: الدقة في التركيب ٢٨٠
المبحث الثالث: جمع القرآن بين الإجمال والبيان ٢٨٣
أولًا: التعبير بالألفاظ الجامعة التي تتضمن الأصول ٢٨٧
ثانيًا: التعبير بالكلمات الجامعة لمعانٍ متعددة ٢٩٠
ثالثًا: إطلاق اللفظ مجملًا لتذهب النفس في تحديد المراد كل مذهب يصلح له ٢٩١
رابعًا: إطلاق اللفظ مجملًا مع ذكر ما يبيّنه أو يعيّنه ٢٩٢
الفصل الخامس: ثراء معاني القرآن ٢٩٥
تمهيد ٢٩٧
المبحث الأول: احتمال اللفظ لأكثر من معنى ٣٠١
أولًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى بسبب رجوعه إلى أصل واحد ٣٠٢
ثانيًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى بسبب التعبير بلفظ جامع ٣٠٢
ثالثًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى بسبب الاشتراك ٣٠٥
رابعًا: احتمال اللفظ لأكثر من معنى حسب تنوّع وروده ٣٠٦
المبحث الثاني: احتمال السياق لأكثر من معنى ٣٠٨

الموضوع | الصفحة

أولًا: ارتباط السياق القرآني بعدة روابط كالسباق واللحاق ومقصد الكلام ٣١٠
ثانيًا: **أن يحتمل السياق المعنى على وجه المشابهة** ٣١١
ثالثًا: أن يحتمل السياق أكثر من معنى بحسب الجهة المتعلقة به ٣١٣
رابعًا: أن يكون المراد من الآية معنى من المعاني، ويأتي السياق ليوسّع دلالة هذا المعنى وغرضه ٣١٤
خامسًا: أن يجيء في سياق الكلام التعقيب بحكم عام على حادثة أو حكم خاص يجعل معنى السياق محتملًا لأكثر من معنى ٣١٥
سادسًا: أن يدمج في سياق الآية معنى غير المعنى الظاهر من الآية يحتمله النظم والسياق وهو ما يعبّر عنه بالإدماج ٣١٧
المبحث الثالث: **تعدد المعنى بتعدد القراءات** ٣١٨
أولًا: تعدد الأساليب في الدلالة على أمر واحد ٣٢١
ثانيًا: إفادة تعدد الأحداث وتنوعها بتعدد القراءة ٣٢٣
ثالثًا: تبيين القراءات بعضها لبعض ٣٢٤
المبحث الرابع: **تعدد المعنى بحسب الوقوف** ٣٢٩
أولًا: تعدد معنى الجملة أو المفردة القرآنية بحسب الوقوف ٣٣١
ثانيًا: تعدد أغراض الكلام ومقاصده بحسب الوقوف ٣٣٢
ثالثًا: تعدد المعنى من جهة تعلق الضمير عند الوقف ٣٣٣
رابعًا: تعدد المعنى بين الاتصال والانفصال حسب كل وقف ٣٣٤
المبحث الخامس: **التكرار** ٣٣٨
المبحث السادس: **الترادف** ٣٤٥
أولًا: أن يحصل باجتماع المترادفيْن في الآية معنىً لا يحصل بانفراد أحدهما ٣٤٧
ثانيًا: تعدد اللفظ في الإخبار عن الشيء الواحد ٣٤٩
ثالثًا: ثراء المعاني الدلالية التي يختص بها كل لفظ ٣٥٠
رابعًا: الثراء الحاصل فيما بين اللفظين من العموم والخصوص ٣٥٢

الموضوع | الصفحة

المبحث السابع: الإيجاز والإطناب ٣٥٦
المطلب الأول: الإيجاز ٣٥٨
أولًا: الإيجاز بطي جزء من الكلام اكتفاء بما يدلّ عليه ٣٥٨
ثانيًا: الإيجاز بالتقديم والتأخير وترتيب الكلام ٣٦٠
المطلب الثاني: الإطناب ٣٦٢
أولًا: الإطناب بقصد تفصيل الأخبار وبسط المعاني ٣٦٢
ثانيًا: الإطناب بذكر الشيء، والتصريح بذكر مفهومه، لما فيه من زيادة في المعنى ٣٦٤
المطلب الثالث: الجمع بين الإيجاز والإطناب في سياق واحد ٣٦٦
أولًا: أن يذكر القرآن معنى من المعاني على سبيل الإطناب ثم يذكره موجزًا في ذات السياق ٣٦٦
ثانيًا: أن يقرن أسلوب القرآن بين أمرين فيوجِز في أحدهما ويُطنِب في الآخر ٣٦٨
المبحث الثامن: تجدد معاني القرآن ٣٧٠
أولًا: أنه نزل بلسان عربي ٣٧٦
ثانيًا: التعقيب بعد هذه القصص والأمثال في الأسلوب القرآني بتجديد التأمل وإعادة والنظر وإعمال الفكر ٣٧٧
ثالثًا: ما اتسم به الأسلوب القرآني من العموم الذي جعله يتناول العموم في الأفراد والأزمان والأقطار، وما في جمله وألفاظه من قيود صالحة كذلك لأن تكون متعلقة بأكثر من جهة، فينتج عن ذلك تعدد المعاني ٣٨٠
رابعًا: أن أسلوب القرآن نزل بأسلوب خاطب فيه العصور بما يفهمون مع احتوائه على فكر القرون المتطاولة حتى آخر الزمان ٣٨٢
خامسًا: أن أسلوب القرآن بما اختصَّ به من دقة وجودة في التناسب والسبك مع تفاوت أحوال وأوقات النزول، هو يسمح بجمع نصين أو أكثر من نصوصه التي ينتج عنها معنًى جديدًا، وذلك أعظم برهان في تصديق القرآن بعضه لبعض ٣٨٤

الموضوع **الصفحة**

سادسًا: ما تضمنه الأسلوب القرآني من دلالات إضافية مما يفهم من إشارات الآية وفحوى الخطاب وعادات القرآن ٣٨٤

الفصل السادس: تأثير القرآن ٣٨٩

تمهيد ٣٩١

المبحث الأول: جلال القرآن وروعته ٣٩٦

أولًا: ما كان يعالجه ﷺ من أحوال التنزيل ٣٩٧

ثانيًا: أنه جمع العرب والعجم قاطبة على هذا اللسان ٤٠٠

ثالثًا: احتفاء الملائكة واحتفالها بتلاوة القرآن إجلالًا وتعظيمًا ٤٠١

رابعًا: تأثر الجن الذين سمعوا القرآن ٤٠٢

خامسًا: ما بلغ من تأثر الأعاجم الذين لا يعرفون اللسان، ولا يفهمون القرآن ٤٠٣

سادسًا: أن القارئ للقرآن لا يزال جلال القرآن وروعته يزيدان لديه ويشعر بهما في قلبه كلما تلا القرآن ٤٠٤

المبحث الثاني: سمو القرآن ورفعته ٤٠٦

أولًا: رفع ذكر القرآن وبيان علو منزلته ٤٠٨

ثانيًا: منة الله على رسوله ﷺ وأمته بهذا الشرف العظيم، وأن تأثرهم بهذا الكتاب يكسبهم السمو والرفعة ٤٠٩

ثالثًا: كثرة ورود أسماء الله وصفاته وبيان كمال قدرته وعظمته في أسلوب القرآن ٤١٠

رابعًا: سموّ نظمه وألفاظه ٤١١

القسم الأول: سموٌّ عن الألفاظ المبتذلة وما لا يستحسن ذكره ٤١٢

القسم الثاني: السمو بالألفاظ إلى المراتب العالية والمقاصد الشريفة ... ٤١٦

المبحث الثالث: جمال القرآن ٤١٩

القسم الأول: الجمال اللغوي، وهو يتضمن: ٤٢١

أولًا: الجمال في طريقة تأليفه ٤٢١

ثانيًا: جمال اللفظ والمعنى ٤٢٢

الموضوع | الصفحة

ثالثًا: الألفاظ القرآنية التي تحمل قيمًا جمالية في أصلها ٤٢٥
رابعًا: جمال التراكيب ٤٢٥
خامسًا: جمال التخلص من معنى إلى معنى ٤٢٧
القسم الثاني: الجمال الصوتي ٤٢٩
أولًا: تناسب التراكيب الصوتية ٤٣٠
ثانيًا: الترتيل ومناسبته لأسلوب القرآن ٤٣٦
المبحث الرابع: واقعية القرآن ٤٣٨
أولًا: التدرج في النزول وطريقة الخطاب ٤٤٠
ثانيًا: الواقعية في عرض الشرائع وتقريرها ٤٤٤
ثالثًا: الواقعية في طريقة الاستدلال وعرضه ٤٤٥
رابعًا: مراعاة التناسب في الخطاب بما يناسب تنوع المكلفين وطاقاتهم ٤٤٦
المبحث الخامس: صدق القرآن ٤٤٩
أولًا: تقرير صدق القرآن وأنه حق لا ريب فيه ٤٥٠
ثانيًا: إخبار القرآن عن الكفار بأحوال وأقوال ستقع منهم، لا يستطيعون دفعها ومخالفتها ٤٥٢
ثالثًا: تنوع أسلوب العرض في القصة الواحدة، دون تناقض أو اختلاف ٤٥٤
رابعًا: عدم تطرق التناقض والاختلاف إليه على اتساع أسلوبه وتفرق نزوله ٤٥٥
خامسًا: التعقيب بعد ذكر الأخبار والقصص بنفي علم النبي ﷺ بها قبل نزول القرآن ٤٥٦
المبحث السادس: قوة حجة القرآن وإقناعه ٤٥٨
أولًا: إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة ٤٦٠
ثانيًا: تضمن الأدلة والحجج القرآنية لصور متعددة من صور الإقناع ٤٦١
ثالثًا: الإعراض عن الحجج التي بُنيت بغير علم أو المجادلة بعد ظهور الحق ٤٦٣
رابعًا: مطالبة المعارض بالدليل دون الانشغال باعتراضه ٤٦٥

الموضوع | الصفحة

خامسًا: الاحتجاج على المعارض وإلزامه بحجته التي ساقها ٤٦٨

الفصل السابع: شمول خطاب القرآن ٤٧٣

تمهيد ٤٧٥

المبحث الأول: خطاب القرآن العقل والعاطفة ٤٧٧

أولًا: إقناع العقل وإمتاع العاطفة ٤٧٨

ثانيًا: إعمال العقل وتوجيه العاطفة ٤٨٣

المبحث الثاني: خطاب القرآن العامة والخاصة ٤٩٠

أولًا: أنه لا يعلو على أفهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة ٤٩١

ثانيًا: أن نداءاته شملت جميع المخاطبين به ٤٩٤

المبحث الثالث: خطاب القرآن الحس والوجدان ٤٩٩

الفصل الثامن: في الشبهات المثارة حول خصائص أسلوب القرآن ٥٠٧

تمهيد ٥٠٩

المبحث الأول: فيمن زعم أن أسلوب القرآن غير معجز ٥١٤

المبحث الثاني: فيمن زعم أن القرآن أسلوب محمد ﷺ وتميزه راجع إلى تفوقه في البلاغة ٥٢٢

المبحث الثالث: فيمن زعم أن أسلوب القرآن قد حوى ألفاظًا مبتذلة ٥٣٠

المبحث الرابع: في من ادَّعى سوء التأليف وعدم الترابط في أسلوب القرآن ٥٣٧

الخاتمة ٥٤٥

الفهارس ٥٥١

ثبت المصادر والمراجع ٥٥٣

فهرس الموضوعات ٥٧٧

* * *